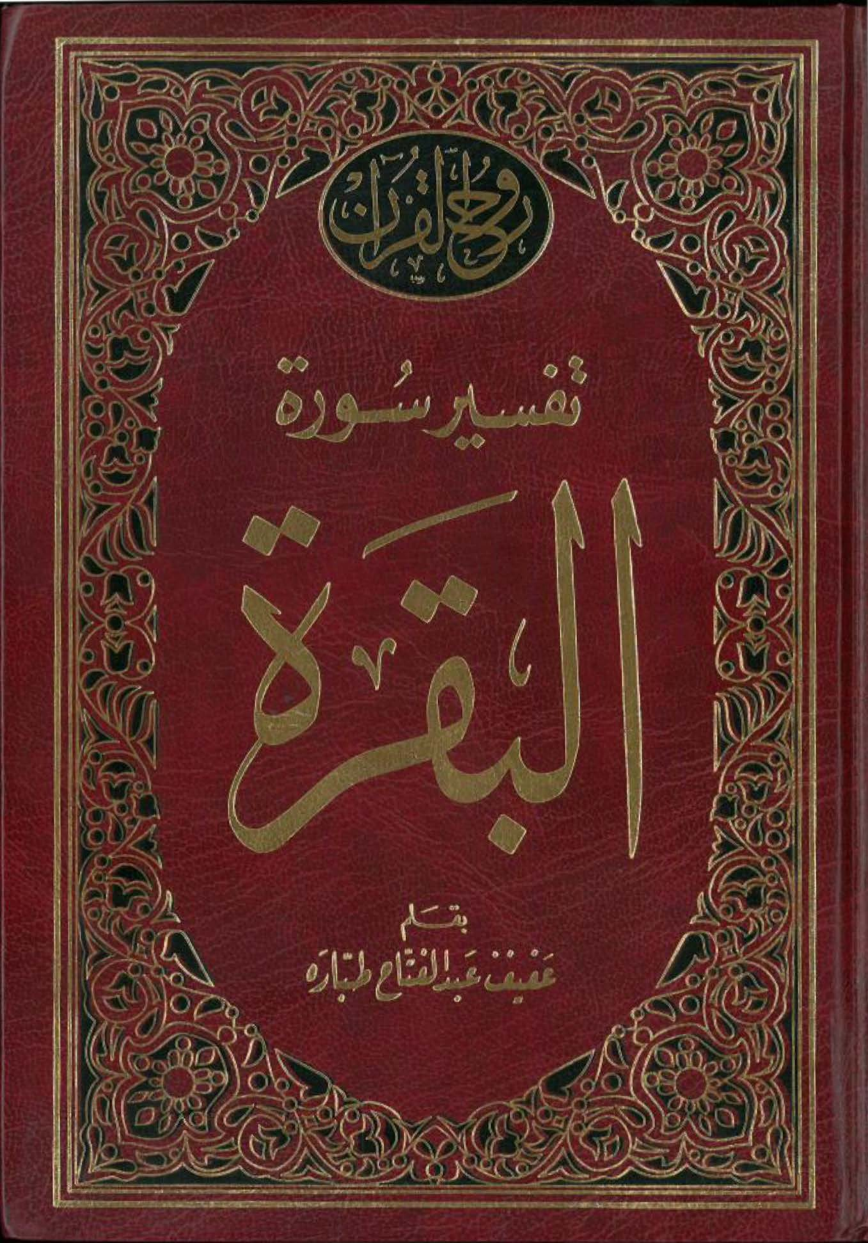

روح القرآن
تفسير سورة
البقرة
بقلم
عفيف عبد الفتاح طبارة



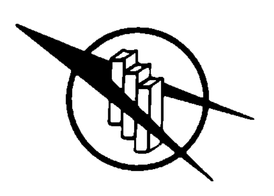


بقلم
عفيف عبد الفتّاح طبّاره

دار العلم للملايين

مؤسسة ثقافية للتأليف والترجمة والنشر

شارع مار الياس، بناية متكو، الطابق الثاني
هاتف: ٣٠٦٦٦٦ - ٧٠١٦٥٥ - ٧٠١٦٥٦(٠١)
فاكس: ٧٠١٦٥٧(٠١)
ص.ب ١٠٨٥ بيروت - لبنان
www.malayin.com



الموزعون الوحيدون لجميع أقطار العالم
دار العلم للملايين

الطبعة الأولى

أيلول / سبتمبر ٢٠٠٧

تنضيد واخراج: **المجموعة الطباعية**
هاتف: ٠١/٨٢٤٢٠٣ - ٠١/٨٢٣٧٢٠
بيروت - لبنان



للعلاّمة فضيلة القاضي الشيخ حسين غزال

الحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا محمد سيد المرسلين الذي أرسله الله رحمة للعالمين وبعد.

هذه السورة (البقرة) أطول سورة في القرآن وقد أخرج الترمذي عن النبي ﷺ قوله: «لكل شيء سنام وإن سنام القرآن سورة البقرة. . .» وذلك أخذاً من سنام الجمل الذي هو أعلى موقع فيه. وتُسمى السورة عادةً باسم شيء يُذكر فيها وقد سُمّيت سورتنا هذه (البقرة) لاشتمالها على قصة أشار إليها المؤلف في مقدمته.

ولا ريب أن هذه السورة فائقة الأهميّة لاشتمالها على أمورٍ تَهُمُّ كل مسلم، منها: ما يتعلق بالعقيدة من الإيمان بالغيب وتقسيم الناس بين مؤمن وكافر ومنافق. ومنها: ما يتعلق بالجانب التشريعي. ومنها: ما يتعلق بالمعاملات بين الناس، وهي في كلّ ذلك تتناول الأمور بشكل يعتمد المعالجة الموضوعية.

ففي جانب العقيدة يخاطب الله البشرية طالباً منهم العودة إلى الإيمان والرجوع إلى الفطرة بعبادة ٱللَّه وحده فيخاطبهم بهذا الأسلوب الهادئ المتّزن،

يخاطب العقل والفكر والوجدان، تأمل الآية: ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُم الَّذِي خَلَقَكُم والَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُم لَعَلَّكُم تَتَّقُونَ. الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشاً والسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَراتِ رِزْقاً لَكُم فَلاَ تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْداداً وأَنْتُم تَعْلَمُونَ﴾.

ثم يخاطب الله الذين لا يستجيبون لنداء الحق خطاب إفحام مبني على الحجة الدامغة فيقول: ﴿وَإِنْ كُنْتُم فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُم صَادِقِينَ. فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ..﴾ فهذا هو التحدّي حيث يطلب منهم أن يأتوا بسورة من مثل هذا القرآن، وتأمل التحدي الصارخ ﴿وَلَنْ تَفْعَلُوا﴾ أنظر كيف أغلق بوجههم الباب، أي حتماً لن تستطيعوا فِعْلَ ذَلِكَ، وهذا يعني أن هَذَا القرآنَ ليس بكلام بشر بل هو من عند الله ولذا لا تستطيعون أن تأتوا بمثله، إذاً لماذا المكابرة عُودوا إلى الإيمان بالله وإلاّ.. ﴿فَاتَّقُوا النَّارَ﴾ أية نار؟ إنها ليست ناراً وقودها الخشب والحطب بل إنها نار وقودها أنتم الذين كفرتم وعاندتم كما قال الله تعالى في تتمة الآية السابقة: ﴿الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ والحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلكَافِرِينَ﴾.

وفي جانب العبادات تشريع الصلاة والصوم والحج. وفي جانب الأحوال الشخصية تشريع الزواج ذلك الرباط المقدس وما حوى من دعوة كريمة إلى الاستجابة لما يمليه العقل والشعور والإحساس والعاطفة، ثم تشريع الطلاق وما يترتب عليه من حقوق وواجبات وأحكام مادية ومعنوية، ولا تنسى الآيات في أدق المواقف أن تشير إلى مراعاة حقوق المرأة وعدم الإضرار بها، يقول الله تعالى: ﴿وَلا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَاراً لِتَعْتَدُوا﴾.

وفي سورة البقرة أعظم آية هي آية الكرسيّ: ﴿اللَّهُ لاَ إِلهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ..﴾ وقد رُوِيَ عن رسول الله ﷺ بأنها سيدة آي القرآن.

ولا بد من الإشارة إلى أن عبارة «الكاتب العدل» التي تملأ الشوارع ربما لا يعرف الكثير من الناس أنها مأخوذة من النص القرآني في أطول آية في معرض كتابة الدَّيْن ﴿وَلْيَكْتُب بَيْنَكُم كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ﴾ وتظل هذه الكلمة «الكاتب العدل» رمزاً مدوياً واعترافاً صارخاً بأن القرآن الكريم هو من أطلق هذا العنوان منذ أكثر من أربعة عشر قرناً مع الإشارة إلى أن التعبير القرآني ﴿كَاتِبٌ بالعَدْلِ﴾ أبلغ من «الكاتب العدل» لأن الباء في العدل تجعل العدالة متجهة إلى مضمون الكتابة لا إلى الكاتب.

وأخيراً وليس آخراً لا ننسى أروع آية في مناجاة الخالق حيث يعلّمنا ربنا أدب المخاطبة والتوجه إليه بنداء خفيّ فيقول: ﴿رَبَّنَا لا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا ولا تَحْمِلْ عَلَينا إصْراً كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِين مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا ولا تُحَمِّلْنَا مَا لاَ طَاقَةَ لَنَا بِهِ..﴾ وتأمل الخاتمة ﴿وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا..﴾ وقد أخرج الإمام أحمد عن أبي ذر قال: قال رسول الله ﷺ: «أعطيتُ خواتيم سورة البقرة من كنز تحت العرش لم يُعْطَهُنّ نبيّ قبلي» كما روى ابن عباس عن رسول الله ﷺ أن العبد إذا قرأ تلك الآيات: «قال الله: قد فعلت»[1] أي قد عفوتُ وغفرتُ ورحمتُ.

وفي الختام لا بد أن ننوّه بأسلوب صديقنا الأستاذ عفيف طبارة الذي اعتمده في التفسير حيث يتوخّى الجزالة في اللفظ، والسهولة في العبارة والإيجاز الذي لا يُخِلُّ بجوهر المعنى، وعدم التطويل المملّ آخذاً بعين الاعتبار أن القارئ في هذه الأيام ليس لديه الوقت ليستغرق في شروحات جانبية، وحَسْبُهُ أن يأخذ من المعاني ما يوفي بالغرض.

---

(١) أخرجه مسلم.

وهناك جانب مدهش لا يعيره الكثيرون انتباههم عنيت به جانب الطباعة فقد أولى المؤلف هذه الناحية اهتماماً خاصاً حيث كان يشرف على الطباعة بنفسه مراعياً الفسحة بين الكلمات والانفراج بين السطور فيُسَرّح القارئ النظر بين أزهار الكلمات في قِطَع من رياض المعاني، وعندها يشعر القارئ بمتعتين: متعة النظر المريحة ومتعة المعاني الرائعة البديعة.

وفي الختام نسأل الله سبحانه أن يوفق المؤلف إلى إتمام مهمته التي أوشكت على النهاية في إكمال تفسير القرآن ليحظى القارئ بهذه الثروة من التفسير الرائع البديع.

جعل الله خير أعمالنا خواتمها، وخير أيامنا يوم أن نلقاك يا أرحم الراحمين، والحمد لله رب العالمين.

تعريف بهذه السورة

سُمّيت هذه السورة بسورة البقرة لأنها أوردت قصة عنها حيث طلب الله من بني اسرائيل على لسان موسى عليه السلام أن يذبحوا بقرة، قال ٱللّه تعالى: ﴿إِنَّ الله يأمُرُكم أن تَذْبَحوا بَقَرَةً﴾ ذلك بعد أن قُتِلَ فيهم قتيل ولم يعرفوا قاتله، فأمرهم الله أن يضربوا الميت بجزء منها فيحيا ويخبرهم من هو القاتل، ثم يموت ثانية فيكون هذا العمل معجزة من عند الله وبرهاناً على قدرته.

وهذه السورة هي أطول سورة في القرآن مدوّنة على ثمان وأربعين صفحة وتبلغ آياتها ستًّا وثمانين ومائتي آية، كما أنها سورة مدنية أي نزلت بالمدينة المنورة بعد هجرة النبي محمد ﷺ من مكة، وهي تُعنى بالتشريع العام لحياة المسلمين سواء منه ما يتعلق بالدِّين أو بالأمور الدنيوية لأنهما في نظر الإسلام مترابطان لا ينفصل أحدهما عن الآخر.

وقد اشتملت هذه السورة على كثير من المواضيع سأقتصر على ذكر بعضها:

- التنويه بشأن القرآن بأنه هداية للناس ومتحدٍّ في الوقت نفسه جميع الناس بأن يأتوا بسُورة من مثل سُوَرِهِ إذا كانوا يرتابون بأنه ليس من كلام الله، وتقرير بعجز الناس عن الإتيان بمثله، وإلى الآن لم يأتِ أحد بمثل هذا القرآن أو بسورة من مثله، وهذا دليل على أن القرآن وحي إلهي وليس من كلام البشر.

- الكلام المستفيض عن المنافقين الذين كانوا بمثابة طابور خامس ابتليت بهم الأمة وهم الفريق الذي يمعن في الأرض فساداً، وقد تحدّثت هذه السورة عنهم في ثلاث عشرة آية حيث كشفت عن خداعهم ومؤامراتهم على الإسلام وذكرت مرض قلوبهم ليكون المسلمون على بينة من أمرهم نحوهم والحذر منهم.
- بيان الدلائل الكونية على وجود الله ووحدانيته في خلق السموات والأرض وقدرته سبحانه على البعث والدعوة إلى عبادته وحده وعدم الإشراك به.
- بيان فضل الله على البشرية حيث جعل أباهم آدم خليفة في الأرض ليعبدوا ٱللَّه وليعمروا الأرض ويقيموا فيها ميزان العدالة، وبيان ما كان من الملائكة بشأنه، وكذلك بيان سكن آدم وزوجه في الجنة ثم إخراج الله لهما منها بسبب عصيانهما أوامره بأكلهما من الشجرة التي نهاهم الله عن الأكل منها، وإهباطهما إلى الأرض، وإن إقامة الإنسان في الأرض غير دائم أبداً كما قال الله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلى حِينٍ﴾.
- الكلام المستفيض على بني إسرائيل في كثير من الآيات حيث كانوا جيراناً للمسلمين في المدينة المنورة، فيذكّرهم الله بنعمة تفضيله لهم على عالم زمانهم وبنعمة إنجاء آبائهم من ظلم فرعون، وما أعقب ذلك من الانتقام منه وإهلاكه. ثم تذكيرهم بنعمة تظليلهم بالغمام في صحراء سيناء المُحرقة وإنزال المنّ والسلوى عليهم غذاء لهم، وبتفجير الماء لكل سبط من أسباطهم الأثني عشر لإرواء عطشهم ولكن بالرغم من هذه النعم التي أنعمها عليهم كفروا بِنِعَم الله ونقضوا العهود والمواثيق فاستحقوا غضب الله. كما تتحدّث السورة عن مزاعم بني إسرائيل الباطلة كزعمهم أن الجنة خالصة لهم من دون الناس، وسوء أدبهم مع الله حيث طلبوا رؤيته، واشتغالهم بالسحر للإضرار بالناس.

- اختبار الناس بتحويل القبلة في الصلاة من بيت المقدس إلى الكعبة بمكة وما أثير حولها من أقاويل، وبيان أن البر ليس بالتوجه إلى جهة معينة ولكن البر هو الإتيان بفضائل الأعمال والقيام بواجب العبادات نحو الخالق وقد جاء ذلك في آية البِرّ وهي من أبلغ آيات القرآن التي تبيّن جوهر الدين وحقيقته: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧].
- أوضحت السورة أصول التشريع في نطاق العبادات من الدعوة إلى المحافظة على الصلوات، وبيان عبادة الصوم التي بها طهارة القلوب وبيان بعض أحكام الحج والدعوة إلى بَذْلِ الصدقات على المحتاجين وعدم إبطال ثوابها بالمنّ والأذى لهم.
- حرية التدين ومنع إكراه أحد على الدخول في الإسلام وهو بهذا سبق المدنية الحديثة بقرون في هذا المنحى مما يسجل للإسلام سبقاً في الدعوة إلى حرية المعتقد.
- الاهتمام بالأسرة ففي السورة دعوة إلى الوصية للوالدين والأقربين، ومعاملة اليتامى بالحسنى ومخالطتهم في المعيشة وإصلاح أموالهم وأحوالهم وتنظيم شؤون الأسرة في الزواج والطلاق والعدّة.
- تحريم الخمر والقمار والربا وبيان إثمها والأضرار المترتبة عليها ومدى آثارها السيئة على الأمة.
- إباحة الأكل من جميع الطيبات وتحريم المآكل التي فيها الضرر للإنسان مع تعداد هذه المآكل المحرَّمة وإباحة الأكل منها عند الضرورة الشديدة التي تؤدي إلى الهلاك.

- أحكام القصاص في القتلى القائمة على مساواة العقوبة بالجرم مما يردع المجرمين.
- تحريم أكل أموال الناس بالباطل والإدلاء بها إلى الحكام للاستعانة بهم ـ عن طريق الرشوة ـ على أكل أموال الغير ظلماً وعدواناً.
- الكلام عن الجهاد في سبيل الله وإن القتال هو لردّ الاعتداء لا للاعتداء على الناس بل لمنع الفتنة في الدين من اضطهاد المسلمين وإخراجهم من ديارهم ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾.
- دعوة المؤمنين للإنفاق في سبيل الله لأنه العدّة لحفظ كيان الأمة من الأعداء، مع بيان ثواب المنفقين في سبيل ٱللَّه.
- الدعوة إلى كتابة الدَّيْن في أطول آية في القرآن، وهي تبيّن الأصول المتبعة لحفظ حقوق الدائن والمدين بما لا نجد له مثيلاً في أحدث النظم القانونية في العالم.

هذا قليل من كثير مما اشتملت عليه هذه السورة من أحكام ووقائع تاركين للقارئ الكريم الاستمتاع بما حوت من تفاصيل في منتهى الروعة والإبداع.

وأختم هذه الكلمات بما جاء في فضل هذه السورة، فقد قال رسول الله ﷺ: «لا تجعلوا بيوتكم مقابر، إن الشيطان ينفر من البيت الذي تقرأ فيه سورة البقرة»[1] وقال رسول الله ﷺ أيضاً: «اقرأوا سورة البقرة، فإن أخذها بركة وتركها حسرة ولا يستطيعها البطلة»[2] أي السحرة.

---

(١) أخرجه مسلم والترمذي.

(٢) أخرجه مسلم.



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الٓمٓ ﴿١﴾ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٧﴾﴾.

شرح المفردات

لا ريب: لا شك.

هُدى: إرشاد، وضده الضلال.

للمتقين: الذين يمتثلون أوامر الله ويجتنبون نواهيه اتقاء لعذابه.

يؤمنون بالغيب: يصدقون بما غاب عن حواسهم كالتصديق بالله واليوم الآخر والملائكة.

بما أُنزل إليك: بما أُوحي إليك يا محمد من القرآن.

يُوقِنُون: يعتقدون اعتقاداً جازماً.

المفلحون: الفائزون بما طلبوا، الناجون يوم القيامة.

سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تُنذرهم: أي مستوٍ عليهم إنذارك وعدمه، والإنذار إعلام فيه تخويف.
ختم الله على قلوبهم: طبع الله على قلوبهم فلا يصل إليها الحق.
غشاوة: غطاء.

القرآن هداية للمتقين

يستهل ٱللَّه هذه السورة بهذه الأحرف: ﴿الٓمٓ﴾ هذه الأحرف تُقرأ مقطّعة فلفظها: ألِف، لام، ميم. وقد افتتح ٱللَّهُ هذه السورة بهذه الحروف على هذا النحو، ولم يكن هذا الأُسلوب معروفاً عند العرب من قبل، ولم يكن لهذه الحروف معانٍ في اللغة العربية تدل عليها سوى مسمياتها بأنها حروف هجائية يتألف منها الكلام، ولم يُرْوَ عن النبي محمد ﷺ بيان المراد منها، وقد كان المفسرون أمامها فريقين: فريقاً يرى أنها مما استأثر ٱللَّه بعلمه، ويُروى عن أبي بكر الصديق رضي ٱللَّه عنه في ذلك قوله: «في كل كتاب سرّ، وسِرُّ القرآن أوائل السور».

وفريقاً آخر فسّر هذه الأحرف على وجوه شتى:

منها: أن هذه الأحرف رموز لبعض أسماء ٱللَّه تعالى أو لصفاته، فالألِف مثلاً إشارة إلى أنه سبحانه هو (الأول) و(الآخر)، واللام إشارة إلى أنه سبحانه هو (اللطيف)، والميم إشارة إلى أنه (الملك) و (المجيد) و(المؤمن) إلى آخر ما هنالك من أسماء.

ومنها: أن بعض هذه الحروف هي أسماء لبعض سور القرآن مثل سور: طه، يٰسٓ، صٓ، قٓ.

ومنها: أن هذه الأحرف ذُكرت في أوائل السور بياناً لإعجاز القرآن، وأن الخلق عاجزون عن معارضته بمثله مع أنه مركّب من هذه الحروف المقطّعة التي يتألف منها كلامهم.

ومنها: أن الكفار كانوا ينفرون عند استماع القرآن حين يتلوه النبي محمد ﷺ عليهم وكانوا يقولون كما حكى ٱللَّه عنهم ﴿. . . لَا تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْاْ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [فصلت: ٢٦] كما كانوا يتواصون بالإعراض عنه، فأراد ٱللَّه تعالى أن يورد على أسماعهم ما لا يعرفون ليكون سبباً لإسكاتهم واستماعهم لما يرد عليهم بعد ذلك، فأنزل ٱللَّه هذه الأحرف في مفتتح السور، فكانوا إذا سمعوها قالوا كالمتعجبين: اسمعوا إلى ما يجيء به محمد، فإذا ما أصغوا هجم عليهم القرآن بآياته يقرع أسماعهم، فكان ذلك من ٱللَّه استدراجاً لهم حتى يُقبلوا على القرآن ويستمعوا له وينتفعوا بمواعظه، والذي يؤكّد ذلك أنه كان يُذكر لفظ القرآن أو لفظ الكتاب والمراد به القرآن بعد هذه الأحرف مثل قوله تعالى: ﴿قٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ﴾ [ق: ١] ﴿طسٓ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [النمل: ١] ﴿يسٓ. وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ﴾ [يس: ١، ٢] ﴿حمٓ. وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ [الدخان: ١، ٢] ﴿الٓر كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ﴾ [هود: ١].

ثم يُبَيِّن ٱللَّه علوَّ منزلة القرآن بقوله:

﴿ذَٰلِكَ الكِتَابُ لا رَيْبَ فيه هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾ ذلك: اسم إشارة يشار به إلى البعيد، والكتاب مصدر بمعنى المكتوب والمراد منه القرآن الكريم، وقد أشير إلى القرآن بلفظ **﴿ذَٰلِكَ الكِتَابُ﴾** للإشارة إلى علوّ مكانته وبُعد مرتبته في الكمال عن سائر الكتب **﴿لا رَيْبَ فِيهِ﴾** أي لا شكّ فيه بأنه مُنزل من عند ٱللَّه، ومن ارتاب في أن القرآن وحي إلٰهيّ فلأنه لم يُقبل على قراءته بعقل منفتح أو بقلب سليم من التعصب الأعمى **﴿هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾** خص ٱللَّه القرآن المتقين بالهداية مع أنه هداية لهم ولغيرهم لأنهم هم المنتفعون به دون سواهم، فهو إرشاد لهم إلى ما ينفعهم في دنياهم وآخرتهم لما تضمّنه من العقيدة، والأحكام

العادلة، والأخلاق الرفيعة. والمتقون: هم الذين يصونون أنفسهم ويحفظونها من عذاب ٱللَّه وذلك بترك السيئات وفعل الصالحات.

ثم يصف ٱللَّه المتقين بخمس صفات هي:

أولها: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ والإيمان هو التصديق القلبي الجازم المقترن بإذعان النفس وقبولها إياه، والغيب: ما غاب علمه عن الخلق وما لا تدركه عقولهم كذات ٱللَّه وصفاته وملائكته واليوم الآخر.

ثانيها: ﴿وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ﴾ والصلاة في اللغة: الدُّعاء وقد استعملها الإسلام في العبادة التي تحتوي على الركوع والسجود وتسبيح ٱللَّه وتعظيمه.

وإقامة الصلاة تعني تأديتها كاملة يصحبها الإخلاص واستحضار جلال ٱللَّه وعظمته، وهي التي تترتب عليها الآثار الحميدة من تطهير النفس من الآثام وسلامتها من الآفات والتي قال ٱللَّه عنها ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

ثالثها: ﴿ومِمَّا رَزَقْناهُم يُنْفِقُونَ﴾ أي يُنفقون مما أعطاهم ٱللَّه وملّكهم إياه في وجوه الخير التي تشمل الصدقات الواجبة كالزكاة، والمستحَبّة كصدقة التطوع وغيرها، وفي قوله سبحانه ﴿مما﴾ وأصلها (من ما) من: تفيد التبعيض، أي ينفقون بعض أموالهم بدون إسراف وتبذير على المحتاجين، وجاء قوله سبحانه: ﴿يُنْفِقُون﴾ بصيغة المضارع التي تفيد أن الفعل يحدث ويتجدد منهم مرة بعد أخرى. وقد أثنى ٱللَّه على المنفقين أموالهم في سُبل الخير لأن ذلك الإنفاق من أعظم أسباب رُقيّ الأمم وسلامتها من الآفات الاجتماعية.

ورابعها: ﴿والّذين يُؤْمِنُونَ بما أُنْزِلَ إِلَيكَ﴾ أي ومن صفاتهم أنهم يُصدّقون بالقرآن المنزل عليك يا محمد من ٱللَّه وبما فيه من أحكامٍ وآداب

فيعملون بمقتضاها ﴿وما أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ كما يُصدّقون بما أنزل ٱللَّه من الكتب السماوية التي نزلت على من سبقك يا محمد من الأنبياء والرسل كالتوراة والإنجيل وغيرهما. فالكتب السماوية السابقة يكفي الإيمان بأنها كانت وحياً من ٱللَّه وهداية للناس ولكن على طول الزمن دخلها التحريف والتبديل، أما العمل فلا يكون إلاّ بما تضمّنه القرآن من أحكام وإرشادات لأن القرآن نسخ ما قبله الكثير من الشرائع.

فالإسلام يُقرّ بالرسالات الإلّهية السابقة ولا ينكرها وذلك خلافاً لليهود والنصارى، فاليهود ينكرون المسيحية والإسلام، وينكرون كتابيهما وهما الإنجيل والقرآن، والمسيحيون ينكرون نُبوّة محمد والقرآن الذي أنزله ٱللَّه عليه، ولهذا نرى أن أهل كل دين يجدون احترام رسلهم في القرآن بينما يجدون انتقاص رسلهم في الديانات الأخرى.

وخامسها: ﴿وبالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ أي يعتقدون اعتقاداً جازماً بوجود الدار الباقية بعد فناء دار الدنيا حيث يبعث ٱللَّه الناس أحياءً بعد مماتهم يوم القيامة، فيثيب ٱللَّه الأبرار ويُدخلهم جنات النعيم ويُعاقب الفجّار بأن يدخلهم جهنم وبئس المصير.

﴿أُولئِكَ عَلَى هُدًى[1] مِن رَّبِهِم﴾ أي هؤلاء الموصوفون بما سبق من صفات هم متمكنون من أسباب الهداية من ربهم ومن توفيقه لهم سبحانه ﴿وأُولئِكَ هُمُ المُفْلِحونَ﴾ أي وأولئك هم الفائزون بالخيرات في الدنيا، ونيل نعيم الجنة في الآخرة، وتكرار اسم الإشارة ﴿أُولئِكَ﴾ للتنويه بشأنهم وأن الفوز مقصور عليهم.

---

(١) هدى: إيراد الهُدى نكرة يعنى أنه هدى عظيم على ما هو معروف في علم البلاغة.

وبعد أن بيَّن ٱللَّه صفات المؤمنين أتْبع ذلك بوصف أحوال الكافرين بقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ هذه الآية جاءت فيمن حقّت عليهم كلمة العذاب وسبق في علم ٱللَّه أنهم يموتون على كفرهم[١]. رُوي أن هذه الآية جاءت في أحْبارٍ من يهود المدينة المنورة جحدوا نُبُوّة محمد ﷺ وكتموا أمرها عن الناس وهم يعرفون بأنه نبيّ كما يعرفون أبناءهم.

وقد كان الرسول محمد ﷺ يحرص على أن يُؤمن جميع الناس ويتبعوه على الهدى فأخبره ٱللَّه سبحانه أنه لن يؤمن إلاّ من كتب ٱللَّه له السعادة لطيب عنصره وطاعته له، وأنه يستوي ـ أي يتساوى ـ إنذاره للكافرين وعدم إنذاره لهم لأنهم باقون على ضلالهم.

والإنذار: هو الإعلام بما فيه تخويف وتحذير من الكفر لما يترتب عليه من عذاب ٱللَّه.

﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وعَلَى سَمْعِهِمْ﴾ ختم وطبع في اللغة واحد وهو التغطية على الشيء بإحكام حتى لا يدخله شيء آخر، والختم على القلب بأن يجعله لا يفهم شيئاً، وهنا كناية عن أحوال الكافرين حيث مثّل ٱللَّه قلوبهم وأسماعهم بالوعاء الذي خُتِمَ عليه، فلا يقبلون الحقّ والإذعان له ولا يسمعون من رسول ٱللَّه موعظة يتعظون بها، فالإنسان إذا تمادى في اعتقاد الباطل وارتكاب المحظور يجعل ٱللَّه على قلبه غطاء فلا ينفذ إليه الهُدى ولا يميز بين الخير والشر ﴿وعَلَى أَبْصارِهِمْ غِشَاوَةٌ﴾ أي جعل ٱللَّه على أبصارهم غطاء فلا تبصر آيات ٱللَّه الكونية الدالة على وجوده وقدرته وحكمته ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ

---

(١) الكفر في كلام العرب الستر والتغطية، وسُمي من لم يؤمن بالله أو بوحدانيته أو من ينكر نبوّة محمد كافراً لأنه صار بجحوده لذلك الحق وعدم الإذعان له كالمغطي له.

عَظِيمٌ﴾ ويشمل العذاب ما أعدَّ ٱللَّه للكافرين من عذاب الآخرة، وما يُصيبهم في الدنيا من عذاب على أيدي المؤمنين من الأسر والقتل. ووصف ٱللَّه هذا العذاب بأنه عظيم لبيان شدته ووقعه على الكافرين.

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ ۗ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴿١٦﴾﴾.

شرح المفردات

يُخادعون ٱللَّه: يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر.

وما يخدعون إلاّ أنفسهم: وما يعود ضرر خداعهم إلاّ عليهم.

في قلوبهم مرض: هو النفاق والكفر وسُمّيَ مرضاً لكونه مانعاً من إدراك الفضائل.

لا تُفسدوا في الأرض: الفساد خروج الشيء عن حالة الاعتدال والاستقامة وضده الصلاح.

السفهاء: خفيفو العقل وضعيفو الرأي.

خلَوا إلى شياطينهم: انفردوا مع رؤسائهم وقادتهم المشبّهين بالشياطين.

يمدّهم: يمهلهم ويملي لهم ليزدادوا إثماً.

طُغيانهم: ضلالهم وكفرهم، والطغيان مجاوزة الحد في الكفر والضلال.

يعمهون: يعمون عن الرشد ويتحيرون في أمورهم.

اشتروا الضلالة بالهُدى: أخذوا الضلالة وتركوا الهدى.

صفات المنافقين

ثم ينتقل القرآن إلى الكلام عن المنافقين في ثلاث عشرة آية، والمنافقون هم الذين يخفون الكفر في قلوبهم ويظهرون الإيمان علانية، قال ٱللَّه تعالى: **﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِٱللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وما هُم بِمؤْمِنِينَ﴾** واليوم الآخر هو الوقت الذي يبتدئ ببعث الناس من القبور أحياء ويستمر باستقرار الأبرار في نعيم الجنة والفجار في عذاب النار.

اقتصر إيمان هؤلاء المنافقين على الإيمان بٱللَّه واليوم الآخر ليموهوا على المؤمنين بأنهم أحاطوا بالإيمان من جانبيه لأن من يؤمن بٱللَّه واليوم الآخر من شأنه أن يكون مؤمناً برسل ٱللَّه وملائكته وكتبه.

ولكن ٱللَّه نفى إيمانهم على أبلغ وجه إذ جاء النفي مؤكّداً بالباء في قوله تعالى **﴿وما هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾**.

﴿يُخادِعُونَ ٱللَّهَ والَّذِينَ آمَنُوا﴾ والخديعة: الحيلة والمكر، وإظهار خلاف ما يضمرون، ومخادعة المنافقين لله هي من حيث الظاهر لا من حيث الحقيقة، فهم أظهروا الإيمان وأبطنوا الكفر، وهذا جهل منهم بٱللَّه تعالى إذ لو عرفوا ٱللَّه حقاً لعلموا أنهم لا يستطيعون خداعه، بل ٱللَّه هو خادعهم أي مجازيهم على خداعهم.

وقيل: المراد بمخادعة ٱللَّه خداع رسوله محمد لأن ٱللَّه لا تخفى عليه خافية، ونُسب ذلك إلى ٱللَّه تعالى للتنبيه إلى عُلوّ منزلة الرسول محمد حيث جعل خداعه خداعاً لله تعالى. وهم في خداعهم للمؤمنين من حيث إنهم يقولون أمامهم غير ما يبطنون، ويمتثلون أحكام الإسلام لمنافع يحصلون عليها من الغنائم وغيرها، ولكن هذا الخداع شقاء عليهم لأنهم يعيشون في خوف مستمر من أن يَكشف المؤمنون أمرهم، أو يفلت لسانهم بقول يُنبئ عن نفاقهم ﴿وَمَا يَخْدَعُونَ إلاّ أَنْفُسَهُمْ﴾ والحال أنهم ما يضرّون بذلك إلاّ أنفسهم لأن ضرر المخادعة يعود عليهم ﴿وما يَشْعُرُونَ﴾ أي ما يحسّون بذلك لتماديهم في الغفلة والغواية، وإن ٱللَّه سيفضحهم في الدنيا بإطلاع رسوله محمد والمؤمنين على خداعهم.

﴿في قُلُوبِهِم مَرَضٌ﴾ والمرض هو العِلّة في البدن وما ينشأ عنها من آلام تمنع المريض من التصرّف فيما ينفعه، وقد يستعمل المرض على وجه الاستعارة فيما يعرض للمرء من آفات وعيوب فيخلّ بكماله النفسي كالكفر والنفاق والحسد والكذب وغير ذلك، وهذه الآفات كانت متمكنة في عقول المنافقين ﴿فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضاً﴾ فزاد ٱللَّه المنافقين كفراً ونفاقاً وحسَداً بزيادة النّعم على رسوله محمد والمؤمنين بما أيّدهم ٱللَّه من النصر ﴿وَلَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ بِما كانُوا يَكْذِبُونَ﴾ ولهم عذاب موجع بما كانوا يكذبون بادعائهم الإيمان.

﴿وإذا قِيلَ لَهُمْ لا تُفْسِدُوا في الأَرْضِ﴾ القائل للمنافقين ﴿لا تُفْسِدُوا في الأَرْضِ﴾ هو النبي ﷺ أو المؤمنون الذين اطلعوا على بعضٍ من سوء أفعالهم. وإفساد المنافقين في الأرض هو بالكفر والعمل بالمعصية وإثارة الفتن بين المسلمين وإفشاء أسرار المسلمين للكفار وإلقاء الشّبه على الإسلام ومعاونة المشركين على المسلمين ما وجدوا إلى ذلك سبيلاً.

ولكن جواب المنافقين كان مبنياً على مُغالطة كاذبة حيث أجابوا ﴿قالُوا

إنَّما نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ لقد صوَّر المنافقون إفسادهم إصلاحاً لعدم تمييزهم بين الخير والشر وهذه صفة بعض مرضى النفوس في كل زمان، ولكن ٱللَّه أكّد فسادهم بقوله: **﴿أَلآ إِنَّهُمْ هُمُ المفْسِدُونَ﴾** فٱللَّه تعالى يحكم عليهم بالفساد وأنهم مقصورون عليه وقد أكد ذلك بحرف «إن» وبضمير الفصل «هم» **﴿وَلَـٰكِن لا يَشْعُرُونَ﴾** والشعور هو الإحساس النفسي والعقلي بخطأ ما يفعلون، فالشر قد استغرقهم حتى صاروا لا يميزون بين الخير والشر بسبب جهلهم وعدم إدراكهم الخبيث والطيب من الأفعال.

هذا مع العلم أن المدينة المنورة كانت قبل الإسلام ميداناً للصراعات والفساد وشيوع المعاصي والمنكرات، فلما بعث ٱللَّه محمداً رسولاً منه عمل على إزالة هذا الفساد والقضاء على العصبيات الجاهلية، وبذلك تهيأت الأرض للصلاح بعد الفساد.

﴿وإذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كما آمَنَ النَّاسُ﴾ وإذا قيل لهؤلاء المنافقين صدِّقوا بأن محمداً رسول ٱللَّه وبما جاء به من الهدى من عند ٱللَّه كما صدّق به أصحاب محمد ﷺ من المؤمنين أجابوا على ذلك **﴿قَالُوا أَنُؤْمِنُ كما آمَنَ السُّفَهاءُ﴾** والسفهاء: جمع سفيه، والسفيه: هو الجاهل الناقص العقل القليل المعرفة بمواضع المنافع والمضارّ. لقد وصف المنافقون أصحاب محمد بالسّفهاء، فردّ ٱللَّه عليهم أبلغ ردّ فقال **﴿أَلآ إِنَّهم هُمُ السُّفَهآءُ﴾** أي إن السفه مقصور عليهم فلا يتجاوزهم إلى المؤمنين **﴿وَلَٰكِنْ لا يَعْلَمُون﴾** أي لا يعلمون مقدار ما أُوتوا من سفه الرأي وما أوتي غيرهم من سداد الرأي وحكمة الإيمان.

﴿وإذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ لقيه: استقبله قريباً منه **﴿قالُوا آمَنَّا﴾** أي أخلصنا الإيمان بقلوبنا **﴿وإذا خَلَوْا إلى شَيَاطِينِهِمْ﴾** وإذا انفردوا إلى شياطينهم وهم

رؤساؤهم وكبراؤهم الذين يشبهون الشياطين في تمرّدهم وصدهم عن سبيل الحق ﴿قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ﴾ والمعية هنا يُراد منها موافقتهم في دينهم ليزيلوا ما قد يجري في خواطرهم من أنهم فارقوا دينهم وانقلبوا إلى دين الإسلام. وتابع المنافقون قولهم لرؤسائهم: ﴿إِنَّما نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾ هذا القول منهم ورد مورد الجواب عما قد يعترض عليه رؤساؤهم من مشاركتهم المؤمنين في مظاهر دينهم وكأنهم يقولون لهؤلاء الرؤساء إن مشاركتنا للمؤمنين هي على سبيل الاستخفاف والسخرية، وهنا صوّر ٱللَّه نفاقهم أدقّ تصوير، فقد عبّر عن ملاقاة المنافقين للمؤمنين بكلمة ﴿لَقُوا﴾ أي إنَّ لقاءهم لهم كان مُصادفةً لا يحرصون عليها، وعبَّر عن ملاقاتهم لرؤسائهم بكلمة ﴿خَلَوْا﴾ والخلوة فيها القصد للإدلاء لهم بما عندهم من الأسرار لرؤسائهم.

ثم يَرُدُّ ٱللَّه على استهزائهم بقوله: ﴿ٱللَّهُ يَسْتَهْزِىءُ بِهِمْ﴾ أي ٱللَّه ينتقم منهم ويجازيهم على استهزائهم لاستحالة معنى الاستهزاء على ٱللَّه تعالى، فقد سمّيت عقوبتهم باسم الذّنب الذي صدر عنهم للمطابقة اللفظية بينهما، وتسمية جزاء الذنب باسم الذنب معروفة في الكلام العربي ﴿وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ يمدّهم: يزيدهم أو يمهلهم، والطغيان: الغلوّ في الكفر والضلال. يعمهون: أي يعمون عن الرشد ويترددون حيارى. والعمى يكون في العين، والعمه يكون في القلب. والمعنى: ويزيد ٱللَّه المنافقين في ضلالهم أو يمهلهم فيه يتحيّرون ويتخبطون فيه لا يجدون إلى المخرج منه سبيلاً ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ﴾ اشتروا: بمعنى اختاروا واستبدلوا أي أن المنافق والكافر استبدلا الهُدى بالضلالة والنّفاق ﴿فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ﴾ لأن المستبدل في سلعته سلعة دونها ودون الثمن الذي يبتاعها به هو الخاسر في تجارته، وكذلك الكافر والمنافق يخسران في تجارتهما لأنهما اختارا الضلال

وفضّلاه على الرشاد ﴿وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ أي أنهم لم يهتدوا إلى طُرق التِّجارة السليمة التي تحقق الربح وتجنّب الخسارة، وهؤلاء بمسلكهم الخاطئ هذا بقوا في ظلمة الضلال ولم يهتدوا إلى سبيل الرشاد.

﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَـٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَـٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَـٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَـٰرَهُمْ ۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَـٰرِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾﴾.

شرح المفردات

مَثَلُهُمْ: صفتهم.

استوقد ناراً: أوقد ناراً.

صُمٌّ: سدّوا آذانهم عن سماع الحق فصاروا كالصم.

بُكْمٌ: جمع أبكم وهو الأخرس، أي لا ينطقون بالحقّ.

كَصيّب: الصيّب هو المطر المنهمر.

فيه ظلمات: المراد بها الظلمات الناشئة من كثافة المطر وكثافة السحب التي تحجب نور الشمس والناشئة عن ظلمة الليل.

الصواعق: جمع صاعقة، وهي إفراغ كهربائي جوي بين سحابة مكهربة والأرض أو بين سحابتين.

حذَر الموت: خوف الموت.

محيط بالكافرين: أي لا يفوتونه ولا ينجون من بطشه.

وصف أحوال المنافقين

ويتابع القرآن الكلام عن المنافقين فيصوّر أحوالهم بتلك الصورة البليغة:

﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ مثلهم: المثل هو الشبيه والمثيل، ويستعمل المثل في الحال أو الصفة أو القصة إذا كان لها شأن وفيها غرابة، وإنما تضرب الأمثال لإيضاح المعنى الخفيّ ولتمثيل المعاني المعقولة بالصور الحسّيّة، فيكون المعنى الذي ضرب له المثل أوضح وأوقع في القلوب.

وهذا المثل يسوقه آللّه لهؤلاء المنافقين الذين أظهروا الإيمان بألْسنتهم وانتفعوا به بين المسلمين واكتسبوا بإيمانهم نوراً ثم أبطلوا ذلك الإيمان بنفاقهم فوقعوا في حيرة عظيمة، فمثل هؤلاء في نفاقهم كمثل رجلٍ أوقد ناراً في ليلة مظلمة فرأى ما حوله واتقى مما يخاف، فبينما هو كذلك إذ انطفأت ناره فبقي في ظلمة حائراً متخوفاً. وقد أُسند النور إلى آللّه **﴿ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾** للإيذان بأن هذا النور إنما ذهب بأمر سماوي بسبب نفاقهم **﴿وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لا يُبْصِرُونَ﴾** وإيراد الظلمات بصيغة الجمع للمبالغة في شدتها فكأنها لشدة كثافتها ظلمات بعضها فوق بعض، وأكّد هذا المعنى بقوله تعالى **﴿لا يُبْصِرُونَ﴾** أي أن هذه الظلمات بلغت من الشدة بحيث لا يرى من خلالها أي شيء.

﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَرْجِعُونَ﴾ وصف آللّه حال المنافقين بهذه الصفات لأنهم وإن كانت لهم آذان تسمع وألْسِنة تنطق وأعين تُبصر، ولكنهم لمّا حَجبوا أسماعهم عن تقبّل الحقائق كانوا بمثابة الصُّمّ الذين لا يسمعون، ولمّا لم ينطقوا بالحق كانوا بمثابة البُكم، ولمّا لم يميزوا بين الحق والباطل ببصائرهم كانوا بمثابة العمي **﴿فَهُمْ لا يَرْجِعُونَ﴾** فهم لا يتوبون ولا يرجعون إلى الهدى ولا إلى الخير.

ويتابع القرآن فيمثل المنافقين بهذا المثال الثاني:

﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمآءِ فِيهِ ظُلُماتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ﴾ الصَّيِّبُ: المَطَرُ المنهمر، والظلمات: المراد منها كثرة هطول المطر وكثافة السحب وظلمة الليل. شبّه ٱللَّه القرآن الذي به حياة القلوب وإصلاح النفوس، بالمطر النازل من السحاب الذي به حياة الأرض والعباد. وشبّهَ اللَّهُ ما أحاط بالمنافقين من التردد والحيرة والشكوك بالظلمات، وشبَّه ٱللَّهُ ما عليه المنافقون من الخوف من وعيد ٱللَّه إياهم بحلول العذاب بهم بالرعد، وشَبَّهَ ٱللَّه ما في القرآن من الحجج الباهرة والإرشادات الخيّرة للإنسان بالبرق. فالمنافق في قلبه ظلمات الكفر، بينما المؤمن يعيش نور الإيمان حيث يجد فيه الأمن والطمأنينة والسعادة.

﴿يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ في آذَانِهِمْ مِنَ الصَّواعِقِ حَذَرَ المَوْتِ﴾ هنا مُبالغة في تصوير إعْراض المنافقين عن قبول ما جاء به رسول ٱللَّه محمد من الهُدى حيث صَوَّرَ القرآن إعْراضهم بالرجل الخائف من الصّواعق الذي يَسُدُّ أذنيه بأنامله حتى لا يسمعها خشية أن يموت من شدة صوتها وما تحدثه من هلاك لمن تصيبه **﴿واللَّهُ مُحِيطٌ بالكافِرِينَ﴾** والإحاطة هنا: السلطان والاستيلاء والقوة، أي أنهم في قبضة ٱللَّه سبحانه إن أراد أهلكهم فهو محيط بهم لا يفلتون منه.

ثم يأتي المشهد التالي ليزيد على الصورة خيالاً وَرَهْبَةً:

﴿يَكَادُ البَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصارَهُمْ كُلّما أَضَاءَ لَهُم مشَوْا فِيهِ﴾ فالبرق لشدة لمعانه يكاد يذهب بأبصار المنافقين وهم كلما أضاء لهم استرشدوا به في سيرهم، وإضاءته لهم عندما يرون في إظهار الإيمان ما يعجبهم من الحصول على الغنائم في الغزوات والثراء في الأموال والسلامة في البلدان والأهل **﴿وإذا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا﴾** فإذا ذهب ضوء البرق وعاد الظلام إليهم كأن لم يجدوا عند المسلمين مغنماً أو ما يعجبهم في دنياهم رجعوا إلى كفرهم وأقاموا على نفاقهم

وثبتوا على ضلالتهم ﴿وَلَوْ شَاءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ﴾ أي لو شاء ٱللَّه لأذهب عن المنافقين سمعهم وأبصارهم عقوبة لهم على كفرهم وضلالهم بسبب إعراضهم عن الحق بعد معرفتهم إياه، فقد جعل ٱللَّه لهم السمع والأبصار لتكون سبيلاً إلى الهدى ولكن صرفوها إلى المعاصي والشهوات ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ وإنّما وصف ٱللَّه نفسه بالقدرة على كل شيء تحذيراً للمنافقين من عقوبته إياهم وأنه قادر على إذهاب أسماعهم وأبصارهم، وقديرٌ من صيغ المبالغة على اسم الفاعل قادر، أي المبالغة في القدرة.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

شرح المفردات

لعلكم تتقون: لكي تقوا أنفسكم وتحفظوها من عقاب الله.

جعل لكم الأرض فِراشاً: أي خلقها الله موطأة كالفراش بحيث يتيسر الاستقرار عليها.

وأنزَلَ من السماء ماءً: وأنزل الله من السحاب ماءً، فكل ما علاك سماء.

أنداداً: جمع نِدّ وهو الشبيه والنظير والمُماثِل.

الدعوة إلى عبادة الله وحده

وبعد الكلام عن صفات المؤمنين والكافرين والمنافقين يأتي خطاب ٱللَّه للناس كافة داعياً إياهم إلى عبادته وحده بأسلوب مؤثّر مقنع يجعل النفس تستجيب طوعاً لهذا النداء الرباني، قال ٱللَّه تعالى:

﴿يا أيها النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ﴾ فالآية دعت إلى عبادة ٱللَّه ووصفته بصفة الربّ: وهو المالك والمربي، وإضافته إلى المخاطَبين بقوله ﴿رَبَّكُم﴾ حَثٌّ للإقبال على عبادته، وذلك أن الإنسان إذا اتّجه بفكره إلى معنى كون ٱللَّه مالِكاً ومربياً له وتَذَكَّرَ ما يحفُّه به من رفق وما يجود عليه من نِعَمٍ لا يلبث أن يخصه بأقصى ما يمكن من العبادة.

والعبادة في اللغة: الطاعة والخضوع والتذلل والتّنسُّك، والعبادة نوع من الخضوع لا يستحقه إلاّ المُنْعِم بأجلّ النعم وأعظمها وهو ٱللَّه سبحانه.

ومجالات العبادة في الإسلام تشمل الأركان الشعائرية: من الصلاة والصيام والزكاة والحج ويطلق عليها العبادات، كما تشمل ما زاد على ذلك من ألوان التعبّد كذِكر ٱللَّه والتوجه إليه بالدّعاء، واستغفاره وتسبيحه، وتكبيره والشكر والحمد له. ثم بيّن القرآن الدّواعي والأسباب التي توجب عبادة ٱللَّه:

﴿الَّذِي خَلَقَكُمْ والَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ أي اعبدوا ربكم فهو الذي أنشأكم من العدم وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة وغذّاكم بنِعَمِه ونمّاكم بكرمه، كما أنه سبحانه خالق من كان قبلكم من الآباء والأجداد والأُمم ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ لعلَّ: حرف يدل معناه على الترجّي وهو توقّع حصول شيء عندما يحصل سببه، والتقوى: جعل النفس في وقاية من عذاب ٱللَّه بامتثال أوامره واجتناب نواهيه، والمعنى: اعبدوا ٱللَّه راجين أن تكونوا من المتقين، لأن التقوى هي الغاية التي تنشأ عن العبادة، لأن من يعبد ٱللَّه ويعلم أنه مطلع عليه يترك ما حرّمه عليه، ويؤدي ما افترضه عليه ويصبح من المتقين لله.

ثم يُبَيِّن القرآن نِعَمَ ٱللَّه على الإنسان:

﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِراشاً﴾ أي خلق ٱللَّه للإنسان الأرض منبسطة

ممهدة ليتمكن من الاستقرار عليها وبناء البيوت للسكن فيها، أضف إلى ذلك إمكان الانتفاع من خيراتها بما فيها من تربة صالحة للزراعة ولم يجعلها كلها جبالاً وودياناً وصخوراً صلبةً بحيث يصعب العيش عليها والتنقل فيها ﴿والسّماءَ بِنَاءً﴾ وجعل ٱللَّه لكم السماء كالسقف للأرض وسوّى أجرامها على هذه الصفة المشاهَدة، متماسكة كالبناء بقانون الجاذبية بحيث لا يصطدم بعضها ببعض أو يسقط بعضها على الأرض فينسفها ﴿وَأَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ مَاءً﴾ أي وأنزل ٱللَّه من السحاب ماءً عذباً تشربون منه وفيه حياة كل حيّ على وجه الأرض ﴿فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَراتِ رِزْقاً لَكُمْ﴾ ومن هذا الماء ينمو كلُّ أنواع الثمرات التي يقتات منها الإنسان والحيوان ﴿فَلاَ تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْداداً وأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ الأنداد: جمع نِدّ وهو المُماثل والشريك والنَّظير، فالمشركون لمّا تركوا عبادة ٱللَّه إلى عبادة الأصنام وسمّوها آلهة وزعموا أنها تنفع وتضر فهم بذلك جعلوها شريكةً لله. فٱللَّه سبحانه ينهاهم عن اتخاذ شركاء لله من أصنام لا تنفع ولا تضر ﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ وأنتم تعلمون أن هذه الأصنام لا تصلح أن تكون آلهة، فلو تأملتم أدنى تأمل في وضعها لتركتم عبادتها وتوجهتم إلى عبادة ربكم خالق الكون الجدير وحده بالعبادة.



﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿٢٤﴾﴾.

شرح المفردات

في رَيبٍ: في شكٍّ.

مما نَزّلنا على عبدنا: أي مما نزّل الله من القرآن على محمد ﷺ.

بِسُورة: السورة هي الطائفة من آيات القرآن والتي أقلها ثلاث آيات.

وادْعُوا شهداءكم: أي ادعُوا أنصاركم وأعوانكم ليشهدوا أنكم عارضتم القرآن.

فاتّقوا النار: فاحذروا عذاب الله في نار جهنم.

أُعِدّت: هُيِّئت.

القرآن يتحدى العرب وكافة الأمم

كان العرب في زمن النبي محمد ﷺ على جانب كبير من البيان والفصاحة في المنطق والبلاغة في القول، وكانوا يقيمون في كل سنة مواسم يتبارى فيها الشعراء ويُنشدون أشعارهم وخطبهم في مكان يطلق عليه سوق عكاظ.

فجاء القرآن أفصح كلاماً وأبلغ أُسلوباً وأعمق معنى ليستحوذ على قلوب أهل الجزيرة العربية بعد أن كانت مسرحاً للظلم والفساد، وليخرجهم من الظلمات إلى النور، وفي الوقت نفسه ليكون القرآن دليلاً وبرهاناً على صدق نبوة محمد ﷺ الذي كان أُمّيّاً لا يقرأ ولا يكتب.

سمع العرب فصاحة القرآن فبهتوا لفصاحته وأذعنوا لبلاغته فقالوا في

القرآن: هو شعر، وهو سحر، وهو أساطير الأولين، ورموا محمداً بالجنون، واتهموه بالكذب حيث زعموا أن القرآن من تأليفه، وهذه الشّبهة يرددها الكثير من أتباع الديانات الأخرى بدون علم ولا بصيرة.

ولمّا كان من عادة العرب أن يتحدى بعضهم بعضاً بالقصائد والخطب لذا تحدّى القرآن المشركين المنكرين بأن القرآن منزل من عند ٱللَّه بقوله تعالى: ﴿وإنْ كُنتُمْ في رَيْبٍ مِمّا نَزَّلْنا عَلَى عَبْدِنا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ﴾ أي وإن كنتم ـ أيها العرب ـ في شكٌ بأن القرآن مُنزل من عند ٱللَّه على عبده محمد فأتوا بسورة من مثل هذا القرآن بما يشبهه في حسن النظم وبراعة الأسلوب وسموّ المعنى فأنتم أهل الفصاحة والبلاغة.

والآية وصفت النبي محمّداً ﷺ بأنه عبد ٱللَّه ﴿عَبْدِنا﴾ باعتبار عبوديته لله، وفي إضافته إلى ٱللَّه تنبيه على شرف منزلته عند ٱللَّه، كما أن وَصْفَ النبي محمد بصفة العبودية هو تذكيرٌ لأُمَّته بهذا المعنى حتى لا يغلوا في تعظيمه ويدّعوا له الألوهية كما غلا بعض أتباع الأديان الأخرى في تعظيم أنبيائهم.

ثم يخاطب ٱللَّه المشركين المنكرين بأن القرآن مُنزل من عنده بقوله:

﴿وادْعُوا شُهَداءَكُمْ مِنْ دُونِ ٱللَّهِ﴾ شهداءكم: أعْوانكم ونُصراءكم، وقيل: آلهتكم. والمعنى: نادوا الذين اتخذتموهم آلهةً وأعواناً وأنصاراً من غير ٱللَّه ليعينوكم على مُعارضة القرآن، أو ليشهدوا بأنكم أتيتم بمثل القرآن بلاغة وحكمة ﴿إنْ كُنتُمْ صادِقِينَ﴾ أي صادقين في زعمكم أنكم تقدرون على معارضة القرآن وأن محمداً افترى واختلق هذا القرآن.

﴿فإنْ لَمْ تَفْعَلُوا﴾ أي فإن لم تستطيعوا الإتيان بسورة من مثل سور القرآن ﴿ولَنْ تَفْعَلُوا﴾ هو نفيٌ قاطع لاستطاعتهم الإتيان بسورة من مثله في الحاضر

والمستقبل وتأكيد على عجزهم عن معارضته وذلك من معجزات القرآن، إذ لم يثبت أنهم أتوا بسورة من مِثْلِ هذا القرآن أيام رسول ٱللَّه ﷺ ولا من بعده إلى زمن كتابة هذه الكلمات ﴿فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُها النَّاسُ والحِجارَةُ﴾ أي إذا عجزتم عن مُعارضة القُرآن والإتيان بسورة من مثله وأصررتم على إنكاركم بأن القرآن وحي إلَهيّ، فعندها تكون قد لزمتكم الحجة، فاتّقوا عذاب النار التي سيكون وقودها من الكافرين ومن الأصنام التي كانت مصنوعة من الحجارة ﴿أُعِدَّتْ لِلْكافِرِينَ﴾ أي هُيِّئَت هذه النّار للكافرين، واقترانهم مع الأصنام في عذاب النار زيادة في إيلامهم وتحسرهم.

هذا وقد ورد في القرآن جملة من التحدّيات للمشركين بأن يأتوا بمثل هذا القرآن قال تعالى:

﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ. فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ﴾ [الطور: ٣٣، ٣٤].

ولَمّا لم يأتوا بمثله تحداهم بأن يأتوا بعشر سور مثله قال تعالى:

﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ﴾ [هود: ١٣].

فلما عجزوا عن الإتيان بعشر سور تحداهم بأن يأتوا بسورة من مثل سور القرآن:

﴿قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ﴾ [يونس: ٣٨].

وأعاد عليهم هذا التحدي في سورة البقرة في الآية التي نحن بصددها، ولمّا عجزوا عن الإتيان بسورة من مثله جاء الردّ القاطع لهم على عجزهم: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨].

هذا هو التحدي الواضح الذي أعلنه القُرآن منذ خمسة عشر قرناً ولم نسمع إلى يومنا هذا أن أديباً أو بليغاً أو شاعراً أو مجموعةً من هؤلاء استطاعوا أن يأتوا بسورةٍ واحدةٍ مثل سور القرآن في بلاغتها ومعانيها الباهرة، أيُّ دليل وبرهان على صدق نبوة محمد ﷺ وعلى أن القُرآن وَحْيٌ من عند ٱللَّه أقوى من ذلك؟

القرآن هو المعجزة الكبرى لمحمد ﷺ

المعجزة هي أمر خارق للعادة مقرون بالتحدي سالم عن المعارضة، وسميت معجزة لأن البشر يعجزون عن الإتيان بمثلها.

وقد جرت حكمة ٱللَّه سبحانه أن تكون معجزة الأنبياء من جنس ما اشتهر به أهل زمانهم، فقد اشتهر قوم موسى بالسحر فكان من معجزاته عصاه التي ابتلعت أدوات السحرة. واشتهر قوم عيسى بالطب فكان من معجزاته إحياء الموتى وإبراء الأكمَه والأبرص بإذن ٱللَّه. واشتهر العرب في عهد محمد ﷺ بالفصاحة والبلاغة فكانت معجزته القرآن الكريم من النوع الذي اشتهروا به.

ومعجزات الأنبياء لم يشاهدها إلاّ من عاصر الأنبياء، وبوسع الملحدين أن يُنكروها، ومعجزة القرآن مستمرة إلى يوم القيامة يشاهدها كل دارس للقرآن حسب علمه واختصاصه في أي فرع من أنواع المعرفة، وقد جاء في الحديث الصحيح عن النبي ﷺ قوله: «ما مِنَ الأنبياء مِنْ نَبِيٍّ إلا قد أُعطي من الآيات ـ أي المعجزات ـ ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أُوتيتُه وَحْياً ـ أي القرآن ـ أوحاه ٱللَّه إليّ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة»[1].

---

(١) أخرجه الشيخان.

من مظاهر إعجاز القرآن

ومظاهر إعجاز القرآن كثيرة نذكر بعضها فيما يلي:

أُسلوب القرآن: ومن مظاهر إعجاز القرآن أُسلوبه المخالف لأساليب العرب بما اشتمل عليه من تشبيهٍ واستعارةٍ وإيجازٍ وبلاغةٍ، وما من عالمٍ أو بليغٍ إلاّ وهو يعرف ذلك ويَعُدُّ خروج القرآن على أساليب الناس كافة دليلاً على إعجازه، وعلى أنه ليس من كلام البشر. فلو كان القرآن من تأليف محمد كما يدّعي بعض دُعاة الأديان لجاء القرآن بأسلوب يشبه أُسلوباً من أساليب البلغاء والشعراء في عصره لأنه عاش في وسطهم، هذا مع العلم أن أُسلوب القرآن وما اشتمل عليه من موضوعات يختلف عن أقوال النبي ﷺ ووصاياه التي دوّنتها كتب الأحاديث الشريفة.

لا تفاوُت في بلاغة القرآن في كل مواضيعه: ومن مظاهر إعجاز القرآن أن بلاغته لا تتفاوت ولا تختلف على ما يتصرف فيه من الوجوه من قَصَصٍ وَوَعْظٍ وحكم وأحكام وتشريع وغير ذلك مما حواه القرآن، بينما نجد كلام البليغ يختلف باختلاف الأغراض. فمن بلغاء العرب من يجيد الوَصفَ دون الغَزَل، والمدح دون الهجو، ومنهم من يُجيد في بعض النواحي من أغراض الشعر دون بعض، وإذا تأملت نظْم القرآن وَجدت أن جميع ما يتصرف فيه من الوجوه والمواضيع ليس فيه انحطاط عن المنزلة العليا في البلاغة، كما أنه ليس في بلغاء العرب كلام مشتمل على هذه الفصاحة في القول وعلى هذا القدر من الطول كالذي عليه القرآن.

احتواء القرآن على أُمور غيبيّة: ومن مظاهر إعْجاز القرآن اشتماله على كثيرٍ من الأمور الغيبية التي تحققت مثل قوله تعالى ﴿لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن

شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ [الفتح: ٢٧] فدخله المسلمون كما وعدهم ٱللَّه، ومثل قوله: ﴿غُلِبَتِ ٱلرُّومُ . فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ. فِى بِضْعِ سِنِينَ﴾ [الروم: ٢ ـ ٤] فتحقَّق ذلك كما أخبر القرآن. ومثل ذلك ما أنبأ به القرآن من أخبار القرون السالفة مما كان لا يعلم منه القصة الواحدة إلاّ الراسخون في العلم من علماء أهل الكتاب كإخباره عن أحوال نوح وعاد وثمود وفرعون وغيرهم، والكلام عن الكثير من الأنبياء والرسل وما جرى لهم من أحداث مع قومهم تختلف عما جاء في العهد القديم، هذا مع العلم أن النبي محمداً لم يجتمع بأحبار اليهود ورُهْبان النصارى لتلقِّي العلم على أيديهم، ولو حصل ذلك لشاع بين قومه هذا واتخذ أعداؤه ذلك مادة للطعن في نُبُوَّته.

ميزة القرآن على غيره من الكُتب السَّماوية: ومن مظاهر إعجاز القرآن اشتماله على العلوم الإلّهية وأُصول العقائد الدينية وأحكام العبادات وقوانين الفضائل والآداب، وقواعد التشريع السياسي والمَدَني والاجتماعي الموافقة لكل زمان ومكان، وبذلك يَفْضُلُ القرآنُ كُلَّ ما سبقه من الكتب السماوية.

والملفت للنظر أن القرآن يذكر صفات خالق الكون بغاية العظمة والجلال، ففي كل آيةٍ من آيات القرآن تلوح فيها عظمة ٱللَّه تعالى وتظهر أُلوهيته وقدسيته في أعلى مظاهرها، كما أن القرآن امتلأ بأسماء ٱللَّه الحسنى وصفاته الجليلة، كما ورد فيه ذكر ٱللَّه بكثرة لافتة بحيث لا يُضاهيه أي كتاب سماويّ، فالتوراة والإنجيل اللذان يتبعهما اليهود والنصارى لو قرأتها لوجدت صفحات منها خالية من ذكر ٱللَّه تعالى، ولكنك لا تجد صفحة من القرآن خالية من ذِكْرِ اسم ٱللَّه تعالى والدعوة إلى ذكره وعبادته وشكره.

مُعجزات القرآن العلمية: والجدير بالذكر اشتمال القرآن على كثيرٍ من

المسائل العلمية التي لم تكن معروفة في عصر نزوله ثم عرفت بعد ذلك بما انكشف للعلماء والباحثين في طبيعة الكون، ففي القرآن الكثير من الآيات التي تتعلق بعلوم الفَلَك والطبيعة وعلم الحياة وخلق الإنسان وغيرها من العلوم التي أشار إليها القرآن، وقد ألَّف العلماء في ذلك كتباً تبيّن فيها ما أورد القرآن من الحقائق العلمية[1] منذ خمسة عشر قَرْناً حين لم تكن هذه المعارف معلومة في ذلك الوقت وهذا مما يثبت أن القرآن وحي إلّهي.

فصاحة القرآن في كل كلمة من كلماته: ومن مظاهر إعجازه فصاحة ألفاظه وبلاغة أساليبه وحُسن وقعه على السمع، من تَخَيُّر الألفاظ العذبة التي تتآلف حروفها في النغم بحيث لو سقط حرف واحد أو أبدل بغيره أو أُقحم معه حرف آخر لشكّل ذلك خَلَلاً بَيِّناً في انسجام النغم، مع الابتعاد عن الغريب والوحشي من الكلام.

كما ترى في آيات القرآن اطراد الفاصلة فيها على نسق خاص، والفاصلة في اصطلاح القرآن هي الكلمة التي تختتم بها الآية القرآنية حيث تكون مُنسجمة لحناً مع الفاصلة التي سبقتها، وهذه الفواصل تنتهي بحرف خاص يتكرر في آيات السورة مثل (النون). كما جاء في أواخر الآيات (تعلمون، تؤمنون، تتقون) أو تنتهي الفاصلة (بالألف) مثل (خبيراً، كثيراً، عليماً، حكيماً) والقرآن يعنى بهذا الانسجام عناية واضحة لما في ذلك من تأثير كبير على السمع، ووقع مؤثّر في النفس، وهذا يُظهر إعْجاز القرآن وعظمة بلاغته.

---

(١) أورد المؤلف بعض هذه الحقائق العلمية في كتابه (روح الدين الإسلامي).

تأثير القرآن

والقرآن اختص بميزة خاصة لا تجدها في أيّ كتابٍ آخر وذلك صنيعه في القلوب وتأثيره في النفوس فقارئه لا يملّه وسامعه لا يمجّه، تستشعر النفس عند قراءته لَذّةً وحلاوة وروعة ومهابة، تستبشر به النفوس الطيّبة المؤمنة لما فيه من المبشرات بنعيم ٱللَّه للمتقين، وتنشرح له الصدور لما فيه شفاء للهموم وبلسم للأحزان، وصدق ٱللَّه إذ قال في القرآن ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ﴾ [الإسراء: ٨٢].

﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ كُلَّمَا رُزِقُوا۟ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا ۙ قَالُوا۟ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا ۖ وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥﴾ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْىِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٢٧﴾﴾.

شرح المفردات

وبَشّر الذين آمنوا: التبشير يطلق غالباً على الإخبار بالخبر السارّ.

وَأُتُوا به مُتَشابِهاً: أي قُدّم لهم ثمر الجنة متشابهاً مع ثمار الدنيا لكنه يفوقها طعماً ومذاقاً.

أزواج مُطَهَّرة: أي زوجات مُبَرَّآت من كل دَنَسٍ وعيب.

لا يستحي أن يضرب مثلاً ما: أي لا يترك الله ضرب المثل، وضرب المثل استعماله فيما ضرب له.

بعوضة: البعوض يطلق على البقّ والناموس.

فما فوقها: أي الزيادة في الحجم.

الفاسقين: الخارجين عن طاعة الله.

ينقضون عهد الله: أي يبطلونه، وعهد الله ما أخذه على العباد من توحيده والعمل بشريعته.

ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل: يقطعون صلة الأرحام.

المقارنة بين المؤمنين والكافرين ومصير كل منهما

وبعد أن ذكر ٱللَّه أحوال الكفار وأن مصيرهم في عذاب جهنم عَقَّبَ على ذلك بالكلام عن المؤمنين وما يفوزون به من النعيم في الآخرة، قال ٱللَّه تعالى:

﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ﴾ يطلب ٱللَّه من نبيه محمد ﷺ أن يُبشّر الذين صدّقوا بوحدانيته وأخلصوا له الإيمان، وقرنوا إيمانهم بالأعمال الصالحة **﴿أَنَّ لَهُمْ جَنَّـاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِها الأَنْهارُ﴾** والجَنّات: جمع جنّة وهي كل بُستان ذي شجر متكاثف ملتفّ الأغصان، ثم صارت الجنة اسماً شرعياً لدار النعيم في الآخرة، وهذه الجنات تجري من تحت أشجارها الأنهار.

﴿كُلَّما رُزِقُوا مِنْها مِن ثَمَرَةٍ رِزْقاً﴾ أي أن سكان الجنة كلّما رُزقوا ثمرة من ثمارها **﴿قالُوا هَذا الَّذِي رُزِقْنا مِن قَبْلُ﴾** أي قالوا: هذا الذي رَزَقنا ٱللَّه إياه من قبل في الحياة الدنيا، أو بمعنى: هذا الذي وُعدنا به في الدنيا جزاء الإيمان والعمل الصالح **﴿وَأُتُوا بِهِ مُتَشابِهاً﴾** أي جيء لهم بهذه الثمار متشابهة في اللون والمظهر، وفي هذا إشارة إلى أن ثمار الجنة متماثلة في حسن مظهرها، ولذة

طعمها بحيث لا تفضل ثمرة في ذلك على أُخرى بخلاف ثمر الدنيا فإنه يتفاوت في طعمه. أو بمعنى: أن ثمر الجنة متشابه في الصورة والشكل على ما كان في الدنيا فإذا ما أكلوا منه أحَسّوا فرقاً شاسعاً في اللذة والطعم بينه وبين ثمر الدنيا. وإنما جعل ثمر الجنة مشابهاً في الصورة لثمار الدنيا لتميل النفس إليه حين تراه، فإن الطباع تميل إلى ما كانت عليه من قبل.

﴿وَلَهُمْ فِيها أَزْواجٌ مُطَهَّرَةٌ﴾ ولأهل الجنة زوجات منزهات عن كل ما يعيبهن من العيوب في أبدانهن أو خلقهن، فهؤلاء الأزواج مطهرات من الأخلاق المشينة والطبائع الرديئة كالغضب والحقد والكيد والمكر والتطلع إلى غير أزواجهن، ومطهرات من الأدناس الجسدية كالحيض والجنابة والبول والتغوط والعَرَق وغير ذلك ﴿وَهُمْ فيها خالِدُونَ﴾ وهم في الجنات باقون أبداً، وهذا مما يُضفي عليهم سعادة، لأن النعيم متى كان مترقب الزوال يجعل صاحبه منغصاً إذ يذكر أنه سيفقده يوماً ما.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لا يَسْتَحْيِ أَنْ يَضْرِبَ مَثَلاً مَّا بَعُوضَةً فَما فَوْقَها﴾ .

رُوي أنه لما ذكر ٱللَّه الذّباب والعنكبوت في القرآن وضرب بهما المثل ضحك اليهود وقالوا: ما يشبه أن يكون هذا من كلام الله! فأنزل ٱللَّه هذه الآية ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لا يَسْتَحْيِ. .﴾.

ومعنى: يستحي من الاستحياء بمعنى الحياء وهو لغةً: انقباض النفس وانكسارها من خوف ما يُعاب به ويذم، وهذا المعنى غير مراد بجانب ٱللَّه، والمراد من الحياء: الترك، لأن من استحيا من شيءٍ تركه.

والمَثَلُ في اللغة: الشبه والشبيه، وضرب المثل يعني إيضاحه وبيانه، واختير له لفظ الضرب لأن ضارب المثل يقرع به أذن السامع قرعاً ينفذ أثره إلى

قلبه، وضرب المثل هو للتذكير والوعظ والاعتبار وتقريب المراد منه بصورة المحسوس.

ومعنى الآية: إن ٱللَّه لا يترك ضرب المثل بأي شيء سواء كان صغيراً كالبعوضة أو أكبر منها في الحجم كالذباب والعنكبوت.

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعلَمُونَ أَنَّهُ الحَقُّ مِن رَبِّهِمْ﴾ فأما المؤمنون فيعلمون أن المثل الذي ضربه ٱللَّه ومثّل به هو الحق من ربهم، والحق هو خلاف الباطل وهو الأمر الثابت الذي لا يسوغ إنكاره، وقد ضرب ٱللَّه الأمثال للناس لِيُعينهم على فهم المعاني الصحيحة.

﴿وأمّا الَّذِين كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَذَا مَثَلاً﴾ أي إن الكافرين يتعجبون ويقولون: ماذا أراد ٱللَّه من ضرب هذه الأمثال المتمثلة بهذه المخلوقات الضعيفة؟ وغايتهم إنكار أن يكون ٱللَّه قد ضربها للناس ويستحيل صدورها منه.

ثم يعقّب ٱللَّه على ذلك بقوله: ﴿يُضِلُّ به كَثِيراً وَيَهْدِي بِهِ كَثيراً﴾ أي يضل ٱللَّه بهذا المثل كثيراً من الناس الذين عميت قلوبهم عن إدراك مراميه، ويهدي به كثيراً من الناس ممن استنارت قلوبهم بالإيمان، فيزداد المؤمنون بالمَثَل رُشداً إلى رشدهم، ويزداد به الكافرون تخبطاً في ظلمات الجهل والضّلال.

﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِ إلاّ الفاسِقِينَ﴾ والفسق في عرف الاستعمال الشرعي: الخروج عن طاعة ٱللَّه، فيشمل الخروج من الإيمان إلى الكفر، أو إلى ما دون الكفر وهي الكبائر والصغائر من الذنوب. ولكنه اختص في العُرف من بعد بارتكاب الكبيرة. وإضلال ٱللَّه تعالى للفاسقين لا يعفيهم من أن يتحملوا تبعته، لأنَّ الإنسان إذا سلك باختياره طريق الكفر والفساد غير مكترثٍ بما حذّره ٱللَّه منه يتركه ٱللَّه في ضلاله لأنه سلك سبيلها وأوْغل فيها مختاراً.

﴿الَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ﴾ والنَّقْضُ: إفساد ما أبرم وفسخه، وشاع استعمال النقض في إبطال العهد ﴿مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ﴾ أي من بعد توثيقه وتمامه بين المتعاهدين.

والعهد الذي نقضه هؤلاء الفاسقون هو وصية ٱللَّه إلى خلقه وأمره إياهم بطاعته ونهيه إيّاهم عن معصيته، ونقضهم ذلك هو تركهم العمل بما وصّاهم به. كما أن عهد ٱللَّه هو ما أخذه على أهل الكتاب بالعمل بما أنزله عليهم من الكتب الإلّهيّة واتباع محمد حين يُبعثُ نبيًّا والتصديق بما جاء به، ونقضهم ذلك هو جحودهم به بعد معرفتهم بحقيقته وإنكارهم ذلك وكتمانهم علم ذلك عن الناس بعد أن أخَذ ٱللَّه عليهم العهد بأن يبينوه للناس ولا يكتموه وفي هذا يقول ٱللَّه تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ. . .﴾ [آل عمران: ١٨٧].

والعهد يكون تارة بين الأفراد والجماعات في الأمّة الواحدة وتارة بين الأمم بعضها مع بعض فلا يجوز نقض هذه العهود، ويكون نقضها خروجاً عن طاعة ٱللَّه وهديه.

﴿وَيَقْطَعُونَ ما أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ﴾ وهو قطع صلة الأرحام والقرابات وكذلك صلة الأخوّة بين المؤمنين. فصلة الأرحام توجد نوعاً من التكافل الاجتماعي بين البشر فإذا حدث لشخص مصيبة أسرع أقاربه إلى الوقوف بجانبه ومدّ يد المعونة له والتخفيف عنه. وقطع صلة الأخوّة بين المؤمنين يؤدي إلى إضعافهم وشيوع الحقد والفرقة بينهم ﴿وَيُفْسِدُونَ في الأَرْضِ﴾ والإفساد في الأرض ضدّ إصلاحها، وإصلاحها يكون بالعمل بوصايا ٱللَّه، أما إفسادها فيكون بشيوع الفواحش والمنكرات والظلم والغشّ، كما يكون إفسادها بإفساد

البيئة التي نعيش فيها وينتقل ضررها إلى الإنسان والحيوان والنبات والماء ﴿أُولَئِكَ هُمُ الخَاسِرونَ﴾ أي أولئك المتصفون بهذه الصفات الذميمة هم الذين خسروا الحياة الطيبة في الدنيا وسوف يخسرون نعيم الآخرة بما أفسدوا في الأرض ونقضوا عهد ٱللَّه.

﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾.

شرح المفردات

استوى إلى السماء: تعلّقت إرادته تعالى بتسوية السماء.

خليفة: هو من يخلف غيره وينوب منابه، والمراد به آدم عليه السلام لأنه كان خليفة الله في الأرض.

ويَسْفِكُ الدّماء: يُريقها بالقتل عُدواناً وظُلماً.

نُسبّح بحمدك: ننزهك عما لا يليق بك ومتلبسين بحمدك.

ونُقدّس لك: نُطهر ذكرك عما لا يليق بك تعظيماً لك وتمجيداً، من التقديس بمعنى التطهير.

آدم خليفة ٱللّٰه في الأرض

وبعد أن عدد ٱللّٰه مساوئ أولئك الكافرين وبيّن ما يصيرون إليه من الخسران في الدنيا والآخرة وَجَّهَ إليهم الخطاب على الوجه المعروف في علم البلاغة باسم (الالتفات) حيث نقل الحديث عنهم من طريق الغائب إلى طريق الخطاب مباشرة:

﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتاً فَأَحْياكُمْ﴾ والغرض من هذا الاستفهام الإنكار والتوبيخ، أي عجباً من أمركم كيف تكفرون بٱللّٰه وتجحدون فضله ونعمه عليكم، وكنتم أمواتاً في حال العدم حيث كنتم في أصلاب آبائكم فأخرجكم ٱللّٰه أحياءً إلى الدنيا بعد أن نفخ فيكم الروح وأنتم في أرحام أمهاتكم ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾ أي بخروج أرواحكم في الدنيا بعد انقضاء آجالكم ﴿ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ ببعثكم أحياء بعد الموت يوم القيامة ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ ثم تصيرون إلى ٱللّٰه وحده دون سواه حيث يتولى حسابكم ويجزيكم على أعمالكم يوم القيامة.

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ ما فِي الأَرْضِ جَمِيعاً﴾ أي أنه سبحانه خلق جميع ما في الأرض من حيوانٍ ونباتٍ ومعادن وخيرات من أجلكم أنتم أيها الناس لتنتفعوا بها، وفي هذا النصّ دليلٌ على أن الأصل في الأشياء المخلوقة الإباحة من استعمالها حتى يقوم دليل على حرمتها، وقد أكد القرآن على ذلك بقوله ﴿جَمِيعاً﴾.

﴿ثُمَّ اسْتَوَى إلى السَّماءِ﴾ والمُراد من استوائه ـ تعالى ـ إلى السماء إقباله عليها بإرادته ليخلقها بغير صارفٍ يصرفه عن ذلك أو بمعنى علا إليها وارتفع من غير تكييف ولا تحديد ولا تشبيه مع كمال التنزيه عن مشابهة أحد ﴿فَسَوَّاهُنَّ

سَبْعَ سَمٰوٰتٍ﴾ ومعنى تسوية ٱللَّه تعالى للسماوات السبع تدبير خلقهن وتقويمه لهن مصونات من النقص والخلل ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ أي أن عِلم ٱللَّه شامل لكل ما في الكون لا يخفى عليه شيء.

ولكن ما المُراد بالسماوات السبع؟ ليس هناك رأيٌ جازم بحقيقة السماوات السبع، ولذلك يرى بعض العلماء أن نسلم الأمر لله ونؤمن بأن هناك سبع سماوات كما جاء في القرآن وإن كنا لا ندري كنهها. وهناك من ذهب في تفسير ذلك بأن الغلاف الجوي للأرض مُكوَّن من سبع سماوات أي سبع طبقات، والسماء في اللغة هي كل ما علاك فأظلك من سقف أو غيره، كما تطلق على الفضاء الواسع هذه القبة الزرقاء.

وهناك رأي جدير بالملاحظة كما ذهب كثير من المفسرين وهو أن المراد بالسماوات السبع الكواكب السبعة السيّارة في مجموعتنا الشمسية وهي الكواكب الآتية: عُطارد والزهرة والمريخ والمشتري وزحل وأُورانوس ونبتون، أما كوكب بلوتو الذي اكْتُشِفَ حديثاً فأقوى النظريات الحديثة لا تعتبره من مجموعتنا الشمسية إذ إن خصائصه تختلف عن بقية الكواكب في المجموعة الشمسية كما أن هذا الكوكب لا يُرى إلا بواسطة التلسكوب لبعده الشاسع.

ومما يؤيد ذلك أن ٱللَّه لفت أنظار العرب إليها في زمن نزول القرآن وأنها كانت مرئية لهم كما جاء في قوله تعالى ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا[1]. وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا﴾ [نوح: ١٥ ـ ١٦]،

(١) طباقاً: جاء في لسان العرب تطابق الشيئان: تساويا، والمطابقة: الموافقة، وطابَقْتُ بين الشيئين: جعلتهما على حذْوٍ واحد. فالكواكب السيارة تتوافق من حيث دورانها حول الشمس وتكوينها الجيولوجي مع بعضها البعض.

واقتران ذكر الشمس والقمر ضمن هذه الكواكب السيّارة يدلّ على أن المُراد بالسماوات السبع هذه الكواكب السيّارة التي مر ذكرها في مجموعتنا الشمسية.

ودليل آخر على ذلك ما نص عليه القرآن من أن طبيعة هذه الكواكب تشبه طبيعة الأرض كما جاء في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ [الطلاق: ١٢].

وهناك من المفسرين من قال إن كلمة سبع سماوات لا يراد بها العدد المحدود المذكور إنما يراد بها الكثرة من الأعداد كما ورد في بعض آيات القرآن ﴿وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ﴾ [لقمان: ٢٧]. ﴿إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٨٠]. فالسبع والسبعون يراد بها الكثرة ولا يراد بها عدد محدود.

﴿وَإِذْ قالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ﴾ أي واذْكُر يا محمد وقت أن قال ٱللَّه للملائكة ﴿إِنّي جَاعِلٌ في الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ وجاعل بمعنى خالق، أي إني خالق في الأرض خليفة يخلفني في تنفيذ أحكامي فَأُمَكِّنه من الأرض وأجعله صاحب سلطان فيها وهو آدم وذُرّيته. وقد استخلفهم ٱللَّه في عَمارة الأرض بما ميّزهم على سائر المخلوقات من المواهب والعقل، وبما سخَّر لهم ما في السماوات والأرض، وبما أنزل عليهم من الشرائع الإلَهيّة والأحكام ليحكموا فيها وينفذوا إرادة ٱللَّه في خلقه.

كما أن كلمة الخليفة تأتي بمعنى الخالف لمن كان قبله، أي أن آدم وذُريّته خلفوا من سبقهم في عمارة الأرض، ولهذا قالت الملائكة عندئذٍ: ﴿قالُوا أَتجْعَلُ فيها مَنْ يُفْسِدُ فيها وَيَسْفِكُ الدِّماء﴾ وهذا مما يُشعر بأنه كان في

الأرض صنف أو أكثر من نوع الحيوان[١] وأنه أفسد في الأرض وسَفَكَ الدماء، أو أن الملائكة قالوا ذلك لِعِلْمٍ قد علموه من ٱللَّه سبحانه بوجهٍ من الوجوه. والفساد: ضد الصلاح، وسفك الدماء حصول التقاتل بينهم مما يؤدي إلى إسالة الدماء.

وقول الملائكة هذا ليس على وجه الاعتراض على ٱللَّه ولا على وجه الحَسَد لبني آدم كما قد يتوهمه البعض، وإنما هو سؤال استعلام واستكشاف عن الحكمة في ذلك.

وتابع الملائكة قولهم: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ وأصل التسبيح في كلام العرب التنزيه والتبعيد من السّوء على وجه التعظيم، فيكون المعنى: ونحن ننزّهك عن كل سوءٍ ونقيصة. والحمد: الثناء، أي نُسبح لك حامدين لك، ومتلبسين بحمدك، والتقديس: التطهير، أي نُطَهّرك يا رب عن النقائص وعن كل ما لا يليق بك من سوء أو بمعنى: نُطهر قلوبنا عن الالتفات إلى غيرك حتى تصير مستغرقة في أنوار معرفتك.

وقد ردّ ٱللَّه على الملائكة بقوله: ﴿قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ ما لا تَعْلَمُونَ﴾ أي إني أعلم ما لا تعلمون من الدّواعي والأسباب من جعل آدم خليفة في الأرض حيث جعلت في ذُريّته الصلاحية لعمارة الأرض وجعلت فيهم الأنبياء والصالحين الذين يخصّونني بالعبادة ولا يضير أن بعضهم مُفسد، سَفّاك للدماء.

---

(١) علم الأنثربولوجيا يقرر أن الأرض سكنها أنواع شتى من المخلوقات القريبة الشبه من البشر قبل آدم معتمداً على تحليل وفحص الجماجم والعظام المتحجرة التي وجدت في أنحاء المعمورة والتي قدر العلماء أن بعضها يرجع عمره إلى مليون سنة وبعضها إلى ثلاثة أرباع المليون والبعض الآخر إلى ١٣٠ ألف سنة. وليس معنى ذلك أن هناك إنساناً كان قبل آدم فآدم هو أول البشر على سطح الأرض.

﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾﴾.

شرح المفردات

وعلّم آدم الأسماء كلها: ألهمه الله معرفة ذوات الأشياء التي خلقها ومعرفة أسمائها ومنافعها.

عرضهم: عرض الشيء: إظهاره وإبانته.

أنبئوني: أخبروني.

سبحانك: ننزهك عما لا يليق بك.

أعلم غيب السمٰوات والأرض: أعلم ما غاب في السماوات والأرض عنكم.

ما تُبدون: ما تُظهرون من الأفعال والأقوال.

تكتمون: تخفون.

اسجدوا لآدم: حيّوه بالانحناء.

قصة آدم مع الملائكة

ثم يبيّن ٱللَّه جانباً من علوم الغيب وذلك في قصة آدم مع الملائكة لِيُثبت بذلك صحة نبوة محمد ﷺ وأن القرآن وحي إلٰهي. ومن المعلوم أن محمداً كان أميًّا لا يقرأ ولا يكتب ولم يصاحب أحبار اليهود، كما أن هذه الأخبار الغيبية

تختلف في جوهرها عما جاء في التوراة، قال ٱللَّه تعالى:

﴿وَعَلَّمَ آدمَ الأَسْماءَ كُلَّها﴾ أي علَّم ٱللَّه آدم أسماء كل الأشياء من جميع المخلوقات دقيقها وجليلها، والأسماء جمع اسم، والاسم ما يكون علامة على الشيء، وتأكيد الأسماء بلفظ كلها ﴿الأسْماءَ كُلَّها﴾ يدلّ على أنه علَّمه أسماء كل ما خَلق ٱللَّه من المخلوقات من إنسان وحيوان ودابّة وطير وغير ذلك، ويصحّ حمل الأسماء على معرفة ذوات الأشياء، ومعرفة ما يخصها من المنافع والمضارّ.

يقول الشيخ متولي الشعراوي في تفسيره: «والعجيب أن الطريقة التي علَّم ٱللَّه سبحانه وتعالى آدم بها هي الطريقة نفسها التي تتبعها البشرية إلى يومنا هذا، فأنت لا تعلّم الطفل بأن تقصّ عليه الأفعال، ولكن لا بد أن تبدأ تعليمه بالأسماء والمُسمّيات تقول له: هذا كوب، وهذا جبل، وهذا بحر، وهذه شمس، وهذا قمر، وبعد أن يتعلّم المُسمَّيات يستطيع أن يعرف الأفعال ويتقدم في التعليم بعد ذلك».

﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ على المَلائِكَةِ﴾ أي ثم عرض ٱللَّه المُسمّيات المدلول عليها بالأسماء على الملائكة ﴿فَقالَ أَنبِئُوني بِأَسْماءِ هؤُلاءِ﴾ أي قال ٱللَّه تبكيتاً لهم وإظهاراً لعجزهم: أخبروني بأسماء هؤلاء ﴿إنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ أي في زَعْمِكم أنكم أحقّ من آدم بالخلافة في الأرض.

ولكن الملائكة عجزوا واعترفوا بجهلهم عن العلم بهذه الأسماء قائلين: ﴿قالُوا سُبْحانَكَ لا عِلْمَ لَنا إلاّ ما عَلَّمْتَنَا﴾ أي نُنزّهك يا رب التنزيه اللائق بك، فلا يمكن أن تخلو أفعالك من الحكمة، وما كان سؤالنا إلاّ لنتعلم ونعرف الحكمة من استخلافك آدم في الأرض، وإننا لا نعلم أي شيء إلا ما علَّمتنا إياه

﴿إِنَّكَ أَنْتَ العَلِيمُ الحَكِيمُ﴾ العليم والحكيم: من صيغ المبالغة في اللغة، أي إنك يا رب عليم بكل شيء، ذو الحكمة الشاملة في تدبير خلقك.

ثم وجّه ٱللَّه الخطاب لآدم:

﴿قالَ يا آدَمُ أَنبِئْهُمْ بِأَسْمائِهِمْ﴾ أي أخبِرهُم يا آدم بأسماء هذه المُسمَّيات التي عجزوا عن معرفتها ﴿فَلَمّا أَنبَأَهُم بِأَسْمائِهِم﴾ فلما أخبرهم آدم بأسماء المُسمَّيات التي فاتتهم معرفتها ظهر لهم فضل آدم عليهم، عندئذ خاطب ٱللَّه الملائكة بقوله: ﴿قالَ أَلَم أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيبَ السَّمٰواتِ والأَرْضِ وأَعْلَمُ ما تُبْدُونَ وما كُنتُم تَكْتُمُونَ﴾ أي ألم أقُلْ لكم إني أعلم ما غاب عنكم في السماوات والأرض وأعلم ما تظهرونه وما كنتم تخفونه في أنفسكم من أنكم أفضل من آدم وأحقّ منه بالخلافة؟

ثم يبيّن ٱللَّه ما خصَّ آدم من تفضيل وإكرام على غيره من المخلوقات:

﴿وإِذْ قُلْنا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدوا لآدَمَ﴾ أي واذكُر يا محمد حين قلنا للملائكة اخضعوا لآدم تحيةً له وإقراراً بفضله. والسجود في اللغة: الخضوع والتذلل، وسجود الملائكة لآدم كان على وجه التحيّة والتكريم والتعظيم. وقد يكون السجود بانحناء كالركوع. والسجود في عُرف الشريعة الإسلامية وضع الجبهة على الأرض بقصد العبادة وليس السجود لآدم عبادة لأن عبادة غير ٱللَّه هي الشرك وهو أعظم الآثام.

﴿فَسَجَدُوا إلاّ إبليسَ أبى وَاسْتَكْبَرَ﴾ فسجد الملائكة جميعاً لآدم باستثناء إبليس فإنه امتنع عن فعل ما أمره ٱللَّه تكبراً واستعلاء عن السجود لآدم، وقد بيَّنَ القرآنُ في موضع آخر ما قاله إبليس لربه مُبَيِّناً سبب امتناعه عن السجود: ﴿قَالَ

أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ [ص: ٧٦] وقال إبليس أيضاً ﴿ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾ [الإسراء: ٦١] .

وإبليس[1] ليس من الملائكة بل كان من الجنّ لقوله تعالى: ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾ [الكهف: ٥٠]، فإبليس هو أبو الجن كما أنَّ آدم أبو البشر ثم إنَّ الملائكة لهم خاصيّة يُعرفون بها كما قال ٱللَّه تعالى في حقهم ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦]، وإبليس قد عصى ربه وهذا يعني أنه ليس من الملائكة، كما أن إبليس خُلق من نارٍ بينما الملائكة خُلقت من نُور.

ويختم ٱللَّه الكلام عن إبليس بقوله: ﴿وكانَ مِنَ الكَافِرِينَ﴾ أي صار بسبب عصيانه لأمر ربه واستكباره من الكافرين بٱللَّه، الجاحدين لنعمه، البعيدين عن رحمته.



(١) إبليس: مشتق من الإبلاس وهو اليأس من رحمة الله، ولم ينصرف لأنه معرفة، ولا نظير له في الأسماء فشبّه بالأسماء الأعجمية التي تمنع من الصرف.

﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٩﴾﴾.

شرح المفردات

رَغَداً: أكلاً هنيئاً وافراً بلا عَناء.

فأزلّهما الشيطان: فأوقعهما الشيطان في الزلل والخطيئة وأبعدهما عن الجنّة.

اهبطوا: الهبوط هو النزول من أعلى إلى أسفل.

مُسْتَقَرٌّ: مكان تستقرون فيه.

ومتاعٌ إلى حين: وما تتمتّعون به من خيرات الأرض وتنتفعون به إلى وقت انقضاء آجالكم.

كلمات: هي كلمات التوبة والاستغفار التي ألهمه الله أن يَدْعُوَ بها.

فتاب عليه: قَبِل الله توبته.

غواية الشيطان لآدم

ويتابع القرآن فيذكر غِواية الشيطان لآدم واستجابة آدم له مما سبب له الخسران:

﴿وقُلْنا يا آدمُ اسكُنْ أنتَ وَزَوْجُكَ الجَنّةَ﴾ فاللّه سبحانه تحدّث عن نفسه بصيغة الجمع تعظيماً لقدره لأنه ملك الملوك حيث أمر آدم أن يتخذ الجنة مأوى

ومنزلاً ومسكناً مع زوجته. والزوج كما جاء في الآية هي حَوّاء. ويُطلق لفظ الزوج على الرجل والمرأة. والجَنَّة في اللغة: هي كل بستان ذي شجر متكاثف ملتف الأغصان يظلل ما تحته.

وقد اختلف العلماء في الجنة التي أسكنها ٱللَّه لآدم، هل هي في السماء أم في الأرض؟ فذهب جمهور من العلماء إلى أنها في السماء وهي جنّة الخلد، أي دار النعيم التي وعد ٱللَّه بها المتقين في الآخرة.

وتابع ٱللَّه قوله لآدم وزوجه **﴿وَكُلا مِنها رَغَداً حَيثُ شِئْتُما﴾** والرَّغَدُ: الواسع الهنيء، أي كُلا من ثمر الجنة أكْلاً واسعاً هنيئاً من أيّ مكان شئتما من الجنة، **﴿ولا تَقْرَبَا هذِهِ الشَّجَرَةَ﴾** القرب: الدُّنُوّ، وجاء لفظ **﴿ولا تَقْرَبَا﴾** عِوَضاً عن لفظ الأكل للمبالغة في النهي عن الأكل منها، إذ في النهي عن القرب من الشيء المأكول ما يمنع الأكل منه، وبالأخص إذا كان في هيئته مما يغري بالأكل منه **﴿فَتَكُونا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾** المراد من ظُلْمهما ظلم نفسيهما بالأكل من الشجرة التي نهاهما ٱللَّه عنها مما سبب لهما الحرمان من النعيم الذي كانا يعيشان في الجنة.

وهنا سؤال: ما نوع هذه الشجرة التي نهى ٱللَّه آدم عن الأكل منها؟ لقد ذكر المفسرون في تعيينها أقوالاً شتى، يقول الطبري في تفسيره: «ولا علم عندنا بأي شجرة كانت على التعيين لأن ٱللَّه لم يضع لعباده دليلاً على ذلك في القرآن ولا في السنّة الصحيحة.. وقد قيل: كانت شجرة البرّ، وقيل: كانت شجرة العنب، وقيل: كانت شجرة التين، وجائز أن تكون واحدة منها».

ثم بَيَّن القرآن الحالة التي وصل إليها آدم وحواء بعد أن عَصَيا ربهما وأكَلا من ثمر الشجرة التي نهاهما ٱللَّه عنها:

﴿فَأَزَلَّهُما الشَّيطَانُ عَنهَا﴾ أي أغوى الشيطان آدم وحَوّاء فوقعا في الزَّلل

وهو الخطأ والذنب بسبب وسوسته لهما للأكل من الشجرة فأكّلا منها، وهناك قراءة ﴿فَأَزَالَهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا﴾ أي أبعدهما الشيطان عن الجنة ﴿فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾ والتعبير عن الجنة وما فيها من نعيم بقوله تعالى ﴿مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾ أبلغ من تعداد النعم التي كانا يتنعمان فيها، فإن من أساليب البلاغة في الدلالة على عظم الشيء أن يُعَبَّرَ عنه بلفظ مبهم لتذهب نفس السامع في تصور عظمته وكماله إلى أقصى ما يمكنها تخيّله.

وقد يقال: كيف تَوَصَّل إبليس إلى إغواء آدم وحواء بالوسوسة وهما في الجنة بعد أن قيل له كما في سورة الحجر ﴿فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾ [آية: ٣٤]؟ قيل في ذلك إنما منع من الدخول إلى الجنّة على وجه التكرمة كما يدخلها الملائكة، ولم يمنع من الدخول للوسوسة ابتلاء لآدم وحواء، وقيل: إنه خلص إلى آدم وزوجه بالسلطان الذي جعله ٱللَّه له ليبتلي به آدم وذريته.

﴿وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ والخِطاب لآدم وحواء وإبليس، والمعنى: انزلوا من الجنة وانتقلوا منها إلى الأرض حيث يكون بعضكم عدوًّا للآخر بما أودع ٱللَّه فيكم من غرائز بعضها للخير وبعضها للشر استغلّها الشيطان بوساوسه وأثار العداوة بينكم. وها نحن نرى العَداوة مُتَأَصِّلة بين الأُمم والجماعات والأُسَر والأفراد بتأثير وساوس الشيطان.

﴿وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾ أي لكم في الأرض موضع استقرار وتمتّع بالعيش فيها إلى وقت انتهاء آجالكم بالموت. ومن كان على ذكر دائم من أن استقراره في الأرض وتمتعه بنعيمها سينتهي يوماً ما بالموت فَشَأْنُهُ أن يُسارع إلى العمل الصالح ويكفّ عن الظلم والخطايا التي سَيُعاقَبُ عليها يوم القيامة.

﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ﴾ وتلقي آدم للكلمات هو أخذه لها، وقبوله لما فيها، وعمله بها حين أوحاها ٱللَّه إليه، وأظهر ما قيل في تعيين هذه الكلمات هي ما أشار ٱللَّه إليه بقوله على لسان آدم وحواء: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣].

﴿فَتَابَ عَلَيْهِ﴾ التوبة في أصل اللغة: الرجوع، والتوبة من ٱللَّه: الرجوع على عبده بالرحمة والتوفيق، والتوبة من العبد: الرجوع عن المعصية، والندم على الذنب، مع تركه للذنب فيما يستأنف من الزمان ﴿إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ التواب والرحيم من صيغ المبالغة، أي أن ٱللَّه كثير القبول للتوبة من عباده عظيم الرحمة بهم، وهذا يفيد أن الإنسان قد تتكرر منه المعصية ولكن ٱللَّه يقول لمثل هذا المذنب: ارجع إليَّ بالطاعة ولا تيأس من رحمتي فأنا أقْبَل توبتك ولو تكررت معصيتك.

والتوبة التي شرعها ٱللَّه هي رحمة بالناس، فالإنسان إذا عصى ربه وعرف أنه لا توبة لذنوبه ولا غفران لها وأنه محكوم عليه بالعذاب في الآخرة جزاء ما فعل لا ريب أن ذلك يُؤَدي به إلى التمادي في عصيانه لله بسبب قنوطه من رحمة ٱللَّه.

﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعاً﴾ كرَّر اللهُ الأمر لآدم وحوّاء وما سَيَنْشَأُ عنهما من ذُرّية بالنزول إلى الأرض ليبين لهم ما سيترتب عليهم من واجبات ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى﴾ فإما يأتينكم مني إرشاد إلى الدين الحق بواسطة رُسُلي الذين يُبَلِّغونكم شريعتي ﴿فَمَنْ تَبِعَ هُدايَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ فمن عمل منكم بإرشاداتي وأطاع رُسُلي فهم آمنون يوم القيامة من أن يلحقهم مكروه ولا هم يحزنون على ما فاتهم من أمور الدنيا فنعيم الجنة ينسيهم ذلك ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ والذين جحدوا آيات القرآن وكذّبوا بأنها

مُرسلة من عندي أو جحدوا الأدلة على وحدانيتي وربوبيتي لهذا الكون ﴿**أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ**﴾ أي أولئك مصيرهم في عذاب النار يوم القيامة خالدين فيها أبداً.

﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ ﴿٤٠﴾ وَءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوٓا۟ أَوَّلَ كَافِرٍۭ بِهِۦ ۖ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّٰىَ فَٱتَّقُونِ ﴿٤١﴾ وَلَا تَلْبِسُوا۟ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُوا۟ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤٢﴾ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرْكَعُوا۟ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾﴾.

شرح المفردات

إسرائيل: هو لقب النبي يعقوب عليه السلام جدّ بني إسرائيل.

وأوْفوا بعهدي: أدُّوا التكاليف التي عهدت إليكم بها.

أُوفِ بعهدكم: أُعْطِكُم ثوابي الذي عاهدتكم عليه وافياً.

فارهبون: فخافون.

بما أنزلتُ: أي بالقرآن الذي أنزلته.

مُصدِّقاً لما معكم: أي مصدقاً للتوراة.

ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلاً: ولا تجعلوا بدلاً من العمل بآياتي منافع الدنيا وملذاتها فإنها قليلة.

ولا تَلبسوا: ولا تخلطوا.

دعوة بني إسرائيل إلى الإسلام

وبعد أن بين ٱللَّه نعمته على البشر ومن بينها خلق آدم وإظهار فضله على الملائكة بما أُوتي من علم، شرع يُبيّن فضله على بني إسرائيل بقوله:

﴿يا بَنِي إسرائيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمتُ عَلَيْكُم﴾ وإسرائيل: هو لقب النبي يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليه السلام. ولفظ إسرائيل مؤلف من كلمتين: إسرا ومعناه باللغة العبرية: عبد، وإيل: هو اسم ٱللَّه تعالى، فيكون معنى إسرائيل: عبد ٱللَّه.

وَمُناداة اليهود بلقب ﴿يا بني إسْرائِيلَ﴾ تذكيرٌ لهم بأن نسبهم يرجع إلى أصلٍ طَيّب، ولتَكون مُناداتهم بذلك حثًّا لهم إلى الإقبال على ما يأتي بعد هذا النداء من وصايا لهم يجب عليهم اتباعها.

فٱللَّه سبحانه يذكّرهم بنعمه عليهم لشكره واتباع هديه، ومن هذه النعم إرسال الرسل إليهم وإنقاذهم مما كانوا فيه من الاضطهاد من فرعون وقومه وتمكينهم في الأرض، وتظليل الغمام عليهم وهم في صحراء التيه وإنزال المنّ والسلوى عليهم وغير ذلك من النعم.

وإنما ذكّر ٱللَّه بني إسرائيل بالنّعم التي كانت لآبائهم لأن أثرها واصل إليهم وفضلها عائد عليهم.

﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي﴾ والوفاء بعهد ٱللَّه يكون باتباع ما أمر به واجتناب ما نهى عنه.

ويندرج في هذا العهد ما أخذه ٱللَّه على بني إسرائيل في التوراة من وُجوب اتّباع الرسول محمد ﷺ عندما يبعثه ٱللَّه نبياً وتصديقه فيما يخبر به عن ربه ﴿أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ أي أن ٱللَّه يفي بما عاهدهم عليه من النصر على الأعداء إذا وفوا بعهد ٱللَّه ﴿وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾ أي ولتكن قلوبكم عامرة بخشية ٱللَّه فإنها داعية إلى طاعته فيما يأمر به وينهى عنه، وتقديم الضمير ﴿إِيَّايَ﴾ على الفعل ﴿فَارْهَبُونِ﴾ يفيد الحصر بمعنى: لا تخشوا أحَداً غير ٱللَّه.

﴿وَآمِنُوا بِما أَنزَلْتُ مُصَدِّقاً لِما مَعَكُمْ﴾ وصَدِّقُوا ـ يا بني إسرائيل ـ بالكتاب المُنَزَّل على محمد وهو القرآن فإنه مصدّق لما بين أيديكم من التوراة بما فيها من الدعوة إلى الإيمان بٱللَّه وتوحيده والعدل بين الناس والنهي عن المعاصي، وما جاء في التوراة خلاف ذلك من وصف الأنبياء بالمنكرات من الأفعال فهو من تحريف كتاب ٱللَّه. ويدخل في تصديق القرآن للتوراة إعلامه بما جاء فيها من البشارات على مجيء نبيّ تنطبق صفاته على صفات النبي محمد مطابقة جليّة وإن ما أعلنه القرآن بأنه مصدّق للتوراة يثير اهتمام بني إسرائيل ويدعوهم إلى دراسة القرآن وتدبّر آياته، وهذا يهيىء نفوسهم إلى اعتناق الإسلام لما يجدون فيه من الحقائق والبراهين القوية على أنه مُنزل من عند ٱللَّه.

﴿ولا تَكُونُوا أوَّلَ كافِرٍ بِهِ﴾ ولا تكونوا أيها اليهود أوَّل المبادرين إلى الكُفر بالنبي محمد بعد المشركين من العرب، بل ينبغي أن تكونوا أوّل المؤمنين به لما عرفتم من صفاته التي تنطبق على النبي التي وعدتكم التوراة بمجيئه.

﴿وَلاَ تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَناً قَلِيلاً﴾ الاشتراء هنا بمعنى الاستبدال، والآيات: هي الدلائل التي أيَّد اللهُ بها رسوله مُحَمَّداً ﷺ وأعظمها القرآن، أو الآيات المنزلة عليهم في التوراة والإنجيل المتضمنة الأمر بالإيمان برسول ٱللَّه محمد ﷺ، والثمن القليل: هو ما كان رؤساؤهم وأحبارهم يحرصون عليه من الرياسة والمال والجاه التي يخافون ضياعها وفقدانها لو اتبعوا الرسول محمداً ﷺ، وإنما وصف ٱللَّه الثمن بالقلة لأن متاع الدنيا قليل وزائل فلا يدوم ﴿وإيَّايَ فَاتَّقُونِ﴾ وتقديم الضمير ﴿إيَّايَ﴾ على الفعل يفيد الحصر بأن يخافوا ٱللَّه وحده ويتقوا عقابه بطاعته وترك عصيانه.

﴿ولا تَلْبِسُوا الحَقَّ بالبَاطِلِ﴾ أي لا تخلطوا الحق بالباطل والصدق

بالكذب فخلط الحق بالباطل هو ترويج للباطل في صورة الحق كأن يكتبوا في التوراة ما ليس فيها، فيختلط الحقّ المُنزل من عند ٱللَّه بالباطل الذي كتبوه بأيديهم ﴿وَتَكْتُمُوا الحَقَّ﴾ أي لا تكتموا ما عندكم من المعرفة بأن محمداً رسول ٱللَّه الذي تجدون صفته ونعته في التوراة والإنجيل ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي وأنتم تعلمون أن ما جاء به من الوحي هو من عند ربه وأنه رسول ٱللَّه إلى الناس جميعاً، فكتمانهم كان عن عمد وإصرار بقصد صرف الناس عن اتباع الرسول محمد ﷺ.

﴿وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ﴾ وإقامة الصلاة أداؤها مستوفية لأركانها وشروطها، مع التوجّه إلى ٱللَّه بالقلب والخشوع له، والإخلاص في العبادة، والمراد بالصلاة: الصلاة التي يقيمها المسلمون ﴿وَآتُوا الزَّكاةَ﴾ والإيتاء: الإعطاء، والزكاة المُراد بها الصدقة المفروضة، وأصل معنى الزكاة في اللغة: النماء والزيادة والطّهارة، وسُمي إخراج المال للفقراء زكاة من حيث إنه ينمّي مال المزكّي فتكثر بركته ويرفع ٱللَّه البلاء عنه، كما أن الزكاة تطهر المزكي من الذنوب.

﴿وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ والركوع في اللغة: الانحناء، وهو في عُرف الإسلام أن يخفض المُصَلّي رأسه ويمدّ ظهره وعنقه ويقبض على ركبتيه، والركوع كناية عن الصلاة من باب إطلاق اسم الجزء على الكل لأن الركوع رُكْنٌ من أركان الصلاة عند المسلمين، وبما أن اليهود لا ركوع في صلاتهم، لذا خصَّ ٱللَّه الركوع بالذكر حثّاً لبني إسرائيل على الإتيان بصلاة المسلمين. وفي قوله سبحانه ﴿مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ حَثٌّ على إقامة الصلاة جماعة. ويأتي الركوع بمعنى الخضوع لله بالطاعة.

﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾ وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿٤٦﴾﴾.

شرح المفردات

البِرُّ: اسمٌ يتناول كل عمل من أعمال الخير.

تَنسَوْنَ أنفسكم: تتركون العمل بما تدعون الناس إليه من طاعة ٱللَّه.

لَكَبِيرَةٌ: لَثَقيلة وشاقّة.

الخاشعين: الخشوع لله هو الخضوع والاستكانة له.

يظنّون: يعلمون ويُوقنون.

توجيهات لخير الإنسان

وبعد أن ذكّر ٱللَّه بني إسرائيل بنعمه عليهم وأنكر عليهم كفرهم، جاء التوبيخ لأحْبارهم حيث كان سلوكهم يُنافي ما يدعون الناس إليه من البِرّ، قال تعالى مخاطباً إياهم:

﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بالبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾ والبِرُّ: كما جاء في لسان العرب، الصدق والخير والصلاح والطاعة، وفلان يبرّ ربه أي يطيعه. ومعنى ﴿وَتَنْسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾ والنِّسيان هنا: الترك، لأن أحداً لا ينسى نفسه. والاستفهام في الآية توبيخ موجّه إلى أحبارهم بسبب تركهم العمل بما يرشدون الناس إليه من أعمال البِرّ، فقد كانوا يحضُّون الناس على طاعة ٱللَّه وكانوا هم يقترفون المعاصي.

وتابع ٱللَّه مخاطباً إياهم: ﴿وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الكِتابَ﴾ والحال أنكم أيها

الأحبار تقرأون كتاب التوراة وتدرسونه وتتعلمون ما فيه من الحث على أفعال البر، والتحذير من تركه ﴿أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾ أي ألا تستعملون عقولكم وتدركون قُبح فِعلتكم هذه التي تنافي ما تدعون الناس إليه؟ وهل من العقل أن ينصح الإنسان غيره ويدعوه إلى طاعة ٱللَّه ثم يترك نفسه في أوحال الرذيلة والمنكرات؟

والخطاب وإن كان لأحبار بني إسرائيل، فهو يشمل كل من يفعل فعلهم من الوُعّاظ لأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، فكل واعظ يأمر الناس بالبر ولا يعمل بما يقول ينطبق عليه هذا التوبيخ من ٱللَّه تعالى.

وتجدر الإشارة إلى أن الواعظ الذي يدعو الناس إلى البِرّ لا بد وأن يكون قُدوة للناس في فعل الخير، لأن من يفعل المنكرات ثم يدعو الناس إلى تركها فإنه يكون بذلك قُدوة سوء. ولنا درسٌ من النبي شعيب عليه السلام حيث قال لقومه ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ﴾ [هود: ٨٨].

وقد قال أحد الحكماء:

لا تَنْـهَ عن خُـلُـقٍ وتأتي مثلــه عــارٌ عليك إذا فعلْـتَ عظيـمُ

﴿واسْتَعِينُوا بالصَّبْرِ والصَّلاةِ﴾ والاستعانة: طلب المعونة. والصبر: حَبْس النفس عن الشهوات وكفّها عن هواها، واحتمال مكاره الحياة ومصائبها بنوع من الرّضا والتسليم لأمر ٱللَّه.

والآية تدعو إلى الاستعانة بالصبر لأن كل خصال الخير تنشأ عن الصبر، وهو الدعامة الأولى للتغلب على مشاقّ الحياة ومصائبها، والفوز بكل ما يطمح إليه الإنسان.

كما دعا ٱللَّه إلى الاستعانة بالصلاة لأنها تعين على النهوض بالأعمال

الجليلة، ففي الصلاة يناجي الإنسان ربه ويطلب العون والهداية منه ويذكر جلاله وعظمته ورحمته وفضله، ويذكر أنه سبحانه يُراقبه ويُحصي أعماله.

واللافت للنظر اقتران الصلاة بالصبر، فإذا كان الصبر بمثابة أُمّ الفضائل لأنه استفراغ كل الجهد في سبيل تحمّل المشاقّ والمصائب، فإن الصلاة عامل قويّ لإشاعة الطمأنينة في النفس وتقوية معنوياتها من جرّاء مُناجاة ٱللَّه وذكره، وقد جاء في القرآن ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨].

وقد يكون وقع المصيبة على النفس أقوى مما تستطيع تحمّله ويكون الصبر وحده لا يفي بالغَرَض لذا كانت الصلاة متمّمة لما تعجز النفس عن تحمّله، ولهذا رُوي «أن النبي ﷺ إذا حَزَبَهُ أمر ـ أي أصابه غَمّ ـ لجأ إلى الصلاة»[1].

﴿وإنّها لَكَبِيرَةٌ إلاّ عَلى الخَاشِعِينَ﴾ لكبيرة: أي إن الصلاة ثقيلة وشاقّةٌ إلاّ على الخاشعين لله. والخشوع: التواضع والتذلل والاستكانة.

وقيل: الخشوع حالة في النفس يظهر منها على الجوارح سكون وتواضع.

والمعنى: إن الصلاة صعبة وشاقة على من لا يخشع قلبه في صلاته لربه وهذا ينطبق على من لا يعتقد أنَّ في فِعلها ثواباً ولا في تركها عِقاباً.

فالخشوع لله في الصلاة يجعل الإنسان يستحضر عظمة الخالق وجلاله ويدرك ضآلة نفسه وعجزها، فيسلم أمره إليه تعالى، ويخضع لكل ما يقدره عليه من مصائب.

﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ أنَّهُمْ مُلاقُوا رَبِّهِمْ﴾ والظَّنُّ هنا بمعنى اليقين والعلم، أي إن الصلاة صعبة إلاّ على الذين يخشعون لله ويوقنون أنهم سيحشرون إليه يوم القيامة لمجازتهم على أعمالهم ﴿وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ ويعلمون أنهم إلى ربهم راجعون بعد مماتهم.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد.

فما دُمْتَ أيها الإنسان قد جئت إلى الدنيا مخلوقاً من ٱللَّه، فأنت لا محالة سترجع إليه بعد الموت لتنال ما تستحق من جزاء يوم القيامة على أعمالك في الدنيا إنْ كان خيراً فخير، وإنْ كان شرًا فشرّ.

﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ٤٧ وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا شَفَٰعَةٞ وَلَا يُؤۡخَذُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ٤٨ وَإِذۡ نَجَّيۡنَٰكُم مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ يَسُومُونَكُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبۡنَآءَكُمۡ وَيَسۡتَحۡيُونَ نِسَآءَكُمۡۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَظِيمٞ ٤٩ وَإِذۡ فَرَقۡنَا بِكُمُ ٱلۡبَحۡرَ فَأَنجَيۡنَٰكُمۡ وَأَغۡرَقۡنَآ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ وَأَنتُمۡ تَنظُرُونَ ٥٠﴾.

شرح المفردات

على العالَمين: على جميع الناس الذين كانوا في زمانهم.

لا تجزي: لا تُغني، لا تقضي.

عَدلٌ: فِدية.

يَسُومونكم: يُذيقونكم.

ويستحيون نساءكم: يتركون بناتكم ونساءكم أحياءً للخدمة فلا يقتلوهن.

بَلاءٌ: ابتلاء.

فرقنا بكم البحر: فَصَلْنَا لأجلكم البحر بعضه عن بعض وجعلنا فيه طرقاً لتعبروها.

فضل اللَّه على بني إسرائيل

ثم يُذَكِّرُ ٱللَّهُ تعالى بني إسرائيل بنعمه التي أسبغها عليهم محذراً إياهم من عذاب يوم القيامة إذا عصوا أمره وخرجوا عن طاعته، قال تعالى:

﴿يا بَني إسرائيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ التي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُم﴾ هذا النداء من ٱللَّه لبني إسرائيل لتذكيرهم بنعمته عليهم حثًّا لهم على القيام بواجب الشكر والطاعة لربهم على ما أولاهم من النعم التي سيأتي ذكرها فيما بعد ﴿وَأَنّي فَضَّلْتُكُمْ عَلى العالَمِينَ﴾ أي فَضَّلتُ أسلافكم وآباءكم على أهل زمانهم، وكان هذا التفضيل لآبائهم لأنهم كانوا أصحاب دين سماوي وغيرهم من الأمم كانوا يعبدون الأصنام. وعلى هذا فلا يتناول هذا التفضيل مَنْ مضى قبلهم ولا من سيوجد بعدهم، وهذا التفضيل وإن كان في حق الآباء، ولكن يحصل به الشرف للأبناء فلا يجدر بهم أن يُضَيِّعوا هذا الشرف بعصيان ٱللَّه.

وبهذا لا يُفهم من ذلك تفضيلهم على أمة محمد إذ قد أعلن القرآن بأن المسلمين هم خير أمة أُخرجت للناس عندما قامت بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، قال ٱللَّه تعالى مخاطباً أمة محمد ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

ثم يُحذِّر ٱللَّه بني إسرائيل من العقاب لهم يوم القيامة بقوله:

﴿وَاتَّقُوا يَوْماً﴾ اتقوا: احذروا، واليوم: هو يوم القيامة، والحَذَرُ من هذا اليوم وما يجري فيه من فزع وعذاب يكون بالسير على صراط ٱللَّه المستقيم ﴿لاَ تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَفْسٍ شَيئاً﴾ لا تجزي: لا تقضي، أي لا تقضي نفسٌ عن نفسٍ شيئاً من الحقوق أو شيئاً من الجَزاء ﴿وَلاَ يُقْبَلُ مِنْها شَفاعَةٌ﴾ وقد كان يهود بني إسرائيل يقولون: نحن أبناء ٱللَّه وأحِبّاؤه وأولاد أنبيائه وسيشفع آباؤنا لنا عند ٱللَّه، فأخبرهم ٱللَّه أنه لا يقبل منهم شفاعة لمن مات على كفره غير تائب إلى ٱللَّه عز وجل. فالآية نفت الشفاعة للذين كفروا بربّهم، أما الشفاعة للمؤمنين المُقصّرين في واجباتهم الدينية فتقبل إذا أذن ٱللَّه ورضي للشافعين أن يقوموا بشفاعتهم كما جاء في القرآن: ﴿. . مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ..﴾ [يونس: ٣].

فقد رُوي عن النبي ﷺ: «أسعَدُ النَّاس بشفاعتي يوم القيامة من قال: لا إلَه إلاّ ٱللَّه خالصاً من قلبه أو نفسه»[١] كما روي عن النبي ﷺ أيضاً قوله: «شفاعتي لأهل الكبائر[٢] من أمَّتي»[٣].

ويتابع القرآن قوله في الكافرين ﴿ولا يُؤْخَذُ مِنها عَدْلٌ﴾ والعَدلُ: الفدية. أي لا يؤخذ من أحَدٍ فدية بدلاً من كفره، بالغاً البدل ما بلغ من القيمة كما قال تعالى في موضع آخر من القرآن: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ﴾ [آل عمران: ٩١].

ثم يختم ٱللَّه الآية بقوله: ﴿وَلاَ هُمْ يُنْصَرُونَ﴾ والنصر: يراد به المعونة، أي لا يستطيع أحَدٌ أن يُقدّم لهم المعونة للتخلص من العذاب المحدق بهم.

﴿وإِذْ[٤] نَجَّيْنَاكُمْ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ وفرعون لقب يطلق على كل ملك من ملوك مصر قديماً والمعنى: واذكروا يا بني إسرائيل وقت أن خلصناكم من ظُلم فرعون وأعوانه، لقد خوطب بنو إسرائيل بهذه النعمة مع أن هذا الإنجاء كان لأسلافهم وأجدادهم، ولو استمر عذاب فرعون لهم لأفناهم عن بكرة أبيهم.

﴿يَسُومُونَكُمْ سُوءَ العَذَابِ﴾ أي يذيقونهم أشدّ العذاب وأفظعه ﴿يُذَبِّحُونَ أبْناءَكُم﴾ يذبّحون: بتشديد الباء الذي يدل على كثرة الذبح الذي هو إزهاق الروح عن طريق قطع شريان الحلق، والأبناء: المراد بهم الأطفال الذكور ﴿وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾ والاستحياء: الاستبقاء أحياء، أي يُبقون بناتكم أحْياء

---

(١) أخرجه البخاري.

(٢) الكبائر: أي كبائر الذنوب مثل الشرك بالله وعقوق الوالِدَيْن وشهادة الزُور وغيرها.

(٣) أخرجه الإمام أحمد والترمذي وأبو دواد.

(٤) إذ: بمعنى وقت فهي مفعول به لفعل ملاحظ في نظم الكلام وهو (واذكروا).

عند الولادة فلا يقتلوهن، وأطلق اسم النساء على البنات لأنهن يصرنَ نساء، وغايتهم من تركهن أحياء هي الخدمة لهم عندما يكبرن وللمتعة كذلك ﴿وفي ذَٰلِكُمْ بَلَاءٌ مِن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ أي وفي قتل الذكور واستحياء النساء بلاء عظيم، والبلاء: هو الاختبار والامتحان، وقد يكون بالضَّرّاء ليصبروا أو ليقلعوا عما هم عليه من المعاصي، وقد يكون بالسَّرَّاء ليشكروا ربهم، كما فُسِّر البلاء هنا بالمحنة. ووصف البلاء بالعظم (عظيم) لأن تذبيح الأبناء وإبقاء البنات أحياء هو أعظم محنة تنزل بالأمة، فإن فناء الرجال يقتضي انقطاع النسل، وفساد مصالح النساء في أمر المعيشة.

﴿وإذْ فَرَقنا بِكُمُ البَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُم﴾ الفرْق: الفصل، أي واذكروا يا بني إسرائيل حين فصلنا لكم البحر بين مياهه فصار فيه طُرُق فَسِرْتم فيها هرباً من فرعون وجُنده وبذلك تمت لكم النجاة من الهلاك على أيديهم ﴿وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرعَونَ وَأَنتُم تَنظُرونَ﴾ بينما أطبق ٱللّٰه البحر على فرعون وجنده وأغرقهم حينما ساروا خلفهم في طرق البحر ﴿وَأَنتُم تَنظُرونَ﴾ وأجدادكم يشاهدون غرقهم، ولا شيء يشفي غليل النفس مثل رؤية مصرع عدوّها الذي يحاول قتلها.

فالآية تشير إلى قصة نجاة بني إسرائيل التي ذكرها القرآن في مواضع أخرى وسنذكر هنا ملخّصها.

جاء الأمر الإلٰهي لموسى بالخروج من مصر فانطلق بقومه بني إسرائيل سرًّا في الليل قاصداً بلاد الشام. عَلِمَ فرعون أن موسى وقومه قد خرجوا من مصر فتبعهم بجيش كبير وأدركهم مع طلوع الشمس قرب ساحل البحر الأحمر. أيقن بنو إسرائيل بهلاكهم عندما رأوا طلائع جيش فرعون وراءهم واستولى الذعر على نفوسهم فقالوا لموسى: لقد لحق بنا فرعون ولا طاقة لنا به فماذا نفعل والبحر أمامنا؟ قال لهم موسى كما جاء في القرآن: ﴿إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾

[الشعراء: ٦٢]، وفي هذه الأثناء أوْحى ٱللَّه إلى موسى ﴿أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ﴾ [الشعراء: ٦٣]، ففعل، فبقدرة ٱللَّه صار فيه اثنا عشر طريقاً يبساً على عدد أسباط بني إسرائيل، ووقف الماء بين هذه الطرق كالجبل العالي، فسار بنو إسرائيل في هذه الطرق المفتَّحة لهم في البحر حتى وصلوا إلى البر، بينما كان فرعون وجنوده لا يزالون يسيرون خلف بني إسرائيل في طرق البحر، عندئذٍ أمر ٱللَّه البحر بأن يطبق عليهم فانطبق وأغرقهم جميعاً.

﴿وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٥٣﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾ وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾﴾.

شرح الكلمات

واعَدنا: وعده إياه، وصيغة المواعدة تنبئ عن تراضي الواعد والموعود وتوافقهما.

الفرقان: استعمل في القرآن بمعنى الحجة وبمعنى النصر، واسماً للكتاب المنزل من عند الله.

بارِئكم: البارئ من أسماء الله تعالى ومعناه: الذي خلق الخلق.

فاقتلوا أنفسكم: فليقتل البريء منكم المجرم.

جهرة: عياناً غير مستترٍ بشيء.
بَعَثْناكم من بعد موتكم: أحييناكم بإعادة الروح إليكم.

عبادة بني إسرائيل للعجل

ويتابع القرآن فيذكر فضل ٱللَّه ورحمته على بني إسرائيل بالعفو عنهم بعد عبادتهم العجل، قال تعالى:

﴿وإِذْ وَاعَدْنا مُوسى أَرْبَعِينَ لَيلَةً﴾ أي واذكروا ـ يا بني إسرائيل ـ إذ وعد ٱللَّه موسى بإعطائه التوراة بعد انقضاء أربعين ليلة يقضيها في التوجه إلى ٱللَّه بالصيام والعبادة في جبل الطور، وقال **﴿أَرْبَعِينَ لَيلَةً﴾** لأن الشهر القمري يبدأ ليلة طلوع الهلال، ولهذا نجد العرب يؤرخون بالليالي. والمواعدة تفيد التوافق على الوعد بين اثنين: أي الوعد من جانب ٱللَّه والاستجابة المقرونة بالشوق من جانب موسى وبيان ذلك: أنّه لما عاد بنو إسرائيل إلى مصر بعد هلاك فرعون وعد ٱللَّه موسى أن ينزل عليه التوراة وضرب له ميقاتاً ـ أي جعل ٱللَّه له موعداً ـ وهو شهر ذي القعدة ثم زاد عليه عشر ليال من شهر ذي الحجة كما جاء في قوله تعالى: **﴿وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾** [الأعراف: ١٤٢]، وبعد انتهاء أربعين ليلة قضاها موسى في العبادة أنزل ٱللَّه عليه التوراة.

ثم يقول سبحانه **﴿ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ العِجْلَ مِنْ بَعدِهِ وَأَنتُم ظَالِمونَ﴾** ومعنى اتخاذهم العجل: جعلهم له إلَهاً يعبدونه. والمعنى: ثم اتخذتم يا بني إسرائيل العجل من بعد ذهاب موسى إلى جبل الطور لمناجاة ربه وأنتم ظالمون لأنفسكم بعبادة غير ٱللَّه وذلك مما يسبب لكم الشقاء والخسران.

﴿ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُمْ مِنْ بَعدِ ذلِكَ لَعَلَّكُم تَشْكُرُونَ﴾ والعفو: محو الذنب

وعدم المؤاخذة به. أي ثم عفونا عنكم إذْ تبتم بعد عبادتكم العجل لتكونوا من الشاكرين على نعمة العفو بالاستمرار على طاعة ٱللَّه والعدول عن معصيته.

﴿وإذْ آتينَا مُوسَىٰ الكِتَابَ والفُرْقَانَ﴾ الكتاب: المراد به التوراة. والفرقان: هو الشرائع والأحكام التي تفرق بين الحق والباطل والحلال والحرام. ويصحّ أن يُراد من الفرقان المعجزات التي أجراها ٱللَّه على يدي موسى لأنّها فَرَّقت بين الحق والباطل، حيث كان فيها نجاة بني إسرائيل وإهلاك فرعون وجنده. والمعنى: واذكروا إذ أعطينا موسى التوراة والشرائع والأحكام والمعجزات ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ لتهتدوا بها إلى سبيل الفلاح في الدنيا والفوز بالسعادة في الآخرة.

﴿وإذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يا قَوْمِ إنَّكُم ظَلَمتُمْ أَنفُسَكُم باتِّخاذِكُمُ العِجْلَ﴾ أي واذكروا وقت أن قال موسى لقومه: يا قومِ إنكم ظلمتم أنفسكم عندما عرّضتموها لعقاب ٱللَّه باتخاذكم العجل إلّهاً فعبدتموه. وصدّر موسى خطابه لهم بقوله: ﴿يا قَوْمِ﴾ لِيُذَكِّرهم بأنه منهم وأنه لا يُريد بهم إلاّ خيراً ﴿فَتُوبُوا إلى بَارِئِكُمْ﴾ أَمَرَ موسى قومه بالتوبة وهي الرجوع عن ذنبهم والندم على ما فعلوا من معصية والعزم على عدم العودة إليها. و (البارئ) اسم من أسماء ٱللَّه ومعناه: الخالق على غير مثال سابق المُوجد للأشياء على ما تقتضيه الحكمة، فهو سبحانه المستحق للعبادة، وأما العجل فإنما يعبده من يشبهه في الغباوة ﴿فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُم﴾ أي إن توبتكم تكون بأن يقتل البريءُ منكم المجرمَ بغية تطهير المجتمع من المشركين.

وهذا التعبير ﴿فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ﴾ جاء مثله في القرآن ﴿فَسَلِّمُوا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ﴾ [النور: ٦١] بمعنى: فلْيُسلّم بعضكم على بعض. وقد ذكر المفسرون عدد الذين

قُتلوا وكان فيه مبالغة لا يرتضيها العقل، مع العلم أن القرآن لم يذكر عدد ذلك.

ومن المفسرين من فسَّر القتل على غير حقيقته وهو جعل النفس كالمقتولة: بمزيد الغم والنّدم والإذلال أو قطع الشهوات.

﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ﴾ أي إنّ قتل أنفسكم امتثالاً لما أُمرْتُم به هو خير لكم من الإقامة على المعصية ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ هذا النص معطوف على محذوف وكأنه قال: ففعلتم ما أمركم به، فتاب عليكم خالقكم ﴿إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ التواب والرحيم صيغتان من صيغ المبالغة، أي إن ٱللَّه كثير قبول التوبة من عباده على كثرة ما يصدر منهم من ذنوب وهو دائم الرحمة أو واسعها بحيث يشمل عباده بإحسانه وفضله.

ثم يُبين القرآن تعنّت بني إسرائيل وخروجهم عن جادّة الأدب مع ربهم، من ذلك قولهم لموسى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ أي واذكروا يا بني إسرائيل وقت أن قال أجدادكم لموسى: لن نصدّقك ولن نُقِرَّ بما جئتنا به حتى نرى ٱللَّه معاينة وعلانية لاستار بيننا وبينه.

وفي سياق ذلك رُوي: أنه لمّا تاب بنو إسرائيل عن عبادةِ العجل وتاب ٱللَّه عليهم أمر ٱللَّه موسى أن يأتيه في أناس من بني إسرائيل يعتذرون إليه على ما اقترفوا من عبادة العجل، فاختار موسى منهم سبعين رجلاً من خيارهم فخرج بهم إلى طور سيناء لموعد حَدَّده ٱللَّه لهم، فلما أتوا ذلك المكان قالوا لموسى: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ وهذا دليل على ضعف إيمانهم وعلى تمرّدهم وقِلّة اكتراثهم بما شاهدوا من معجزات نبيهم موسى عليه السلام.

أمام هذا التمرد جاءهم العقاب الإلّهي: ﴿فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وأنتُم تَنظُرونَ﴾ أي سقطت الصاعقة عليكم وأهْلكتكم بنارها بسبب عنادكم وتعنتكم وطلبكم المستحيل من ربكم. وفي قوله سبحانه ﴿وَأَنتُمْ تَنظُرونَ﴾ يُفيد أن الصاعقة نزلت عليهم وهم يشاهدونها، وفي مشاهدتها رعب وفزع يأخذ بمجامع قلوبهم قبل أن يأخذ العذاب المهلك لأجسامهم. رأى موسى ما حل بقومه الذين كانوا معه فقام يبكي ويدعو ٱللَّه ويقول: رَبِّ، ماذا أقول لبني إسرائيل إذا أتيتهم وقد أهلكت خيارهم، رَبِّ لو شئت أهلكتهم من قبل وإياي، أتُهْلِكنا بما فعل السُّفهاء مِنّا؟

استجاب ٱللَّه دعاء موسى فأحياهم بعدما أماتهم كما قال تعالى في الآيات هنا ﴿ثُمَّ بَعَثْناكُمْ مِّنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ﴾ والبَعْثُ يُستعمل بمعنى الإيقاظ من النوم، كما يستعمل بمعنى الإحياء من الموت وهو المراد من الآية ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي لكي تشكروا نعمة ٱللَّه ببعثكم أحياءً بعد الموت. والشكر لله يكون بالعمل بما شرعه ٱللَّه لهم حتى تغفر لهم جرائمهم.

وقال بعض العلماء: كان موتهم غشياناً وهموداً لا موتاً حقيقياً كما في قوله تعالى: ﴿. . وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ. . ﴾ [إبراهيم: ١٧]، والمراد من البعث على هذا الرأي: إعادة النشاط والصحو لهم من بعد غيبتهم عن الوعي.



﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ۖ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ ۚ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾ ۞ وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۖ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٦٠﴾﴾.

شرح المفردات

الغَمام: جمع غمامة وهي السحابة.

المَنُّ: مادة صمغية تنزل على ورق الشجر حلاوتها تشبه حلاوة العسل.

السَّلْوى: طائر معروف بالسُّماني.

رَغَداً: واسعاً هنيئاً.

وقولوا حِطّة: أي قولوا شيئاً يحطّ ذنوبكم.

رِجْزاً: عذاباً.

يفسقون: يخرجون عن طاعة ٱللّه.

استسقى موسى: طلب من ربه الماء.

لا تَعْثَوْا: لا تُفسدوا ولا تطغوا.

بعض المعجزات لبني إسرائيل

وبعد أن أحجم بنو إسرائيل عن دخول الأرض المقدسة التي وعدهم ٱللَّه بأن ينصرهم على سكانها وقالوا لموسى: ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ إِنَّا هَـٰهُنَا قَـٰعِدُونَ﴾ [المائدة: ٢٤]، حينئذٍ أخبر ٱللَّه موسى بأن الأرض المقدسة محرمة عليهم وأنهم سيتيهون في الأرض في صحراء سيناء أربعين سنة جزاء خروجهم عن طاعة ٱللَّه، وفي هذا يقول ٱللَّه تعالى: ﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَـٰسِقِينَ﴾ [المائدة: ٢٦].

وفي الآيات التالية يُذَكِّر ٱللَّه بني إسرائيل بما مَنَّ على آبائهم من النعم وهم في صحراء سيناء:

﴿وَظَلَّلْنا عَلَيْكُمُ الغَمَامَ﴾ أي جعلنا الغمام يظلكم في النهار ليقيكم حرَّ الشمس، والغمام هو السحاب ﴿وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ المَنَّ والسَّلْوَى﴾ والمَنُّ هو مادة صمغية تسقط على الشجر تشبه حلاوته حلاوة العسل. وقيل: هو شراب كان ينزل عليهم مثل العَسَل فيمزجونه بالماء ثم يشربونه، وقيل: المَنُّ هو العَسَل. وقيل: هو ما مَنَّ ٱللَّه به عليهم من غير تعب ولا زرْع ومنه قول النبي ﷺ: «الكمأة من المنّ الذي أنزل ٱللَّه على بني إسرائيل»[1]. والسَّلْوى: هو طائر السُّماني فيذبح الرجل منها ما يكفيه ﴿كُلُوا مِن طَيِّباتِ ما رَزَقْنَاكُمْ﴾ أي قال ٱللَّه لبني إسرائيل: كلوا من ملذات ما أنعمنا عليكم من الرزق ﴿وَمَا ظَلَمُونَا﴾ أي بتركهم شكر ٱللَّه وإقبالهم على معصيته بأن كفروا بهذه النعم، أو بأن سألوا ٱللَّه غير هذه النعم ﴿ولٰكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ أي ولكن سوء عاقبة ظلمهم يعود عليهم بعقاب ٱللَّه على كفرهم في الدنيا والآخرة، فإن ٱللَّه لا تضره المعصية له من خلقه كما لا تنفعه طاعتهم له.

---

(١) أخرجه ابن ماجه.

﴿وإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هذِهِ القَرْيَةَ﴾ والقرية هي بيت المقدس، والظاهر أن الأمر بدخول القرية كان بوحي من الله إلى موسى بعد خروجهم من الصحراء التي تاهوا بها ﴿فَكُلُوا مِنْها حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَداً﴾ أي فكلوا من هذه القرية في أي مكان شئتم أكلاً هنيئاً ذا سعة بعد أن كان طعامكم مقصوراً في صحراء سيناء على المَنّ والسلوى، وهذا معناه أن هذه القرية كانت ذات زروع وثمار ﴿وَادْخُلُوا البَابَ سُجَّداً﴾ وادخلوا من باب القرية خاضعين متواضعين شكراً لله سبحانه على إخراجكم من الصحراء والإنعام عليكم بدخول الأرض المقدسة والاسترزاق منها ﴿وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾ حِطَّةٌ: بمعنى ضع، أي وقولوا: يا ربّ حُطَّ عنا ذُنوبنا، أو بمعنى: استغفروا ربكم وقولوا ما يحط ذنوبكم ﴿نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ﴾ الغَفْرُ في اللغة: التغطية والستر، أي نستر لكم سيئاتكم السابقة فلا نعاقبكم عليها ﴿وَسَنَزِيدُ المُحْسِنِينَ﴾ ومعنى أحسن: فعل الحسن ضد أساء، والحسنة هي الفعل الحسن. والمحسن من صَحَّح عقيدته في وحدانية ٱللَّه وأقبل على أداء فرائض ٱللَّه وعمل كل خير يقربه من خالقه. فٱللَّه سبحانه وعد بزيادة ثواب المحسن، وقد جاء في القرآن: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ [الأنعام: ١٦٠].

﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ﴾ أي غَيَّر الذين ظلموا من بني إسرائيل القول الذي أمرهم ٱللَّه به، فهم أُمروا أن يقولوا قولاً دالاً على التوبة والندم فخالفوه إلى قول يحمل معنى الاستهزاء[1] ﴿فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزاً مِنَ السَّماءِ﴾ والرجز: هو العذاب، ولم يبين القرآن نوع هذا العذاب الذي سقط عليهم من السماء ﴿بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ أي بسبب خروجهم عن طاعة ٱللَّه.

(١) روي أنهم قالوا حنطة بدل حط عن ذنوبنا، قالوا ذلك من باب الاستهزاء.

﴿وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ﴾ استسقى: طلب السقيا، أي واذكروا يا بني إسرائيل وقت أن أصاب آباءكم العطش وهم في صحراء سيناء، فاستغاث موسى بربه وطلب منه أن يمنّ على قومه بالماء ﴿فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ﴾ أي فأوحى ٱللَّه إلى موسى أن يضرب بعصاه حجراً من حجارة تلك الصحراء فضربه بها ﴿فَٱنْفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾ انفجرت: انشقت، والعين: منبع الماء، أي خرج الماء بغزارة من اثني عشر مكاناً فيه، بعدد أسباط بني إسرائيل وهم ذرية أبناء النبي يعقوب عليه السلام الاثني عشر ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ﴾ علم: بمعنى عرف، أي عرف كل سبط العَين التي صارت مشرباً لهم، وخَصَّ كل سبط بمشرب له منعاً لما عساه أن ينشب بينهم من التنازع على الماء. لقد أراد ٱللَّه بهذه المعجزة أن يبين لهم صِدق نبوة موسى وأن يزداد إيمانهم بٱللَّه الذي أرسله ﴿كُلُوا واشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ ٱللَّهِ﴾ أي قال ٱللَّه لهم على لسان موسى بأن يأكلوا المن والسلوى ويشربوا من الماء الذي تفضّل ٱللَّه به عليهم ﴿وَلاَ تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ العُثُوُّ: أشَدُّ الفَساد، أي ولا تتمادوا فساداً في الأرض وتقابلوا النِّعَمَ بالطُّغيان فيحرمكم ٱللَّه منها.



﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَـٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ۚ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٦١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلنَّصَـٰرَىٰ وَٱلصَّـٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾.

شرح المفردات

بَقْلِها: ما تنبته الأرض من الخضار مما يأكله الناس والأنعام.

قِثّائها: القثاء، الخيار وما يشبهه.

فُومها: الحنطة، وقيل الثوم.

مِصراً: بلداً من البلدان.

الذِّلَّةُ: الهوان.

مَسْكنة: فقر النفس.

باءوا بغضب من ٱللّه: رجعوا بغضبٍ من ٱللّه مستحقين له.

كفران اليهود لنعم اللّه عليهم

ثم يُبيّن ٱللّه لليهود ما كان عليه أسلافهم من كفران للنعمة حيث سئموا ما كانوا عليه من طيب المأكل:

﴿وإذْ قُلْتُمْ يا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعامٍ وَاحِدٍ﴾ واذكروا أيها اليهود يوم

سيطر البَطَر على أسلافكم فقالوا لنبيهم موسى: إننا لن نصبر على نوعٍ واحدٍ من الطعام وهو المَنّ والسَّلْوى، وسمّوهما طعاماً واحداً لأنهما يتكرران كل يوم ﴿فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الأَرْضُ﴾ لقد طلبوا من موسى أن يدعو لهم ربّه لأن دعاء الأنبياء أقرب إلى الإجابة من دعاء غيرهم، وإخراج النبات من الأرض إظهاره بإيجاده. لقد طلبوا إخراج النبات من الأرض مع علمهم أن الصحراء لا تُنبت نباتاً ﴿مِنْ بَقْلِهَا وقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا﴾ والقِثَّاءُ: هو الخيار أو ما شابهه، والفُومُ: هو الحنطة، وقيل: هو الثوم. أجابهم موسى مستنكراً سوء اختيارهم: ﴿قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيرٌ﴾ أي أتُفَضِّلون هذه الأصناف على ما هو أفضل وأحسن وهو المنّ والسلوى سواء من جهة اللذة في الطعم أو الحصول عليهما من غير تعب ولا مشقّة؟

وتابع موسى قوله ﴿اهْبِطُوا مِصْراً فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ﴾ والهبوط إلى المكان: النزول إليه والحلول به، و (مصراً) تعني بلداً، أي انتقلوا إلى بلدٍ زراعي من بلدان الشام تجدون فيه ما طلبتم. فلو صح ما تزعمون من كراهتكم الاقتصار على طعام واحد فأنتم الذين جنيتم على أنفسكم بسبب جبنكم من دخول الأرض المقدسة التي أمركم ٱللَّه بدخولها، ووعدكم بالنصر إن فعلتم ما أمركم ٱللَّه به، وعند ذلك تجدون في ذلك البلد ما ترغبون به من الطعام مِنْ بُقول الأرض ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالمَسْكَنَةُ﴾ أي أحاط بهم الهوان والفقر. لقد عاش اليهود قروناً مستعبَدين لمختلف الأمم فأورثهم هذا الاستعباد ذلّة وفقراً في النفس مما جعلهم لا يفرّقون بين الحياة الكريمة والحياة الذليلة ﴿وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ ٱللَّهِ﴾ ورجعوا بغضبٍ من ٱللَّه مستحقين له لسوء أفعالهم.

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بآيَاتِ ٱللَّهِ﴾ أي سبب غضب ٱللَّه عليهم هو أنهم كانوا يجحدون آياته، وآيات ٱللَّه تستعمل بمعنى المعجزات أو نصوص

الكتب الإلهية المنزلة على رسل ٱللَّه، أو حجج ٱللَّه وأدلّته على توحيده، فاليهود جحدوا آيات ٱللَّه بكل معانيها التي جاءهم بها موسى عليه السلام ﴿وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ وهم بالإضافة إلى جحودهم لآيات ٱللَّه: يقتلون الأنبياء الذين يأمرونهم بالمعروف وينهونهم عن المنكر كما فعلوا بيحيى عليه السلام وغيره. أما قول ٱللَّه سبحانه: ﴿بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ ففيه بيان بأن قتل الأنبياء لا يكون بحق في حال من الأحوال، وهذه العبارة جاءت لتعظيم الأمر عليهم وزيادة التشنيع بقبح أعمالهم ﴿ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ أي ذلك الكفر منهم بآيات ٱللَّه وقتل الأنبياء بغير حق حصل منهم بسبب خروجهم عن طاعة ٱللَّه ومجاوزتهم حدود ٱللَّه إلى ما نهاهم عنه.

ثم يُبيِّن ٱللَّه في الآية التالية الناجين من عذابه المستحقين ثوابه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ والمُراد بهم الذين صدّقوا برسالة محمد واتبعوه واستمروا على إيمانهم.

﴿وَالَّذِينَ هَادُوا﴾ وهم اليهود، وسُمُّوا بذلك من أجل قولهم ﴿إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: ١٥٦] أي تُبنا ورجعنا إليك يا ربّ، أو بسبب نَسَبِهم إلى يهوذا أكبر أبناء يعقوب عليه السلام، فَقُلِبَت الذَّالُ في يهوذا دالاً.

﴿وَالنَّصَارَى﴾ أتْباع عيسى عليه السلام، سُمُّوا بذلك نِسبةً لقرية تسمى (ناصرة) كان ينزلها عيسى عليه السلام، وقيل سُمُّوا بذلك لنصرة بعضهم بعضاً.

﴿والصَّابِئِينَ﴾ هم قوم يعبدون الملائكة ويصلّون إلى القبلة، ويصلّون الخمس ويقرأون الزبور، وقيل: إنهم موحدون ويعتقدون تأثير النجوم وأنها فاعلة. وقيل: هم قوم يقدسون الرّوحانيات ويتخذون لها وسائط يعبدونها لتقربهم إليها فعبدوا الكواكب السيارة والقمر وبعض النجوم وهم يؤمنون بخالق العالم وأنه واحد حكيم.

﴿مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ والْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُمْ أجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ أي من آمن بٱللَّه من جميع هذه الطوائف المذكورة إيماناً بٱللَّه الواحد الأحد الذي لا شريك له من غير ادِّعاء بأن له وَلَداً، وآمن أيضاً باليوم الآخر وما فيه من بعث وحساب وجزاء على الأعمال، وقرن إلى هذا الإيمان العمل الصالح فلهم أجْرٌ على إيمانهم وعلى عملهم الصالح ﴿وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ أي لا خوف عليهم من أهوال يوم القيامة ولا هم يحزنون على ما خلفوا وراءهم من الدنيا ومتاعها عند معاينتهم ما أعَدّ ٱللَّه لهم من الثواب والنعيم عنده.

هذا الحُكم يَسْرِي على الأُمم التي كانت تعيش قبل الإسلام، أما الذين بلغتهم دعوة الإسلام فلا ينفعهم إلا أن يؤمنوا برسالة محمد ويتبعوا دينه.

وقد أساء فهم هذه الآية بعض الكُتَّاب فزعموا أنه يمكن تحقيق الإيمان الذي طلبه ٱللَّه من عباده من المِلل المذكورة مع بقائها على دينها بعد مجيء الإسلام وهذا زعم باطل لا يقوم على دليل ولا تسنده حجة، وقد نفى الإسلام زعمهم حين قال ٱللَّه تعالى:

﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥].

والخلاصة إن الفَوْزَ بنعيم الآخرة يكون بإيمانٍ صحيحٍ بٱللَّه الواحد الذي لا شريك له، له سلطان على القلوب مصحوب بالعمل الصالح، وإنه لا تفرقة أمام ٱللَّه لا بالجنسية ولا بالمِلّة فالْخلْق كلُّهم عباد ٱللَّه يجزيهم ٱللَّه سبحانه في الآخرة حسب إيمانهم وأعمالهم.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿٦٥﴾ فَجَعَلْنَٰهَا نَكَٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٦٦﴾﴾.

شرح المفردات

ميثاقكم: الميثاق هو العهد المؤكد.

رفعنا فوقكم الطُّور: أي زعزعنا جبل الطور عن مكانه فصار كالظُّلَّة فوق رؤوسكم.

بِقُوَّة: بجدّ واجتهاد والتزام.

تَوَلَّيتم: أعرضتم.

السبت: يوم السبت حيث حرّم ٱللَّه عليهم الصيد فيه.

خاسئين: أذِلاّء حقيرين.

نكالاً: عقوبة وعبرة وزجراً لغيرهم.

عقاب اللَّه لبني إسرائيل لعصيانهم أمره

ويتابع القرآن فَيُذكِّر بني إسرائيل بما جرى لأسلافهم من تهديد عندما أبوا العمل بالتوراة ليكون ذلك عِبْرة لهم:

﴿وإذْ أَخذْنا مِيثاقَكُمْ﴾ والميثاق: العهد المؤكد، والمراد به الإيمان بوحدانية ٱللَّه مقروناً بالعمل الصالح وفق ما جاء في التوراة، والمعنى: واذكروا ـ يا بني إسرائيل ـ وقت أن أخذنا عليكم العهد بأن تعبدوا ٱللَّه وتتبعوا ما جاءكم به رسله وتعملوا بما في التوراة ﴿وَرَفَعْنا فَوْقَكُمُ الطُّورَ﴾ واذكروا كذلك وقت

أن رفعنا فوق أسلافكم جبل الطور تهديداً لهم بالعقوبة إذا لم يطيعوا أوامر ٱللَّه. وبيان ذلك: أن موسى عليه السلام جاءهم بالألواح التي كتبت فيها التوراة فرأوا ما فيها من التكاليف الشاقة فأبوا قبولها والعمل بها، فأمر ٱللَّه الملك جبريل بأن يقلع الجبل من أساسه ويرفعه ويُظَلِّله فوقهم، فقال لهم موسى: إما أن تقبلوا ما في التوراة وتعملوا بها وإلاّ ألقي عليكم الجبل، فلما رأوا أن لا مهرب لهم قبلوا ما في التوراة وسجدوا لله، وجعلوا يلاحظون الجبل بأنظارهم وهم سجود لئلا يهبط عليهم، فصارت عادة في اليهود أن لا يسجدوا إلاّ على أنصاف وجوههم، ويقولون: بهذا السجود رُفِعَ عنّا العذاب.

وَرَفْعُ الجبل فوقهم هو لإشهادهم معجزة من معجزات ٱللَّه ليقوى إيمانهم بأن التوراة مُنزّلة من عند ٱللَّه، وليكون ذلك دافعاً لهم إلى العمل بها.

﴿خُذُوا ما آتيناكُمْ بِقُوَّةٍ﴾ والذي أعطاهم التوراة هو ٱللَّه سبحانه، ومعنى بقوة: أي بجدّ وعزم واجتهاد ﴿وَاذْكُرُوا ما فِيهِ﴾ أي وادْرُسوا ما في كتاب التوراة من الأوامر التي أمركم ٱللَّه بها، والنواهي التي نهاكم عنها واحفظوا ما فيه ولا تنسوه ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ لتتقوا الهلاك في الدنيا والعذاب في الآخرة. وهذا المعنى يندرج ضمن العمل بما جاء في القرآن الذي أنزله ٱللَّه بعد التوراة والإنجيل وفيه الشرائع والوصايا التي تسعد الأمم وتجنبهم المهالك والخسران في الدنيا.

﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذٰلِكَ﴾ ثم أعرضتم عن طاعة ٱللَّه بعد أخذ الميثاق عليكم ﴿فَلَوْلا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الخَاسِرِينَ﴾ فلولا فضل ٱللَّه عليهم بتوفيقهم للتوبة ورحمته لهم بالعفو عن زلاّتهم لكانوا من الهالكين في الدنيا والمعذبين في الآخرة. فالقرآن يُذَكِّرُ بني إسرائيل المعاصرين للنبي محمد ﷺ بما كان من أسلافهم من جحود النعمة ونقضِ للعهد، وفي هذا

التذكير تحذيرٌ لهم من السير على طريقتهم ودعوة لهم للدخول في الإسلام الذي فيه نجاتهم.

﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنكُمْ فِي السَّبْتِ﴾ أي ولقد عرفتم يا بني إسرائيل ما فعل ٱللَّه بمن عصى من أسلافكم حين خالفوا أمره واصطادوا السمك يوم السبت الذي نهاهم ٱللَّه عن الصيد فيه.

وبيان ذلك: أن ٱللَّه أخذ العهد على بني إسرائيل أن يتفرغوا لعبادته في يوم السبت، وحرم عليهم الصيد فيه دون سائر الأيام، وقد أراد ٱللَّه أن يختبر طاعتهم له، فابتلاهم بتكاثر الأسماك في يوم السبت دون غيره من الأيام، فكانت تتراءى لهم على ساحل البحر يوم السبت قريبة المأخذ سهلة المنال، فقالوا: لو حفرنا إلى جانب ساحل البحر الذي يزخر بالأسماك حياضاً تنساب إليها المياه مع الأسماك ويتعذر خروجها منها، ثم نأخذ هذه الأسماك من تلك الحياض يوم الأحد وما بعده، فنهاهم فريق منهم عن عملهم هذا، وقالوا لهم إنه خروج عن طاعة ٱللَّه، فلم يعبأ أكثرهم بذلك النهي فعاقبهم ٱللَّه بما بَيَّنَهُ بقوله:

﴿فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ أي كونوا قردة أذِلاَّء مطرودين، واختلف المفسرون في المراد من قوله تعالى ﴿كُونُوا قِرَدَةً﴾ فقيل إن ٱللَّه حَوَّلهم قردة حقيقة، ورُوِيَ عن مجاهد أنه قال: «ما مُسِخَت صورهم ولكن مُسِخَتْ قلوبهم فلا تقبل وعظاً ولا تعي زجراً» ﴿فَجَعَلْنَاهَا نَكَالاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ﴾ نكالاً: عقوبة وعِبرة، أي وجعل ٱللَّه مسخهم قردة عقوبة لما مضى من ذنوبهم وعبرة لمن شهدها وعاينها من الناس، ولمن جاء بعدهم من الأمم إلى يوم القيامة، وتذكرةً وعبرة للمتقين الذين يخشون ربهم.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ ۖ فَٱفْعَلُوا۟ مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا ۚ قَالُوا۟ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾﴾.

شرح المفردات

هُزُواً: سخرية.

فارِضٌ: كبيرة هرمة.

بِكْر: فتيّة لم تلد.

عَوانٌ بين ذلك: وسط بين المسنّة والفتيّة.

صفراء فاقع لونها: لونها شديد الصفرة.

لا ذَلُول: لم تذلل بالعمل.

تُثير الأرض: تقلبها بالمحراث للزراعة.

ولا تسقي الحرث: لا تروي الزّرع.

مُسَلَّمَةٌ: بريئة من العيوب.

لا شِيَةَ فيها: لا لون فيها يُخالف لون سائر جلدها.

قصة بقرة بني إسرائيل

ويُتابع القرآن فيبيّن ناحيةً من مساوئ اليهود وهي مُكابرتهم على طاعة نبيهم موسى، وجفاؤهم في مخاطبته وعدم مسارعتهم للامتثال لأوامر ربّهم، وذلك يتمثّل بما كان منهم لمَّا طلب منهم أن يذبحوا بقرة، قال تعالى:

﴿وإذْ قَالَ مُوسى لِقَوْمِهِ إنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾ أي واذكر يا محمد الوقت الذي قال فيه موسى لقومه ـ وقد وُجِدَ قتيلٌ بين أظهرهم لم يعرفوا قاتله ـ إن ٱللَّه يأمركم أن تذبحوا بقرة ليكون ذلك وسيلة إلى معرفة القاتل، وهذا ما سيأتي إيضاحه فيما بعد.

وسبب نزول الآيات في هذا الشأن: أنَّ رجلاً من بني إسرائيل قد أدركته الشيخوخة وكان ثَرِيًّا، فاستبطأ ابن أخيه موته فقتله ليرثه. وكان بنو إسرائيل يسكنون في قريتين متجاورتين فألقى القاتل مَنْ قتله إلى باب القرية الأخرى ليتهمهم بقتله ويأخذ ديته، فأنكر سكان القرية التي وُجد القتيل في جوارهم قَتْله، ووقع الشّجار بينهم وبين القرية الأخرى حتى شهروا السلاح في وجوه بعضهم بعضاً، فقال أصحاب العقول منهم: أنتقاتل ورسول ٱللَّه بيننا؟ اذهبوا إلى موسى وقصوا عليه القصة ففعلوا، فأوحى ٱللَّه إليه أن يأمر بني إسرائيل بذبح بقرة.

ويبقى هذا السؤال: هل سارع بنو إسرائيل إلى امتثال ما أمرهم ٱللَّه به؟ الجواب: كلا، لم يمتثلوا بل تلكأوا عن طاعة ربهم، وأجابوا موسى بما يقصه علينا القرآن: ﴿قَالُوا أَتَتَّخِذُنا هُزُواً﴾ أي أتجعلنا يا موسى مكان هزء وسخرية؟ نسألك عن أمر القتيل وتأمرنا بذبح بقرة! سمع موسى كلامهم فذهل من جهلهم وسوء أدبهم، فهل هناك نبيّ يستهزئ بقومه وبما كلفه به ربّه؟ أجابهم موسى: ﴿قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أنْ أَكُونَ مِنَ الجَاهِلِينَ﴾ أي ألتجئ إلى ٱللَّه من أن أكون من

زمرة الجاهلين، فالاستهزاء بأوامر ٱللَّه يؤدي بالمستهزئ إلى غضب ٱللَّه وأسوأ العواقب.

تابع بنو إسرائيل قولهم: ﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ﴾ لقد سألوا موسى أن يطلب من ربّه أن يبين لهم صفة تلك البقرة، أجابهم موسى بعد أن دعا ربه وبيَّن له صفة تلك البقرة ﴿قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ﴾ أي إنَّ ربّكم يقول في شأن هذه البقرة بأنها ليست كبيرة هرمة، وليست فتيّة صغيرة لم تلد بل هي ﴿عَوَانٌ بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ أي هي مُتوسطة السّن بين الفارض والبكر ﴿فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ﴾ أي كفاكم مجادلة وَنَفِّذوا أمر ٱللَّه على الفور واذبحوا بقرة أيًّا كانت على الصفة المذكورة.

لم يُنَفِّذْ بنو إسرائيل ما أمرهم به ربهم، بل بحثوا عن سؤال آخر يدل على غبائهم وسوء فهمهم ﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا﴾ أي اطلب يا موسى من ربّك أن يُبين لنا لون هذه البقرة، فأجابهم موسى بما أوحى الله إليه ﴿قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ﴾ أي إن لونها شديد الصفرة يشعر ببهجة كلُّ من ينظر إليها لنضارتها وحسن منظرها وصفاء لونها.

لكن بني إسرائيل لم تكفهم هذه الأوصاف التي بيّنها لهم ربّهم بل أخذوا كعادتهم يماطلون في الامتثال فأجابوا موسى: ﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا﴾ أي إن البقرة الموصوفة بالصفات السابقة هي كثيرة فاشتبه علينا أيُّها نذبح، فَادْعُ لنا ربَّك يا موسى يبين لنا شأن هذه البقرة، ثم أضافوا قولهم: ﴿وَإِنَّا إِن شَاءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ﴾ وفي تعليق اهتدائهم بمشيئة ٱللَّه دليل على تفويض أمرهم إلى ٱللَّه سبحانه وطلبهم الهداية منه، وهم لو لم يقولوا: ﴿إِن شَاءَ ٱللَّهُ﴾ لحيل بينهم وبين الاهتداء إلى البقرة المطلوب ذبحها أبداً.

والتلفظ بمشيئة ٱللَّه يُستحسن في كل عمل يراد تحصيله ولذلك خاطب ٱللَّه رسوله محمداً بقوله: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا . إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ . . .﴾ [الكهف: ٢٣ ـ ٢٤].

وبعد أن فَوّضوا أمرهم إلى مشيئة ٱللَّه جاء الجواب النهائي على ما طلبوا: ﴿قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّها بَقَرَةٌ لا ذَلُولٌ تُثِيرُ الأَرْضَ وَلا تَسْقِي الحَرْثَ﴾ أي قال موسى لهم:

إنَّ ربَّكم يقول إنها بقرة لم يذللها العمل فلم تفلح الأرض ولم تستخدم في انتزاع المياه من الآبار لسقي الأرض المهيأة للزراعة ﴿مُسَلَّمَةٌ لا شِيَةَ فِيها﴾ أي بريئة من العيوب ليس فيها لون يخالف لون سائر جسدها فهي صفراء كلها. ثم قالوا عندما سمعوا تلك الأوصاف كلها ﴿قَالُوا الآنَ جِئْتَ بالحَقِّ فَذَبَحُوها وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾ أي فقالوا لموسى: الآن جئت بالبيان الواضح، وبحثوا عن البقرة المتصفة بهذه الأوصاف فذبحوها وقد قاربوا أن يتركوا ذبحها وما فرض عليهم في ذلك لغلاء ثمنها.

وكانت هذه البقرة على ما رُوِيَ عند رجل يزعم أنه ليس بائعها بمال أبداً، فلم يزالوا يساومونه حتى رضي أن يأخذ ملء جلدها ذهباً ثمناً لها، وذلك بأن يأخذوا جلدها بعد ذبحها ويملأوه ذهباً فباعهم إياها على هذا الثمن.

فبنو إسرائيل لو أطاعوا ٱللَّه من أول الأمر وذبحوا أية بقرة لأجزأتهم، ولكنهم شَدَّدوا على أنفسهم فشدَّد ٱللَّه عليهم.

ولعلّ إكثارهم من المراجعات في أوصاف البقرة لغرض الوصول إلى تعيين وصف يتعذر وجوده في أبقارهم وذلك لغرض أن يعفوا من ذبح البقرة التي أمروا بذبحها.

﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَءْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَٰلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾﴾.

شرح المفردات

فادَّارأْتم: اختلفتم وتنازعتم.

واللهُ مُخرج ما كنتم تكتمون: والله مُعلنٌ ما كنتم تسرُّون وتغيِّبون.

اضرِبُوه ببعضها: اضرِبُوا القتيل ببعض أجزاء البقرة.

وإنَّ منها لما يَهْبِطُ: وإن من الحجارة لما يسقط من أعلى إلى أسفل.

الغاية من ذبح البقرة وقسوة قلوب اليهود

ثم يبين القرآن الغاية المتوخاة من ذبح البقرة:

﴿وإذْ قَتَلْتُمْ نَفْساً فَادَّارَأْتُم فِيها﴾ أي واذكروا يا بني إسرائيل إذْ قتلتم نفساً فاختلفتم وتنازعتم في قاتلها، ودفع كل واحد منكم التهمة عن نفسه، ونسب القتل إليهم لكون القاتل منهم. والخطاب في الآية لليهود المعاصرين للنبي محمد ﷺ وإن كان القتل حصل عند أسلافهم للتنبيه على أنهم ليسوا أفضل منهم بل هم سائرون على نهجهم في الانحراف والضلال، ويستعمل هذا الأسلوب عند القصد إلى ذم المخاطبين **﴿واللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾** واللّه يعلم الحقيقة وهو كاشفها ومظهرها مع كتمانكم لها.

وبعد أن تم ذبح البقرة أراد ٱللَّه أن يظهر القاتل، فقال سبحانه:

﴿فَقُلْنا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِها﴾ أي قال ٱللَّه لهم على لسان رسوله موسى: اضربوا القتيل بأي جزءٍ من أجزاء البقرة التي ذبحتموها. وفي الآية حذف تقديره: فضربوا الميت بجزء منها فأحياه ٱللَّه ونطق باسم القاتل ثم مات بعد أن أخبر به ﴿كَذٰلِكَ يُحْيِي ٱللَّهُ المَوْتى﴾ أي مثل إحياء ذلك القتيل بعد موته يحيي ٱللَّه الموتى للحساب والجزاء على الأعمال يوم القيامة ولكن ليس على الصفة التي تمّ بها إحياء ذلك الميت ﴿وَيُرِيكُمْ آياتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ الآيات: الدلائل، أي يجعلكم ٱللَّه مبصرين الدلائل الدالة على أنه قدير على كل شيء ولكي تستعملوا عقولكم في تعرّف سبيل الرشد.

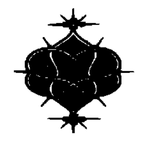
تعليق على النص القرآني: جمهور المفسرين يرى أن حادثة قتل النفس وتنازعهم في أمر القتيل حصلت قبل الأمر بذبح البقرة وإن وردت في الذكر بعده، وإنما قَدَّمَ ٱللَّه قصة الأمر بذبح البقرة ليتشوق السامع إلى الغاية من ذبحها، كما أراد ٱللَّه سبحانه أن يُعطينا صورة عن سلوك اليهود ومُكابرتهم لرسول ٱللَّه موسى عليه السلام وتلكئهم عن الامتثال لما أمرهم ٱللَّه به، هذا مع العلم بأن القرآن حين يذكر قصص الأنبياء أو الأمم السابقة فإنما يذكرها لهدف العبرة دون الاهتمام الزمني للقصة.

ثم يختم ٱللَّه قصة البقرة بقوله:

﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِّنْ بَعْدِ ذٰلِكَ﴾ القسوة: الصَّلابة والشدّة، والمراد بذلك قلوب جميع بني إسرائيل، ووصف القلوب بالقسوة لبعدها عن الاعتبار وعدم تأثير المواعظ فيها بعد رؤيتهم جميع المعجزات التي أيَّد ٱللَّه بها موسى عليه السلام.

ثم وصف ٱللَّه قلوب اليهود بقوله: ﴿فَهِيَ كَالحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ فقلوبهم تتفاوت في القسوة، فبعضها قاسٍ كالحجارة، وبعضها أشدّ قسوة من الحجارة كالمعادن الصّلبة ﴿وإِنَّ مِنَ الحِجَارَةِ لَما يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأَنْهارُ﴾ والتفجر: التفتح بالسعة والكثرة، وهذا بيانٌ لفضل الحجارة على قلوبهم القاسية لأن من الحجارة ما يتفتح بكثرة وسعة ويتدفّق منها الأنهار ﴿وإنَّ مِنْها لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ المَاءُ﴾ وإن من الحجارة لما يتصدع فينبع منها الماء، وفي هذا إشارة إلى العين النابعة ﴿وَإِنَّ مِنها لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ الهبوط: التردّي، أي النزول من أعلى إلى أسفل، أي إن من الحجارة ما ينزل وينحط من المكان الذي هو فيه إلى أسفل منه خشية من ٱللَّه تعالى، وهذا الوصف مجاز عن انقياد الحجارة لأمر ٱللَّه وأنها لا تمتنع على ما يريده منها، أما قلوب هؤلاء اليهود فلا تنقاد ولا تلين ولا تخشع، ولا تفعل ما يأمره ٱللَّه به من الرحمة والشفقة على عباد ٱللَّه.

ثم يختم ٱللَّه الآية بقوله: ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَافِلٍ عَمّا تَعْمَلُونَ﴾ هذا تهديدٌ لهم بأن ٱللَّه ليس بغافل عن أعمالهم بل سيحصيها عليهم ويحاسبهم عليها وسيجازيهم عاجلاً أو آجلاً على أعمالهم الآثمة.



﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَإِذَا لَقُوا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوٓا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوٓا أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾ أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٧﴾ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾ وَقَالُوا لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُولَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُولَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨٢﴾﴾.

شرح المفردات

يَسمعون كلام الله ثم يُحرِّفُونه: يُبدِّلونه أو يؤولونه بالباطل.

عَقَلُوهُ: فهموه.

خلا بعضهم إلى بعضٍ: انفرد بعضهم إلى بعض.

فتح ٱللَّه عليكم: حكم به أو قضى.

لِيُحاجُّوكم: ليخاصموكم ويقيموا عليكم الحجة.

أماني: جمع أُمنية وهي ما يحب أن يحصل عليه الإنسان.

فَوَيْلٌ لهم: أي هلاك وعذاب لهم وهو وارد مورد الدعاء.
وأحاطت به خطيئته: الخطيئة: السيئة، وإحاطتها: شمولها له.

تحريف بني إسرائيل للتوراة وأمانيهم الباطلة

وبعد أن ذكر القرآن عناد اليهود وعدم امتثالهم لأوامر ربهم عقّب على ذلك بذكر بعض مساوئهم: كتحريف التوراة وأمانيهم الباطلة، قال ٱللَّه تعالى:

﴿**أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ**﴾ الخطاب في الآية للنبي محمد ﷺ والمؤمنين والاستفهام في قوله تعالى ﴿**أَفَتَطْمَعُونَ**﴾ للإنكار، أي لا تطمعوا في إيمان اليهود مستجيبين دعوتكم لهم للإيمان.

وقد كان النبي محمد والمؤمنون شديدي الحرص على دخول اليهود في دين الإسلام لأنهم أهل كتاب منزل من عند ٱللَّه، فبيَّن اللهُ لهم أنهم ميئوس منهم للأسباب التالية:

﴿**وَقَدْ كانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلامَ اللهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ**﴾ والمراد بالفريق هنا من كان في زمن النبي محمد ﷺ وهم أحْبار اليهود حيث كانوا يسمعون كلام ٱللَّه ـ أي التوراة ـ ويؤوّلونها تأويلاً فاسداً، أو يبدّلون كلام ٱللَّه حسب أغراضهم بوضع كلام آخر مكانه أو بكتمان بعضه ﴿**مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ**﴾ أي يحرفون كلام ٱللَّه من بعد ما فهموه وضبطوه في عقولهم مع علمهم بأن من يحرّف كلام ٱللَّه يستحق الخزي والعذاب الأليم في الآخرة.

فأحبار اليهود حرّفوا كتاب ٱللَّه وقلّدهم أتباعهم في ذلك تقليداً أعمى، فهؤلاء لا يُرجى منهم خير ولا يهتدون إلى الدين الحق.

﴿**وإذا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا**﴾ هذا الشطر من الآية فيه بيان لنوع من مساوئ اليهود الكاشفة عما يضمرونه من النفاق، فقد كان بعضهم إذا لقوا الذين

آمنوا من أصحاب النبي أظهروا لهم بأنهم مصدّقون بنبوّة محمد وما أُنزل عليه من القرآن وأنه مبشّر به في التوراة ﴿وإذا خَلاَ بَعْضُهُمْ إلى بَعْضٍ﴾ وإذا انفرد اليهود بعضهم إلى بعض قال الأحْبار للمنافقين منهم معاتبين إياهم ﴿قالُوا أتُحَدِّثُونَهُمْ بِما فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ والفتح: بمعنى العلم وإزالة الإبهام، أي أتخبرون المؤمنين من أتباع محمد بما فتح ٱللَّه عليكم من أبواب العلم التي كتمناها عنهم مما جاء في التوراة من البشارات والأوصاف التي تنطبق على نبوة محمد وأنه صادق في ادعائه النبوة. ويأتي الفتح بمعنى النصر والقضاء والحكم، أي أتُحَدّثونهم بما قضاه ٱللَّه فيكم من أخْذه الميثاق عليكم بأن تؤمنوا بأن محمداً رسول ٱللَّه وتستجيبوا لدعوته ﴿لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ﴾ ليحتجوا به عليكم باعترافكم هذا قائلين: كفرتم بعد أن وقفتم على صدق نبوة محمد وأنه نبي حقاً ﴿عِنْدَ رَبِّـكُمْ﴾ أي في حكمه وكتابه، أو بمعنى: ليكون للمؤمنين الحجة عليكم عند اجتماعهم بكم أمام ربكم في الآخرة فيكون في ذلك فضيحة لكم أمام الخلائق ﴿أفَلا تَعْقِلُونَ﴾ أي أليست لكم عقول تمنعكم من أن تحدثوهم بما يكون لهم فيه الحجة عليكم؟ ﴿أوَلاَ يَعْلَمُونَ أنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ ألا يعلم هؤلاء اليهود الذين نافقوا أن ٱللَّه يعلم ما يخفونه من كفرهم بمحمد وتكذيبهم له وما أبدوه وأظهروه رياءً للمؤمنين بقولهم: آمنا، ليرضوهم بذلك نفاقاً وخداعاً!

﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لاَ يَعْلَمُونَ الكِتابَ إلاّ أمَانِيَّ﴾ وأُمِّيُّونَ: جمع أُمِّيّ وهو الذي لا يُحسن القراءة والكتابة، والكتاب هنا المراد به التوراة، والأمانيّ: جمع أُمنية وهي ما يرغب الإنسان في الحصول عليه، والمعنى: ومِنْ هؤلاء اليهود أناس لا يحسنون القراءة والكتابة ولا يعلمون من التوراة إلاّ ما هم عليه من أمانيهم بأن ٱللَّه لا يؤاخذهم على خطاياهم، وأن أنبياءهم يشفعون لهم،

وأن النار لن تمسهم بسبب ذنوبهم إلا أياماً معدودات ﴿وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ﴾ وإن هؤلاء اليهود في اعتقادهم هذا ليسوا على علم من أُمور الدين وإنما هم في شك منها. والظن: هو التردد في الاعتقاد بغير جزم ولا يقين.

﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ﴾ أي هلاكٌ وعذابٌ للذين يُحَرّفُونَ كتاب ٱللَّه وهو التوراة، إذ يكتبونها بأيديهم ويدسّون فيها ما ليس منها. ومن الأشياء التي حرّفوها ما جاء في التوراة من أوصاف النبي المُبَشَّر به التي تنطبق على صفات النبي محمد فأبدلوها بصفات أخرى ﴿ثُمَّ يَقُولُونَ هذا مِنْ عِنْدِ ٱللَّهِ﴾ ثم يقولون لأتباعهم من العوامّ: هذا من عند ٱللَّه ليحملوهم على الاعتقاد به، وهم بهذا يرتكبون أكبر جريمة وأعظم إثم وهو افتراء الكذب على ٱللَّه ﴿لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً﴾ والاشتراء: الاستبدال، أي يأخذوا لأنفسهم مقابل تحريف كتاب ٱللَّه ثمناً قليلاً، وهو الاحتفاظ بالرياسة والجاه، وأكل أموال الناس بالباطل حيث يفتونهم بما يرضي أهواءهم ﴿فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ أي هلاك وعذاب لهم على فعلهم هذا، وكرّر القرآن هذا المعنى للتأكيد على مبلغ إثمهم والعقوبة التي ستحل بهم من جرّاء تحريفهم كتاب ٱللَّه وتبديله أو سوء تأويله ﴿وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ﴾ وهلاك وعذاب لهم مما يحصلون عليه بالباطل من مال، وهذا وعيدٌ شديدٌ لمن ابتدع في دين ٱللَّه ما ليس منه أو اكتسب من مالٍ حرامٍ باسم الدين عن طريق الرشوة والتلاعب في آيات ٱللَّه.

﴿وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّاماً مَعْدُودَةً﴾ أي وقالت اليهود لن تلاقي أجسامنا النار في الآخرة إلا أياماً قليلة. وذلك أن اليهود قالوا: عمر الدنيا سبعة آلاف سنة وإنما نعذب بكل ألف سنة يوماً واحداً ﴿قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ ٱللَّهِ عَهْداً فَلَنْ يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُ﴾ والمراد بالعهد: الوعد المؤكد. والمعنى: قل يا محمد لهؤلاء اليهود تبكيتاً لهم وتوبيخاً: هل سبق لكم من ٱللَّه وعد بذلك حتى

يكون الإيفاء بهذا الوعد متحققاً؟ ﴿أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾ أي ليس الأمر كذلك وإنما أنتم تقولون على ٱللَّه ما لا دليل لكم عليه. فهم لا يستطيعون أن يؤكدوا أن ٱللَّه وعدهم بما أخبروا به من أن النار لن تمسهم إلاّ أيّاماً معدودة، وليس في التوراة نصٌّ يستندون إليه فيما ادَّعوه.

ثم أبْطل ٱللَّه دعواهم وبيّن من يستحق العذاب في الآخرة:

﴿بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً﴾ بلى: حرف جواب بمعنى: نعم، أي نعم، من اقترف سيئة، والمراد بفاعل السيئة هنا: أهل الشرك والكفر بٱللَّه ﴿وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ﴾ والخطيئة المراد بها كبيرة من كبائر الإثم التي أوجب ٱللَّه عليها عذاب النار، ومعنى إحاطة الخطيئة بصاحبها أخذها بجوانب إحساسه ووجدانه كأنه محبوس فيها لا يجد لنفسه مخرجاً منها فهو أسير الشهوات وسجين الموبقات، والخطيئة إذا أحاطت بصاحبها أخذت بمجامع قلبه فحرمته الإيمان وأدّت به إلى الكفر.

﴿فَأُولٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فيها خَالِدونَ﴾ أي من أشرك بٱللَّه واقترف ذنوباً جمّة فمات عليها قبل الإنابة إلى ٱللَّه بالطاعة والتوبة فأولئك سيكونون من أصحاب النار المُلازمين لها لا يخرجون منها أبداً.

والخلود في عذاب النار هو لأهل الكفر بٱللَّه خاصة دون أهل الإيمان به لورود الأخبار عن رسول ٱللَّه بأن أهل الإيمان لا يخلدون فيها، وأن الخلود في النار لأهل الكفر بٱللَّه.

﴿والَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ﴾ والذين جمعوا بين الإيمان الصادق بوحدانية ٱللَّه والعمل الصالح وامتنعوا عن السيئات ﴿أُولٰئِكَ أَصْحابُ الجَنَّةِ هُمْ فِيها خَالِدونَ﴾ أي هم أصحاب الجنة الملازمون لها المنعّمون فيها بكل ما يشتهون وهم باقون فيها أبداً لا يخرجون منها.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴿٨٣﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾ ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ۚ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ ۖ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٨٦﴾﴾

شرح المفردات

مِيثاق: العهد المؤكد.

تولَّيتم: أعرضتم.

لا تسفكون دماءكم: لا تريقونها بأن يقتل بعضكم بعضاً.

ولا تُخرجون أنفسكم: لا يخرج بعضكم بعضاً.

أقْرَرْتُم: قبلتم هذا الميثاق واعترفتم بلزومه.

تقتلون أنفسكم: يقتل بعضكم بعضاً.

تَظاهرون عليهم: تتعاونون عليهم.

بالإثم والعدوان: بالمعصية والظلم.

أُسارى: جمع أسير وهو من يؤخذ على سبيل الغلبة في القتال.

تُفادوهم: تنقذوهم من الأسْر.

خِزي: ذُلٌ وهوان.

يُرَدُّون: يصيرون، يرجعون.

اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة: آثروا متاعها وملذاتها على نعيم الآخرة.

العهد الذي أخذه اللّٰه على بني اسرائيل

ثم يُبين القرآن العهد الذي أخذه ٱللّٰه على بني إسرائيل وطلب منهم الوفاء به قال تعالى:

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لا تَعْبُدُونَ إِلاّ ٱللَّهَ﴾ الميثاق: العهد المؤكد، أي واذكروا يا بني إسرائيل إذْ أخذنا عليكم العهد المؤكد ويشمل عدة أمور منها:

﴿لاَ تَعْبُدُونَ إِلاّ ٱللَّهَ﴾ وقد جاءت الصيغة **﴿لا تَعْبُدُونَ﴾** في صورة الخبر المنفي، والمراد النهي عن عبادة غير ٱللّٰه وكلمة **﴿إِلاّ ٱللَّهَ﴾** إثباتُ العبادة لله وحده لأنه سبحانه هو المستحقّ لها دون غيره، وعبادة ٱللّٰه الخضوع له وحده وإثبات الوحدانية وتصديق رسله والعمل بما أنزل في كتبه.

ومن الميثاق: **﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾** قرن ٱللّٰه أمر الإحسان إلى الوالدين بالأمر بعبادته وذلك لِمَا للوالدين من الفضل الكبير على الولد لأنهما بَذَلا الكثير من العناية في تربيته والقيام بشؤونه في عهد الطفولةِ أيام كان صغيراً عاجزاً، والإحسان إلى الوالدين يكون: بمعاشرتهما بالمعروف والتواضع لهما، والقيام بما أوجبه ٱللّٰه لهما من الحقوق.

﴿وَذِي القُرْبِى وَالْيَتَامَى والمَسَاكِينِ﴾ وذو القربى: هو من تكون بينك وبينه صلة قرابة من جهة الأب أو الأم. والإحسان إليه يكون بالقيام بما يحتاج إليه من مال ومعونة بقدر الاستطاعة، وفي ذلك تقوية للروابط بين الأقارب وإشاعة الودّ بينهم ﴿والْيَتَامَى﴾ جمع يتيم وهو من فقد أباه وهو دون البلوغ، والإحسان إليه يكون بالعطف عليه والإنفاق عليه إذا كان فقيراً كما يكون بالتوجيه الرشيد والكلمة الطيبة. والإحسان إلى اليتامى بهذا المعنى فيه حماية للمجتمع حتى لا يكونوا عناصر شر وفساد فيه ﴿وَالْمَسَاكِينِ﴾ هم الذين لا يقدرون على كسب عيشهم أو لا يكفيهم ما يكسبونه من مال. والإحسان إلى المساكين يكون بإعطائهم ما يكفيهم من المال للعيش الكريم، وهذا ما يؤدي إلى التكافل بين أفراد الأمة.

ومن الميثاق: ﴿وَقُولوا لِلنَّاسِ حُسْناً﴾ والقول الحسن للناس يكون بالنصيحة لهم والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مع لِيْنِ الجانب، ومخاطبة الناس بما تطيب به نفوسهم مع الابتعاد عن الغلظة والفظاظة في القول والسباب والطعن والسخرية. هذه الوصية من أرْفع الوصايا التي تشيع الود في المجتمع وتنفي عنه البغضاء والتناحر والتفرقة، هذا هو جوهر الدين وروحه القائم على الخلق الحسن.

ومن الميثاق: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وآتُوا الزَّكاةَ﴾ والصلاة التي أُمر بنو إسرائيل بإقامتها، والزكاة التي أُمروا بإتيانها، هما الصلاة والزكاة المشروعتان في ديانتهم قبل أن يُنْسخا بشريعة الإسلام، ولعظم شأن هاتين العبادتين ذُكرتا على وجه خاص بعد الأمر بعبادة ٱللَّه، لِمَا للصلاة من الأثر الكبير في النهي عن الفحشاء والمنكر، ولما في الزكاة من تأثير في تخفيف ويلات الفقر على المحتاجين.

هذه الوصايا التي ذكّر ٱللَّه بها بني إسرائيل، وأخذ عليهم الميثاق للعمل بها ليست خاصة بهم بل هي موجهة كذلك إلى الأمة الإسلامية، لأن هذه التوجيهات من صلب الشرائع الإلّهية التي أنزلها ٱللَّه لخير البشر، وقد أمر ٱللَّه الأمة الإسلامية بنظير ذلك في كثير من آيات القرآن الكريم.

﴿ثُمّ تَوَلَّيتُم إلاّ قَلِيلاً مِنكُمْ وَأَنتُمْ مُعْرِضُونَ﴾ تولّيتم: تولّى عن الشيء رفضه وانصرف عنه، والتولّي والإعراض بمعنى واحد، وقيل: التولّي بالجسم والإعراض بالقلب. والتوبيخ في الآية موجهٌ إلى اليهود الذين كانوا في عصر النبي محمد ﷺ ويشمل أسْلافهم من قبل حيث أعرض أكثرهم عن الميثاق الذي أخذه ٱللَّه عليهم ورفضوه ﴿إلاّ قَلِيلاً مِنكُمْ﴾ وهم القلة منهم وتشمل من آمن قديماً من أسلافهم أو من كان على عهد النبي محمد كعبد ٱللَّه بن سلام وأصحابه.

وبعد أن أخذ ٱللَّه العهد على بني إسرائيل بالعمل بفضائل الأعمال عقَّب على ذلك بما أخذ عليهم العهد بالكفّ عن سيئ الأفعال.

وقبل أن نذكر آيات القرآن التي جاءت في هذا الصدد، نذْكُرُ هذه الوقائع التي كانت مسيطرة على الوضع في المدينة المنورة والتي على ضوئها جاءت الآيات التي تنهى بني إسرائيل عن عصيان ٱللَّه.

كان في المدينة المنورة قبيلتا الأوْس والخَزْرج وهم الذين سُمّوا الأنصار بعد إسلامهم. وقد كانوا في الجاهلية قبل الإسلام عبّاد أصنام وكانت بين القبيلتين حروب كثيرة. وكان يهود المدينة المنورة ثلاث قبائل: بنو قينقاع وبنو النضير حُلَفاء قبيلة الخزرج، وبنو قريظة حلفاء قبيلة الأوس. فكانت الحرب إذا نشبت بين الأوس والخزرج قاتل كل فريق من اليهود مع حلفائه من العرب فيقتل

اليهودي أعداءه وقد يقتل اليهودي الآخر من الفريق الآخر وذلك حرام عليهم في دينهم ونص كتابهم، ويخرجونهم من بيوتهم وينهبون ما فيها من الأمتعة والأموال ثم إذا وضعت الحرب أوْزارها افتدى اليهود أسْراهم تصديقاً لما دعت إليه التوراة، وفي الآيات التالية يستنكر ٱللَّه تصرفهم هذا بقوله:

﴿وإِذْ أَخَذْنا مِيثاقَكُمْ لاَ تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ﴾ أي واذكروا يا بني إسرائيل حين أخذنا عليكم العهد المؤكد بأن لا يقتل بعضكم بعضاً، والنص القرآني يُشعر بأن دم كل فرد من أفراد الأُمّة كأنه دم الآخر فإذا سفكه فكأنما سفك دم نفسه، وهذا توجيهٌ قرآني يُبين الحرص على احترام النفس الإنسانية وعدم سفك دمها ﴿وَلاَ تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِنْ دِيارِكُمْ﴾ أي لا يُخرج بعضكم بعضاً من مساكنهم، ويدخل في معنى الإخراج من الديار أن يَتصدّى الرجل لإيذاء جاره حتى يضطره إلى الخروج من داره تخلّصاً من شره. والنص القرآني جعل إجلاءهم لغيرهم من مساكنهم إجلاء لأنفسهم فنبّه بذلك على وحدة الأمة ﴿ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُم تَشْهَدُونَ﴾ أي ثم اعترفتم بالميثاق الذي أخذه ٱللَّه عليكم وبوجوب المحافظة عليه وأنتم تُشهدون أنفسكم بلزوم العمل بمقتضاه أو بمعنى: وأنتم تشهدون أيها المخاطبون على أسلافكم بأنهم أقروا بهذا الميثاق وقبلوا به.

﴿ثُمَّ أَنتُم هؤُلاءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقاً مِنكُم مِنْ دِيارِهِم﴾ هنا خطاب لليهود المعاصرين لرسول ٱللَّه محمد فيه توبيخ شديد لهم واستنكار لسلوكهم المنافي للميثاق، والمعنى: ثم أنتم يا معشر اليهود بعد إقراركم بالميثاق قاتلتم إخوانكم في الدين كما طردتموهم من ديارهم بعد أن نهاكم ٱللَّه عن ذلك.

﴿تَظَاهَرُونَ عَلَيهِمْ بالإِثْمِ وَالعُدْوانِ﴾ تظاهرون: التظاهر التعاون. ولَمّا كان قتل بعضهم لبعض وإجلاؤهم لفريق منهم عن ديارهم يحتاج إلى قوةٍ

وغلَبةٍ، بيّن ٱللَّه أنهم يفعلون ذلك متعاونين عليهم قتلاً وإخراجاً من ديارهم، آثمين في حق إخوانهم في الدين معتدين ظالمين فيما يصنعون بهم ﴿وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسَارَى تُفَادُوهُمْ﴾ وإذا وجدتم الأسرى من أهل دينكم في أيدي أعدائكم تسعون لِفَكِّ أسرهم وتبذلون المال لإطلاق سراحهم ﴿وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ﴾ فكيف تُخرجون أهل دينكم من ديارهم وهو محرّم عليكم فِعْلُه ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾ والكتاب هنا: التوراة. ومعنى بعض الكتاب الذي آمنوا به وأقرُّوا به هو ما حُرِّم عليهم من ترك الأسرى في أيدي أعدائهم، والكفر ببعض الكتاب هو ما حُرِّم عليهم من قتل وإخراج أهل دينهم من ديارهم.

﴿فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إلاَّ خِزْيٌ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ الخزي: هو الذلّ والهوان مع الفضيحة، أي إنكم إن فعلتم ما نهاكم ٱللَّه عنه، سيصيبكم ٱللَّه بالذلّ والهوان في الدنيا، وهذا ما تحقق فعلاً فكان الخزي الذي أصاب بني قريظة من قتلهم جميعاً بسبب خيانتهم العهد مع رسول ٱللَّه، كما أُخرج بنو قينقاع من ديارهم بالسبب ذاته.

وفي هذه الآيات إيحاءٌ للمسلمين وتحذيرٌ لهم بأنهم إذا لم يطبقوا شريعة دينهم في كل مرافق دينهم سيصيبهم ما أصاب اليهود من ذل وهوان فإن الإيمان ببعض ما قرره الدين من الأحكام والكفر ببعضه وتركه يُدخل المؤمنين في حساب الكافرين لأن الإيمان وحدة لا تتجزأ.

ويُتابع القرآن كلامه عن هؤلاء اليهود: ﴿وَيَوْمَ القِيَامَةِ يُرَدُّونَ إلى أَشَدِّ العَذَابِ﴾ أي وبعد الذلّ والهوان الذي نزل بهم في الدنيا يصيرون إلى أشدّ العذاب يوم القيامة ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ تهديد ووعيد لهم، فإن ٱللَّه لا يخفى عليه شيء من أعمالهم وسيحاسبهم عليها يوم القيامة.

﴿أولـئِـكَ الَّذِينَ اشتَرَوُا الحَياةَ الدُّنيَا بِالآخِـرَةِ﴾ أي أولئك اليهود الذين تقدّم ذكرهم آثروا الحياة الدنيا واختاروها على الآخرة اختيار المشتري ﴿فَلاَ يُـخَـفَّـفُ عَـنْـهُـمُ العَذَابُ وَلاَ هُـمْ يُـنْـصَرُونَ﴾ فلا يخفف عنهم عذاب جهنم ولن يجدوا من ينقذهم من هذا العذاب لا بقوته ولا بشفاعته.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ ۖ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩٠﴾﴾.

شرح المفردات

الكتاب: المراد به التوراة.

قفّينا: أتبعنا.

البيّنات: المعجزات والحجج الدالة على نبُوّته.

أيّدناه: قويناه وساندناه.

رُوح القُدُس: هو الملك جبريل عليه السلام.

لا تهوى أنفسكم: لا يوافقها ولا يتلاءم مع رغباتها.

وقالوا قلوبنا غُلْفٌ: أي محجوبة عما تقول فلا تفهم كأن عليها غلافاً.
يستفتحون: أي يطلبون من الله النصر.
اشتَرَوا: باعوا.
بَغياً: ظلماً وحسداً.
فباءوا: رجعوا.
مهين: مذلّ.

كفر اليهود واستكبارهم

ويتابع القرآن الكلام عن بني إسرائيل فيذكّرهم بالنِّعم التي أمدّهم ٱللَّه بها فقابلوها بالكفر والإجرام. قال ٱللَّه تعالى:

﴿ولَقَدْ آتَيْنَا مُوسى الكِتَابَ﴾ أي ولقد أعطينا موسى التوراة **﴿وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بالرُّسُلِ﴾** أي وأتبعنا من بعد موته أنبياء ورسلاً إلى بني إسرائيل، ومن هؤلاء الأنبياء: يُوشع وداود وسُليمان وإلْياس واليسع ويُونُس وزكريا ويحيى عليهم السلام. وكثرة الأنبياء فيهم ليست دليلاً على أنهم شعب ٱللَّه المختار كما يزعمون، بل لغلظة قلوبهم وكثرة فسادهم، ولطول الفترة الزمنية بين موسى وعيسى فقد كانت خمساً وعشرين وتسعمائة وألْف سنة على ما قيل.

﴿وآتَيْنَا عِيسى ابنَ مَرْيَمَ البَيِّنَاتِ﴾ أي وأعطينا عيسى ابن مريم المعجزات والحجج الواضحة الدالة على صدق نبوته كإبراء الأكمه والأبْرص وإحياء الموتى بإذن ٱللَّه. والملفت للنظر أن القرآن في كثير من آياته عندما يذكر كلمة عيسى يعقب على ذلك بقوله ابن مريم وذلك لدحض المزاعم بأنه ابن ٱللَّه، وقد وردت صيغة **﴿عِيسَى ابنَ مَرْيَمَ﴾** في القرآن ست عشرة مرة تأكيداً لهذه الحقيقة بأنه بشر **﴿وأيَّدْنَاهُ بِرُوحِ القُدُسِ﴾** أيّدناه: قويناه والمراد من هذه التقوية الإعانة، وروح القُدُس هو الملك جبريل عليه السلام، وسُمِّيَ رُوحاً لأن الملائكة أرواحٌ

لطيفة. والقدس: الطهر والبركة، وسُمِّيَ جبريل بروح القُدُس لأنه يُنزل الوحي على رسل ٱللَّه بما يطهر النفس ويزكيها بالحكمة والموعظة الحسنة.

ويصحّ تفسير روح القدس بالوحي الذي يمدّ ٱللَّه به رسله إذ هو شبيه بالروح الذي تحصل به الحياة، ذلك أن الأمم تحيا به حياة صالحة.

﴿أَفَكُلَّما جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِما لا تَهْوَى أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقاً كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقاً تَقْتُلُونَ﴾ والاستفهام للإنكار والتوبيخ على استكبارهم واستعلائهم وجعل هواهم هو المتحكم بهم فأدّاهم ذلك إلى أن يُكَذِّبوا النبيين أو يقتلوهم، ونسب القتل إلى المعاصرين للنبي محمد مع أن القتله هم أسلافهم لرضاهم به ولُحُوق مَذَمَّتِه بهم.

ويستوقفنا إيراد خبر قتلهم الأنبياء بصيغة الفعل المضارع **﴿تَقْتُلُونَ﴾** التي تدل على الحال لاستحضار تلك الجريمة التي بلغت من الفظاعة مبلغاً عظيماً وأن قتلهم الأنبياء تجدّد دائماً منهم، وقد حاولوا قتل النبي محمد ﷺ فعصمه ٱللَّه منهم.

ثم بيّن القرآن مذمّةً أُخرى لهم وهي قولهم:

﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ أي قلوبنا عليها غشاء أو أغطية لا ينفذ إليها ما جئت به يا محمد من الدين، وهي ليست مستعدة لقبول دعوتك **﴿بَلْ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ﴾** بل أبعدهم ٱللَّه عن رحمته وأهلكهم بكفرهم **﴿فَقَلِيلاً مَّا يُؤْمِنُونَ﴾** فقلة الإيمان تعني أنهم لا يؤمنون إلاّ بقليل مما يجب الإيمان به من التوراة، والمقصود بالقلّه العدم، أي لا يؤمنون أصْلاً، فإيمانهم ببعض الكتاب وكفرهم بالبعض الآخر لا يعتبر إيماناً بل كفراً.

﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتابٌ مِنْ عِنْدِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ﴾ الكتاب هنا المراد به القرآن. أي ولما جاءهم كتاب مُنزل من عند ٱللَّه وهو القرآن مصدّق للتوراة

التي معهم في التوحيد وأُصول الدين التي أعلنت عن مجيء نبي تنطبق صفاته على النبي محمد ﴿وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يستفتحون: يستنصرون، والمراد بالذين كفروا هنا: المشركون العرب، والمعنى: وقد كان اليهود من قبل رسالة محمد يطلبون الفتح والنصر على مشركي العرب بالنبي المنتظر الذين يجدون نعته في التوراة، فكان اليهود يقولون لأفراد قبيلتي الأَوْس والخَزْرَج من العرب قبل إسلامهم: «إن نبياً مبعوثاً قد أظل زمانه نتبعه فنقتلكم معه قتل عاد وإرم».

﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ﴾ فلما جاءهم النبي محمد الذي عرفوا صفاته ونبوته من التوراة معرفة لا يخالجها ريب كفروا بنبوته حسداً منهم للعرب لأنه جاء منهم ولم يأت من بني إسرائيل ﴿فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى الكَافِرِينَ﴾ فهلاك لهؤلاء وبعدٌ لهم عن رحمة ٱللَّه، وقال سبحانه ﴿عَلَى الكَافِرِينَ﴾ ولم يقل عليهم لِيُشْعِرَ بأن سبب حلول اللعنة عليهم هو كفرهم.

﴿بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ ٱللَّهُ﴾ بئس: فعل يستعمل للذمّ. واشتروا هنا بمعنى باعوا، ذلك أن اليهود لمّا دعاهم ٱللَّه إلى الإيمان الذي يفضي إلى سعادتهم وحذّرهم من الكفر الذي يؤدي إلى شقائهم، اختاروا الكفر على الإيمان فكأنهم باعوا الإيمان والحق وأخذوا مكانهما الكفر والباطل، فبئس كفرهم بما أنزل ٱللَّه على محمد الذي باعوا به أنفسهم مقابل تصديقهم بنبوة محمد ومناصرتهم له ﴿بَغْياً أن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ على مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ﴾ البغي: الظلم أو الحسد، والفضل في الآية هو الوحي الإلّهي. فاليهود كان سبب كفرهم هو الحسد من أن ينزل ٱللَّه الوحي على من يختاره من عباده وهو محمد ﷺ، فقد حسده اليهود على النبوة التي أنعمها ٱللَّه عليه لأنه لم يكن من بني إسرائيل. فالنبي محمد يرجع نسبه إلى إسماعيل عليه السلام، وهو أخو جدهم إسحاق عليه

السلام وكلاهما وَلَدا إبراهيم عليه السلام، وهم كانوا يريدون أن تقتصر النبوة عليهم من ولد إسحاق ولا تنتقل منهم إلى العرب **﴿فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ﴾** أي فرجعوا بغضبٍ على غضبٍ من ٱللَّه، أي غضب مضاعف، فهم كفروا بعيسى عليه السلام، كما كفروا بالنبي محمد ﷺ وكأن كفرهم باقٍ ومستمر، فحقَّ عليهم غضب ٱللَّه وكان غضباً متكاثراً بالنظر لتعدد أسبابه **﴿وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾** الكافرون هنا هم اليهود المتحدث عنهم، فهؤلاء لهم عذاب مذلّ جزاء كفرهم واستكبارهم، وهذا العذاب يشمل عذاب الدنيا والآخرة.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ۗ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾ ۞ وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٩٢﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُوا ۖ قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ۚ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩٣﴾﴾.

شرح المفردات

ويكفرون بما وراءه: ويكفرون بما جاء بعده.

بالبيّنات: بالمعجزات الدّالة على نُبوته.

الطُّور: اسم جبل.

اسْمَعُوا: اسمعوا ما تؤمرون به سماع قبول وطاعة.
أُشْرِبُوا في قلوبهم العِجْلَ: تمكّن حُبّ العجل في قلوبهم وخالطها.

عصيان اليهود لربّهم وإجرامهم

ويُتابع القرآن الكريم الكلام عن بني إسرائيل مبيناً جانباً من جحودهم للحق وإنكارهم لما جاء به محمد من القرآن المنزل عليه من ٱللَّه:

﴿وإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا﴾ المراد بقوله تعالى: **﴿آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ ٱللَّهُ﴾** يعني بما أنزل ٱللَّهُ من القرآن على محمد، والمراد بقولهم **﴿قالوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَينا﴾** يعني بالتوراةِ التي أنزلها ٱللَّه على موسى. والمعنى: وإذا دُعِيَ اليهود إلى التصديق بالقرآن المنزل على رسول ٱللَّه محمد أجابوا إنهم يؤمنون بالتوراة، وهم أرادوا بذلك أن ٱللَّه أنزل عليهم التوراة، والقرآن لم ينزل عليهم **﴿وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ﴾** أي يجحدون بما سوى التوراة وبما بعدها من كُتب ٱللَّه التي أنزلها على رسله **﴿وَهُوَ الحَقُّ﴾** والقرآن هو الحق من عند ٱللَّه والحق ضد الباطل **﴿مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ﴾** وتصديق القرآن للتوراة يدلّ على أنه وحي من عند ٱللَّه، ويظهر ذلك بما جاء به من قصص الأنبياء التي توافق التوراة في الجوهر وتخالفها فيما نسبت إلى بعض الأنبياء من الفواحش، كما أن القرآن يصدق التوراة في بعض الأحكام، مع العلم أن محمداً كان أُمّـيًّا لم يتعلم علماً ولا درس على يد أُستاذ. هذا من جهة، ومن جهة أُخرى فإن التوراة ذكرت الكثير من البشارات على مجيء نبي تنطبق صفاته على صفات النبي محمد، وهذا يثبت أيضاً أن القرآن مصدق للتوراة، فمن يدّعي الإيمان بالتوراة يجب عليه الإيمان بأن القرآن منزل من عند ٱللَّه، لأنهم إذا كفروا بالقرآن الذي يصدّق بما معهم من التوراة فكأنهم كفروا بالتوراة.

﴿قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنبِيَاءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء اليهود مُوبخاً لهم: إن كنتم مصدقين بالتوراة فلأي شيء تقتلون أنبياء ٱللَّه، والتوراة لا تسوّغ قَتْلَ الأنبياء؟ وجاءت ﴿تَقْتُلُونَ﴾ بصيغة المضارع الذي يُفيد الحاضر والمستقبل ليدل على أن قتلهم الأنبياء يتجدد ويقع منهم المرة بعد الأُخرى فهو شأن من شؤونهم اعتادوا عليه. وقتل الأنبياء وقع من أسْلافهم ويصحّ توبيخ الخَلَف بما فعله سَلَفهم متى كان الخلف يمشي على درب السلف، هذا وقد حاول اليهود قتل الرسول محمد ﷺ فأبطل ٱللَّه مسعاهم.

يقول الشيخ محمد رشيد رضا: «إن خطاب الخلف بإسناد ما كان من سلفهم إليهم مقصود لبيان وحدة الأمة وتكافلها وكونها في الأخلاق والسجايا المشتركة بين أفرادها كالشخص الواحد، وبيان أن ما تبلى به الأمم من الحسنات والسيئات إنما هو أثر الأخلاق الغالبة عليها، والأعمال الفاشية فيها منبعثة عن تلك الأخلاق، فما جرى من بني إسرائيل من المنكرات لم يكن مصادفة وإنما كان عن أخلاقٍ راسخةٍ في الشعب تبع الآخرون فيها الأولين»[1].

ثم يُبين القرآن لليهود المعاصرين للنبي محمد ﷺ ما صدر عن أسلافهم من كفر وظلم، وجاء الخطاب لليهود الحاضرين مواجهة بدل الكلام عن أسلافهم بصيغة الغائب لأنهم تطبعوا بأخلاقهم وساروا على خطاهم ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُم مُّوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي ولقد جاءكم يا بني إسرائيل موسى بالمعجزات الواضحات الدالة على صدقه وصحة نبوته كالعصا التي تحولت إلى ثعبان، ويده التي أخرجها بيضاء للناظرين، والبحر الذي ضربه موسى بعصاه فانفلق

(١) نقلاً عن تفسير المنار.

وصار فيه طُرُقٌ ليسلكها بنو إسرائيل وينجوا من فرعون وجنده، وغيرها من المعجزات ﴿ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ العِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ﴾ أي ثم اتخذتم يا بني إسرائيل العجل إلّهاً من بعد أن فارقكم موسى ماضياً إلى مناجاة ربّه ﴿وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ﴾ وأنتم معتدون على أحكام الدين حيث وضعتم العبادة في غير موضعها بعبادتكم العجل بدلاً من عبادة ٱللَّه وحده.

﴿وإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ﴾ واذكروا يا بني إسرائيل وقت أن أخذنا عليكم العهد المؤكد بأن تعبدوا ٱللَّه ولا تشركوا به شيئاً وأن تعملوا بما جاء في التوراة، ورفعنا فوقكم جبل الطور إظْهاراً لِقُوَّتِنا وقدرتنا عليكم وما يمكن أن تفعله هذه القدرة بكم حتى إذا استشعرتم ذلك آمنتم ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ﴾ أي خُذوا ما أمرتم به في التوراة بجدٍّ وعزم ﴿وأَسْمَعُوا﴾ واسمعوا ما أمرتكم به سماع تَدَبُّرٍ وفَهْمٍ وتقبّلوه بالطاعة، ولكن كان جوابهم: ﴿قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾ أي سمعنا قولك وعصينا أمرك، وجوابهم هذا فيه مبالغة بالكبرياء والعصيان ﴿وأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ العِجْلَ﴾ والإشراب هو جعل الشيء شارباً واستعير لجعل الشيء متصلاً بشيء آخر، أي إنّ حبهم العجل خالطهم حتى نفذ إلى قلوبهم كما ينفذ الماء إلى أعماق البدن ﴿بِكُفْرِهِمْ﴾ أي سبب هذا الحب الشديد لعبادة العجل هو تقليد لساداتهم الفراعنة في مصر، فقد رسخ الكفر في قلوبهم بطول الزمن وتوارثه الأبناء عن الآباء.

﴿قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمانُكُمْ﴾ أي قل لهم يا محمد: بئس الذي يأمركم به إيمانكم المزعوم بالتوراة من الأعمال التي تقترفونها المنافية لما جاء في التوراة ﴿إِنْ كُنْتُم مُؤْمِنِينَ﴾ هذه الجملة فيها قدح وذم في ادّعائهم الإيمان إذِ الإيمان لا يسوّغ العمل بالجرائم والمعاصي، فأنتم لستم بمؤمنين.

﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٩٥﴾ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ۚ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾.

شرح المفردات

خالِصة: خاصة بكم.

لو يُعَمَّرُ: لو يطول عمره.

بمزحزحه: بِمُبْعِدِهِ.

أوهام اليهود

ومن مزاعم اليهود الباطلة أن الجنة لن يدخلها إلاّ من كان يهوديًا وأن الجنة هي خاصة بهم دون الناس جميعاً فأبطل ٱللَّه هذا الزعم بقوله:

﴿قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الآخِرَةُ عِنْدَ ٱللَّهِ خالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ﴾ المراد بالدار الآخرة هنا: الجَنّة، وخالصة: بمعنى مختصة. ومعنى الآية: قل يا محمد لهؤلاء اليهود: إن كان دخول الجنة والتمتع بنعيمها مختصًّا بكم فلا يدخلها أحَدٌ غيركم **﴿فَتَمَنَّوُا المَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾** والمراد بالتمني هنا: هو التلفظ بما يدلُّ عليه لا مجرد أن يخطر بالقلب وتميل النفس إليه، أي تمنوا الموت بحقٍّ إن كنتم صادقين في زعمكم أن الجنة خاصة بكم فإن من أيقن

بدخول الجنة اشتاق إليها وتمنى الحصول عليها ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا﴾ أي ولن يتمنوا الموت طالما هم على قيد الحياة لأنهم يعلمون أنهم كاذبون فيما يدّعون به، وذلك ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ أي بسبب ما عملوا من المعاصي الموجبة لدخولهم النار في الآخرة، وعبَّر عن اقتراف المعاصي بالأيدي لأن معظم الأعمال تتم بالأيدي ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ هذه الجملة فيها وعيد وتهديد لليهود الذين مرّ ذكرهم لأنهم ظالمون في أمرهم كله، وٱللَّه عليم بسائر أحوالهم.

لنقف عند قوله تعالى ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا﴾ فإنه معجزة من معجزات القرآن لأنه إخبار بالغيب عنهم بأنهم لن يتمنوا الموت ولو بألسنتهم، ولو حصل ذلك لنُقل ذلك عنهم وهم الذين يريدون الإساءة إلى الإسلام، كما أن من الممكن أن يفطن اليهود لهذا التحدّي ويقولوا: بل نحن نتمنى الموت ونطلبه من ٱللَّه، ولكن حتى الآن لم يصدر منهم هذا النفي.

﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ[١] أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ﴾ أي وٱللَّه لتجدنَّ يا محمد أُولئك اليهود أحْرص من جميع الناس على حياة. وتنكير ﴿حياةٍ﴾ للتحقير، أي إنهم أحْرص الناس على أية حياة ولو كانت حقيرة وذليلة فهي عندهم خير من الموت. وقيل: أراد بتنكير ﴿حياةٍ﴾ حياة مخصوصة وهي الحياة المتطاولة ﴿وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ أي هم أحْرص من الذين أشركوا على هذه الحياة، والذين أشركوا هم الذين جعلوا لله شريكاً أو شركاء في خلقه ولا يؤمنون بالبعث ولا يعرفون إلاّ الحياة الدنيا.

---

(١) ولتجدنهم: اللام الداخلة على تجدنهم للقسم، والنون للتوكيد.

وقد ذكر ٱللَّه المشركين بوجه خاص للمبالغة في توبيخ اليهود على شدّة حرصهم على الحياة حيث إن أُولئك المشركين لا يؤمنون بحياة أُخرى بعد الموت، لذا فإنَّ حرصهم على طول البقاء في الدنيا غير مستنكر، فإذا زاد حرص اليهود على الحياة على المشركين ـ واليهود لهم كتاب إلٰهيّ يقر بالبعث ـ كان في ذلك تصوير لمبلغ جشعهم وحرصهم على الحياة ﴿**يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ**﴾ أي بلغ من شدة غلوّ اليهود في الحرص على الحياة أنّ الواحد منهم يتمنى أن يعيش السنين الكثيرة ولو تجاوزت أقصى حد لا يبلغه الإنسان في عمره. وإنما خص الأَلْف سَنَةٍ بالذكر لأن العرب كانت تذكر ذلك عند إرادة المبالغة ﴿**وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ**﴾ وما ذلك التعمير الطويل لو تم لإنسانٍ مُذنب بمُبعده أو مُنجيه من عذاب ٱللَّه يوم القيامة ﴿**وَٱللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ**﴾ وبصير هنا بمعنى عليم، وهذا تهديد ووعيد لهم فهو سبحانه عالم بأعمالهم علم من يبصر ويُدقّق لا تخفى عليه خافية من أمرهم وسيجازيهم ٱللَّه بما يستحقون من عقاب.



﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٩٨﴾ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٩٩﴾ أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُوا۟ عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُم ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٠﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾﴾.

شرح المفردات

جِبريل: ملك من ملائكة ٱللَّه، أمين على تبليغ الوحي بين ٱللَّه ورسله.

مُصَدِّقاً لما بين يديه: مُؤَيِّداً ما تقدّمه من الكتب السماوية.

ميكال: الملك ميكائيل.

بَيِّنات: واضحات.

الفاسِقون: الخارجون عن طاعة ٱللَّه.

نَبَذَهُ فريق منهم: طرحوه جانباً ونقضوه.

عداوة اليهود لجبريل ونبذهم للعهود

ومن قبائح اليهود قولهم في الملك جبريل عليه السلام هو عدوّنا، وأرادوا من هذا القول أنهم لا يؤمنون بوحي من ٱللَّه يأتي به عدوهم، وبالتالي يكون لهم في نظرهم عذر برفض نبوة محمد الذي يتلقى الوحي من ربه بواسطة جبريل عليه السلام.

وقد روي أن اليهود قالوا للنبي محمد ﷺ: إنه ليس نَبِيٌّ من الأنبياء إلاّ يأتيه ملك من الملائكة من عند ربه بالرسالة والوحي، فمَن صاحبُك حتى نتابعك؟ قال: جبريل، قالوا: ذاك الذي ينزل بالحرب وبالقتال، ذاك عدونا! لو قلت: ميكائيل الذي ينزل بالقطر وبالرحمة لتابعناك على دينك فأنزل ٱللَّه قوله:

﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ على قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ الضمير في ﴿نَزَّله﴾ عائد على القرآن، ويكون المعنى: قل يا محمد من كان عدواً لجبريل فلا وجه لعداوته ولا سبب لذلك لأنه لم ينزل بالقرآن من تلقاء نفسه وإنما نزل بأمر ٱللَّه الذي تجب طاعته ﴿مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ وهذا القرآن مؤيد لما سبقه من الكتب السماوية ومنها كتاب التوراة، وتأييد القرآن لها موافقته لما جاء فيها من وحدانية ٱللَّه وأُصول الدين الصحيح والأخلاق الكريمة وإذا وجد ما يُنافي هذه الأمور فإن سببه ما دخل عليها من تبديل وتحريف وتأويلات باطلة ﴿وَهُدًى وَبُشْرى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي إن القرآن بالإضافة إلى ما سبق هو مرشد إلى سُبُل الخير والسعادة كما أنه يُبشّر المؤمنين بالجنة في الآخرة.

﴿مَنْ كانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ﴾ هذا إعلامٌ من ٱللَّه بأن من كان عدوًّا لله بمخالفة أمره عناداً والخروج عن طاعته مكابرة وعدوًّا لملائكة ٱللَّه بإنكار فضلهم ومنزلتهم عند ٱللَّه، وعدوًّا لرسل ٱللَّه بتكذيبهم وعدم اتباع ما جاءوا به من الهُدى، وعدوًّا للملكين جبريل وميكائيل خاصة، وإنما خصّهما ٱللَّه بالذّكر مع اندراجهما تحت عموم الملائكة لقصد التشريف لهما والدلالة على فضلهما ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ﴾ أي إنّ عداوة كل من ذكرته الآية هو كفر، ومن عاداهم عاداه ٱللَّه وعاقبه أشد العقاب على كفره.

فٱللَّه سبحانه يريد أن يُبيّن أن اليهود أعداء الحق وأعداء كل من يمثله الحق ويدعو إليه، فالتصريح بعداوة جبريل كالتصريح بعداوة ميكال الذي يزعمون

أنهم يحبونه، ومعاداتهم للرسول محمد كمعاداتهم سائر رسل ٱللَّه لأن وظيفتهم واحدة.

﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيكَ آياتٍ بَيِّناتٍ﴾ أي ولقد أنزلنا إليك يا محمد آيات القرآن واضحات الدلالة على كونها من عند ٱللَّه لإعجازها البشر بفصاحتها وبلاغتها، وما تشتمل عليه من العقائد والأحكام الشرعية ومبادئ الأخلاق الكريمة، والعبادات التي تسمو بالروح، فرسول ٱللَّه محمد الذي أتى بهذا القرآن المعجز لفظاً ومعنى، وهذا يشهد بمصدره الإلّهيّ ﴿وَمَا يَكْفُرُ بِها إلاّ الفَاسِقُونَ﴾ أي ولا يكفر بهذه الآيات القرآنية البيّنات إلاّ الفاسقون وهم المتمردون في الكفر والمعصية الخارجون عن حدود ٱللَّه وطاعته.

ومن عادة أُولئك اليهود أنهم كانوا ينقضون العهود ولا يقومون بالوفاء بها:

﴿أَوَكُلَّما عَاهَدُوا عَهْداً نَّبَذَهُ فَرِيقٌ مِنهُمْ﴾ والاستفهام في ﴿أَوَكُلَّما﴾ للإنكار والتوبيخ ولفظ (كُلَّما) لإفادة تكرارهم لنقض العهود.

ونبذ العهد: نقضه وترك العمل به، وإسناد النبذ إلى فريق منهم يؤذن بأن منهم فريقاً لم ينبذه، واليهود يُعاهدون اليوم وينقضون غداً، وكم عاهدوا النبي محمداً مراراً ولم يفوا بما عاهدوه عليه كما فعل يهود بني قريظة ويهود بني النضير مع النبي ﷺ.

واليوم بعد خمسة عشر قرناً يظهر مصداق ما أعلنه القرآن من نقضهم للعهود بأوضح ما يكون، فعشرات المعاهدات التي أُبرمت بين العرب واليهود في فلسطين نقضها اليهود الواحدة تلو الأخرى، وهذا يدلّ على أنهم قوم لا عهد لهم ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يُؤْمِنُونَ﴾ بل أكثر اليهود لا يؤمنون بحرمة عهد ولا بقداسة ميثاق.

﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ ٱللَّهِ﴾ الضمير في جاءهم عائد على اليهود والرسول المقصود هنا هو محمد ﷺ. ووصفه بأنه جاء من عند ٱللَّه تعظيم له والمعنى: ولمّا جاء اليهود رسول عظيم من عند ٱللَّه وهو الرسول محمد ﴿مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ﴾ مصدق لما اشتملت عليه التوراة التي وردت فيها المبشرات بمجيء نبيّ من العرب تنطبق صفاته على الصفات التي وردت في التوراة ﴿نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ كِتَابَ ٱللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ﴾ كتاب ٱللَّه المراد به التوراة. والمعنى: طرح جانباً فريق من اليهود ما جاء في كتاب التوراة من المبشرات التي تنطبق على النبي محمد ﷺ رافضين لها ومستخفّين بها ﴿كَأَنَّهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ أي متجاهلين ما ورد في التوراة من هذه المبشرات ومن الدعوة إلى الإيمان بالنبي محمد ﷺ واتّباعه. فاليهود كانوا يعلمون حقيقة نبوة محمد ولكنهم أفسدوا علمهم وجحدوا ما بين أيديهم من الحق وكفروا بنبوة محمد حسداً أن تكون النبوة في غيرهم.



﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (١٠٢) وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (١٠٣)﴾.

شرح المفردات

تَتْلُوا: تُحَدِّثُ وتروي.

بابِلَ: بلدة قديمة كانت بالعراق يُنسب إليها السِّحْر.

فِتْنة: اختبار وابتلاء.

اشتراه: ابتاعه.

خَلاق: نَصِيب من الخير.

شَرَوْا به أنفسهم: باعوا به أنفسهم.

لَمَثُوبَةٌ: لأجر وثواب.

تعاطي اليهود للسحر

من سلوك اليهود المشين نشرهم الفساد في الأرض عن طريق السحر الذي نسبوه إلى النبي سليمان من أجل أن يمنحوه جواً من القبول والتعاطي به. قال اللّه تعالى في شأنهم:

﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ﴾ تتلوا: تحدث وتخبر، وقيل: تفتري، والشياطين: تشمل شياطين الجن والإنس، وهذه الجملة معطوفة على ما قبلها، والمعنى: إن هؤلاء اليهود نبذوا كتاب التوراة وراء ظهورهم واتبعوا ما كانت تخبره وتحدثه شياطين الإنس على عهد ملك سليمان وفي زمانه من الأكاذيب، ومن ذلك زعمهم أن ملك سليمان قام على أساس السحر، وأنه ارتدّ في أواخر حياته عن دين ٱللَّه وعَبَدَ الأصنام إرضاء لنسائه الوثنيات ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا﴾ رد ٱللَّه كلام اليهود وكذبهم، ونزّه النبي سليمان عن افتراءاتهم وأبْعده عن عمل السحر الذي يتعاطاه أُولئك الشياطين من الإنس وينسبونه إليه معلناً أن السحر نوع من الكفر.

وقد روي أن شياطين الإنس في عهد سليمان دَوَّنُوا كُتباً فيها سحر عظيم ثم أذاعوها بين الناس، ثم توارث يهود المدينة المنورة هذه الكتب عن آبائهم وكانوا يشتغلون بما فيها قبل مبعث النبي محمد، ولما بُعث رفضوا كتاب ٱللَّه الذي جاء به وفَضَّلوا عليه الاستمرار في مزاولةِ السحر الذي يحرمه مع أن الديانة اليهودية قامت على إبطال السحر الذي جاء به سحرة فرعون وقررت أن الساحر لا يفلح حيث أتى.

﴿يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ﴾ أي هؤلاء اليهود الذين تلقوا علم السحر يعلّمونه للناس ﴿وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ﴾ وما: بمعنى الذي، والملكين: قرئ بفتح اللام وكسرها، فمن قرأها بالكسر جعلهما من غير الملائكة[1]، قيل إنهما كانا رجلين وسُمّيا ملكين مع أنهما من البَشَر لصلاحهما وتقواهما واسمهما هاروت وماروت. وليس معنى الإنزال عليهما أنه وحي من

(١) الملِك: بكسر اللام تطلق على البشر، أما بفتح اللام فتطلق على الملائكة.

ٱللَّه فإن كلمة ﴿أُنزِلَ﴾ تستعمل في القرآن في مواضع لا صلة بينها وبين وحي ٱللَّه كما جاء في القرآن ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾ [الفتح: ٢٦] والمقصود من إنزال السحر على هذين الرجلين المشبهين بالملائكة إلْقاؤه في قلبيهما وتعليمهما إياه.

أما على قراءة ﴿مَلَكَيْنِ﴾ بفتح اللام فقد قيل إنهما كانا مَلَكَيْن نزلا من السماء وهاروت وماروت اسمان لهما. والسبب في إنزال هذيْن الملكين أن السحرة كثروا في ذلك الزمان واستنبطوا أبواباً غريبة في السحر وكانوا يدّعون النبوة ويتحدّون الناس بها، فبعث ٱللَّه هذين الملكين لأجل أن يُعلّما الناس أبواب السحر حتى يتمكنوا من معارضة أولئك الذين يدّعون النبوة كذباً وليتمكنوا من التفريق بين معجزات الأنبياء والسحر.

وفسرت ﴿وَمَا أُنزِلَ﴾ بمعنى النفي أي لم ينزل ٱللَّه على الملكين السحر ولكن الشياطين كفروا يعلّمون الناس السحر ببابل، فيكون معنياً بـ ﴿المَلَكَيْنِ﴾ جبريل وميكائيل لأن سحرة اليهود كانت تزعم أن ٱللَّه أنزل السحر على لسان جبريل وميكائيل إلى سليمان بن داود فكذّبهما ٱللَّه بذلك وأخبر نبيه محمداً ﷺ أن جبريل وميكائيل لم ينزلا بسحر قط، وبرّأ سليمان مما اتَّهموه به من السحر، وأخبرهم أن السحر من عمل الشيطان، وأن اللذين يعلّمانهم ذلك رجلان اسم أحدهما هاروت واسم الآخر ماروت.

وبابل كانت مدينة بالعراق يسكنها الصابئون الذين يعبدون الكواكب وكان منهم أُناس يُزاولون السحر ويَدْعُون الناس إلى الكفر وتقديس الكواكب والشياطين ويسيطرون عليهم بالسحر ليحملوهم على عبادتها.

﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾ أي إن الملكين هاروت وماروت لا يعلّمان أحداً من الناس السحر إلا وينصحانه

بقولهما: إن ما نُعلِّمُكَ إياه من فنون السحر الغرض منه الابتلاء والاختبار ليتميز المطيع لله من العاصي، فحذار أن تستعمله فيما نهيت عنه فتكون من الكافرين، فتعليم هاروت وماروت للسحر هو تعليم إنذار من السحر لا تعليم دعاء إليه وتعليم لطريق الوقاية منه.

﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُما مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ﴾ أي إن بعض متعلمي السحر قد استعملوه في إزالة الأُلْفة بين الزوجَيْن، وإحداث العداوة بينهما فيحصل الفِراق بينهما، وفي إسناد تفريق الزوجين إلى السحرة وجعل السحر سبباً لذلك بيان لمدى ما يصل إليه السحر من الإضرار بالأُسرة والمجتمع.

﴿وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إلاَّ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ أي وبالرغم من أن السحر له تأثير في الإضرار بالناس، فإن ٱللَّه سبحانه يُخبرنا أن السحرة لا يستطيعون أن يحدثوا بسحرهم ضرراً إلاّ بإرادته وعلمه وقضائه ﴿وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنْفَعُهُمْ﴾ ويتعلم الناس من السحر الذي يضرهم في دينهم ولا ينفعهم في آخرتهم لأنهم يقصدون بتعلمه الشر والإضرار بالناس.

﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ في الآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ﴾ الخلاق: النصيب، أي ولقد علم هؤلاء اليهود الذين اختاروا السحر واستبدلوه بكتاب ٱللَّه، أن من يفعل ذلك ليس له حظّ من الجنة في الآخرة لأنه ليس له إيمان ولا دين ولا عمل صالح يُثاب عليه ﴿وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُم لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ شروا[1]: باعوا، وبيع الأنفس مراد به بيع حظوظها من نعيم الجنّة في الآخرة مقابل العمل بالسحر الذي يضرهم ولا ينفعهم، ولو كان عندهم علم وعقل لامتنعوا عن العمل الذي يفضي بهم إلى عذاب الآخرة.

---

(١) الاشتراء: من الأضداد يُستعمل في كلٍّ من البيع والشراء.

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا واتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ خَيْرٌ﴾ أي لو أن هؤلاء اليهود الذين يعملون بالسحر ويؤثرونه على ما أنزل ٱللَّه من الهدى، لو أنهم صدّقوا بنبوة محمد واتبعوه، وصدّقوا بالقرآن الذي فيه هدايتهم، واتقوا ٱللَّه بامتثال أوامره واجتناب نواهيه لكان لهم ثواب وأجر خير لهم من السحر ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ أي مبلغَ ثواب ٱللَّه وقدر جزائه على طاعته.

ذهب جمهور العلماء إلى أن السحر ثابت وله حقيقة فمن ذلك ما جاء في القرآن من ذكر السحر وتعليمه، ولو لم يكن له حقيقة لما أمكن تعليمه ولا أخبر ٱللَّه أنهم كانوا يعلمونه للناس، فهو علم مكتسب تمارسه بعض النفوس الدنيئة إما بالخداع وتخييل الشيء على غير حقيقته، وقد يكون رُقية وكلاماً يتكلم به أو يكتبه أو يعمل شيئاً يؤثر في بدن المسحور، وقد يكون أدوية أو أدخنة أو أطعمة للإضرار بالناس، وهذا الإضرار لا يتحقق إلا بالاستعانة بالشيطان والتقرب إليه بارتكاب القبائح قولاً كالرقى التي فيها ألفاظ الشرك أو عملاً كعبادة الكواكب.

والسحر يؤثر في بدن المسحور أو قلبه أو عقله فمنه ما يُمرض وما يؤثر في الرجل فيمنعه من وطء امرأته، ومنه ما يفرق بين الزوجين أو يلقي البغضاء بينهما.

ذهب الإمام مالك إلى أن المسلم إذا سَحَر بنفسه بكلام يكون كفراً يُقتل ولا يستتاب وهو قول الإمام أحمد والشافعي وجملة من الصحابة، والمشهور عن أبي حنيفة أن الساحر يُقتل مطلقاً إذا عُلِمَ أنه ساحر.

الوقاية من السحر والشرور

إن أهم ما يُتقى به خطر السحر وأنفعه هو التحصُّن بآيات القرآن الكريم والأدعية المأثورة عن النبي محمد ﷺ:

من ذلك قراءة آية الكرسي، وقد ورد عن النبي ﷺ قوله لأبي هريرة: «إذا أويت إلى فِراشِكَ فاقْرَأ آية الكرسيّ لن يزال عَلَيْكَ مِنَ ٱللَّه حَافظ ولا يقربكَ الشَّيْطان حتى تُصْبحَ»[1].

ومن ذلك قراءة المعوذتين: ﴿قل أعوذ برب الفلق . .﴾ إلى آخر السورة و﴿قل أعوذ برب الناس . .﴾ إلى آخر السورة. وقد رُوي عن أبي سعيد الخدري أنه قال: «كان النبي ﷺ يتعوَّذ[2] من الجِنّ وعيْنِ الإنسان حتى نزلت المعوّذتان، فلما نزلتا أخذهما وترك ما سواهما»[3]. يقول ابن القيّم: إن المعوّذتين من السور العظيمة النفع والتي تشتد الحاجة بل الضرورة إليهما، وإنه لا يَسْتَغني عَنْهُما أحد قطّ، وإن لهما تأثيراً في دفع السحر.

ومن ذلك قراءة الآيتين من آخر سورة البقرة ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالمؤْمِنُون . .﴾ إلى آخر السورة، وقد ورد عن النبي ﷺ قوله: «مَنْ قَرَأَ الآيتين من آخر سورة البقرة في ليلة كفتاه»[4] أي كفتاه من كل سوء.

وقراءة سورة الفاتحة مِمَّا يتحصن به من الشيطان ومن كل شرّ.

ومما يُتقى به السحر الاستعاذة بٱللَّه من كل شر، وقد ورد عن النبي ﷺ ما كان يستعيذ به، وما كان يدعو به ربَّه، من ذلك ما روي عن ابن عباس أنه قال:

---

(١) أخرجه البخاري.

(٢) يتعوذ: عاذ، أي لاَذَ به ولجأ إليه.

(٣) أخرجه الترمذي.

(٤) متفق عليه.

«كان النبي ﷺ يُعَوِّذُ الحَسَنَ والحُسَيْن يقول: «أُعيذكما بكَلِمَات اللَّهِ التَّامة مِنْ كل شيطان وَهَامة[١] ومن كل عَيْن لامَة[٢]»[٣].

وعن عائشة أم المؤمنين: «أن النبي ﷺ كان يُعَوِّذُ بعض أهله يمسح بيده اليمنى ويقول: «اللَّهم رب الناس أذهِب البأس[٤] واشْفِ أَنْتَ الشَّافي لا شفاء إلا شفاؤك شِفاءً لا يُغادِرُ سقماً»[٥].

ومن الأدعية التي وردت عن النبي ﷺ: «بسم ٱللَّه الذي لا يضرّ مع اسمه شيء في الأرض ولا في السماء وهو السميع العليم»[٦].

وكذلك وردت عن النبي ﷺ هذه الصيغة: «أعوذُ بكلمات ٱللَّه التَّامَّات من شر ما خلق»[٧].

التنجيم

وهناك نوع من السحر يمكن تسميته بعلم التنجيم ويعتمد على مجموعة من الأبراج والكواكب، فلكل برج وضعه الخاص من تدبير الحوادث على الأرض، وقد نهى رسول ٱللَّه عنه فقال: «من اقْتَبَس عِلْماً من النجوم اقتبس شعبةً من السِّحر زاد ما زاد»[٨] وهذا العلم الذي عدّه رسول ٱللَّه ﷺ من السحر هو الاستدلال بالأحوال الفلكية على الحوادث الأرضية.

---

(١) الهامة: ما لها سم كالحية والحشرات.
(٢) عين لامة: العين التي تصيب ما نظرت إليه بسوء.
(٣) أخرجه البخاري وأبو داود.
(٤) البأس: الشدّة، العذاب.
(٥) أخرجه مسلم.
(٦) أخرجه الترمذي وأبو داود.
(٧) أخرجه مسلم.
(٨) أخرجه أبو داود.

وعلم النجوم المنهي عنه هو ما يدّعيه أهل التنجيم من علم الكوائن والحوادث التي ستقع في مستقبل الزمان التي يمكن معرفتها بمسير الكواكب في مجاريها واجتماعها وافتراقها. كما يدّعي أهل التنجيم أن للأبراج روحانيات تؤثر في الحوادث، وجعلوا لها أسماء وقالوا: إن المولود الذي تصادف ولادته برجاً من الأبراج فإن حياته وما فيها من سعادة أو تعاسة تُقرّر بناء على تأثير ذلك البرج في حياة المولود، وقد أطلقوا على هذه الأبراج أسماء: كاسم الحمل، والجوزاء، والأسد، والقوس وغيرها.

وجاء في كتاب (الكون) تأليف كولين رونان ما يلي: «وقد سمى الرومان الكواكب، باستثناء الأرض، على أسماء آلهتهم. والواقع أن أكثر الشعوب القديمة اعتقدت أن الكواكب آلهة لها تأثير في حياة البشر. وخلال مئات السنين كان الناس يعتقدون أن الحظ في الحياة متوقف على موقع الكواكب في المجموعة النجمية عند مولد الشخص، ودراسة النجوم ومدى تأثيرها على مصير الفرد يدعى «التنجيم». . يقوم المُنَجِّمُ بمعرفة مولد الشخص بالضبط ثم يستخرج مواقع الكواكب والنجوم في تلك اللحظة ويستنتج بالتالي مستقبل ذلك الشخص. . ولا يزال هنالك إلى الآن بعض الناس الذين يعتقدون أن الحظوظ يمكن أن تعرف من النجوم. . **ولكن الذين درسوا علم الفلك الحديث يعرفون أنه لا صحة للتنجيم على الإطلاق**»[1]، يقول ابن تيميه: «واعتقاد المعتقد أنَّ نجماً من النجوم السبعة هو المتولي لسعده ونحسه اعتقاد فاسد، وإن المعتقد أنه هو المدبر فهو كافر، وكذلك إذا انضم إلى ذلك دعاؤه والاستعانة به كان كُفراً وشِركاً محضاً. . »[2].

(١) الموسوعة العلمية الحديثة ـ الدار الأهلية للنشر والتوزيع.

(٢) مجموع فتاوى ابن تيمية ـ ج ٣٥ ـ ص ١٧٧.

ويقول الفخر الرازي في تفسيره للقرآن: «لا نزاع بين الأمة في أن المعتقِد أنَّ الكواكب هي المدبّرة لهذا العالم وهي الخالقة لما فيه من الحوادث والخيرات والشرور فإنه يكون كافراً على الإطلاق وهذا هو النوع الأول من السحر».

ولقد كثر المنجمون في العصر الحاضر وبتعبير آخر (المُشَعْوِذُون) وألَّفوا الكتب في التنجيم مستغلّين سذاجة الناس ممن يغلب عليهم الجهل، ومن العجب أن أي كتاب في التنجيم له من الرواج والمبيعات عشرة أضعاف أي كتاب أدبي!

ولقد حذّر الرسول محمد ﷺ من هؤلاء المنجمين الذين يَدَّعون علم الغيب وأنذر الذين يُصدّقونهم بقوله:

«من أتى عَرَّافاً[1] فسأله عن شيء فصدَّقه لم تُقبل له صلاة أربعين ليلة»[2].

ويقول الرسول محمد ﷺ أيضاً: «من أتى كاهناً[3] أو عرّافاً فَصَدَّقَهُ بما يقول فقد كَفَرَ بما أُنزل على محمدٍ»[4].

---

(١) عَرّافاً: العرّاف هو المنجم.

(٢) أخرجه مسلم.

(٣) الكاهن عند العرب: هو من يتعاطى التنجيم وعلم الغيب والإخبار عما سيقع.

(٤) أخرجه الإمام أحمد.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انْظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٠٤) مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (١٠٥) ۞ مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٠٦) أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (١٠٧) أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ (١٠٨)﴾.

شرح المفردات

راعِنا: الْتَفِتْ إلَيْنا وأَقْبِل علينا.

أَنْظُرْنا: انْظُرْ إلينا وأَقْبِلْ علينا.

ما يَوَدُّ: لا يتمنى ولا يحب.

ننسخ من آية: نُبطِل حكمها ونزيله.

نُنْسِها: نتركها ونُؤَخِّرها عن النسخ إلى وقت معلوم.

ولي: من يلي أمرك ويحفظك.

سواء السبيل: طريق الحق المستوي المستقيم.

مُراعاة الأدب مع رسول الله ﷺ

ثم يُوجِّه القرآن المؤمنين بأن يتخيروا من الكلمات أحسنها، ومن المعاني أرقاها في مخاطبة رسول اللّه ﷺ، وأن يجتنبوا الكلمات التي يحمل معناها

الأذى لمقامه الكريم، قال ٱللَّه تعالى ﴿يا أيُّها الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقُولُوا رَاعِنا﴾ خاطب ٱللَّه أتْباع محمد بقوله ﴿يا أيُّها الَّذِينَ آمَنُوا﴾ ليذكّرهم بهذا النداء بأن الإيمان يقتضي منهم أن يتلقوا أوامر ٱللَّه بحسن القبول والطاعة. ومن هذه الأوامر ما نهاهم عنه ﴿لا تَقُولُوا رَاعِنا﴾ وكان المسلمون إذا ألْقى عليهم رسول ٱللَّه شيئاً من العلم يقولون: راعِنا يا رسول ٱللَّه، أي راقبنا وتأنَّ بنا حتى نفهم كلامك، فنهاهم ٱللَّه عن التَّفَوُّهِ بهذه اللفظة لما تحتمل من إساءة للنبي عن طريق اليهود.

وكانت لليهود كلمة عبرانية يتسابُّونَ بها فيما بينهم وهي: «راعينا» ومعناها عندهم: اسمع لا سمعت، فلما سمع اليهود بقول المؤمنين لرسول ٱللَّه ﴿رَاعِنا﴾ اتخذوا من هذه اللفظة ذريعةً لإهانةِ رسول ٱللَّه فجعلوا يخاطبونه بها، وقالوا كنا نَسُبّه سِرًّا فالآن نَسُبّه جهراً. وكلمة ﴿رَاعِنا﴾ قد يريدون بها معنى اسم الفاعل من الرعونة التي هي الحمق، فنهى ٱللَّه المؤمنين عن استعمال هذه الكلمة ﴿راعِنا﴾ وأمَرهم أن يقولوا بدَلاً منها ﴿وَقُولُوا انْظُرْنَا﴾ أي انتظرنا وأمهل علينا يا رسول ٱللَّه حتى نفهم عنك ونتلقى منك ما تقوله ﴿واسْمَعُوا﴾ أي واسمعوا أيها المؤمنون سماع قبول وامتثال ما يأمركم به رسول ٱللَّه وما ينهاكم عنه بآذانٍ واعيةٍ وأذْهانٍ حاضرةٍ ﴿وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي وللكافرين من هؤلاء اليهود عذاب موجع في الآخرة.

﴿مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الكِتابِ وَلا المُشْرِكِينَ﴾ أي لا يحب الكافرون من اليهود والنصارى ولا المشركون بٱللَّه من عبدَة الأوثان العرب ﴿أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِّنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ أي أن يُنزّل عليكم أيها المؤمنون شيء من الخير من عند ربكم بغضاً فيكم وحسداً لكم، وأعظم خير ينزله ٱللَّه على المؤمنين هو القرآن الكريم لأنه الهداية العظمى إلى الصراط المستقيم ﴿وَٱللَّهُ

﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ والاختصاص بالشيء الانفراد به، والرحمة: تشمل النُّبُوّة والقرآن والنصر، وهذا كله مما لا يحب الكافرون أن يخص ٱللَّه به المؤمنين ﴿وَٱللَّهُ ذُو الفَضْلِ العَظِيمِ﴾ والفضل: هو الخير، أي وإيتاء النبوة لمن يشاء ٱللَّه من عباده هو الفضل العظيم على من خصَّه ٱللَّه به.

النسخ في القرآن

ثم يردُّ القرآن على بعض ما قاله اليهود عند تحويل القبلة في الصلاة من بيت المقدس إلى الكعبة: إن محمداً يأمر أصحابه بأمرٍ ثم ينهاهم عنه، ويقول اليوم قولاً ويرجع عنه غداً، وإن القرآن من عنده لا من كلام ٱللَّه، فنزل الوحي الإلَهيّ مبيناً أنَّ النسخ من عنده تعالى لا من عند رسوله محمد ﷺ.

﴿ما نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِها﴾ النسخ في اللغة: الإزالة والنقل، والمراد بالآية هنا: الجملة القرآنية التي تحتوي على حكم شرعي. ومعنى ننسها: نتركها لا نُبَدِّلها ﴿نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا﴾ أي نأتِ بما هو خير لكم في المنفعة وأرفق بكم. والمراد بنسخ الآية رَفْع حكمها مع بقاء تلاوتها، وتارةً برفع تلاوتها مع بقاء حكمها، أو رفعهما معاً، وقد يكون النسخ بإبدال آيةٍ مكان آية. فما نُسِخَ بحكمٍ أخفّ فهو في العمل أيْسر، وما نُسِخَ بالأشدّ فهو في الثواب أكثر.

والحكمة في نسخ بعض الأحكام وإبدالها بأحكام أخرى هي اليُسْرُ بالناس ومراعاة مصلحتهم، مثالٌ على ذلك الطبيب الذي يُغَيِّر الأغذية والأدوية تبعاً لاختلاف صحة المريض، فكذلك الأحكام الشرعية قد يتغير بعضها حسب أحوال الأمم والجماعات، والقرآن نسخ جميع الشرائع الإلَهية السابقة كالتوراةِ والإنجيل بأحكامٍ جديدةٍ تناسب جميع الأمم وتصلح لكل زمان ومكان.

﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ الاستفهام للتقرير، والخطاب للنبي محمد ﷺ وهو موجه بمعناه إلى أمّته، والمعنى: قد علمت أيها المخاطب أن ٱللّٰه قادر على أن يَفْعَلَ ما يشاء، ومن جملة ذلك أن ٱللّٰه قادر على أن ينسخ ما يشاء من الأحكام وعلى الإتْيان بما هو أنفع للناس منها.

﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ والأَرْضِ﴾ الاستفهام أيضاً للتقرير، أي قد علمت أيها المخاطب أن ٱللّٰه له التصرف في السماوات والأرض بالإيجاد والاختراع يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد فهو أعلم بمصالح عباده وما فيه النفع لهم من الأحكام التي شرعها لعباده ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ﴾ وما لكم أيها المؤمنون من مالك يتولى أموركم غير ٱللّٰه، ولا نصير لكم سواه يعينكم على أعدائكم، ومن كان ٱللّٰه وليّه ونصيره كفاه ٱللّٰه من كل شر.

﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَما سُئِلَ مُوسى مِنْ قَبْلُ﴾ استفهام للإنكار أي أتُريدون أيها المسلمون أن تسألوا رسول ٱللّٰه محمداً وتقترحوا عليه أسئلة تتنافى مع الإيمان الحق كما سُئِلَ موسى قبلكم من قومه حيث قالوا له ﴿أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ [النساء: ١٥٣] وقالوا له ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾ [الأعراف: ١٣٨] وهذا ردّ على ما قاله بعض المرتابين بنبوة محمد ﷺ حيث قالوا له:

ائْتِنا بكتابٍ غير هذا ينزل عليك من السماء نقرؤه، وفجِّرْ لنا أنهاراً فعندها نَتَّبِعك ونُصَدِّقك ﴿وَمَنْ يَتَبَدَّلِ الكُفْرَ بالإيمانِ﴾ ومن يستبدل الكفر بدل الإيمان ﴿فَقَدْ ضَلَّ سَواءَ السَّبِيلِ﴾ أي فقد حادَ وعدَلَ من حيث لا يدري عن الطريق المستقيم الموصل إلى معالم الحقّ والهدى. وسواء السبيل: وسط الطريق الذي هو بين الغلوّ والتقصير.

﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٩﴾ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٠﴾ وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١١١﴾ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾ وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَىٰ لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَٰلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١١٣﴾﴾.

شرح المفردات

وَدَّ: تمنى وأحبّ.

حتى يأتي ٱللَّه بأمره: حتى يأتي أمر ٱللَّه بالإذن في قتالهم.

هُوداً: أي يهوداً.

بُرهانكم: دليلكم.

أسلم وجهه لله: أخلص عبادته لله وخضع له بالطاعة.

حسد اليهود للمسلمين وأمانيهم الباطلة

ويتابع القرآن فيذكر بعض نيّات اليهود السيئة نحو المسلمين وهي تمنيهم ارتدادهم عن دينهم الحق، قال ٱللَّه تعالى:

﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِّنْ بَعْدِ إِيمانِكُمْ كُفَّاراً﴾ وَدَّ: تمنى وأَحَبَّ، وأهل الكتاب المراد بهم هنا اليهود، والمعنى: تمنى كثير من اليهود أن يُرجعوكم أيها المسلمون من بعد إيمانكم ودخولكم في الإسلام إلى ما كُنتم عليه من الكُفر قبل إسلامكم. وفي قوله سبحانه ﴿مِنْ بَعْدِ إِيمانِكُمْ﴾ بيانٌ لقبح سلوك اليهود لأنهم أهل كتاب إلّهي، فكيف يرتضون لغيرهم الكفر بدل الإيمان، علماً بأن دينهم يذمّ الكفر ويدعو إلى الإيمان، والمؤمنون العرب كانوا من قبل أن يؤمنوا بوحدانية ٱللَّه وبنبوة محمد ﷺ كانوا يعبدون الأصنام، كما أن ما يتمناه اليهود من رجوع المؤمنين العرب عن دينهم متعذر الحصول، لأن الإيمان بٱللَّه متى استحوذ على القلوب منع صاحبه من الكفر.

وتمني اليهود للمؤمنين العرب بالرجوع عن دينهم سببه الحسد كما صرحت الآية ﴿حَسَداً مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ﴾ أي إن هؤلاء اليهود لم يؤمروا بذلك، بل إن الحسد رسخ في قلوبهم مع علمهم بنهي ٱللَّه عنه، والحسد هو تمني زوال النعمة عن الغير، ودلّ هذا الحسد على أنهم يُوقنون بصحة دين الإسلام، لأن الإنسان لا يحسد إنساناً آخر على دينه إلاّ لأنه يعرف في نفسه صحة هذا الدين، وأنه سبيل السعادة والنجاح، فلو كان الإسلام ديناً باطلاً فكيف يحسدونهم عليه؟ ﴿مِنْ بَعْدِ ما تَبَيَّنَ لَهُمُ الحَقُّ﴾ أي من بعد ما اتضح لهم الحق الذي أنتم عليه ـ أيها المسلمون ـ وذلك استناداً إلى ما جاء في كتب اليهود الإلّهيّة من البشارات على مجيء نبيّ من العرب تنطبق صفاته على صفات النبي محمد ﷺ، وما ظهر على يديه من المعجزات التي أيّده ٱللَّه بها ﴿فَاعْفُوا واصْفَحُوا﴾ أي فتجاوزوا أيها المسلمون عما كان من اليهود من عداوة وحسد لكم، والعفو ترك العقوبة على الذنب، والصفح: ترك التأنيب عليه ﴿حَتّى يَأْتِيَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾ حتى يأذن ٱللَّه لكم بالقتال للذين يُناصبونكم العداء ويضمرون لكم الشرّ، وذلك عندما

يصبح لكم قوة تتمكنون بها من قهر عدوكم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي إن كل شيء في الوجود داخل تحت سلطان ٱللَّه وقدرته التي لا تقهر.

﴿وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وآتوا الزَّكاةَ﴾ أي أدُّوا الصلاة كاملةً مع الخشوع لله سبحانه وأعطوا زكاة أموالكم للفقراء والمحتاجين بما يسدّ به عوزهم.

﴿وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِّن خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ ٱللَّهِ﴾ هذه الجملة مُرَغِّبَة في فعل الخير الذي يتناول أعمال البرّ كلها وقال سبحانه: ﴿لِأَنْفُسِكُم﴾ تنبيهاً على أن ما يُقدّمونه من خير إنما هو لمصلحة أنفسهم. والذي يجدونه عند ٱللَّه هو ثواب ما يقدمونه من العمل الصالح ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فٱللَّه يخبر المؤمنين بأنه بصير بجميع أعمالهم ليحرصوا على طاعته وليحذروا معصيته.

ثم يُبين القرآن نوعاً آخر من أباطيل أهل الكتاب:

﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الجَنَّةَ إلاَّ مَنْ كَانَ هُوداً أَوْ نَصارى﴾ في هذا الكلام حذْف، وأصله: وقالت اليهود لن يدخل الجنة إلاّ من كان يهودياً وقالت النصارى لن يدخل الجنة إلا من كان نصرانياً، ولكن الآية أدت هذا المعنى وسلكت طريق الإيجاز فعبرت عن القولين في جملة واحدة ﴿تِلْكَ أَمانِيُّهُمْ﴾ والأماني: جمع أمنية وهي ما يتمنى، فأمنية اليهود دخول الجنة وحدهم وأمنية النّصارى كذلك وأُمنيتهم جميعاً ألاّ يدخلها المسلمون، وما يتمنونه هو أوهام كاذبة لا أساس لها ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهانَكُمْ إنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أي قل لهم يا محمد: أحْضِروا حُجَجكم وأدلتكم على اختصاص دخول الجنة بكم وحدكم إن كنتم صادقين فيما تَدَّعُون. ويؤخذ من الآية بُطلان التقليد الأعمى في أمور الدين، وهو قبول قول الغير مجرداً من الدليل.

﴿بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ﴾ بلى: تأتي جواباً للنفي، فعندما نفى اليهود

والنصارى دخول الجنة عن غيرهم جاء الجواب: بلى، أي كذبتم في قولكم بل يدخل الجنة من أخلص نفسه وذاته لله فآمن به وأطاعه ونَزَّهَهُ عن الولد وخصَّ الوجه بالذكر لأنه أشرف أعضاء الإنسان وموضع العقل والفكر، كما يكنى بالوجه عن ذات الإنسان ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ أي عامِلٌ للحسَنات تارك للسيئات ﴿فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ﴾ فله ثواب عمله عند ربه بدخول الجنة ﴿وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ أي من أهوال يوم القيامة ولا من عذاب النار ﴿وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ على ما تركوا وراءهم من الدنيا من مالٍ ومقتنياتٍ فقد عوَّضهم ٱللَّه بأحسن مما كانوا فيه.

﴿وَقَالَتِ اليَهُودُ لَيسَتِ النَّصارَى عَلى شَيءٍ وَقَالَتِ النَّصارَى لَيسَتِ اليَهُودُ عَلى شَيءٍ﴾ في هذا النص القرآني يتهم اليهود والنصارى بعضهم بعضاً بالضلال وأنهم ليسوا على شيءٍ صحيحٍ يُعتدُّ به من أُمور الدين.

وقد رُوِيَ أن وفد نجران النصارى لما قدموا على رسول ٱللَّه أتاهم أحْبار اليهود فتناظروا حتى ارتفعت أصواتهم، فقالت اليهود: ما أنتم على شيءٍ من الدين وكفروا بعيسى عليه السلام والإنجيل، وقالت النصارى لهم نحوه وكفروا بموسى عليه السلام والتوراة ﴿وَهُمْ يَتْلُونَ الكِتابَ﴾ يتلون: يقرأون، فاليهود يقرأون التوراة والنصارى يقرأون الإنجيل، أي إنهم أهل العلم بالتوراة والإنجيل، ومن كان تالياً للكتاب السماوي فشأنه أن يعترف بما في كتاب سماوي مثله إذ الكتب السماوية يصدّق بعضها بعضاً بما تشتمل عليه من الحق ﴿كَذلِكَ قَالَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ﴾ والذين لا يعلمون الذين ذكرتهم الآية هم مُشْرِكو العرب، فإنهم كانوا يقولون للمسلمين: لستم على شيء من الدين أي إن دينكم باطل، والهدف الذي ترمي إليه الآية هو أن إنكار اليهود والنصارى لنبوة محمد لا ينبغي أن يُثير شبهة على عدم صحة نبوته والدين الذي جاء

به، فسبيلهم في إنكار الإسلام كسبيل المشركين الذين أنكروه عن جهالة به وكان الأخرى بهم أن يؤمنوا به لأنهم أهل علم بكتب ٱللَّه ﴿فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ القِيامَةِ فِيما كانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ أي فاللَّهُ يقضي ويفصل بينهم يوم القيامة فيما اختلفوا فيه من أمور الدين فيثيب من كان على حق ويعاقب من كان على باطل.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١٤﴾ وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ بَل لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿١١٦﴾ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ ۘ تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ ۗ قَدْ بَيَّنَّا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿١١٨﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۖ وَلَا تُسْـَٔلُ عَنْ أَصْحَٰبِ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٩﴾﴾.

شرح المفردات

ومَنْ أَظْلَمُ: استفهام إنكاري بمعنى النفي، أي لا أحد أكثر ظلماً.

خِزْيٌ: ذُلّ وهوان.

واسع: من أسماء ٱللَّه سبحانه، أي إن إنعامه ورحمته وسعت كل شيء.

قانتون: مُنقادون خاضعون.

بديع: الذي يُحدث الأشياء على غير مثال سابق.

قضى أمراً: إذا أراد شيئاً.
يُوقِنون: اليقين يطلق على العلم الذي انتفت عنه الشكوك.

التحذير من العدوان على معابد الله

وبعد أن بيَّن القرآن موقف اليهود من النصارى وموقف النصارى من اليهود وموقفيهما من الإسلام بيَّن في الآية التالية فداحة الظلم الذي يتمثل في التعرّض لأماكن العبادة بالخراب ومنع الناس من أداء العبادة فيها، قال ٱللَّه تعالى:

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَّنَعَ مَساجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فيها اسْمُهُ وَسَعى في خَرابِها﴾
ومن: استفهام يُراد منه النفي، أي لا أحَد أظْلم، والمساجد: جمع مسجد وهو البناء الخاص لصلاة المسلمين مأخوذ من السجود، وهو وضع الجبهة على الأرض خضوعاً لله وتعظيماً له، وكل موضع طاهر من الأرض يمكن أن يُعبد ٱللَّه فيه يسمى مسجداً[١]. ومعنى الآية: لا أحَد أظْلم ممن يحول دون ذكر ٱللَّه في أماكن العبادة ويسعى في خرابها بإلْقاء القاذورات فيها أو إغلاقها، أو الحيلولة دون دخول العابدين فيها **﴿أُولئِكَ ما كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوها إلاّ خَائِفِينَ﴾** أي أُولئك المانعون المخربون للمساجد[٢] ما كان ينبغي لهم دخولها إلاّ وفي قلوبهم خوف من ٱللَّه، ولكن قست قلوبهم وعملوا على منع الناس من العبادة فيها **﴿لَهُمْ في الدُّنْيا خِزْيٌ وَلَهُمْ في الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾** أي لهؤلاء المخربين للمساجد في الدنيا هوان وذلة، ولهم في الآخرة عذاب مؤلم لا يوصف لشدة هوله.

هذه الآية نزلت في كفار قريش لمّا منعوا رسول ٱللَّه والمسلمين أن يدخلوا المسجد الحرام بمكة وأداء العمرة فيه عام الحديبية.

---

(١) وفي الحديث عن النبي ﷺ أنه قال: «جُعِلَتْ لي الأرض مسجداً وترابها طهوراً».
(٢) يقول القرطبي: والذين يبنون مسجداً إلى جنب مسجد أو قرية يريدون بذلك تفريق أهل المسجد الأول وخرابه واختلاف الكلمة فإن المسجد الثاني يُنقض ويمنع بنيانه.

وقيل: وردت في شأن الرومانيين الذين غزوا بني إسرائيل وخربوا بيت المقدس، وقيل: إن الآية منبئة بأمر سيقع وهو ما كان من إغارة الصليبيين على بيت المقدس وتخريبه.

فالآية التي معنا ناطقة بوجوب احترام كل معبد يُذكر فيه اسم ٱللَّه تعالى بالصلاة والتسبيح، وتحريم السعي في خراب المعابد، والحكم على الذين يصدون الناس عنها ويسعون في خرابها بكونهم أظلم الناس، وهذا ما يفعله اليهود في عصرنا الحاضر من محاولة تخريب المسجد الأقصى وإحْداث الحرائق فيه وتدْنيسه من بعض أركان السلطة فيهم، ومنع قسم من فئات المسلمين من الصلاة فيه، بينما الإسلام يدعو إلى احترام كنائس أهل الكتاب وبِيَعِهِم[1] والمحافظة عليها من كل سوء.

ولمّا كانت الآية السابقة قد أفادت أن بعض الظالمين قد يمنعون المصلين من الصلاة في مساجد ٱللَّه جاءت الآية التالية تفيد بإباحة الصلاة في أي مكان في الأرض غير المساجد، قال ٱللَّه تعالى:

﴿وَلِلَّهِ المَشْرِقُ والمَغْرِبُ فَأَيْنَما تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾ المشرق والمغرب: مكان شروق الشمس ومكان غروبها ويُراد منهما جميع الأرض. وجه ٱللَّه: أي الجهة التي ارتضاها ٱللَّه وأمر بالتوجه نحوها في الصلاة وهي الكعبة وتسمى القِبلة، والمعنى: إن جميع ما في الأرض مُلْكٌ لله وحده، ففي أيّ مكان من الشرق والغرب استقبلتم جهة الكعبة قبلةً لكم في الصلاة التي أمركم ٱللَّه بالتوجه نحوها ﴿فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾ فهناك موضع رضاه وثوابه وجهة رحمته التي يوصل إليها بطاعته.

---

(١) بِيَعُهُم: جمع بِيعَة وهي مكان العبادة لليهود.

وجاء في تفسير المنار في توضيح ذلك: «إن من شأن العابد أن يستقبل وجه المعبود، ولمّا كان سبحانه مُنَزَّهاً عن المادة والجهة واستقباله بهذا المعنى مستحيلاً شرع للناس مكاناً مخصوصاً يستقبلونه في عبادتهم إياه وجعل استقبال ذاك المكان كاستقبال وجهه تعالى» ﴿إِنَّ اللَّهَ واسِعٌ عَلِيمٌ﴾ أي إن ٱللَّه يسع خلقه كلهم بالكفاية والإفضال والجُود، وهو عليمٌ بأفعالهم لا يغيب عنه منها شيء أينما كانوا.

وفي أسباب نزول هذه الآية ما روي عن بعض الصحابة قولهم: كنا مع رسول ٱللَّه في ليلة مظلمة فلم نَدْرِ أين القبلة! فَصلى كُلُّ رجُل منا على حياله ثم أصبحنا فذكرنا ذلك للنبي ﷺ فأنزل ٱللَّه ﴿فَأَيْنَما تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ وَرُوِيَ أن هذه الآية نزلت في قوم عُمِّيت عليهم القِبلة فلم يعرفوا جهتها فَصَلُّوا على أنحاء مختلفة، فقال ٱللَّه عز وجل لهم: لي المشارق والمغارب فأنّى ولّيتم وجوهكم فهنالك وجهي وهو قبلتكم، مُخبرهم بذلك أن صلاتهم صحيحة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ واسِعٌ عَلِيمٌ﴾ وهو سبحانه واسع إنعامه ورحمته لا يضيّق على عباده، وهو عليم بنية من يتجه إليه بالعبادة.

﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً﴾ والذين قالوا اتخذ ٱللَّهُ ولَداً هم اليهود والنصارى والمشركون، فقد ذكر ٱللَّه عن اليهود أنهم قالوا: عُزَيْرٌ ابنُ ٱللَّهِ، وعن النصارى أنهم قالوا: المَسيحُ ابنُ ٱللَّه، وعن المشركين أنهم قالوا: الملائكة بنات ٱللَّه ﴿سُبْحانَهُ﴾ تنزيهاً لله وتبرئةً له مما يَنسبون له من الولَد ﴿بَلْ لَهُ مَا في السَّمٰواتِ والأَرضِ﴾ وٱللَّهُ سبحانه لا يصحّ أن يكون له ولد لأنه مالك السماوات والأرض، وهو سبحانه ليس بحاجةٍ إلى اتخاذ الولد، إذ الولد إنما يرغب فيه الوالد ليحيى ذكره أو ليستعين به على القيام بأعباء الحياة وٱللَّه تعالى مُنَزَّهٌ عن أمثال هذه الأغراض التي لا تليق إلاّ بمن كان ضعيفاً كالإنسان. ثم إن الحكمة

من التوالد بقاء النوع الإنساني أو الحيواني، أما ٱللَّه سبحانه فهو الواحد في ذاته وصفاته الباقي على الدوام ﴿كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ﴾ والقُنوتُ هو الطاعة والخضوع، أي إن كل ما في السماوات والأرض مطيعون لله خاضعون له لا يستعصي شيء منهم على مشيئته، فخضوع الكائنات لربّها واحتياجها إليه ليس له حدود.

﴿بَدِيعُ السَّمٰوَاتِ والأَرْضِ﴾ أي خالقهما ومُنشئهما على غير مثال سابق ﴿وإذا قَضَى أَمْراً﴾ إذا أراد ٱللَّه خلق شيء وإيجاده ﴿فَإِنَّما يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ المراد من هذه الكلمة سُرعة نفاذ قُدرة ٱللَّه في تكوين الأشياء بلا فكرة ومعاناة وتجربة، وبلا مهلة، من غير امتناع ولا توقّف.

﴿وَقالَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ﴾ أي وقال الجُهَّال من المشركين أو المتجاهلون من أهل الكتاب الذين لا يعلمون حقيقة التوحيد والنبوة ﴿لَوْلاَ يُكَلِّمُنا ٱللَّهُ﴾ أي هلاّ يُكَلّمنا ٱللَّه بلا واسطة كما يكلم الملائكة ﴿أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ﴾ أو تأتينا معجزة تكون حجة على صدق نُبوتك يا محمد، قالوا ذلك على وجه العناد والاستكبار، وهو جحود منهم من أن تكون آيات القرآن والمعجزات التي أيَّده ٱللَّه بها دليلاً على صدق نبوته ﴿كَذٰلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِم﴾ أي مثل هذا القول من الجحود والمكابرة قاله الذين كفروا من الأمم السابقة ﴿تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ أي تشابهت قلوب قومك يا محمد مع قلوب الذين من قبلهم من الأمم السابقة في الكفر والعناد والمكابرة ﴿قَدْ بَيَّنَّا الآياتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ أي بيَّن ٱللَّه العلامات التي من أجلها غضب على الأمم السابقة بسبب كُفرها وعنادها وتكذيبها لرسله للطالبين معرفة حقائق الأشياء عن علم ثابت لا يدخله الشكّ.

ثم خاطب ٱللَّه رسوله محمداً بقوله: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بالحَقِّ بشيراً وَنَذِيراً﴾

أي إنا أرسلناك يا محمد داعياً إلى دين الإسلام وهو الحق، مبشراً من اتبعك فأطاعك بالسعادة في الدنيا، والنعيم الدائم في الآخرة، ومخوّفاً ومحذراً من عصاك فَخالفك بالخزي في الدنيا والشقاء فيها، والعذاب المهين في الآخرة.

﴿وَلاَ تُسْأَلُ عَنْ أَصْحابِ الْجَحِيمِ﴾ ولست مسؤولاً يا محمد عمن كفر بما جئت به من الحق وكان بكفره من أهل الجحيم، والجحيم اسم من أسماء جهنم، وجهنم هي النار التي يُعذّب بها الكفار في الآخرة.

﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُو۟لَـٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴿١٢١﴾ يَـٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٢٢﴾ وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَـٰعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿١٢٣﴾﴾.

شرح المفردات

مِلّتهم: المِلّة هي الدّين.

يتلونه حقّ تلاوته: يقرأونه حق قراءته فلا يُحَرِّفونه.

على العالَمين: أي العالَمين في زمانهم.

لا تَجْزِي نفسٌ عن نفسٍ شيئاً: لا تحمل نفس عن نفس أُخرى شيئاً من جزاء عملها.

ولا يقبل منها عَدْل: ولا يقبل منها فِداء.

إصرار أهل الكتاب على ضلالهم

كان النبي محمد ﷺ حريصاً على دخول أهل الكتاب من اليهود والنصارى في مِلَّة الإسلام، وكان يسلك معهم كل الأساليب الحسنة لترغيبهم بالإسلام، ولكن دعوته لهم كانت تقابل بالعناد والجحود والأذى له مما كان يدخل الأسى إلى قلبه، فجاءت الآية التالية تواسي النبي محمداً ﷺ وتبين حقيقة توجهاتهم نحوه، قال ٱللَّه تعالى:

﴿وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ اليَهُودُ وَلا النَّصارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ المِلَّةُ: اسم لما شرعه ٱللَّه لعباده في كتبه وعلى ألْسنة رسله. فقد نفى القرآن رضى اليهود والنصارى عن النبي ﷺ على وجه المبالغة، إذْ علّق رضاهم عنه على أمرٍ مستحيل صدوره، وهو اتباع النبي لملتهم، وهذه حقيقة تُنبئ عما يدور في نفوسهم، فهم لا يرضون عن أحَدٍ حتى يَتَّبِعَ مِلَّتهم ﴿قُلْ إنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ الهُدَى﴾ أي قل لهم يا محمد: إنَّ هُدى ٱللَّه وهو القرآن الذي أنزله ٱللَّه عليك هو الهُدى الذي يجب اتّباعه.

﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْواءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ العِلْمِ﴾ ولئن: مكونة من لام القسم وإن الشَّرْطية. وأهواؤهم: آراؤهم المنحرفة عن الحق الصادرة عن شهوات أنفسهم، والمعنى: قسماً لئن اتبعت يا محمد أهواءهم وديانتهم التي دخلها الكثير من التبديل والتغيير بعد الذي جاءك من العلم بحقيقة الإسلام ﴿ما لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ﴾ أي ليس لك من غير ٱللَّه من يلي أمرك، ولا نصير يدفع عنك عقابه. والخطاب هنا وإن كان للنبي ﷺ إلا أن المُراد به أُمّته فهو تحذيرٌ لها من اتّباع أهواء أهل الكتاب.

﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاوَتِهِ﴾ والكتاب هنا المراد به التوراة والذين أعطاهم التوراة قد يُراد بهم علماء بني إسرائيل كعبد ٱللَّه بن سلام

وأصحابه الذين دخلوا في الإسلام. والتلاوة: الاتباع أي هؤلاء يتبعون كتاب ٱللَّه حق اتباعه فَيُحِلّون حلاله ويُحَرِّمون حرامه، وتأتي التلاوة بمعنى القراءة، أي يقرأون كتاب ٱللَّه كما أنزله سبحانه، لا يُحَرِّفُونَ الكلم عن مواضعه، ولا يفسرون منه شيئاً على غير تأويله ﴿أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ أي هؤلاء يُصَدِّقون بنبوة محمد لأن في التوراة نعته وصفاته وهي تأمر أهلها بالإيمان به ووجوب طاعته ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الخَاسِرونَ﴾ أي ومن يجحد نبوة محمد فهم الخاسرون في الآخرة إذْ يفوتهم ما أعدّ ٱللَّه للمؤمنين من نعيمٍ دائمٍ.

﴿يا بَنِي إسْرائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ سبق تذكير بني إسرائيل بنعم ٱللَّه عليهم، وإسرائيل هو النبي يعقوب عليه السلام، وهنا كرر ذكر هذه النعم تأكيداً لوجوب شكرها وحَثًّا لهم على طاعة ٱللَّه، ومن هذه النعم نجاة آبائهم من ظلم فرعون وقومه، وإنْزال المَنّ والسَّلْوى وهم تائهون في الصحراء، وتمكينهم من السكن في البلاد التي دخلوها معززين مكرمين بعد أن كانوا أذِلَّاء مستعبدين في مصر ﴿وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلى العَالَمِينَ﴾ كما أن ٱللَّه فضّلهم على عالم زمانهم حينما اتبعوا رسول ٱللَّه موسى وصدّقوا بالتوراة التي أنزلها ٱللَّه عليه واتبعوا ما فيها من الهدى.

﴿وَاتَّقُوا يَوْماً لا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئاً﴾ واليوم المذكور في الآية هو يوم القيامة، واتقاء يوم القيامة وما فيه من أهْوال يكون بأداء الواجبات التي فرضها ٱللَّه واجتناب المحظورات التي نهى ٱللَّه عن فعلها، وفي هذا اليوم الذي يُحاسب ٱللَّه فيه الناس على أعمالهم لا تحمل فيه نفس غير مذنبة عن نفس مذنبة شيئاً من الجزاء والعقاب ﴿وَلا يُقْبَلُ مِنها عَدْلٌ﴾ ولا يقبل من النفس المذنبة فدية للنجاة من عذاب ٱللَّه إذا كانت من أهل الظلم والعدوان في الدنيا ﴿وَلاَ تَنْفَعُها شَفَاعَةٌ﴾ وهذه النفس المذنبة لا ينفعها شفاعة من أحَدٍ ﴿وَلا هُمْ

﴿يُنْصَرُونَ﴾ ولا يجدون ناصراً لهم ينصرهم ويدفع عنهم العذاب لأنهم فرّطوا في جنب ٱللَّه ولم يراعوا حقوقه فاستحقُّوا العذاب وبئس المصير.

﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَـٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾ وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ۖ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَـٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿١٢٥﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَـٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾﴾.

شرح المفردات

ابتلى إبراهيمَ ربُّه: اختبر ٱللَّه إبراهيم وامتحنه.
بكلمات: بأوامر ونواهٍ كلّفه ٱللَّه بها.
فأتمّهن: أتى بهن على الوجه الأكمل.
إماماً: قُدوة للناس.
عهدي: العهد هنا: الإمامة والنبوة.
البيت: المراد به الكعبة.
مثابة للناس: مرجعاً لهم للعبادة.
مقام إبراهيم: هو الحجر الذي كان يقوم عليه إبراهيم عند بناء الكعبة.
وَعَهِدْنا: أي أمرنا أمراً مؤكداً.
للطائفين: للذين يطوفون حول الكعبة.
العاكفين: الملازمين للمسجد زمناً ما للعبادة.
أضطره: ألجئه.

استجابة إبراهيم لأوامر ربه

وبعد أن ذكر ٱللَّه تعالى في الآيات السابقة، نِعَمهِ على بني إسرائيل وكيف كانوا يقابلون النعم بالكفر والعناد، أتبع الكلام عنهم بذكر فضائل النبي إبراهيم عليه السلام ومنزلته عند ربه، قال تعالى:

﴿وإذِ ابْتَلَى إبراهيمَ رَبُّهُ بِكَلِماتٍ﴾ الابتلاء: الاختبار والامتحان، أي واذكر يا محمد وقت أن امتحن ٱللَّه نبيه إبراهيم بأوامر دعاه إلى أدائها ونواهٍ دعاه أن لا يقربها وهذه الأوامر والنواهي هي شرائع الإسلام **﴿فَأَتَمَّهُنَّ﴾** أي أتى بهن على الوجه الأكمل، وقام بهن أتم قيام، وقد أثنى ٱللَّه على إبراهيم بما جاء في القرآن **﴿وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ﴾** [النجم: ٣٧].

﴿قَالَ إنّي جَاعِلُكَ للنَّاسِ إماماً﴾ أي قال ٱللَّه: إني مُصَيِّرُكَ يا إبراهيم إماماً، وهذا نتيجة لنجاحه في اختبار ٱللَّه له، والإمام: هو القُدوة الذي يؤتمُّ به في أقواله وأفعاله، وإمامة إبراهيم هي النُّبُوَّة فقد كان نبياً يقتدى به في اتباع دين ٱللَّه ومكارم الأخلاق **﴿قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتي﴾** هذا القول من إبراهيم عليه السلام يحتمل أن يكون دعاء، أي: واجعل لي يا رب من ذريتي إماماً، ويحتمل أن يكون هذا القول: **﴿وَمِن ذُرِّيَّتي﴾** المقصود منه الاستفهام، أي ومن ذريتي ماذا يكون يا رب حالهم، فأجابه ٱللَّه: **﴿قَالَ لا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾** فالعهد هنا مراد به: الإمامة أو النبوة، وفي الآية إيجازٌ بديع: إذِ المُراد إجابة طلب إبراهيم من الإنعام على بعض ذريته بالإمامة أو النبوّة، وقد نال النبوة من ذريته كلٌّ من إسحاق، ويعقوب، وإسماعيل، ويُوسُف وغيرهم، كما تدل الآية صراحة على أن الظالمين من ذرية إبراهيم ليسوا أهلاً لأن يكونوا أئمة يُقتدى بهم، والظلم يعني: كبائر المعاصي، والخروج عن طاعة ٱللَّه والتعدي على حقوق الناس.

وقد استدل بهذه الآية جماعة من العلماء على أن الإمام يجب أن يكون من أهل

العدل والإحسان مع القوة على القيام بذلك، فأما أهل الفُسوق والظلم فليسوا أهلاً للإمامة. ثم انتقل القرآن إلى الكلام عن الكعبة ومزاياها:

﴿وَإِذْ جَعَلْنا البَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْناً﴾ والبيت في الآية: الكعبة، أي واذكروا وقت أن حكمنا وقررنا بأن يصير بيت ٱللَّه الحرام مرجعاً يرجع إليه الزوّار أفواجاً بعد أفواج فلا يقضون منه وطراً، أو موضع ثواب يثابون عليه. وكونه مثابة للناس أمر معروف في الجاهلية والإسلام وهو يصدق برجوع بعض زائريه إليه وحنين غيرهم وتمنيهم له عند عجزهم عنه ﴿وَأَمْناً﴾ أي موضع أمن، فالحج إليه يجعل الحاج مطمئناً إلى رحمة ٱللَّه فإنه مُكَفِّرٌ لكثير من الذنوب، ومن لاذ به كان آمناً من ظالميه، فقد كان العرب في الجاهلية يقتتلون ويُغير بعضهم على بعض وأهله آمنون ومن دخله كان آمناً من التشفي والانتقام.

﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْراهِيمَ مُصَلًّى﴾ مقام إبراهيم هو الحجر الذي كان يقوم عليه إبراهيم حين ارتفعت جدران الكعبة فاحتاج إليه ليتيسر له وضع الحجارة في مكانها ليتم البناء، وكان ولده إسماعيل يساعده فيناوله تلك الحجارة، أي اتخذوا من موضع قيام إبراهيم لبناء الكعبة موضعاً للصلاة، وقد ورد في الحديث الشريف أن رسول ٱللَّه طاف بالبيت سَبْعاً وصلَّى خلف المقام ركعتين، ومنهم من فسر مقام إبراهيم بمواقف الحج كلها.

﴿وَعَهِدْنا إلى إِبْراهِيمَ وإسْماعِيلَ أَنْ طَهِّرا بَيْتِيَ﴾ أي أمر ٱللَّه إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام أن يُطَهِّرا بيت ٱللَّه الحرام وما حوله من كل ما لا يليق بعبادة ٱللَّه من الأوثان والأنجاس والخبائث كلها ﴿لِلطَّائِفِينَ﴾ جمع طائف وهو الذي يدور حول الشيء، والمراد: المتقربون إلى ٱللَّه بالطواف حول بيت ٱللَّه الحرام ﴿والعَاكِفِينَ﴾ جمع عاكف، والعاكف على الشيء هو المقيم عليه

الملازم له، ومعناه المقيمون في الحرم بقصد العبادة ﴿والرُّكَّعِ السُّجودِ﴾ الرُّكَّع: جمع راكع، والسجود، جمع ساجد، والركوع والسجود من هيئات الصلاة وأركانها، وإنما عبر عن المصلين بالرُّكَّع والسجود لأن أبرز معاني العبادة والخضوع لله في الصلاة تظهر في الركوع والسجود.

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَداً آمِناً﴾ أي واذكروا حين دعا إبراهيم رَبَّه قائلاً: ربِّ اجْعَلْ مكة بلداً آمناً، وهذا الدعاء من جوامع الكلم فإن أمن البلاد يستتبع سعادة الحياة الدنيا والرخاء فيها، كما يستتبع الأمن إعمار البلاد وزيادة ثرواتها، فإذا اختل الأمن ذهب كل ذلك وأصابها الخوف والشقاء وهجرة السكان منها ﴿وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَراتِ﴾ دعا إبراهيم ربه بأن يجود على أهل مكة بأنواع الثمرات لأن مكة لم يكن فيها زرع ولا ثمر. وخص إبراهيم المؤمنين بطلب الرزق لهم بقوله: ﴿مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللَّهِ والْيَوْمِ الآخِرِ﴾ إظهاراً لشرف الإيمان وعلوّ مكانته ومراعاة لحسن الأدَب مع ربّه وإيذاناً بأنهم هم المستحقون لهذا الرزق دون من سواهم من الكافرين. فأجاب ٱللَّه إبراهيم ﴿قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً﴾ أي إن ٱللَّه يرزق الكافر أيضاً في الدنيا كما يرزق المؤمن، والمتاع القليل هو متاع الدنيا ووصفه ٱللَّه بالقلة لأنه صائر إلى نفاد وانقطاع، ثم عقب ٱللَّه على ذلك بقوله ﴿ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إلى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ المَصِيرُ﴾ أي ثم أدفع ذلك الكافر وأسوقه مرغماً إلى عذاب النار، وبئس المصير الذي ينتهي أمره إليه.



﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾﴾.

شرح المفردات

يرفع إبراهيم القواعد من البيت: القواعد: الأُسُس، جمع قاعدة، ورفعها: البناء عليها.
والبيت: هو الكعبة.

وأرنا مناسكنا: عَلِّمنا شرائع ديننا وأعمال حَجِّنا.

يُـزَكِّيهم: يُطَهِّرهم من الشرك والمعاصي.

دعاء إبراهيم وإسماعيل

ويُتابع القرآن فيذكر بناء إبراهيم وإسماعيل للكعبة ودعاءهما بأن يتقبل ٱللَّه عملهما هذا مع الدعاء بأن يرسل ٱللَّه إلى العرب رسولاً منهم لهدايتهم:

﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبراهِيمُ القَواعِدَ مِنَ البَيْتِ وإسْماعِيلُ﴾ والقواعد: جمع قاعدة وهي الأساس الذي يُقام عليه البناء، ورفع القواعد هو إعلاء البناء عليها، والبيت هو الكعبة، وقد روي أن أول من بَنى الكعبة آدم عليه السلام ثم اندرست معالمها على طول الزمن وبقي أساسها فأوحى ٱللَّه إلى الملك جبريل أن يُرشد إبراهيم إلى مكانها وأمَرَهُ بالبناء على أساسها، فشرع إبراهيم بالبناء مع ابنه إسماعيل وهما يَدْعُوان ٱللَّه **﴿رَبّنا تَقَبَّلْ مِنّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ العَلِيمُ﴾** أي ربّنا تقبل منا بناء هذا البيت إنك وحدك السميع لأقوالنا، العليم بخفايا قلوبنا، ومن

كان سميع الدعاء عليماً بالنِّيَّات الصالحة يتفضل باستجابة الدعاء للمخلصين في طاعته، ومن فوائد هذا الدعاء تعليم المؤمنين الاقتداء بإبراهيم وإسماعيل في القيام بالطاعات الشاقة وهم يضرعون إلى ٱللَّه ويرجون منه قبولها ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ﴾ وقولهما ﴿رَبَّنَا﴾ هو دعاء، أي يا ربنا اجعلنا مُستسلمَيْنِ لأمرك خاضِعَيْن لطاعتك مذعنَين لأمرك لا نُشرك بعبادتك أحَداً ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِنا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ﴾ واجعل يا ربنا من ذريتنا أُمةً مؤمنةً بك، مُطيعةً أوامرك ونواهيك، ومن ذرية إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام: العرب، ومنهم بعث ٱللَّه رسوله محمداً إلى الناس كافة، ومن ذُرِّية إبراهيم بنو إسرائيل فقد بعث ٱللَّه فيهم أنبياء ورسلاً ﴿وَأَرِنا مَنَاسِكَنا﴾ وأرنا: من رؤية القلب، أو عَلِّمْنا، والمناسك: هي العبادات كلها ومنها معالم الحج، وقد روي عن علي بن أبي طالب رضي ٱللَّه عنه أنه قال: لمّا فرغ إبراهيمُ من بناء الكعبة دعا بهذا الدعاء فبعث ٱللَّه إليه جبريل فعلّمه مناسك الحج ﴿وَتُبْ عَلَينا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَابُ الرَّحِيمُ﴾ أي وَفِّقْنا يا ربّ للتوبة أو تقبّلها منا، والتوبة من الإنسان النَّدَمُ على ما فعل من ذنب والإقلاع عنه والعَزْم على عدم العود إليه ورد المظالم إلى أهلها، والتَّوّاب: من صِيَغِ المبالغة، أي إنه سبحانه كثير القبول لتوبة عباده المنيبين إليه، وقبول توبتهم يقتضي عدم مؤاخذتهم بما فعلوه من خطيئات سابقة، واختلف العلماء في معنى طلبهم قبول توبتهم وهم أنبياء معصومون عن الخطايا، فقالت جماعة: طلب التوبة المقصود منه التثبيت والدوام على الطاعة، وقيل إنه ليس أَحَدٌ من خلق ٱللَّه إلا ويمكن أن يكون بينه وبين ٱللَّه من طاعة له يجب أن تكون أحسن مما هي، كما أن في هذا الدعاء تعليماً للناس بأن يدعوا بهذا الدعاء بعد توبتهم.

﴿رَبَّنا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ﴾ ضمير ﴿فيهم﴾ راجع إلى ذريتهما

والمقصود بهم هنا العرب من ذرية إسماعيل، وقد أجاب ٱللَّه هذا الدعاء فبعث في ذرية إبراهيم وإسماعيل رسولاً من أنفسهم وهو محمد ﷺ يعرفون نَسَبه وسيرته الفاضلة ليخرجهم من الظلمات إلى النور ويهديهم إلى صراط ٱللَّه المستقيم، وقد كان رسول ٱللَّه محمد ﷺ يقول عن نفسه: «أنا دَعْوَةُ أبي إبراهيم وبشاره عيسى بي»[1] وبشرى عيسى هي التي ذكرها ٱللَّه على لسان عيسى بقوله ﴿وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾ [الصف: ٦].

﴿يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ﴾ وتلاوة الشيء قراءته، والآيات هي آيات كتابك الذي تُوحيه إليه، وقد يُراد بالآيات دلائل توحيد ٱللَّه وتنزيهه عن النقص، والإيمان بالنبوة والبعث بعد الممات ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الكِتَابَ والحِكْمَةَ﴾ وقد استجاب ٱللَّه دعاءهما فأنزل ٱللَّه على رسوله محمد القُرآن الذي عَلَّمه لقومه كما عَلَّمَهُم الحكمة وهي المعرفة بالدين والفهم لشريعة ٱللَّه، ومن الحكمة ما كان ينطق به الرسول محمد من المواعظ والإرشادات وهي التي تُعرف بالأحاديث الشريفة التي دوّنت في علة مجلدات ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ أي يُطَهِّرهم من دَنَسِ الشِرْكِ والمعاصي وينميهم بالخير ﴿إِنَّكَ أَنتَ العَزِيزُ الحَكِيمُ﴾ إنك يا رب القويّ الغالب الذي لا يعجزه شيء، وإنك يا رب الحكيم في أفعالك فلا يدخل في تدبيرك خلل ولا زلل.

(١) أخرجه الإمام أحمد.

﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَـٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَـٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَـٰهَكَ وَإِلَـٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾﴾.

شرح المفردات

يرغب: يزهد وينصرف.

مِلَّةِ إبراهيم: شريعة إبراهيم.

إلاّ من سَفِه نفسه: امتهنها واستخفّ بها، والسَّفَهُ: خِفَّةٌ في العقل.

اصطفيناه: اخترناه للرسالة الإلٓهية.

إذ قال له ربه أسْلِمْ: أي أخلِص لربّك بالعبادة واخضع له بالطاعة.

شُهداء: جمع شهيد بمعنى شاهد أي حاضر.

أمّة: جماعة.

خلت: مضت.

وصية إبراهيم ويعقوب لأبنائهما

ثم يبين القرآن بأن ملة إبراهيم قامت على توحيد ٱللَّه وإخلاص الطاعة له وأن من ينصرف عنها يكون من جملة الجاهلين بحقائق دين ٱللَّه:

﴿وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْراهِيمَ﴾ مَنْ: استفهامية قُصِدَ بها الإنكار والتقريع. ورغب في الشيء إذا أراده، ورغب عنه إذا كرهه وانصرفتْ نفسه عنه ﴿إلاّ مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ﴾ أي لا يكره ملة إبراهيم وينصرف عنها إلى الشرك بٱللَّه إلاّ من امتهن نفسه واستخفّ بها. والجملة القرآنية واردة مورد التوبيخ للكافرين الذين أحدثوا الشرك بٱللَّه ونَسَبُوا إلى ٱللَّه الولَد، فهؤلاء بفعلهم هذا يؤكدون على خفة عقولهم وجهلهم وعدم التمييز بين النافع والضار حين أعرضوا عن دين إبراهيم دين التوحيد، ودين الخضوع والاستسلام لله وحده.

﴿وَلَقَدِ اصْطَفَيْناهُ في الدُّنْيا﴾ أي ولقد اختار ٱللَّه إبراهيم في الدنيا في الزمن الذي عاش فيه واختصه من بين سائر الخلق بالرسالة الإلَهية والحكمة وهداية الناس ﴿وإنَّهُ في الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ وإنه في الحياة الآخرة بعد الحياة الدنيا من جملة عباد ٱللَّه الصالحين الذين أدُّوا الأمانة التي كُلِّفوا بها.

ومن اصطفاه ٱللَّه في الدنيا بالرسالة الإلَهية وكان مشهوداً له في الآخرة بالصلاح والاستقامة كان جديراً بأن تُتَّبع ملته ويُقتدى بهديه، وذلك هو إبراهيم عليه السلام.

﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ﴾ أي قال ٱللَّه لإبراهيم أخْلِص لي العبادةَ واخضع لي بالطاعة ﴿قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ العالَمِينَ﴾ قال إبراهيم مجيباً ربَّه: خضعت لك بالطاعة وأخلصت لك العبادة فإنك المالك لجميع خلقك ومدبرها دون غيرك ﴿وَوَصَّى بِها إِبْراهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ﴾ أي ووصَّى إبراهيمُ بنيه بالإسلام ووصَّى يعقوب بمثل ذلك ﴿يا بَنِيَّ إنَّ ٱللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ﴾ هذا حكاية لما قال إبراهيم ويعقوب في وصيتهما لأبنائهما بأن ٱللَّه اختار لكم هذا الدين الذي عهد إليكم فيه واجتباه لكم ودعاكم إلى الالتزام به ﴿فَلا تَمُوتُنَّ إلاّ وَأَنْتُم مُسْلِمُونَ﴾

فلا تُفارقوا هذا الدين واثبتوا عليه في حياتكم حتى يدرككم الموت وأنتم متلبسونَ بالإسلام.

﴿أَمْ[١] كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ﴾ جاءت هذه الآية للإنكار على أهل الكتاب افتراءهم على يعقوب وزعمهم أنه كان على ما هم عليه من التدين، فردّ ٱللَّه عليهم بقوله: بل لم تكونوا حاضرين وقت أنِ احتُضر يعقوب وأشرف على الموت وأوْصى بنيه باتباع ملة إبراهيم ﴿إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ ما تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي﴾ إذ قال لهم: أي شيء تعبدون من بعد وفاتي؟ فأجاب أبناء يعقوب أباهم: ﴿قَالُوا نَعْبُدُ إِلَٰهكَ وَإِلَٰهَ آبَائِكَ إِبْراهِيمَ وإِسْماعِيلَ وإِسْحاق إِلَٰهاً وَاحِداً﴾ أي قالوا: نعبد معبودك الذي تعبده وهو ٱللَّه معبود آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق حال كونه إلَٰهاً واحداً نخلص له العبادة فلا نشرك به شيئاً ﴿وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ ونحن خاضعون له بالعبودية والطاعة.

والملفت للنظر أن الآية جعلت إسماعيل بمنزله الأب ليعقوب مع أنه عمه، والعرب تجعل الأعمام بمنزلة الآباء فلذلك دخل إسماعيل في جملة الآباء تجوّزاً.

﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ﴾ تلك: إشارة إلى إبراهيم وأبنائه الأنبياء، والأُمَّة: الجماعة يجمعهم أمر واحد من نحو الدين أو الموطن أو اللغة، ومعنى خلت: مضت وانقرضت ﴿لَها مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ﴾ والكسب: التحصيل والعمل لما فيه نفع. والمعنى: تلك أُمَّةٌ مضت لها جزاء ما كسبت من عمل ولكم جزاء ما كسبتم. والآية ترمي إلى تحذير المخاطبين من أن يتركوا طاعة ٱللَّه اتكالاً على انتسابهم للآباء ولو كانوا أنبياء ﴿وَلا تُسْأَلُونَ عَمَّا كانوا

---

(١) أم: المنقطعة تتضمن معنى: بل، وجاءت بصيغة الاستفهام لتفيد الإنكار والتوبيخ.

﴿يَعْمَلُونَ﴾ أي ولا تُسألون أنتم أيها المخاطبون يوم القيامة عما كان يعمل أسلافكم في الدنيا من عمل صالح أو سيىء، فلا تنفعكم أعمالهم الصالحة وأنتم على نقيضها ولا تُؤاخذون بسيئاتهم.

﴿وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟ ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾ قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾ صِبْغَةَ ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً ۖ وَنَحْنُ لَهُۥ عَـٰبِدُونَ ﴿١٣٨﴾ قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِى ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَآ أَعْمَـٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَـٰلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ ﴿١٣٩﴾ أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ ۗ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ ۗ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَـٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٠﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤١﴾﴾.

شرح المفردات

هُوداً: يهوداً.

حنيفاً: مائلاً عن الضلال إلى الحق، والمخلص دينه لله وحده.

الأسباط: جمع سبط وهو ولد الولد، وكان ليعقوب اثنا عشر ولداً أطلق على ذرية كل واحد منهم سبط.

في شِقاق: خلاف أو معاداة.
فسيكفيكهم ٱللَّه: فسيكفيك ٱللَّه يا محمد أمرهم ويقيك شرّهم.
صبغة ٱللَّه: دين ٱللَّه.
أتحاجُّونَنا: أتجادلوننا وتخاصموننا في ٱللَّه.
خلت: مضت.

الإسلام يدعو إلى الإيمان بجميع رسل الله

ويُتابع القرآن فيذكر ادعاءات اليهود والنصارى بأنهم وحدهم الذين يتبعون الحق وأن غيرهم على ضلال:

﴿وَقَالُوا كُونُوا هُوداً أَوْ نَصارَى تَهْتَدُوا﴾ فهذا النص القرآني يبين أن كُلاً من اليهود والنصارى يدعو المسلمين إلى اتباع دينهم. فاليهود قالوا للمسلمين: اتبعوا دين اليهود تهتدوا، والنّصارى قالوا للمسلمين كُونوا نصارى تهتدوا أي تُصيبوا طريق الحق **﴿قُلْ بَلْ مِلَّةَ إبْراهيمَ حَنِيفاً﴾** قل يا محمد لهؤلاء: بل نتبع دين إبراهيم حنيفاً أي مائلاً عن كل دين باطل إلى دين الحق. وقيل: الحَنَفُ الاستقامة، فَسُمِّيَ دِينُ إبراهيم حنيفاً لاستقامته **﴿وَمَا كَانَ مِنَ المُشْرِكِينَ﴾** تنبيهٌ إلى أن اليهود والنصارى أشركوا، لأن بعض اليهود قالوا: عُزَيْرٌ ابن ٱللَّه، والنصارى قالوا: المسيحُ ابنُ ٱللَّه وذلك إشراكٌ باللهِ.

وبعد أن جاء الردُّ على أهل الكتاب الذين ادعوا أنهم وحدهم على هدى من ٱللَّه خاطب ٱللَّه المسلمين بقوله:

﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ﴾ والإيمان بٱللَّه تصديق جازم بوجوده ووحدانيته وأنه لا شريك له، وتصديق بما اختص به من صفات الكمال، وأنه لا يشبه أحَداً من خلقه **﴿وَما أُنْزِلَ إلَيْنا﴾** وقولوا ـ أيها المسلمون ـ صَدَّقْنا بالقُرآن الذي أنزله ٱللَّه على نبينا محمد، لنؤمن به ولنعمل بأحكامه **﴿وَمَا أُنْزِلَ إلى إبْراهيمَ وإسْماعِيلَ**

وإسحاقَ ويَعقُوبَ والأَسْباطِ﴾ والمراد بما أُنزل إلى هؤلاء: الصحف التي أنزلها ٱللَّه إلى إبراهيم عليه السلام المُشار إليها بقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِي ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ. صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾ [الأعلى: ١٨ ـ ١٩]، وهذه الصحف الإلٰهية مع أنها نزلت على إبراهيم فإنَّ الأنبياء الثلاثة الذين ذكرتهم الآية بعد إبراهيم مأمورون باتباعها. والأسْباط: هم أولاد يعقوب الاثنا عشر، والسِّبط في بني إسرائيل بمنزلة القبيلة في ولد إسماعيل ﴿وَما أُوتِيَ مُوسى وَعِيسَىٰ﴾ أي وقولوا: صَدَّقْنا بالتوراة التي أعطاها ٱللَّه لموسى وصَدَّقْنا بالإنجيل الذي أعطاه ٱللَّه لعيسى ﴿وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ أي وَصَدَّقنا بكل ما أعطى ٱللَّه أنبياءه كافة من الوحي الإلٰهيّ ﴿لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ﴾ أي لا نُفَرِّقُ بين جماعة النبيين فنؤمن ببعضهم ونكذب البعض الآخر كما فعل اليهود إذ كفروا بعيسى ومحمد، وكما فعل النصارى إذ كفروا بمحمد، بل نُؤمن بهم جميعاً لأنهم رسل من عند ٱللَّه ﴿وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ ونحن خاضعون لله بالطاعة ومنقادون لأمره ونهيه.

فما جاء به رسول ٱللَّه محمد يطابق ما جاء به الأنبياء من قبله في أُصول الدِّين كتوحيد ٱللَّه وعبادته وحده، والإيمان بالبعث وما فيه من حساب وثواب وعقاب والحضّ على مكارم الأخلاق، أما الشرائع فتختلف بين أُمَّةٍ وأُخرى حسب اختلاف الزمن والوضع الاجتماعي، وقد صرَّح ٱللَّه بذلك في القرآن: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨].

والإيمان بهؤلاء الرسل الذين مَرَّ ذِكْرهم لا يستدعي من المسلمين اتباع شرائعهم، فإنَّ شرائعهم قد دخلها تحريف وتبديل بطول الزمن وما تعاقب عليهم من نكبات، ولكن نؤمن بأن كل شريعة من تلك الشرائع كانت حقاً في زمانها. ثم جاء الإسلام وهو آخر الأديان بشريعة كاملة تنسخ ما قبلها من الشرائع

وتوافق أحوال الأمم وتطورها، وأنها وحدها المقبولة عند ٱللَّه كما جاء في القرآن: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥].

ثم يوجه ٱللَّه الخطاب إلى أُمَّة محمد ﷺ بقوله: ﴿فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ ما آمَنتُم بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا﴾ أي فإن آمن أهل الكتاب وغيرهم بمثل ما آمنتم به بجميع كتب ٱللَّه ورسله ولم يفرقوا بين أَحَدٍ منهم كما فعلتم فقد اهتدوا ﴿وَإِن تَوَلَّوْا فإنما هُمْ في شِقَاقٍ﴾ والشِّقاق: المُخالفة والمُعاداة، أي وإن رفضوا مثل هذا الإيمان وأعْرضوا عنه فقد وقعوا في الخِلاف والمعاداة بينهم، وفعلهم هذا يدل على أن غرضهم ليس طلب الدين والانقياد للحق ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ﴾ يكفي: من الكفاية بمعنى الوقاية، وهذا وعد من ٱللَّه بأنه سيكفي نبيه محمداً مكرهم وينصره عليهم. وقد أنْجز ٱللَّه وعده حيث نصره ٱللَّه على هؤلاء اليهود الذين أمْعَنُوا في عداوته وحاولوا الغدر به، فَقَتَلَ البعض منهم وأجلى البعض الآخر، وتم الاستيلاء على أموالهم وديارهم، وهذا إخبار بالغيب قد تحقق ومعجزة للقرآن تُثبت أنه وحيٌ إلَهي إذ لا يعلم الغيب إلا ٱللَّه ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ العَلِيمُ﴾ أي إن ٱللَّه سَميعٌ لما ينطقون به، عَلِيمٌ بجميع ما يضمرون لك يا محمد ولأصحابك المؤمنين.

ثم يبين القرآن أن هِداية الإسلام هي الهداية الحقة:

﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ﴾ الصبغة هي إدخال لون على شيء بحيث يظهر عليه ذاك اللون دون غيره، وصبغة ٱللَّه هي دين ٱللَّه وهو الإسلام، وسمي الإسلام صبغة عن طريق الاستعارة والمجاز من حيث إنه يظهر أثره على صاحبه كظهور أثر الصبغ في الثوب، فهو يتغلغل في قلب الإنسان ويؤثر فيه لأنه دين الفطرة الإنسانية، كما أنه يُطَهره من الآثام والشرور لما فيه من مبادئ سامية، وأصْلُ

ذلك أن النصارى يغمسون أطفالهم في ماء يقال له المعمودية[1] وذلك علامة على الميثاق بين ٱللَّه وبينهم ويزعمون أن ذلك صبغة لهم، فَرَدَّ ٱللَّهُ عليهم بقوله: ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ﴾ أي دين الإسلام هو الصبغة التي تطهر من الآثام دون سواه ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً﴾ استفهام ومعناه النفي. أي لا شيء أحسن من صبغة ٱللَّه لأنه سبحانه يصبغ عبادة بالإيمان بما بَيَّنَ من دلائل وجوده ووحدانيته ويطهرهم من الشرك والآثام ﴿وَنَحْنُ لَهُ عابِدُونَ﴾ والعبادة هي الخضوع لله تعالى وطاعته والعمل الذي يُتقرب به إليه، وإنما يكون العمل عبادة يستحق صاحبه ثواب ٱللَّه إذا صحبه إخلاصٌ منه لله تعالى.

﴿قُلْ أَتُحاجُّونَنَا في ٱللَّهِ﴾ قل يا محمد لليهود والنصارى الذين قالوا لك ولأصحابك: كونوا هُوداً أو نصارى تهتدوا، وزعموا أن دينهم خير من دينك، قل لهم: أتُجادِلُونَنا في ٱللَّه ودينه ﴿وَهُوَ رَبُّنا وَرَبُّكُمْ﴾ والحال أنَّ اللَّهَ هو خالِقُنا والمنعم علينا، كما أنه خالقكم والمنعم عليكم فنحن وإياكم سواء بالنسبة إلى ٱللَّه، فلا وجه للادعاء بأن ٱللَّه خاصّ بكم وأن ٱللَّه ميَّزكم عن سائر البشر ﴿وَلَنَا أَعْمالُنَا وَلَكُمْ أَعْمالُكُمْ﴾ أي لنا أعمالنا الحَسَنة ولكم أعمالكم السيئة التي ينشأ عنها ثواب أو عقاب فكما أننا نتساوى في كوننا عباداً لله تعالى كذلك نتساوى في استحقاق الجزاء من ٱللَّه على الأعمال الصادرة منا ﴿وَنَحْنُ

(١) لمّا بلغ يُوحنا المعمدان الثلاثين من عمره أخذ يدعو الناس للتوبة ويعمّدهم بالماء كرمز لتطهير القلوب بالتوبة، ومن الإنجازات ليوحنا أن عيسى الناصري تعمد في ماء نهر الأردن على يد هذا النبي كأي واحد آخر. ومن الحقائق المعروفة أن الصابئين الذين ورد ذكرهم في القرآن كانوا من أتباع يُوحنا وقد مارسوا المعمودية وكانوا يعيشون حياة تقشف. والتهجئة الصحيحة لاسمهم تكون (صاغي أو صابي) بمعنى الصباغين أو المعمدانيين، والقرآن يورد اسمهم الصابئين مع همزة بدل الغين. والمُعَمِّد «صاغ» يغطِّس أو يغمِّس المعتنق الجديد للمسيحية أو المولود حديثاً بالماء.

﴿لَهُ مُخْلِصُونَ﴾ ونحن مخلصون لله في العبادة لم نُشرك به شيئاً، والإخلاص لله هو أن يقصد الإنسان بعمله وجه ٱللَّه.

﴿أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْراهِيمَ وَإِسْماعِيلَ وَإِسْحاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْباطَ كانُوا هُوداً أَو نَصارَى﴾ أم تزعمون أن هؤلاء الأنبياء وأبناءهم كانوا يهوداً أو كانوا نصارى، فإن هذا الزعم خطأ كبير، لأن اليهودية والنصرانية حَدَثَتا بعد هؤلاء الأنبياء الذين ورد ذكرهم في الآية ﴿قُلْ ءَأَنْتُم أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ﴾ الهمزة للاستفهام الإنكاري التوبيخي، أي قل لهم يا محمد أأنتم أعلم بدينهم أم ٱللَّه أعلم ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهادَةً عِندَهُ مِنَ ٱللَّهِ﴾ أي لا أحَد أشدُّ ظُلْماً ممن سَتَرَ وأخفى شهادةً عنده من ٱللَّه بأن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب كانوا مسلمين وأنهم لم يكونوا يهوداً ولا نصارى، وكتموا أمر محمد ﷺ ونُبوّته وهم يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ هذا وعيدٌ شديدٌ من ٱللَّه لهم على مزاعمهم الباطلة وكتمانهم الحق، وهو سبحانه لا تخفى عليه خافية من أعمالهم.

﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَها ما كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلاَ تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ خَلَتْ: مضت، أُمَّة: مِلَّة أو جماعة، والمعنى: تلك مِلَّة مضت لسبيلها لها ما عملت من خير وعليها ما اكتسبت من شر وأنتم يا معشر اليهود والنصارى لكم مثل ذلك، وإنكم لا تُسْألون عما فعل أسْلافكم من أعمال. هذه الآية وردت سابقاً وأُعيدت هنا بعينها مُبالغةً في التحذير من الافتخار بالآباء والاتكال على صلاحهم فكل إنسان مجزيٌّ بعمله.

﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُواْ عَلَيْهَاۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُۚ يَهْدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًاۗ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾﴾.

شرح المفردات

السُّفَهاءُ: جمع سفيه، من السَّفَهِ وهو الخِفَّة الناشئة من نقصان العقل.

ما وَلاّهم: أيُّ شيء صرفهم.

صراط مستقيم: طريق قويم لا عوج فيه والمراد به هنا طريق الحق.

أُمّة وسطاً: أمة عدلاً خِياراً، معتدلين في الدين.

شُهداء: جمع شهيد وهو الشاهد.

ينقلب على عَقِبَيهِ: يرتدّ عن دينه.

الإسلام دين وسط بين الأديان

ثم ينتقل القُرآن إلى الكلام عن مسألة تحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة وما أُثير حولها من شبهات وطعن واستهزاء من اليهود والمشركين العرب والمنافقين.

والقِبلة هي الجهة التي يستقبلها الإنسان في صلاته، وقبلة كل شيء للإنسان ما قابل وجهه.

وقد ثبت أن الصلاة فُرضت في مكة وكانت قبلتهم في الصلاة آنذاك إلى بيت القدس، ثم لمّا هاجر النبي ﷺ إلى المدينة المنورة استمروا على ذلك ستة عشر شهراً أو سبعة عشر، وكان ذلك بأمر من ٱللَّه ووحيه، ثم نسخ ٱللَّه حكم التوجه إلى بيت المقدس في الصلاة، وأمَرَ بالتوجه إلى الكعبة وفي هذا يقول ٱللَّه تعالى:

﴿سَيَقُولُ السُّفَهاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلاَّهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتي كَانُوا عَلَيها﴾ والسُّفهاء: جمع سفيه وهو الخفيف العقل، والمعنى: سيقول ضِعاف العقول من اليهود والمشركين والمنافقين على وجه الإنكار: إذا حولتم وجوهكم أيها المسلمون عن استقبال بيت المقدس في الصلاة، ما صَرَفَهُم عن استقبال القبلة التي كانوا عليها؟ هذه الآية تدلّ على أنه سيقع حادث في أمر القبلة وأن السُّفهاء سيتخذونه وسيلة إلى الطعن في حكمة التشريع الإسلامي، وقد أخبر اللهُ بما سيقوله السُّفهاء قبل وقوعه ليكون وقعه خفيفاً على قلوب المسلمين عند حدوثه لأن مفاجأة المكروه يكون أشدّ إيلاماً للنفس، هذا من جهة، ومن جهة أُخرى فإنَّ هذه الآية إخبار بالغيب مما سيقع، ومما حدث فعلاً، مما يدل على أن القرآن وحيٌ إلهيّ ﴿قُلْ لِلَّهِ المَشْرِقُ والمَغْرِبُ﴾ وإذا كان لله المشرق والمغرب فله الأرض كلها، فكل مكان منها مشرق عند قوم ومغرب عند آخرين، وإذا كانت الأرْض كلها لله، فله سبحانه أن يختار منها ما يشاء ليكون قبلة للمسلمين يتجهون إليها في الصلاة ﴿يَهْدِي مَنْ يَشاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ يرشد ٱللَّه سبحانه من يشاء من عباده إلى طريق قويم يختاره له ويخصّه به.

﴿وَكَذٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً﴾ أي عَدْلاً خِياراً، والخيار خلاف الشر. والمعنى: وكما هديناكم أيها المسلمون إلى صراطٍ مستقيم بالتوجّه في صلاتكم إلى الكعبة التي ترضونها كذلك جعلناكم خياراً وعُدولاً. وقد وصف ٱللَّه الأُمَّة

الإسلامية بأنها ﴿أُمَّة وَسَطاً﴾ فليسوا أهل غُلُوّ كَغُلُوّ النصارى الذين قالوا إنَّ المسيح ابن ٱللَّه ولا هم أهل تقصير كاليهود الذين بَدَّلوا كتاب ٱللَّه وقتلوا أنبياءهم.

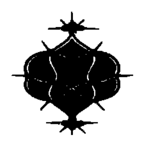
والإسلام وَسَطٌ بين مطالب الروح ومطالب الجسد فهناك أناس يُسرفون في المادة ويُهملون القِيمَ الرُّوحية، أما الإسلام فيدعو المؤمنين إلى أن يعيشوا مادية الحياة بحدود القيم الروحية، والعَدْل بين مطالب الروح والجسد.

﴿لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ أي تشهدون يوم القيامة بأنَّ الرسل قد بَلَّغوا أُمَمَهم ما أمرهم ٱللَّه بتبليغه إليهم ونصحوهم ولم تعد لهم حجة على ٱللَّه بعد مجيء الرسل، ومستند هذه الشهادة ما قَصَّه القرآن على المسلمين من أحوال هذه الأمم. وقد تكون هذه الشهادة في الدنيا، أي لتكونوا أيها المسلمون شُهداء على الناس بما يصدر منهم من غُلُوّ وتقصير فتبلّغوهم ما عُلّمتم من الوحي الإلَهيّ كما نقله الرسول محمد إليكم ﴿وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً﴾ وشهادةُ الرسولِ محمدٍ على أُمَّتِهِ بأنه قد بَلَّغهم رسالة ربه وشهادته عليهم بإيمانهم.

﴿وَمَا جَعَلْنَا القِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيها﴾ أي وما جعلنا قبلتك الأولى في الصلاة يا محمد وهي بيت المقدس ثم حَوَّلناك عنها إلى الكعبة ﴿إلاّ لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ﴾ الانقلاب على العقب: الارتداد عن الإسلام، والمعنى: ما شرعنا التوجه إلى بيت المقدس في الصلاة إلاّ لنمتحن الناس ونعلم حينئذٍ من يتبع الرسول محمداً ويأتمر بأوامره متميزاً ممن لم يدخل الإيمان إلى قلبه وممن ينصرف عن اتباعه، فإن اتباع الرسول من علامات الإيمان.

﴿وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلاَّ عَلَى الَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ﴾ لكبيرة: أي شاقة صعبة والمعنى: وإن كان تحويل قبلة الصلاة من بيت المقدس إلى الكعبة شاقًّا، ثقيل الوقع على النفوس لأن ذلك مخالف للعادة، لأن من أَلِفَ شيئاً ثم انتقل عنه صعب عليه الانتقال لغيره ولكن الأمر يسير على من هداهم ٱللَّه.

﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ﴾ هذا النص من الآية هو جواب لما تردد بين المسلمين من أقوال حيث قال البعض: ما مصير من مات من إخواننا قبل تحويل القبلة إلى الكعبة؟ وكانت قبلتهم في الصلاة بيت المقدس ظانين أن صلاتهم آنذاك غير مقبولة عند الله فبيَّن اللَّهُ أن ظنهم في غير محلّه وأنه سبحانه لا يضيع ثواب صلاتهم، وعبَّر ٱللَّهُ عن الصلاة في الآية بالإيمان على سبيل الاستعارة لأنها أعظم الإيمان، وهي لا تصدر إلا عن إيمان ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾ أي إن ٱللّه يشمل برأفته ورحمته عباده المؤمنين الطائعين له، فلهذا لا يُضيع ثواب أعمالهم.



﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾ وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُوا۟ قِبْلَتَكَ ۚ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ۚ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٤٥﴾﴾.

شرح المفردات

تَقَلُّبَ وجهك في السماء: تَرَدُّدَ وجهك وتطلُّعك إلى السماء.

فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً ترضاها: نُمكنك ونُحوِّلك إلى قِبْلَةٍ تهواها وتحبها.

المسجد الحرام: يطلق على المصلى العام، فيتناول الكعبة وما أُحيط بها.

شطره: نحوه.

بكل آية: بكل حجةٍ وبرهانٍ.

تحويل القبلة في الصلاة نحو الكعبة

لم يختلف المسلمون أن النبي ﷺ كان يُصَلِّي بمكة وهو يتوجه إلى بيت المقدس. وبعد الهجرة إلى المدينة المنورة، استمر على ذلك ستة عشر شهراً أو سبعة عشر، وكان النبي ﷺ يتشوّق لتحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة لأنها قبلة جَدِّهِ إبراهيم عليه السلام، فكان يدعو ٱللَّه أن يجعل قبلته نحو الكعبة وينظر إلى السماء رَجاء أن ينزل الملك جبريل عليه بالوحي الذي سأل به ربّه.

والتوجه في الصلاة نحو الكعبة أدعى إلى إيمان العرب، والعرب هم

المعوّل عليهم في ظهور الإسلام وانتشاره، فاستجاب ٱللَّه دعاء النبي ﷺ وأنْزل عليه قوله:

﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّماءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضاهَا﴾ أي قد رأيناك يا محمداً كيف كنت تتطلع إلى السماء في ضراعة ورجاء عسى أن ينزل الوحي عليك بتغيير قبلة بيت المقدس إلى الكعبة فاستجبنا لرجائك، فَلَنَصْرِفَنَّكَ عن بيت المقدس إلى الكعبة التي تهواها وتشتهيها ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ[1] شَطْرَ المَسْجِدِ الحَرامِ﴾ فاصرف وجهك يا محمد في الصلاة ناحية المسجد الحرام حيث وجود الكعبة فيه، ووصف المسجد بالحرام لأن القتال فيه مُحَرَّمٌ، والمسجد الحرام يُطلق على المصلّى العام فيتناول الكعبة وما أُحيط بها من نحو الحِجْر ومقام إبراهيم، ويُطلق على الكعبة نفسها.

والتعبير عن الكعبة بالمسجد الحرام إشارة إلى أن الواجب هو مراعاة الجهة، والمُشاهِد للكعبة يجب عليه أن يستقبل عَيْنها، والغائب عنها يكفيه استقبال جهتها، ويجتهد في تعرّف الجهة ما استطاع. ورَوَى البيهقيُّ أن النبي ﷺ قال: «البيتُ قِبْلَةُ المسجد، والمَسْجِدُ قِبْلَةٌ لأهل الحَرَمِ، والحَرَمُ[2] قِبْلَةٌ لأهل الأرض في مشارقها ومغاربها من أُمتي».

﴿وَحَيْثُ ما كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾ أي وفي أي مكانٍ وُجدتم ـ أيها المسلمون ـ فتوجهوا في الصلاة نحو المسجد الحرام ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ الذين أوتوا الكتاب: هم عُلماء اليهود والنصارى، وقيل هم اليهود خاصة لأنهم هم الذين طَعَنُوا في تحويل القبلة، والضمير في (أنه) عائد إلى تحويل القبلة إلى الكعبة. فَعُلماء أهل الكتاب

---

(١) فَوَلِّ وجهك: أي جملة بدنك، والوجه يذكر ويراد به نفس الشيء.

(٢) الحَرَم: مكة وما حولها.

يعلمون أن الكعبة هي قبلة الأنبياء وأن استقبالها في الصلاة هو الحقّ من ربهم، وأن محمداً الذي أخبر بتحويل القبلة إلى الكعبة قد قامت الدلائل عندهم على أنه رسول ٱللَّه فما شأنهم بإثارة الفتنة في ذلك ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ وٱللَّه سُبحانه لا يخفى عليه ما يدبره أهل الكتاب من الكيد للإسلام وما يصدر عنهم من آثام وسيحاسبهم عليه حساباً عسيراً يوم القيامة.

﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ ما تَبِعُوا قِبْلَتَكَ﴾ أي ولئن جئت يا محمد أهل الكتاب بكل حُجَّةٍ وبُرهان يدل على مشروعية تحويل القبلة إلى الكعبة ما صَدَّقُوا بذلك ولا اتبعوا قبلتك. والمراد بأهل الكتاب هنا اليهود سكان المدينة المنورة وأمثالهم ﴿وَمَا أَنْتَ بِتابِعٍ قِبْلَتَهُمْ﴾ ولست أنت يا محمد بمتبع قبلتهم وهي بيت المقدس بعدما جاءك الوحي من ربك بأن تكون قبلتك هي الكعبة ﴿وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ﴾ وما أُولئك اليهود بتابعين قبلة النصارى وهي المشرق، ولا أُولئك النصارى بتابعين قبلة اليهود وهي بيت المقدس لتمسُّك كل فريق بقبلته، فما شأنهم يعيبون على المسلمين انفرادهم عنهم في القبلة ﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِّنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ العِلْمِ﴾ والأهواء: جمع هوى وهو ما تميل إليه النفس، وهوى النفس إنما يستعمل في الأكثر فيما لا خير فيه. والمعنى: إن فُرِضَ واتبعت أهواء اليهود والْتمست رضاهم فرجعت إلى قِبْلتهم بيت المقدس من بعد ما جاءك الوحي من ربك بأن تكون قبلتك في الصلاة هي الكعبة ﴿إِنَّكَ إِذاً لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ أي إذا كان ذلك الاتباع قد وقع، فبسببه تكون من الظالمين.

والخطاب في الآية في ظاهره للنبي محمد ﷺ ولكن المقصود به أُمّته، فهو تحذيرٌ لهم من اتباع آراء أهل الكتاب المنبعثة عن هوى النفس، والآية أخرجت الوعيد والتحذير في صورة الخطاب للنبي محمد مع أنه عليه الصلاة والسلام

معصومٌ عن اتباع الهوى ومخالفة أمر ٱللَّه، فكأن الآية تقول: حَذَارِ أيها المسلمون من اتّباع أهواء أهل الكتاب، فلو اتبع محمد أهواءهم مع أنه أفضل الخليقة وأعلاهم منزلةً عند ٱللَّه، لكان جزاؤه جزاء الظالمين، فكيف إذا وقع ذلك منكم؟

﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١٤٧﴾ وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ أَيْنَ مَا تَكُونُوا۟ يَأْتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٤٨﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٩﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِى وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِى عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٠﴾﴾.

شرح المفردات

المُمْترين: الشاكّين.

وِجْهَةٌ: جهة وناحية.

مُوَلِّيها: مُتّجه إليها.

فاستبقوا الخَيْرات: بادِرُوا وتَسابَقُوا إلى فعل الخيرات.

شَطْرَ: نحو.

التأكيد على صحة نبوة محمد ﷺ

ثم يُبين القرآن بأن عُلَماء اليهود والنَّصارى يَعلمون أن محمداً رسول ٱللَّه حقاً، ولكنهم يكتمون ذلك عن قومهم ويُصِرُّون على رفض رسالته مُكابَرَةً وعِناداً منهم، قال ٱللَّه تعالى:

﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾ أي إن علماء اليهود والنصارى الذين أعطاهم ٱللَّه التوراة والإنجيل يعرفون أن محمداً هو رسول ٱللَّه ولا يعتريهم شكٌّ في صِدْقه كما لا يَشكّون في معرفة أبْنائهم.

﴿وإنَّ فَرِيقاً مِنْهُمْ لَيَكْتُمونَ الحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أي وإن فريقاً من عُلماء أهل الكتاب ليخفون الحقَّ ولا يُعلنونه في شأن نبوة محمد ﷺ، فالبِشارة به كانت موجودة بوضوح في التوراة والإنجيل ويعرفونها حقاً، ولكنهم يخفونها عن قومهم وهم يعلمون أن محمداً هو نبيٌّ وإن كتمانهم ذلك هو إثم. أسند ٱللَّه هذا الكتمان إلى فريقٍ منهم إذ لم يكونوا كلهم كذلك، فإن من علماء بني إسرائيل من اعترف بالحق وأعلن إيمانه كعبد ٱللَّه بن سلام وغيره.

إنَّ كتمان الحق هو السمة البارزة عند عُلماء اليهود والنصارى الذين يعلنون إنكارهم لنبوة محمد ﷺ، ولكنهم في قرارة أنفسهم يعترفون بذلك لأن الدلائل والحجج على صدق نبوة محمد هي من الكثرة والتنوع والوضوح بحيث لا ينكرها إلا من ينكر عقله، ولكنهم يكتمون ذلك خوفاً من معاداة قومهم لهم، ومن حرمانهم مما هم عليه من جاهٍ وثراءٍ، وهم بذلك قد آثروا الدنيا على الآخرة.

﴿الحَقُّ مِن رَبِّكَ﴾ أي ما جئت به يا محمد من الدِّين فهو الحق من ربك ﴿فَلا تَكُونَنَّ مِنَ المُمْتَرِينَ﴾ الامتراء: هو الشكّ، والخِطاب هنا موجه للنبي محمد ﷺ والمراد أُمَّته، إذ لا يُتَصوَّر من النبي ﷺ شك فيما أنزل ٱللَّه عليه من الوحي، وقد كان من أتباع النبي محمد ﷺ من هم حديثو عَهْدٍ بكفرٍ يُخْشى عليهم أن يُفتنوا بما يُرَوِّجه اليهود من الشبهات في شأن ما ينزل على النبي من

الوحي، وفي شأن القِبلة التي أصبحت نحو الكعبة، لذا أمرهم ٱللَّه بأن لا يكونوا من الشاكّين في ذلك.

﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا﴾ أي ولكل مِلَّة قبلة يتجهون إليها في صلاتهم فقِبلة المسلمين الكعبة، وقِبلة اليهود بيت المقدس، وقبلة النصارى المشرق ﴿فَاسْتَبِقُوا الخَيْرَاتِ﴾ أي بادِروا إلى المُسارعة في السبق إلى فعل الخير النافع لكم في الدنيا والآخرة، وأن تسبقوا سواكم إليه ﴿أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعاً﴾ أي أين ما كنتم فوق الأرض أو في بطنها يأتِ بكم ٱللَّه للجزاء يوم القيامة على أعمالكم، فَيُثيبُ المُحْسِنَ على إحسانه، ويُعاقب المسيء على إساءته ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فقدرته سبحانه ليس لها حدّ وهي تشمل كل شيء.

﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ المَسْجِدِ الحَرَامِ﴾ أي ومن أي مكان خرجت يا محمد في سَفَرٍ، وأينما كُنت في جميع المواطن من نواحي الأرض فتوجَّه في صلاتك أنت والمسلمين نحو المسجد الحرام ﴿وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ وإن التوجه نحو المسجد الحرام هو الحق من عند ربك الذي أمرك بالتوجّه إليه ﴿وما ٱللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ وما ٱللَّه بغافلٍ عن أعمالكم ولكن مُحصيها لكم حتى يُجازيكم عليها يوم القيامة.

ثم يُكرر ٱللَّه الطلب من النبي ﷺ والمؤمنين بالتوجه في الصلاة نحو المسجد الحرام لما في هذا التوجه من شأنٍ خطيرٍ وأمْرٍ مهم، قال تعالى: ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ المَسْجِدِ الحَرَامِ﴾ في هذا النص تشريع للاتجاه في الصلاة نحو المسجد الحرام في الأسفار وفي كل الحالات ﴿وَحَيْثُ ما كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾ وهنا تشريع للاتجاه إلى المسجد الحرام في الصلاة لجميع المقيمين في بقاع الأرض المختلفة.

ثم عَلَّلَ ٱللَّهُ الأمرَ باتجاه المسلمين إلى الكعبة في كل مكان يصلّون فيه:

﴿لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ﴾ الحُجَّةُ: هي البُرهان والوجه الذي يكون به الظفر عند الخصومة، والناس في الآية المُراد بهم اليهود والمشركون، والحجة التي كانت لأهل الكتاب في شأن النبي ﷺ وأصحابه عندما كانوا يتوجهون بصلاتهم نحو بيت المقدس هي قولهم: يُخالفنا محمد في ديننا ويتبع قبلتنا، وحجة المشركين هي قولهم: إن محمداً بتركه التوجه إلى الكعبة تَرَكَ دين إبراهيم، فقطع ٱللَّه عليهم حجتهم جميعاً بتحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة ﴿إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ وهم المُعانِدون من فريقَي اليهود والمشركين، فهؤلاء لا يميزون الرشد من الضلال وهم الذين أثاروا الفتنة عند تحويل القبلة ﴿فَلا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي﴾ فلا تخافوا ما يُثيرون من الجَدَلِ والطعن في توجُّهكم نحو الكعبة، وخافوا ٱللَّه فيما يأمركم به من الطاعات فَأْتوا بها على وجهها وحافظوا على التوجه في صلاتكم إلى الكعبة ﴿وَلأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ﴾ هنا بشارة للمسلمين بفتح مكة وإزالة الأصنام والأوثان من بيت ٱللَّه الحرام وما يستتبع ذلك من نشر الإسلام في ربوع الأرض، ويُلاحظ أن مجيء النعمة بعد الأمر بالخشية فيه إشارة إلى أن النعمة تكون جزاء على خشية ٱللَّه ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ أي أمركم ٱللَّه بذلك رجاء امتثالكم أمره فيحصل اهتداؤكم إلى الحق وتفوزوا بسعادة الدارَيْنِ.

لقد أمر الله رسوله محمداً بالتوجه في الصلاة إلى المسجد الحرام ثلاث مرات:

الأمر الأول: هو مقرون بإكرام النبي والمؤمنين بالتوجه إلى القِبْلة التي كانوا يحبونها، قال تعالى ﴿فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ المَسْجِدِ الحَرامِ﴾.

الأمر الثاني: هو تِبيان أن التوجه إلى قِبْلة المسجد الحرام هو الحق من ربهم: قال تعالى ﴿**وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ وإنَّهُ لَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ**﴾.

الأمر الثالث: هو التوجه في الصلاة نحو الكعبة في جميع الأمكنة مع قطع حجج الطاعنين بها، قال تعالى: ﴿**وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ المَسْجِدِ الحَرَامِ وَحَيْثُ ما كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُم شَطْرَهُ لِئَلاَّ يَكُونَ للنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ**﴾.

﴿كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٣﴾ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٤﴾ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾.

شرح المفردات

ويُزَكّيكُم: يطهركم من الشرك والمعاصي.

الكتاب: أي القرآن.

والحكمة: السنّة النبوية.

الصبر: ضبط النفس وقوة الاحتمال.

وَلَنَبْلُوَنَّكُم: البلاء هو الاختبار.

صلوات من ربهم: مغفرة ورحمة من ربهم.

منزلة الذاكرين لله والصابرين عند البلاء

ثم يُبين القرآن نعمة ٱللَّه على العَرَبِ حيث أرسل إليهم رسولاً منهم لهدايتهم، قال ٱللَّه تعالى: **﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِّنكُم﴾** هذا الشطر من الآية متصل بما قبله، والمعنى: ولأتِمَّ نعمتي عليكم أيها المسلمون في جعل الكعبة قبلة لكم كنعمتي عليكم بإرسال رسول منكم هو محمد ﷺ، وفي إرْسال الرسول منكم نعمة تستوجب الشكر لربّكم، لأنكم تعرفون سيرته العطرة وصِدْقه وأمانته مما يحملكم على المسارعة إلى التصديق بنبوته واتّباعه **﴿يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا﴾** والآيات: هي دلائل توحيد ٱللَّه والنبوّة والبعث، ويَصِحُّ أن يُراد من الآيات آيات القرآن، وتلاوتها: قراءتها.

والبصير بأساليب البيان العربي يدرك حين يتلو القرآن فصاحته، وسموّ معانيه، وإرشاداته القيّمة بما يشهد أن مصدره من عند ٱللَّه لا من تأليف بشر، عِلْماً أن الذي يتلو عليهم القرآن هو أُمِّيٌّ لم يتعلم القراءة والكتابة وهو محمد ﷺ مما يشهد بِصِدْق نُبُوَّته ورسالته من عند ٱللَّه. كما أن من وظيفة ذلك الرسول **﴿وَيُزَكِّيكُمْ﴾** أي يُطهركم من الشِّرْكِ والأخلاق الذَّميمة **﴿وَيُعَلِّمُكُمُ الكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾** الكتاب هنا: المراد به القرآن، أي يعلمكم ما يخفى عليكم من معاني القرآن وأحكامه كما يعلّمكم الحكمة وهي ما يصدر عن هذا الرسول ﷺ من الأقوال والأفعال والمواعظ التي فيها خير المسلمين وصلاحهم **﴿وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾** أي ويعلّمكم العقائد السليمة والعبادات الخالصة لله والأخلاق القويمة والأحكام العادلة التي لم تكونوا تعلمونها من قبل.

﴿فَاذْكُرُونِـي أَذْكُرْكُمْ﴾ ذكر الشيء: التلفُّظ باسمه، ويطلق بمعنى استحضاره في الذِّهْن. ولا يكفي في ذكر ٱللَّه أن يُجري الإنسان اسماً من أسمائه على لسانه، بل عليه أن يستحضر عظمته وجلال شأنه مما يستدعي منه التسبيح والتحميد لله جلّ شأنه. ويكون ذكر ٱللَّه في القلب: وهو التفكر في الدلائل الدالة على وحدانيته وبدائع خلقه التي تشهد بقدرته وحكمته. كما يكون ذكر ٱللَّه بالجوارح وذلك بالامتثال لما أمر من الطاعات، فكل عمل بطاعة ٱللَّه هو ذِكْرٌ له سبحانه.

وقد قيل في تفسير جملة ﴿فَاذْكُرُونِـي أَذْكُرْكُم﴾ أقوالٌ شتى منها:

ـ اذكروني بالطاعة: أذكركم بالثواب والمغفرة.

ـ لا يذكر ٱللَّهَ مؤمنٌ إلا ذكره ٱللَّهُ برحمته.

ـ اذكروني بقلوبكم: أذكركم بتحقيق مطلبكم.

ـ اذكروني في الرَّخاء بالطاعة والدعاء: أذكركم في البلاء والشدة بالعطيّة والنَّعماء.

وعلى هذا يُفهم من ذكر ٱللَّه للمؤمن حفظه من كل سوء يُراد به ثم الإنعام عليه بالعِزة والرَّخاء في الدُّنيا والسعادة في الآخرة.

ومرتبة ذكر ٱللَّه مرتبة عالية لا يُوازيها شيء، ففي حديث قدسيّ عن النبي ﷺ يقول ٱللَّه تعالى: «أنا عند ظنّ عَبْدي بي، وأنا معه حين يذكرني، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإنْ ذَكَرَني في ملإٍ ذكرْتُه في ملإٍ خيرٍ منهم»[١].

﴿وَاشْكُرُوا لِـي﴾ شكر الإنسان لله ثناؤه عليه بِذِكْرِ إحسانه ونعَمِهِ عليه

(١) أخرجه الشيخان والترمذي.

بقلب مفعم بالحب له، ومَنْ ذَكَر أن ما يصل إليه من الخير هو من نِعَم ٱللَّه عليه، لم يلبث أن يصرف ما أنعم ٱللَّه به عليه من العقل والجوارح فيما يُرضيه من الطاعات ﴿وَلا تَكْفُرُونِ﴾ والكُفر جحود نِعَمِ ٱللَّه وإحسانِهِ. كما يستعمل الكفر بمعنى عدم الإيمان. فٱللَّه يطلب من المؤمنين أن يشكروا نِعَمَه عليهم ومنها إرساله رسولاً منهم وهو محمد ﷺ الذي أرشدهم إلى الإسلام وهداهم إلى الدين الذي شرعه لهم وأن لا يجحدوا إحسانه إليهم فيسلبهم نِعَمَه التي أنعمها عليهم.

ولمّا كانت المصائب قد تُودي ببعض النفوس إلى الكفر والاعتراض على المشيئة الإلَهية لذلك دعا ٱللَّه المؤمنين إلى مواجهة المصائب والصمود أمامها بالصبر والصلاة، قال تعالى:

﴿يَا أيُّها الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بالصَّبْرِ والصَّلاةِ﴾ والصبر يحصل برياضة النفس على تحمُّل المكاره والمصائب وتوطينها على احتمال المشاقّ وتجنُّب الجزع. والمعنى: يا من آمنتم بٱللَّه استعينوا على إقامة شعائر دينكم والدفاع عنه وعلى فعل الطاعات وترك المعاصي، وعلى تحمُّل المصائب، استعينوا على كل ذلك بالصبر الجميل، وبالصلاة المقترنة بالخشوع والإخْلاص لله سبحانه، ففي الصلاة يستحضر المؤمن جلال ٱللَّه وعظمته ويقدسه ويثني عليه ويطلب منه المعونة والهداية ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ . ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٥ ـ ٦] ولا شكَّ أن ذلك يُضفي عليه طمأنينة وقوة في النفس ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ أي إن ٱللَّه معهم بالمعونة والتأييد، ومن كان ٱللَّه معه لم يخشَ الأهوال.

تأمَّل ما ذكره ٱللَّه سبحانه بأنه مع الصابرين، فبذلك يطلب ٱللَّه منك ـ أيها المؤمن ـ أن تُواجه الحياة ومشكلاتها في مَعِيَّةِ ٱللَّهِ التي خصَّها للصابرين فأنت

لو واجهت مشكلاتك في معيّة من تثق بقوته تواجه الأمور بشجاعة، فما بالك إذا كنت في معيّة ٱللَّه الذي بيده ملكوت كل شيء، وكل ما في الكون خاضع لإرادته؟!

ثم يُبين ٱللَّه منزلة الشهداء وما خصهم به من كرامة:

﴿وَلا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْواتٌ﴾ أي لا تقولوا للشهداء إنهم أموات **﴿بَلْ أَحْيَاءٌ وَلكِنْ لا تَشْعُرُونَ﴾** بل هم أحياء في عالمٍ غير عالمكم ولكن لا تشعرون بحياتهم إذ ليست في عالم الحسّ الذي يدرَك بالمشاعر بل هي حياة غيبية تمتاز بها أرواح الشهداء على سائر أرواح الناس، وهذه المزية أنهم في حياة سارَّة ونعيم مقيم عند ربهم، وجمهور العلماء قالوا: إنهم في الجنة. وقد جاء في الحديث الشريف: «أرواحهم في جوف طير خضر لها قناديل معلقة بالعرش تسرح في الجنة حيث شاءت ثم تأوي إلى تلك القناديل..»[(١)] كما جاء في القرآن بأن الشهداء هم في حياة كريمة مصحوبة بالرزق: **﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾** [آل عمران: ١٦٩].

﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الخَوْفِ وَالجُوعِ﴾ البلاء: هو الاختبار والامتحان، أي ولنختبرنكم بشيءٍ من الخوف ينالكم من عدوكم وبشيء من الجوع ـ بسبب القَحْط ـ ينالكم فيه مجاعة وشِدَّة **﴿وَنَقْصٍ مِنَ الأَمْوالِ والأَنْفُسِ والثَّمراتِ﴾** ولنختبرنكم أيضاً بقلة الكسب للمال أو الخسارة في التجارة، وبنقص الأنفس سواء بالموت الطبيعي أو عن طريق القتل، وبنقص من الثمرات الذي ينشأ عن الآفات الطبيعية أو أحوال الطقس. فالبلاء هو المعيار الذي يكشف عن خبايا

---

(١) أخرجه مسلم.

النفوس ودرجة إيمانها وصدقها مع ربّها ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ﴾ وبَشِّر يا محمد الصابرين على بلائي لهم المستسلمين لقضائي بما يسرُّهم من المغفرة والرحمة، هذه البشارة موجهة إلى الذين يتلقون المصيبة بسكينة وتسليم لقضاء ٱللَّه القائلين عند المصيبة ﴿قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ هنا يثني ٱللَّه على الذين يقولون هذه الكلمات عند حلول المصيبة بهم، ويستشعرون مضمونها فهي عزاء لهم عندما تلم المصيبة بهم، وعصمة لهم من الوقوع في الزلل عندما يمتحنهم ٱللَّه بالبَلايا، وما أبلغ هذه الكلمات فإنها جامعة بين الإقرار بالعبودية لله والاعتراف بالبعث بعد الموت. ومعنى ﴿إِنَّا لِلَّهِ﴾ إنَّا: أصلها إنَّنَا حذف منها نون للتخفيف، أي إننا ملك لله، فنفوسنا وأموالنا وأهلونا هي ملك لله يتصرف فيها سبحانه كما يشاء، وما في أيدينا جعله ٱللَّه وديعة[1] إن شاء أبقاه وإن شاء استردّه، فلا يجدر بنا أن نجزع عندما يسترد ٱللَّه ما هو ملك له بل نصبر ونُسَلِّم الأمر إليه ونرضى بقضائه.

﴿وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ وإننا في خاتمة المطاف صائرون إلى ٱللَّه يوم القيامة فيجازينا على امتثالنا له لما دعانا إليه من الصبر عند المصيبة ويوفينا أجورنا كاملة.

هذه الكلمات التي نقولها عند حلول المصائب يستفاد منها جملة أُمور:

منها: التسليم لقضاء ٱللَّه وقَدَره.

ومنها: أنها تواسي قلب المصاب وتقلل من حزنه.

ومنها: تهيئة النفس لتلقّي المصيبة بالصبر الجميل.

---

(١) وما أصدق قول الشاعر:

وما المال والأهلونَ إلاّ ودائعٌ ... ولا بُدّ يوماً أن تُردّ الودائعُ

ومنها: اشتغال المُصاب بمعاني هذه الكلمات بدل لجوئه إلى كلامٍ لا يليق بهذا المقام فيعرّضه للإثم ويحرمه الأجر من ٱللَّه.

ولا يتنافى مع الصبر ما يكون من الحُزن الشديد لدى المصاب عند حلول المصيبة، وإنما الذي ينافيه ويؤاخذ الإنسان عليه هو الجزع المفضي إلى الاعتراض على حكم ٱللَّه فيما أنزل به من بأساء أو ضراء، أو تكون المصيبة مهلكة لصاحبها فلا يصمد أمامها لضعف إيمانه بقضاء ٱللَّه وقدره، أو أن يغفل عما حرَّمه الإسلام من النياحة على الميت والندب والصراخ ولطم الخدود وغير ذلك.

﴿أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ﴾ أي أولئك الذين امتثلوا أمر ٱللَّه وقالوا عند المصيبة: **﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾** عليهم صلوات من ربهم والصلوات: جمع صلاة، وصلوات ٱللَّه على عباده: هي الغفران لهم والثناء الحسن عليهم وتشريفه إياهم في الدنيا والآخرة، وجاءت الصلوات بصيغة الجمع لكثرة ما يترتب عليها من أنواع الخيرات، وأضاف إلى ذلك **﴿وَرَحْمَةٌ﴾** ورحمته تعالى تظهر بإزالة آثار المصيبة، أو تعويض المصابين بما ينعم ٱللَّه عليهم من النعم، ورحمة ٱللَّه لعباده هي أثمن شيء في الوجود كما جاء في القرآن: **﴿وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾** [الزخرف: ٣٢] ثم يختم ٱللَّه الآية بقوله: **﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾** أي مهتدون إلى ما ينبغي عمله في أوقات المصائب إذ لا يستحوذ الجزع على نفوسهم، ولا يذهب البلاء بالأمل في قلوبهم فيكونون هم المهتدون للرشد والصواب.

﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٥٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَبَيَّنُوا۟ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٦١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿١٦٢﴾﴾.

شرح المفردات

الصَّفَا والمَرْوة: هضبتان ملحقتان حاليًا بالمسجد الحرام يسعى بينهما من يقصد الحج أو العُمرة.

من شعائر ٱللَّه: من أعلام دينه ومتعبَّداته.

حج البيت: أي قصد الكعبة لأداء المناسك في موسم الحج.

اعْتَمر: زَار الكعبة لنسك العمرة، والعمرة لا تختص بزمان.

فلا جُناح عليه: فلا إثم عليه.

تَطوَّع خيراً: زاد خيراً على ما طُلب منه.

البيّنات: الحجج الواضحات.

الهُدى: ما يهدي إلى الحقّ والرشاد.

يلعنهم الله: يطردهم من رحمته.

ولا هُم يُنْظَرُونَ: أي لا يؤجل عذابهم ولا يؤخر.

الصّفا والمروة من معالم الحج

ويُتابع القرآن فيوضح بعض الأمور المتعلقة بالحج والعمرة وهي السعي بين الصفا والمروة قال ٱللَّه تعالى:

﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ﴾ هما هضبتان مطلتان على المسجد الحرام ﴿مِن شَعَائِرِ ٱللَّهِ﴾ من معالمه ومواضع عباداته ﴿فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ﴾ فمن قصد بيت ٱللَّه الحرام لأداء فريضة الحج وأداء عبادة ٱللَّه من إحرام وطواف حول بيت ٱللَّه الحرام وسعي بين الصفا والمروة والوقوف بعرفة والقيام بسائر مناسك الحج استجابة لأمر ٱللَّه ﴿أَوِ اعْتَمَرَ﴾ والاعتمار كالعُمرة لغةً وهي زيارة البيت الحرام لأداء عبادة ٱللَّه من إحرامٍ وطوافٍ حول الكعبة والسعي بين الصفا والمروة ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾ فلا إثم على من يسعى بين الصفا والمروة، ومعنى يطَّوَّف فقد فسَّرَتْهُ السُّنَّة النبوية بالدوران حول الكعبة سبعة أشْواط، وبالنسبة إلى الصَّفا والمروة فالمقصود منهما هو السعي بينهما سبعة أشواط.

ولكن ما هو الأمر الداعي لأن يقال عن السعي بين الصفا والمروة بأنه لا حَرَجَ على من يقوم بذلك؟

الجواب على ذلك هو أن العرب في الجاهلية أدْخلوا على شعائر ٱللَّه في الحج التي ورثوها عن إبراهيم عليه السلام مظاهر الوثنية، فقد وضعوا على الصفا صنماً يسمى أسافاً، ووضعوا على المروة صنماً يسمى نائلة، فكانوا يسعون بينهما تعظيماً للصنمين ويَتَمَسَّحُون بهما، فلما جاء الإسلام وأزيلت الأصنام تَحَرَّج المسلمون وامتنعوا عن السعي بين الصفا والمروة ظانين أن السعي بينهما هو إثم يلحقهما إذا قاموا بذلك، فبيّن القرآن أن لا إثم من السعي بينهما، وأنهما من شعائر ٱللَّه ومتعبّداته في الحج والعمرة.

والسعي بين الصفا والمروة هو اقتداء بهاجَر زوجة إبراهيم عليه السلام حين نفد منها الماء الذي تركه زوجها فعطشت وعطش ابنها إسماعيل فانطلقت تفتش له عن ماء فوجدت الصفا أقرب مرتفع يليها فقامت عليه ثم استقبلت الوادي تنظر هل ترى أحَداً؟ ولكنها لم تر أحَداً فهبطت من الصفا ثم سعت

سعي الإنسان المرهق حتى وصلت إلى المروة وصعدت عليها ونظرت فلم ترَ أحَداً ثم أخذت تهرول وتسعى بين الصفا والمروة سبع مرات وهي تدعو ٱللَّه إلى أن أنْبَعَ اللهُ ماءَ زمزم وأجاب دعاءها.

فالسعي بين الصفا والمروة شرعه الإسلام[١] لما فيه من اللجوء إلى ٱللَّه في كشف الضر لأنَّ في ذلك الموضع كشف ٱللَّه الضر عن هاجَر وولدها، كما أن في ذلك إشعاراً للمؤمنين بأن ٱللَّه يبتليهم بأنواع المحن إلاّ أنه يغيثهم برحمته عندما يلجأون إليه ويدعونه بتضرع لكشف البلاء عنهم.

﴿وَمَن تَطَوَّعَ خَيْراً﴾ والتطوع هو ما يأتي به الإنسان من الطاعة غير المفروضة عليه وتسمى النَّوافل، أي ومن أتى بالحج والعمرة مرة أُخرى فزاد على الواجب ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ فإن ٱللَّه يشكر عمله بمزيد من الثواب، وهو عليم بكل شيء فلا يخفى عليه تطوعه.

التحذير من كتمان شرائع الله

ويتابع القرآن فيبين مبلغ الإثْم العظيم لمن يكتمون ما أنْزل ٱللَّه من الشرائع: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ ما أَنزَلْنا مِنَ البَيِّناتِ والهُدَى﴾ هذا النصّ من القرآن نزل في أحْبار اليهود ورُهْبان النَّصارى وفي كل من كتم شيئاً من أحكام الدين.

والكتمان ترك إظْهار الشيء مع مسيس الحاجة إليه وحصول الدّاعي إلى إظهاره. وكتم ما أنزل ٱللَّه يشمل إخْفاء نصوصه وعدم ذكرها للناس كما يشمل

---

(١) اختلف العلماء في وجوب السعي بين الصفا والمروة في الحج والعمرة، فقال الشافعي وابن حنبل: هو ركن، وهو المشهور من مذهب مالك، وقال أبو حنيفة وأصحابه: إنه واجب يجبر تركه بدم (أي ذبح شاة).

إزالة النصّ ووضع آخر مكانه أو تحريفه بالتأويل الفاسد عن معناه الصحيح، وقد فعل أهْلُ الكتاب ولا سيما اليهود كل ذلك، فقد كانوا يعرفون مما بين أيديهم من التوراة أن نبوَّة محمد هي حق، ولكنهم كتموا هذه المعرفة حَسَداً لمحمَّد على ما آتاه ٱللَّه من فضله، فهم كتموا ما أنزل ٱللَّه ﴿مِنَ البَيِّناتِ﴾ وهي الحجج الواضحة الدالة على نبوة محمد ﷺ، وكذلك كتموا آية الرَّجْم للمحصن التي وردت في التوراة، كما كتموا ﴿وَٱلْهُدَىٰ﴾ أي ما في التوراة مما يهدي إلى الحق والرشاد بضروب من التأويل غير الصحيح حتى أفسدوا الدِّينَ وانحرفوا بالناس عن هديه ﴿مِنْ بَعْدِ ما بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ في الكِتابِ﴾ والكِتاب هنا لا يُعنى به كتاب إلَهِيّ معيّن بل يراد منه جنس الكتب التي أنزلها ٱللَّه على رسله كالتوراة والإنجيل والقرآن، ودلَّ قوله تعالى ﴿مِنْ بَعْدِ ما بَيَّنَّاهُ للنَّاسِ﴾ على أن معصيتهم بالكتمان متناهية في الفظاعة وأنه لا يقدم على ذلك إلاّ من بلغ الغاية في السوء.

﴿أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللاَّعِنُونَ﴾ أي أولئك الكاتمون للعلم الذي بيّنه ٱللَّه في الكتاب يطردهم ٱللَّه من رحمته ويُسخط عليهم الخَلْقَ فيزدرونهم وينبذونهم ويدعون عليهم باللعنة.

ثم إن العبرة في الآية أن حكمها عام وإن كان سبب نزولها خاصّاً، فكل من يكتم آيات ٱللَّه وهدايته عن الناس فهو مستحق لهذه اللعنة.

والقُرآن الكريم لم يكتفِ بالوعيد على من يكتم شرع ٱللَّه وهدايته بل أَمَرَ بِنَشْرِ هُداه للناس وتبيانه وعدم كتمانه، وهذا هو العهد الذي أخذه ٱللَّه على أهل الكتاب بقوله بما جاء في القرآن ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾ [آل عمران: ١٨٧].

ثم يُبيّن القُرآن مصير من يتوبون ويرجعون عن الكتمان بقوله:

﴿إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا﴾ أي نَدِمُوا على ما كتموه من هدى ٱللَّه **﴿وأَصْلَحُوا﴾** بإظهار ما كتموه وتصحيح ما حَرَّفوه أو أساءوا فيه الفتوى **﴿وَبَيَّنُوا﴾** للناسِ حقيقة ما كتموه من كتاب ٱللَّه **﴿فَأُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ﴾** أي إن ٱللَّه يقبل توبتهم المقرونة بإصلاح أعْمالهم، وقبول التوبة من ٱللَّه لهم يتضمن المغفرة لما سلف من ذنوبهم **﴿وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾** والتواب والرحيم صيغتان من صيغ المبالغة، أي من شأنه المبالغة في قبول التوبة وسعة الرحمة فهو الجدير بأن يتوب على عباده ويرحمهم إذا تابوا وبيّنوا للناس ما كتموه من شرع ٱللَّه ودينه.

﴿إِنَّ الَّذِين كَفَرُوا ومَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ أي إن الذين جحدوا نُبُوَّة محمد وكذبوا بالهدى الذي جاء به من عند ربه، وأَصَرُّوا على كفرهم حتى فارقوا الحياة **﴿أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ والنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾** واللعن من ٱللَّه للكافر إبعاده من رحمته، واللعن من الملائكة ومن الناس للكفار الدعاء عليهم بالإبعاد من رحمة ٱللَّه، وكذلك الكفار يوم القيامة يلعن بعضهم بعضاً **﴿خَالِدِينَ فِيها﴾** الخُلُود: البقاء إلى غير نهاية، والظاهر أن الضمير في قوله «فيها» عائد إلى اللَّعْنَةِ المذكورة في الجملة، والخلود في اللعنة يقتضي الخلود في النار **﴿لا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ العَذَابُ﴾** ولا يخفف عنهم العذاب في جهنم **﴿وَلا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾** الإنظار: الإمهال والتأخير، أي ولا يُمهَلون عن العذاب كما يُمْهَلون في الدنيا ولا يؤخَّر عذابُهم بل يلاقيهم العذاب حالَ مفارقتهم الحياة.



﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾﴾.

شرح المفردات

الرَّحمنُ الرَّحِيمُ: صيغتان للمبالغة في الرحمة، وتختص الأولى بالله، ويجوز إطلاق الثانية على غيره.

واختلاف الليل والنهار: تعاقبهما أو اختلافهما بالزيادة والنقصان.

الفُلْك: اسم يطلق على سفينة أو أكثر.

بَثَّ فيها: نَشَرَ فيها.

من كل دابّة: من كل نوع من الدوابّ، والدّابّة ما يدبُّ ويمشي على الأرض من الحيوان.

وتصريف الرياح: تقليبها جنوباً وشمالاً وشرقاً وغرباً.

والسّحاب المُسَخَّر: المنقاد لله يوجهه كيف يشاء.

لآيات: دلائل على قدرته تعالى.

البُرهان على وحدانية الله

ثم ينتقل القرآن إلى إثبات وحدانية ٱللَّه والدلائل والبراهين العقلية عليها وذلك بتوجيه الأنظار إلى هذا الكون الذي يشهد كل ما فيه على وجود ٱللَّه ووحدانيته وعظمته، قال ٱللَّه تعالى:

﴿وإلٰهُكُمْ إلَهٌ واحِدٌ﴾ والإلٰه في كلام العرب هو المعبود مطلقاً والمُرادُ به في الآية المعبود بحق بدليل الإخبار عنه بأنه واحد. ومعنى الآية: وإلٰهكم الذي

يستحق العبادة هو إلّه واحد، فمن عَبَدَ سواه أو عَبَدَ شيئاً معه فعبادته باطلة ﴿لا إِلَٰهَ إِلاّ هُوَ﴾ هذه الجملة من الآية نافية عن اللَّه الشريك صراحة ومثبتة له الأُلوهِيّة الحقّة، أي إن اللَّه وحده هو الإلّه وليس شيءٌ مما سواه إلّهاً ﴿الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ﴾ فهو سُبحانه شمل الكائنات برحمته، وعمَّت رحمته في الدنيا المؤمن والكافر، واختصت رحمته في الآخرة أهل الإيمان والصلاح.

ولمّا بيَّن القرآن بأن اللَّه هو إلّه واحد عَقَّبَ على ذلك بذكر بعض المظاهر الطبيعية التي أبدعها اللَّه في هذا الكون التي تشهد بعظمته وعظيم صنعه، وقد ذكرت الآية التالية سبعة من هذه المظاهر الطبيعية نذكرها فيما يلي:

أولاً: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَٰوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ هذه السماوات التي خُلِقَتْ على هذا الشكل وما تحتويه من بلايين النجوم المشتعلة والكواكب وغيرها التي يحفظها اللَّه جميعاً بقانون الجاذبية ويمنعها من أن تتصادم أو يرتطم بعضها بكوكبنا الأرْضِيّ فتنسفه وتدمّره.

وهذه الكرة الأرضية التي نعيش عليها وما عليها من نباتٍ وحيوانٍ وسهولٍ وجبالٍ وَبِحَارٍ، كل ذلك يسير على سنن كونية ثابتة ونواميس خاصة في منتهى الحكمة، ألا يعطينا كل ذلك دليلاً على وجود قدرة إلّهيّة حكيمة أبدعت هذا الكون؟

ثانياً: ﴿وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ أي تعاقُبهما واختلافهما بالزيادة والنقصان، واختلاف الليل والنهار يَنْشآن من دَوَران الأرض على مِحْورها كما أنها لا تدور في مكانٍ واحدٍ، إذ إنها تدور أيضاً حول الشمس وهذان الأمران يعطياننا نهاراً وليلاً مختلفي الطول.

ألاّ يدلّ اختلاف الليل والنهار على وجود قُدرةٍ إلهيّة أبدعَتْه على هذا الشكل ليكون سبباً لحياة الكائنات؟

ثالثاً: ﴿والفُلْكِ الَّتي تَجْرِي في البَحْرِ بما يَنْفَعُ النَّاسَ﴾ هذا النصُّ القرآني فيه جملة أمور تشهد على وجود ٱللَّه ووحدانيته، فهو سبحانه خلق المواد التي تنشأ منها السفن، وألْهَمَ الإنسان إلى كيفية صُنعها، وهو سبحانه الذي سخَّر البِحار وجعل مياهها بتلك الكثافة بحيث تطفو عليها السفن التي ترتاد البحار حاملة المسافرين وأنواع البضائع من بلد إلى بلدٍ مُحَقِّقة المنافع للناس، هذا فضلاً عن أن ٱللَّه جعل البحار مصدراً لقوت الملايين من البشر بما تحتويه من أنواع السمك.

رابعاً: ﴿وَمَا أَنْزَلَ ٱللَّهُ مِنَ السَّماءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها﴾ هذا النص له ارتباط بما ذكر من قبل باختلاف الليل والنهار الذي ينشأ عن دَوَران الأرض حول محورها وحول الشمس والذي له تأثير على تحرّكات الرياح، والرِّياح تنقل بخار الماء من المحيطات إلى داخل القارات حيث يتكاثف ويتحول إلى مطر، والمطر مصدر الماء العذب الذي تشربه الكائنات الحية وترتوي به الأرض التي تنبت صُنُوفَ النَّبات، ولولا الماء العذب لانْعَدَمت الحياة على الأرض، وصدق ٱللَّه إذ قال: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَيٍّ﴾ [الأنبياء: ٣٠] ألا يدل كل ذلك على وجود قدرة إلٰهية حكيمة؟

خامساً: ﴿وَبَثَّ فيها مِنْ كُلِّ دابَّةٍ﴾ بَثَّ: فَرَّقَ وبَسَطَ. والدّابَّةُ: تجمع الحيوان كله وتشمل الطير أيضاً. تأمّل هذه الحيوانات التي تبلغ الملايين على وجه الأرض، فمنها ما يؤكل ومنها المفترس، وتأمل كل واحدة منها في طريقة معيشتها والحصول على قوتها، والدفاع عن نفسها، واختلاف أحجامها وألْوانها وتناسلها مما يستلزم الكتابة عن أسرار هذه الكائنات المجلدات الكثيرة، أما تشهد هذه الدواب بوجود خالق لها في نهاية القدرة والعلم والحكمة؟

سادساً: ﴿وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ﴾ وتصريفها: تقليبها في الجهات المختلفة ونقلها من مكان إلى مكان، ففي بعض البلدان يتغير هبوب الرياح مرّاتٍ كثيرةٍ في اليوم الواحد، وفي بعض الأمكنة تهب الرياح باستمرار من جهةٍ واحدةٍ طيلة أسابيع أو أشهر، وفي زمن السفن الشراعية كانت الرياح ذات أهمية للتجارة حيث كان البحارة يجعلون رحلاتهم في موسم هبوب الرياح في الاتجاه الذي يقصدونه.

وهناك الرياح الموسمية، وهناك الرياح الحارَّة التي مصدر هبوبها من الصحارى، وهناك رِياحٌ تهبُّ من الجبال أيّاماً بطولها في كل مرة وتسبب تغيرات مفاجئة في الطقس، وقد تتحرك الرياح أحياناً في عواصف عنيفة تسبب أضراراً جسيمة.. ألا يدل كل ذلك على قدرة ٱللَّه العظيمة المحركة لتلك الرياح؟!

﴿والسَّحَابِ المُسَخَّرِ بَيْنَ السَّماءِ والأرْضِ﴾ المسَخَّر: من التسخير وهو التَّذْليل، وتسخير السحاب: بَعْثُهُ من مكان إلى مكان آخر. والسحاب يتألف من الأبخرة المتصاعدة من المحيطات والبحيرات والأنهر والمستنقعات، حيث يتراكم على شكل غيوم ثم تسوقها الرياح إلى البلاد التي يريد ٱللَّه إحياءها حيث تتجمع وتتحول إلى مطر عندما تصادف طبقة باردة، أو غير ذلك من العوامل الطبيعية.

وقد كشف القرآن عن هذا المعنى في موضع آخر حيث قال سبحانه ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ﴾ [الروم: ٤٨].

ويختم ٱللَّه الكلام عن هذه المظاهر الكونية بقوله ﴿لآياتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ أي إن كل ما ذكر من هذه المظاهر الطبيعية والكائنات الحية لدلائل واضحة

على وحدانيّة ٱللَّه للذين يفكرون بعقولهم ويدركون الحكمة منها، ويستدلون بما فيها من الإتقان والنظام العام الذي يسودها على قدرة مبدعها وحكمته وفضله ورحمته لخَلْقه، كما تدل على أنه وحده الجدير بالعبادة.

فالإسلام ـ خلافاً لكثير من الأديان ـ يدعو الإنسان إلى استعمال عقله في الوصول إلى الإيمان بوحدانية ٱللَّه عن طريق التفكّر في خلق السماوات والأرض وما على الأرض من كائنات حية تشهد بعظيم قدرته وحكمته.

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾ إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿١٦٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُوا۟ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٦٩﴾﴾.

شرح المفردات

أنداداً: جمع نِدّ، وهو المثيل والنّظير.

الذين اتُّبِعوا: هم الرؤساء والقادة.

الذين اتَّبَعُوا: هم الأتباع من الرّعِيّة.

تقطّعت بهم الأسباب: انقطعت الروابط بينهم.

كَرَّة: رَجْعَة وعَوْدة إلى الدنيا.

حَسَرات: جمع حسرة وهي أشد درجات النَّدامة.

ولا تَتَّبِعُوا خُطُوات الشيطان: لا تسيروا وتنقادوا تبعاً لوساوس الشيطان.

الفَحْشاء: ما اشتد قُبحه من الذُّنوب.

الشِّرْكُ يُؤَدّي إلى عذاب الله

وبعد أن ذكر القُرآنُ جانباً من المظاهر الكونية الدَّالّة على وُجودِ ٱللَّه ووَحْدانِيَّته، وصف في الآية التالية حال المشركين ومصيرهم يوم القيامة، قال ٱللَّه تعالى:

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَنداداً﴾ والأنْداد: جمع نِدّ، وهو المِثْل والنَّظير، قد يُرادُ بالأنْدادِ الأوْثان التي اتخذها المشركون آلهة، وقيل: هم الرؤساء الذين يطيعونهم في معصية ٱللَّه **﴿يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾** أي فمحبة المشركين للأصنام كمحبة المؤمنين لله **﴿والَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾** والذين صدّقوا بوحدانية ٱللَّه هم أشدّ حُبًّا له من حبّ أُولئك المشركين لأوثانهم ورؤسائهم لأن حب المؤمنين لله متولد عن يقين واقتناع، بينما حب المشركين لمعبوداتهم متولد عن طريق الظنون والأوهام.

﴿وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إذْ يَرَوْنَ العَذَابَ أَنَّ القُوَّةَ للَّهِ جَمِيعاً﴾ ولو يرى أُولئك الذين كفروا وظلموا أنفسهم بالشرك بٱللَّه عذاب ٱللَّه ويُعاينونه لرأوا ما لا يوصف من الهول، وأن القدرة والسلطان لله جميعاً دون سواه من الأنْداد والآلهة **﴿وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ العَذَابِ﴾** وأن عذاب ٱللَّه شديد لمن أشرك به.

﴿إذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا﴾ وتبرَّأ: من التبرؤ وهو التخلص والتنصُّل، والذين اتُّبِعُوا هم أئمة الكفر ورؤساؤهم الذين يُحَرِّمون ويُحَلِّلون غير

ما أمر ٱللَّه، والذين اتَّبَعُوا: أتباعهم الذين يتلقون أقوالهم بالتقليد والطاعة ﴿وَرَأَوُا العَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ﴾[1] أي تنصَّل الرؤساء من المرؤوسين وقت أن عاينوا العذاب وانقطعت الروابط والصلات التي كانت تجمعهم في الدنيا من عقيدة أو قرابة أو مصلحة أو أعمال.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ﴾ أي تمنى الأتباع لو أن لهم رجعة إلى الدنيا ليتبرَّأوا من هؤلاء الرُّؤساء الذين أضلُّوهم عن سبيل ٱللَّه ﴿كَمَا تَبَرَّأُوا مِنَّا﴾ أي كما تبرأ الرُّؤساءُ من الأتباع في هذا اليوم العصيب ﴿كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ﴾ أي كما أراهم ٱللَّه العذاب المعدّ لهم يريهم ٱللَّه أعمالهم الفاسدة المدونة في الصحائف فيتيقنون من الجزاء عليها فيتحسرون، والحسرة أعلى درجات الندامة والهَمّ على ما فات ﴿وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ وهم باقون في عذاب النار خالدين فيها أبداً.

الانتفاع من الأرض والحذَر من الشيطان

ثم يُخاطب ٱللَّه الناس جميعاً للانتفاع بما في الأرض من المآكل الطيبة التي تَفَضَّلَ بها عليهم:

﴿يا أيها النَّاسُ كُلُوا مِمَّا في الأَرْضِ حَلالاً طَيِّباً﴾ الحلال: ما أذن ٱللَّه في تناوله من المآكل والمشارب خلاف ما حَرَّمَهُ، وأن لا يكون الحصول عليه من مالٍ حرامٍ. والطَّيِّبُ: هو المستلذ المستطاب غير الضار بالأبدان والعقول، هذه الآية نزلت في حق كل من حَرَّمَ على نفسه شيئاً لم يُحَرِّمْه ٱللَّه. فالمشركون

(١) الأسباب: جمع سبب، وهو في الأصل الحَبْل الذي يُشدّ به الشيء أو يصل بين أمرين برباط بينهما، والمراد: الصلات التي تربطهم بعضهم ببعض، وتقطَّعت: مبالغة في القطع أي، أن هذه الصلات التي كانت تربط بينهم قطعت من كل ناحية بحيث لا يمكن وَصْلها.

العرب حَرَّموا الأكل من بعض لحوم الإبل، وقد ذكر القرآن في سورة المائدة بعض هذه اللحوم من الإبل، والآية وإن نزلت في هؤلاء المشركين العرب فإنها تشمل كل من كان على شاكلتهم كجماعة السيخ في الهند الذين يحرمون أكل لحم البقر بسبب عبادتهم لها.

فالآية تخاطب الناس جميعاً بأن يأكلوا مما في الأرض من حيوانها ونباتها وثمارها ما كان حلالاً لا حُرْمَةَ فيه، طَيِّباً لا تعافه النفس ولا تتضرر منه الأبدان بشرط أن يكسبوها بطريق مشروع. ثم يضيف ٱللَّه على ذلك قوله: ﴿وَلا تَتَّبِعُوا خُطُواتِ الشَّيطانِ﴾ خطوات الشيطان: أعماله، وقيل: خطاياه، أي ولا تتبعوا آثار الشيطان وأعماله وهي وساوسه التي يقذفها في صدور الناس لينقلهم من طاعة ٱللَّه إلى معصيته ﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ أي إن الشيطان عدوٌّ لكم ـ أيها الناس ـ ظاهر العداوة بحيث لا تخفى عليكم عداوته.

﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بالسُّوءِ والفَحْشَاءِ﴾ إن الشيطان يأمركم بالمعاصي التي تسوؤكم وتحزنكم في الدنيا وتسوء عاقبتكم في الآخرة، كما يأمركم بما يشتد قبحه من الذنوب ﴿وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى ٱللَّهِ ما لا تَعْلَمُونَ﴾ والقول على ٱللَّه بغير علم هو أن يقول الإنسان: إن لله شريكاً أو يقول حَرَّم ٱللَّه هذا، أو أحلَّ ٱللَّه هذا، متعمداً الكذب على ٱللَّه، أو أن يُحرِّمَ ويُحَلِّلَ عن جهالةٍ كشأن من يحلل شرب الخمر وأكل الربا وغيرهما من المنكرات، مدّعياً بأن ٱللَّه لم يحرّم ذلك أو يستند إلى أدلة باطلة.



﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۗ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ۚ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٧٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ وَٱلْعَذَابَ بِٱلْمَغْفِرَةِ ۚ فَمَآ أَصْبَرَهُمْ عَلَى ٱلنَّارِ ﴿١٧٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿١٧٦﴾﴾.

شرح المفردات

ما أَلْفَينا: ما وَجَدْنا.

ينعق: يصيح بالغنم ويزجرها.

بُكْمٌ: الأبكم هو الأخرس.

أُهِلَّ به لغيرِ ٱللَّهِ: الإهلال: رفع الصوت، أي ما ذُبح مذكوراً عليه غير اسم ٱللَّه.

بَاغٍ: ظالم لغيره.

عادٍ: أي لا يتجاوز الأكل من المحرمات ما يدفع عنه الجوع الشَّديد.

لا يُزَكّيهم: لا يُطَهِّرُهُم من دَنَس الذُّنوب.

شقاقٍ بعيد: خلاف ونزاع بعيد عن الحق.

ذَمُّ التقليد الأعْمى

كان أكثر العرب في الجاهلية يعبدون الأصنام ويشركونها في عبادة ٱللَّه، فجاء الإسلام يستنهض العقل البشري من جموده على العقائد الباطلة، ويدعوه إلى التحرر منها، من ذلك دعوته العرب المشركين إلى الإسلام بقوله تعالى:

﴿وإذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا ما أَنْزَلَ ٱللَّهُ﴾ وإذا قيل للمشركين اتبعوا شريعة الإسلام المتمثلة بالقُرآن المنزل من عند ٱللَّه، كان جوابهم ﴿قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آباءَنا﴾ أي نتبع ما وَجَدْنا عليه آباءنا من الدِّين. هذا هو لسان حال أكثر أتباع الأديان في العالم، وهذا هو الجواب الذي يُتوقع منهم عندما تدعوهم إلى الإسلام، ولكن ٱللَّه يَرُدُّ عليهم مُسَفِّهاً عقولهم بقوله: ﴿أَوَلَوْ كانَ آباؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلا يَهْتَدُونَ﴾ الهمزة في ﴿أَوَلَوْ﴾ للإنكار والتعجيب، أي: أيَتَّبِعونهم ولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً من الدِّينِ ولا يهتدون للصواب؟!

هذه الآية فيها دعوة لتحرير العَقْل من الجُمودِ على العقائد الموروثة الباطلة، وحَثٌّ للعقل على الانطلاق في مجاله الفكري لتقصّي الحقائق في شأن العقيدة الدينية ليكون الإيمان قائماً على الاقتناع والبرهان والدليل، ولهذا يقول ابن عطية في تفسيره للقرآن: أجمعت الأمة على إبطال التقليد في العقائد.

فالتقليد في الباطل مذموم، أما التقليد لأهل العلم الأُمناء فهو فَرْضٌ على العاميّ من أمر دينه لأنه ليس عنده من المؤهلات باستنباط الأحكام من أُصولها عملاً بقوله تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣].

فما دعا إليه الإسلام من التحرُّرِ من التقليد الأعْمى للآباء بدون استعمال العقل والوقوف على الدليل هو منهج فكري يتفق مع أرقى ما توصَّل إليه العقل الإنساني في التحرِّي عن الحقائق للوصول إلى الصواب الذي ترتاح إليه

النفس، ثم تأتي الآية التالية وفيها تمثيل لحال هؤلاء الكفار المقلدين آباءهم بهذه الصورة المزرية:

﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لاَ يَسْمَعُ إلاَّ دُعاءً ونِداءً﴾ يَنْعِقُ: يصيح، وهذا الصياح نوعان: منه الدّعاء، وهو الصياح بالبهائم لتأتي، ومنه النِّداء وهو الصياح بها لتذهب. وقيل: الدُّعاء للقريب، والنداء للبعيد.

هنا صورة في منتهى الروعة حيث صورت الكفار بقطيع من الغنم والماشية وصوَّرت من يدعوهم إلى الهدى كمثل الراعي الذي يصيح بغنمه ويزجرها فهي تسمع الصوت والنداء دون أن تعي أو تفهم ما يتفوه به ذلك الرّاعي.

ثم يُصوّر ٱللَّه حال الكافرين بقوله: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ﴾ أي صُمٌّ عن سماع الحق، بُكْمٌ لا يتكلمون به لجهلهم إياه، عُمْيٌ عن طريق الهدى ﴿فَهُمْ لا يَعْقِلُونَ﴾ فهم لا عقل لهم كسبيّ كي يدركوا شيئاً من المعرفة لفقدهم الحواس الثلاث السمع والنطق والنَّظر التي هي وسائل للعلم والثقافة والقراءة، وبدون الانتفاع بهذه الحواس الثلاث لا يستطيع الإنسان أن يتلقَّى شيئاً من العلم.

الطعام حلاله وحرامه

ثم يُخاطب اللهُ المؤمنين بقوله: ﴿يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ ما رَزَقْنَاكُمْ﴾ والطَّيبات التي أمر ٱللَّه المؤمنين بالأكل منها هي المستلذات من الأطعمة الحلال التي منّ ٱللَّه بها عليهم ورزقهم منها ﴿وَاشْكُرُوا لِلَّهِ﴾ والشكر لله هو الاعتراف بنعمه والثناء عليه، وهذا يستدعي الامتثال لما أمَر ٱللَّه به واجتناب ما نهى عنه ﴿إنْ كُنْتُم إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ إن كنتم أيها المؤمنون تخصّون ربكم وحده بالعبادة.

﴿إنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ المَيْتَةَ والدَّمَ﴾ أي حرّم ٱللَّه عليكم الأكل من الأنعام

الميتة التي تموت من غير ذَبْحٍ، والميتة لا تموت غالباً إلاّ لمرض أو تَسَمُّم أو انْحلال أنسجتها بسبب الهرم، وهذا ما يجعل لحمها مُضِرًّا يتسمم الآكل منه.

كما حرّم عليكم ﴿والدَّمَ﴾ والمراد ما يسيل من الحيوان الحي كثيراً كان أم قليلاً، وهو ما يسمى (الدم المسفوح) والدَّم ضارٌّ بالصحة إذا استعمل غذاء، فالتحليل أثبت أن الدم يحوي كمية كبيرة من «حمض البوليك» وهو مادة تضر بالصحة إذا استعمل غذاء، وقد يكون في الدم جراثيم وفيروسات تحتوي على بعض الأمراض المعدية فيكون في ذلك الضرر لمن يتناوله.

وحرَّم اللهُ أيضاً ﴿وَلَحْمَ الخِنْزِيرِ﴾ لأنه يُؤوي في جسمه عدداً كبيراً من أنواع الطفيليات كما أن الخنزير يُصاب بأمراضٍ شتى تنتقل إلى الإنسان إذا ما أكل من لحمه وتصيبه بأمراضٍ خطرةٍ يمكن أن تُودي بحياته. ومن أخطر الطفيليات الشائعة في لحم الخنزير (الترخينة) وهي نوع من الديدان السلكية المدورة تنتقل إلى الإنسان إذا أكل من لحمه وتسبب له أمراضاً خطرة على صحته. كما أن لحم الخنزير يحتوي على دُهْنٍ أكْثَرَ من ضعفي اللحوم العاديّة مما يزيد «الكولسترول» في الجسم ويسبب تصلباً في الشرايين وأمراض القلب.

وحرَّم ٱللَّه على المؤمنين ﴿وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ ٱللَّهِ﴾ والإهلال: رفع الصوت، والإهلال بالذبيحة لغير ٱللَّه أن يذكر غير اسم ٱللَّه عند ذَبْحها كما يفعل المشركون، فهم إذا ذبحوا رفعوا أصواتهم بقولهم: «باسم اللاَّت، أو العُزَّى، أو مَناة» وهي أسماء أصنامٍ كانوا يعبدونها، فالحكمة من تحريم هذه اللحوم أنَّ فيها تشبيهاً بالوثنيين ومشاركةً لهم في عقائدهم، والإسلام يريد أن يحمي أهله من كل مظاهر الوثنية.

﴿فَمَنِ اضْطُرَّ﴾ أي فمن ألْجأته الضرورة إلى الأكل من تلك المحرمات،

والمضطر هو الجائع جوعاً مُهلكاً ولا يجد ما يأكله غير تلك المحرمات، ومثله من كان معتقلاً من عدوٍّ أكرهه على أكل لحم الخنزير ﴿غَيْرَ بَاغٍ﴾ أي غير طالب للمحرّم وهو يجد غيره، أو على جهة الاستئثار به على مضطر آخر بأن ينفرد بتناوله فيهلك الآخر ﴿وَلَا عَادٍ﴾ ولا متجاوز سدّ الجوع ولكن يأكل قدر ما يمسك به نفسه من الهلاك ﴿فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ أي من أكل ذلك على تلك الصفة فلا تبعة عليه ولا حرَج ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أي إنه سبحانه غفور لمن أكل من المحرمات عند الضرورة وهو رحيم لمن أطاعَه.

ثم يأتي الكلام عن أخبار اليهود الذين كتموا عن الناس أمْرَ نُبُوَّة محمدٍ مع أنهم يجدون نعته وصفاته مكتوبة عندهم في التوراة، وقد كانوا يكتمون ما هو مكتوب خشية أن يدخل أهل ملتهم في الإسلام فتضيع مكاسبهم وما هم عليه من جاهٍ ورفاهية ولذيذ الأطعمة، قال ٱللَّه تعالى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ ما أَنْزَلَ ٱللَّهُ مِنَ الكِتابِ﴾ وكتمان ما أنزل ٱللَّه في كتابه من الأحكام هو أن يخفيه الأحبار عند السؤال عنه، أو يفسرونه على ما يُوافق هَوَاهم لأنه قد كان فيهم من يعرف الآيات الدالة على نُبُوَّة محمدٍ فكانوا يذكرون لها تأويلاتٍ باطلةٍ ويصرفونها عن معانيها الصحيحة ﴿وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً﴾ الاشتراء هنا بمعنى الاستبدال، أي يستبدلون ما يجب عليهم من بيان ما في التوراة من الحق بالكتمان لقاء مبلغ زهيد من عرَض الدنيا وشهواتها، وسمى ٱللَّه هذا الثمن بالقليل لأنه ينتفع به مدة قليلة.

﴿أُولٰئِكَ مَا يَأْكُلُونَ في بُطُونِهِم إلاّ النَّارَ﴾ أي أولئك الذين يكتمون ما أنزل ٱللَّه لمكاسبهم الدنيوية سيعاقبون يوم القيامة بإرغامهم على أكل النار من جمراتها المشتعلة بحيث تمتلئ بها بطونهم، إنه عذابٌ يفوق الوصف ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ القِيامَةِ﴾ أي لا يكلمهم كلام رحمةٍ ولا كلاماً يسرهم بل

يكلمهم بالتوبيخ، وهذا كناية عن حلول غضب ٱللَّه عليهم وعدم الرِّضا عنهم ﴿وَلاَ يُزَكِّيهِمْ﴾ أي لا يُثني عليهم خَيْراً ولا يُطهرهم من دَنَس الذُّنوب ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ولهم عذاب موجع يوم القيامة.

﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلاَلَةَ بِالْهُدَى والعَذَابَ بِالمَغْفِرَةِ﴾ أي أولئك اختاروا الضلالة على الهدى واختاروا العذاب على المغفرة ﴿فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلى النَّارِ﴾ فما أجرأهم على العمل الذي يُقرّبهم إلى عذاب النار مع أنه لا يمكن الصبر عليها.

﴿ذلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ الكِتَـابَ بِالْحَقِّ﴾ الكتاب: المراد به جنس الكتب الإلَهيّة التي أنزلها ٱللَّه، والمعنى: أي ذلك العذاب المترتب على الكتمان بسبب أن ٱللَّه نزّل الكتب الإلَهيّة متلبّسة بالحق ﴿وإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا في الكِتَـابِ﴾ والذين اختلفوا هم أهل الكتاب بأن آمنوا ببعض كتب ٱللَّه وكفروا ببعضها. وقيل المراد بالكتاب: القُرآن فقد اختلف المشركون فيه فقال بعضهم: هو شِعْر، وبعضهم: هو سِحْر، وبعضهم: هو أسَاطير الأوَّلين ﴿لَفِـي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ أي إن الذين اختلفوا في كتب ٱللَّه هم في خلاف ونزاع بعيد عن الحقّ.



﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَـٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَـٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَـٰهَدُوا۟ وَٱلصَّـٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾﴾.

شرح المفردات

البرّ: التوسّع في فعل الخير وطاعة ٱللَّه.

قِبَلَ: جهة.

وآتى المال: أعطى المال.

ابن السبيل: المسافر الذي انقطع عن بلده وليس له مال.

وفي الرّقاب: تحرير نفس من الرّقّ.

البأساء: الشدّة والفقر.

الضّرّاء: من الضُّر، وهو المرض ومصائب البدن، وقيل: النقص في الأموال والأنفس.

حين البأس: وقت شدة القتال مع الأعداء.

البِرُّ المطلوب من المؤمن

مَرَّ معنا في الآيات السابقة أن قِبْلة المسلمين في الصلاة كانت نحو بيت المقدس وهي قبلة اليهود، ثم أمر ٱللَّهُ بعد ذلك المسلمين بأن يُحَوِّلُوا قبلتهم نحو الكعبة بمكة المكرّمة، وهذا ما أثار لَغَطاً وجَدَلاً عند اليهود وأكثروا الخوض فيه، فَنَبَّهَ ٱللَّه في الآية التالية إلى أنَّ الجَدَل في مِثل هذا الأمر خارج عن دائرة البرّ والخير إذْ لا تفاضل للجهات عند ٱللَّه لأنها كلها ملكه، وإنما التفاضل يكون بالإيمان وفيما يفعله الإنسان من وجوه الخير، قال ٱللَّه تعالى:

﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾ البِرُّ: هو التوسع في فعل الخير ولكل طاعةٍ وقربةٍ إلى ٱللَّه. وتولية الوجوه قِبَلَ الشيء: التوجه إلى جهة ذلك الشيء. والمعنى: ليس البر التوجه إلى جهة المشرق والمغرب، بل البر أعظم من ذلك وهو ما ذكرته الآية والتي ترتكز على ثلاثة أُمور: **أولاً**: صحة العقيدة. **ثانياً**: الإحسان إلى الجماعة المحتاجة، **ثالثاً**: تهذيب النفس والعمل بمكارم الأخلاق.

صحة العقيدة

وتتمثل بقوله تعالى: **﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلاَئِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ﴾** فهذا النص القرآني يُبين أن مظاهر البِرّ تتمثّل بالإيمان بتلك الأمور الخمسة:

١ ـ **الإيمان بٱللَّه**: هو الخضوع والإذعان والعبادة له وحده والتصديق بالصفات الواجبة له سبحانه من الوحدانية والبقاء والقدرة والعلم والحكمة وغيرها من صفات الكمال التي اختص بها، وأنه وحده سبحانه هو المُدَبِّر لأمور الخلائق يرزقها بفضله، كما أنه هو القاهر فوق عباده **﴿إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾** [يس: ٨٢].

والإيمان الصحيح يستتبع صدور الأعمال الصالحة من المؤمن واتقاء الشرور، فلذلك نرى الكثير من الآيات في القُرآن التي ذَكَر ٱللَّه فيها **﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾** أضاف إليهم **﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحات﴾**.

والإيمان بٱللَّه ينير لنا ظلمات الحياة، ففي ساعة اليأس يتذكَّر المؤمن أن هناك مَلاذاً يلجأ إليه وأن ربَّه قادرٌ على معونته، فليس هناك ما يدعوه إلى اليأس والجزع فتطمئن نفسه وتصغر أمامها المصاعب والأهوال، وقد جاء في القرآن

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨].

٢ ـ الإيمان باليوم الآخر: وهو التصديق بالبعث وبما يقع بعده من حساب على الأعمال وثواب وعقاب، فالإيمان باليوم الآخر هو الإيمان بالعدالة الإلّهية، وأن الخير لا يعدم جزاءه ولو بدا أنه في الأرض لا يلقى الجزاء وأن الظالم لن يفلت من ظلمه لأن ٱللَّه أعدَّ له عذاباً أليماً، كما أن الإيمان باليوم الآخر يخفف على المؤمن مصائب الدنيا اعتقاداً منه بما أعدَّ ٱللَّهُ للصابرين من حُسْنِ الجزاء.

٣ ـ الإيمان بالملائكة: وهي أجسام نُورانِيّة قادرة على التشكل في صور مختلفة، لا يعصون ٱللَّه ما أمرهم ويفعلون ما يُؤمرون، وإنهم سفراء ٱللَّه إلى أنبيائه ورسله يبلغونهم وحي ٱللَّه وإن منهم الذي يقبض أرواح العباد عند استيفاء أجَلِها، وإن منهم من يُدَوِّنُونَ أعمال العباد الحسنة أو السيئة ليجازوا عليها يوم القيامة. كما أن لهم وظائف شتى وَكَّلَهُم ٱللَّهُ بها، وقد أمرنا ٱللَّه تعالى بالإيمان بهم وهو إيمان بالغيب الذي لا يُرى ولا يُحَسُّ، فحقٌّ علينا أن نُؤمن بوجودهم.

٤ ـ الإيمان بالكتاب: الكتاب: للجنس أي التصديق بجنس الكتب الإلّهيّة لأنها تحتوي على ما بلّغه ٱللَّه للرسل من الشرائع إلى أممهم، ولهذا يجب على المسلم أن يصدق بالقُرآن وبما سبقه من الكتب التي أنزلها على رسله، ومن هذه الكتب بالإضافة إلى القرآن المنزل على محمد ﷺ: التوراة المنزلة على موسى عليه السلام، والإنجيل المنزَّل على عيسى عليه السلام، والزَّبُور المنزَّل على داود عليه السلام، وصُحُف إبراهيم عليه السلام، والقُرآن ذكر أن أتباع الديانات السابقة نسوا حظاً مما ذُكِّروا به وطرأ على كتبهم التحريف والتبديل

بسبب طول الزمان عليها وضياع أُصولها، فجاء الإسلام مصححاً لما طرأ عليها من بِدَعٍ وتحريف وتبديل وبيان الحقيقة لما اختلفوا فيه من الدين.

٥ ـ الإيمان بالنبيين: وهو التصديق بأنهم رجال اصطفاهم ٱللَّه لتلقّي هدايته وكُتبه وتبليغها للناس بأمانةٍ وصدقٍ، والنبيون والرسل الذين يجب الإيمان بهم هم كل من ثبتت نُبُوّتهم عن طريق القرآن أو الحديث الصحيح المروي عن النبي محمد ﷺ وكل من أنكر نُبُوَّة نبيّ ثبتت نبوّته فقد كفر. والإيمان بالأنبياء يستتبع التخلق بأخلاقهم والاهتداء بهديهم، وقد ذكر ٱللَّه بعض الأنبياء في القُرآن وعقّب على ذلك بقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ﴾ [الأنعام: ٩٠].

الإحسان إلى الجماعة المحتاجة

ويتمثل ذلك بما ذكرته الآية: ﴿**وآتى المَالَ عَلى حُبِّهِ ذَوِي القُرْبَى واليَتَامَى والمَساكِينَ وابنَ السَّبِيلِ والسَّآئِلِينَ وَفِي الرِّقابِ**﴾.

ومعنى ﴿**وآتى المَالَ عَلى حُبِّهِ**﴾ أي وأعطى الإنسان المال وهو محب له حريص على جمعه للمحتاجين من عباد ٱللَّه وهم:

١ ـ ﴿**ذوي القربى**﴾: أي من البِرِّ أن يُعطي الإنسان المال المحبوب إليه إلى الفقراء من ذوي قرابته لأنهم أحق ببذل المال لهم، وقد قال رسول ٱللَّه ﷺ: «إنَّ الصدقة على المسكين صدقة، وعلى الرَّحِمِ[1] اثنتان: صَدَقَةٌ وَصِلَةٌ»[2].

---

(١) الرحم: هم ذوو القربى.

(٢) أخرجه النسائي والترمذي وابن ماجه.

٢ ـ ﴿واليتامى﴾: جمع يتيم وهو من فقد أباه قبل أن يبلغ سن البلوغ، واليتامى أحقّ بالإحسان بعد ذوي القرابة لعجزهم عن كسب ما يسدّ حاجاتهم، وإذا أُهمل اليتامى كانوا أعضاءً فاسدين في المجتمع فينشأوا وفي أنفسهم عُقد نفسية فيكون منهم اللصوص وقطّاع الطرق.

٣ ـ ﴿والمساكين﴾: جمع مسكين وهو من لا شيء له من المال أو له شيء لا يكفي حاجاته، فإعطاء المساكين ما يسدّ حاجاتهم هو من البر الذي رغّب ٱللَّه فيه.

٤ ـ ﴿وابن السبيل﴾: وهو المُسافر المنقطع عن ماله ولا يمكنه الاستقراض للرجوع إلى بلده فيعطى من المال ما يسدّ حاجته، وفي هذا تنبيه على أن المسلمين وإن اختلفت أوطانهم ينبغي أن يكونوا في التعاطف والتعاون كالأسرة الواحدة.

٥ ـ ﴿والسَّائِلِينَ﴾: جمع سائل وهو طالب الصدقة بدافع الحاجة، فمن البر التصدّق عليه إلاّ إذا تبين أنه غير محتاج فإنه لا يُعطى من المال لأنه يتخذ من التسوّل مهنة له.

٦ ـ ﴿وفي الرِّقَابِ﴾ أي تحرير الأرِقَّاء من العبودية وذلك بشرائهم ثم عتقهم أو بإعطائهم المال ليدفعوه إلى أسيادهم الذين كاتبوهم على قدر معلوم من المال يؤدونه لهم نظير عتقهم وتحريرهم من الرق، والإسلام أول دين في الأرض دعا إلى تحرير الرقيق.

وإعْطاءُ المالِ لمن تقدم ذكرهم من المحتاجين هو غير الزكاة، فالزكاة محدودة النوع والمقدار بينما في الآية يُعتبر بذل المال من باب الصدقات التي يُثاب عليها المؤمن، وهي غير محددة، يتراوح ثوابها حسب ما يبذله المتصدق عن طيب نفسه.

التهذيب النفسيّ والعمل بمكارم الأخلاق

ويتمثل ذلك بقوله تعالى: ﴿وَأَقَامَ الصَّلاةَ وآتى الزَّكاةَ وَالمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا والصَّابِرِينَ في البَأْسَاءِ والضَّرَّاءِ وَحِينَ البَأْسِ﴾ وإليكم ما في تلك الأمور من توجيهات طيبة:

١ ـ ﴿وَأَقَامَ الصَّلاةَ﴾ أي من أعمال البر أداء الصلاة بأركانها وشروطها، ففي الصلاة تَوَجُّهٌ إلى ٱللَّه سبحانه ومناجاته والثناء عليه، والاعتراف بأنه هو المعبود وحده، وهو المستعان، ومن شأن ذلك أن يغرس في قلب المؤمن مراقبة ٱللَّه والخشية من عصيانه فتصدر أعماله وفق أوامر ٱللَّه.

٢ ـ ﴿وآتى الزَّكَاةَ﴾ ومن أعمال البِرّ إعطاء الزكاة المفروضة لمستحقيها، والزكاة من معانيها في اللغة: الطهارة فهي طهارة لنفوس الأغنياء من البخل والأنانية والطمع، وطهارة لنفوس الفقراء من الحسد والبغض للأغنياء. والزكاة يجب إعطاؤها للمحتاجين عن كل ما يملكه الشخص ملكاً تامًّا من أموال عينيه وبضائع تجارية وزراعة ومواشٍ شرط أن تكون زائدة عن حوائجه الضرورية، وأن يملك نصاباً من المال، وأن تمضي سنة على ما يقتنيه. وقد بيّن ٱللَّه مصارفها بقوله: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡعَٰمِلِينَ عَلَيۡهَا وَٱلۡمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمۡ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَٱلۡغَٰرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٦٠]. هذه لمحة عن الزكاة التي تحتاج إلى شرح وتفصيل يُرجع إليها في الكتب المختصة في هذا الموضوع.

٣ ـ ﴿وَالمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا﴾ والوفاء بالعهد من أعمال البِرّ، وهو يشمل العهد مع ٱللَّه ومع الناس. فالعهد مع ٱللَّه هو ما أخذه ٱللَّه على عباده بالقيام بحدوده والعمل بطاعته؛ أما العهد مع الناس فيشمل ما يكون بينهم من عقود ومواثيق فيجب الوفاء بها وهي من أعمال البِرّ التي دعا إليها.

والالتزام بالمواعيد هو من الوفاء بالعهد وهو من أجَلّ الصفات التي يتحلّى بها الإنسان والتي بها ينتظم حسن العلاقات بين الناس.

٤ ـ ﴿وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ﴾ والصبر من أنواع البِرّ وهو مِلاك الأخلاق الإنسانية، وقد عددت الآية الأحوال الشديدة التي تحتاج إلى الصبر وهي: الصبر في البأساء، والبأساء: الفقر والشّدَّة، والضراء: ما ينال الجسم من مَرَضٍ عارضٍ أو مرض خطير أو فقد عضو من أعضائه، والصبر حين البأس: هو حين القتال وحين تدور رحى الحرب. هذه الأحوال هي أشد الأمور التي يحتاج فيها الإنسان إلى الصبر، وقد وعد القرآن الصابرين بالثواب الجزيل يوم القيامة حيث قال سبحانه: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠].

ثم ختم ٱللَّه آية البر التي جمعت صفات الكمال البشريّ وأفعال الخير بقوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ هنا تنويه بشأن الذين تحلّوا بهذه الصفات التي ذكرتها الآية حيث وصفهم ٱللَّه بالصدق، فهم الذين صدقوا في إيمانهم وحققوا أقوالهم بأفعالهم، كما وصفهم ٱللَّه بالتقوى، فهم الذين اتقوا عقاب ٱللَّه بتجنب معاصيه، واتقوا عقاب ٱللَّه بأداء فرائضه.

وهكذا نرى آية البِرّ على إيجازها صورت جميع مكارم الأخلاق وأرْفَع الخصال البشرية.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَىۖ ٱلۡحُرُّ بِٱلۡحُرِّ وَٱلۡعَبۡدُ بِٱلۡعَبۡدِ وَٱلۡأُنثَىٰ بِٱلۡأُنثَىٰۚ فَمَنۡ عُفِيَ لَهُۥ مِنۡ أَخِيهِ شَيۡءٞ فَٱتِّبَاعُۢ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيۡهِ بِإِحۡسَٰنٖۗ ذَٰلِكَ تَخۡفِيفٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَرَحۡمَةٞۗ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٞ ١٧٨ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ١٧٩﴾.

شرح المفردات

القِصاص: إنْزالُ العُقُوبة بالجاني بمثل جنايته.

فمن عُفِيَ له من أخيه شيء: أي إذا صفح وليّ القتيل عن القاتل تجب الدِّيَة.

فاتّباعٌ بالمعروف: أي فَلْتكن مُطالبَة وليّ القتيل بالدِّيَة بالمعروف بحيث لا تُرهق القاتل.

وأداءٌ إليه بإحْسان: وعلى القاتل أن يُؤدي الدِّيَةَ إلى أهل القتيل من غير مماطلةٍ ولا بخسٍ لحقهم.

عقوبة القاتل عن عَمْدٍ

لا تخلو المجتمعات الإنسانية من مُنحرفين ضالِّين يعتدون على النفس بالقتل عَمْداً، لذا كان من الحكمة الإلٓهية وجوب تأديبهم والاقتصاص منهم.

وقد كان للعرب قبل الإسلام عادات من بينها قتل القاتل ولكنهم كانوا يسرفون في ذلك ولا يتوخّون العَدْل فكانوا كثيراً ما يعاقبون البريء بدلاً من القاتل عن طريق قتلِ أحَدِ أقْرِبائه ثَـأْراً لقتيلهم، وكانوا يهملون دم الوضيع إذا قتله الشريف.

لذا جاء الإسلام بتشريعه العادل في عقوبة القتل عن عَمْدٍ، قال ٱللّٰه تعالى:

﴿يا أيها الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ القِصاصُ في القَتْلَى﴾ كُتِبَ عليكم: أي فُرِضَ عليكم، والقِصاص: العُقُوبة بالمِثْلِ من قَتْلٍ أو جَرْحٍ. والقتلى: جمع

قتيل، وإنما يُفْرَضُ القِصاصُ عند القتل الواقع على وجه العَمْد والعُدْوان وحيث يُطالب به أولياء القتيل ـ وقد صدرت الآية بخطاب ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ للحضّ على إنفاذ حكم القِصاص، لأن من شأن الإيمان الصادق أن يحمل المؤمنين على تنفيذ شريعة ٱللَّه التي فيها الخير لهم.

ثم فَصَّلَتِ الآيةُ حُكم القِصاص في القتلى فقال ٱللَّه تعالى: ﴿الحُرُّ بِالْحُرِّ﴾ أي الحُرُّ القاتل يُقتل في مقابل الحُرّ الذي قتله ﴿وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ﴾ والعبد يُقتل في مقابل العبد الذي قتله ﴿والأُنْثىٰ بالأُنْثىٰ﴾ والأنثى تُقتلُ في مقابل الأنثى.

هذا بيان لمعنى المساواة في القتل المشار إليه بلفظ القِصاص ومفاده أنْ يُقتلَ القاتل بالذي قتله دون ما سواه. كما أنَّ النص القرآني يُبطل ما كان جارياً عند العرب قبل الإسلام حيث إن القبيلة القويّة إذا قتلت منها القبيلة الضعيفة شخصاً لا ترضى إلاّ أن تقتل مقابله أشخاصاً من القبيلة الضعيفة.

ثم إن الآية ذكرت حكم القِصاص في النوع الواحد ولم تتعرض للحكم ما إذا اختلف القاتل والقتيل نوعاً، كما إذا قتل حُرٌّ عَبْداً، أو قتل رَجُلٌ امرأةً أو العكس، ولكن نرى في نَصِّ القُرآن الدعوة إلى التساوي في النفوس أي النفس بالنفس كما قال ٱللَّه تعالى في شأن القِصاص الذي فرضه على بني إسرائيل ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ﴾ [المائدة: ٤٥].

ومن القواعد الجارية عند المسلمين أن شرع ما قبلهم يجب العمل به إذا لم يرد في شرعهم ما يَنْسَخه، ولهذا جرى العمل منذ زمن رسول ٱللَّه ﷺ إلى ما بعده على قتل الرجل بالمرأة والمرأة بالرجل.

وهنا يأتي سؤال: أيُقْتَلُ المسلم بالكافر إذا قَتَلَهُ؟ قال جمهور من العلماء:

إنه لا يقتل مسلم بكافر لقول النبي ﷺ: «لا يُقْتَلُ مُسْلِمٌ بِكافِرٍ»[1] أما الإمام أبو حنيفة وأصحابه فيرون أن المسلم يُقتل إذا قَتَلَ ذمّيًا وهما متساويان في الحرمة التي تستوجب القِصاص لأن كلاهما صار من أهل دار الإسلام، والذي يحقق ذلك أن المسلم تقطع يده بسرقة مال الذمّي، وهذا يدل على أن مال الذمّيّ مساوٍ لمال المسلم وحُرمة دم الذّميّ أعظم من حرمة ماله.

والإسلام لم يحتّم إنزال العقوبة بالقاتل عن عَمْد بل ترك الأمر لوليّ القتيل الذي جعل له الحق بأن يطلب من الحاكم الاقتصاص منه بأن يُقتل أو العفو عنه مع أخذ الدِّيَة، قال ٱللَّه تعالى: ﴿فَمَنْ عُفِيَ له من أَخِيهِ شَيْءٌ﴾ عُفِيَ: من العفو وهو إسقاط العقوبة عنه والذي عُفِيَ له هو القاتل. و ﴿أخيه﴾ الذي عفا هو وليّ المقتول. والمراد بلفظ ﴿شيء﴾ القِصاص. ومعنى هذه الجملة التي صيغت عن طريق الإيجاز: أنّ وَلِيّ المقتول إذا أسْقَط القِصاص عن القاتل يكون من شأنه طلب الدِّيَة على هذا الوجه ﴿فَاتِّبَاعٌ بِالمَعْرُوفِ﴾ وَصِيَّةٌ من ٱللَّه لِوَليّ المقتول بأن يتبع عفوه بالمعروف فلا يثقل عليه بالدِّيَة التي لا يستطيع أداءَها ولا يحرجه في الطلب ﴿وأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ﴾ وصية للقاتل بأن يؤدي الدِّية بإحسان فلا يماطل في دفعها ولا يبخس فيها ﴿ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ﴾ فهو امتنان من ٱللَّه سبحانه على عباده بما في هذا التشريع الذي تضمّن فتح باب العفو والاكتفاء بالدية فإنها تخفيف على القاتل وتعود بالنفع لأولياء القتيل ﴿فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ هنا تحذير لمن يرجع بعاطفة الغضب إلى قصد الانتقام فيقتل الجاني الذي سبق أن عفا عنه مقابل الدِّيَة، فهذا المعتدي له عذاب في الدنيا بالاقتصاص منه وعذاب بالآخرة بما أعد ٱللَّهُ له من عقاب.

---

(١) أخرجه البخاري.

ويُلاحِظُ أنَّ الإسلام، في القِصاص للقتلى، جعل الحق لأولياء المقتول وهم ورثته، ولا فرق بين ذَكَرٍ وأُنثى، فهؤلاء الوَرَثَة لهم أن يطلبوا من الحاكم تنفيذ حكم الشرع بقتل الجاني شفاءً لغيظ نفوسهم، لأنه إذا لم يُجِبْهُم القاضي إلى طلبهم ولم يَقْتَصَّ لهم من القاتل أدّى ذلك إلى الأخذ بالثأر وتسلسل جرائم القتل كما أن لأولياء القتيل العفو عن الجاني، ولكن هناك عقوبة تعزيريّة بدلاً من القِصاص وهي تكون بالقدر الذي يراه القاضي صالحاً لتأديب الجاني ودفع ضرره: مِنْ حَبْسٍ أو نَفْيٍ أو قَتْلٍ إذا كان يُهَدِّد السلامة العامة.

وهناك أحكام أخرى للقتل عن عَمْدٍ نذكر بعضها فيما يلي:

ـ يُقتصّ من الجماعة بقتل الواحد، فإن رأى أولياء القتيل ـ أي وَرَثَته ـ قتل الجناة قُتِلوا جميعاً، ولهم الحق أن يعفوا عن بعض الجناة والاقتصاص من الآخرين.

ـ الوَالِدُ لا يُقْتَلُ بِقَتْلِهِ ولده، فالأب هو سبب وجود الابن فلا يكون الولد سبباً لإفنائه.

ـ القتل الخطأ لا قِصاص فيه وعقوبته تحرير رقبة مؤمنة من الرق ودية مسلمة إلى أهله إلا أن يتصدقوا بتنازلهم عنها.

ـ إذا عفا بعض أولياء القتيل عن الجاني وخالف البعض الآخر سقط القصاص عن الجاني وعاد الأمر إلى الدِّيَة.

ثم يتبع ٱللَّهُ آيةَ القِصاص بقوله: **﴿وَلَكُمْ في القِصاصِ حَيَاةٌ يا أُولِي الأَلْبابِ﴾** هذه الآية ترتقي إلى أعظم مراتب البلاغة، فإنها على إيجازها تشتمل على المعاني الآتية:

١ ـ سُمِّيت العقوبة قِصاصاً لأنَّ القِصاص يتضمن المساواة بين الجريمة والعقوبة وفي هذا منتهى العدالة.

٢ ـ أعلنت الآية أن القِصاص فيه حياة الجماعة: ﴿ولكم في القِصاصِ حَياةٌ﴾ لأن من يعلم أنه سَيُقْتَصُّ منه إذا قَتَلَ، يمتنع عن القتل فيتسبب بذلك في حياة نفسه وحياة من يُريد قتله، كما أن سافكَ الدِّماء إذا اقتُصَّ منه ارتدع من كان يهمّ بالقتل فلم يقتل، فكان القِصاص سبباً للحياة. وإذا لم يكن هناك قِصاصٌ أُهْدِرَتِ الدِّماءُ وأصبح الأمر لذي الغَلَبَة والقُوَّة وسرى في المجتمع الأخذ بالثأر.

٣ ـ أشارت الآية إلى أن غاية القِصاص وحكمته تدركها العقول السليمة وهذا ما ذكرته الآية ﴿يا أُولِي الأَلْبَاب﴾ الألباب: جمع لب وهو العقل الخالص من شوائب الأوهام.

٤ ـ ختمت الآية بقوله تعالى ﴿لَعَلَّكُم تَتَّقُونَ﴾ أي فرضنا عليكم القِصاص للقاتل لتتقوا الجريمة خوفاً من العقوبة.

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٨٠﴾ فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ بَعْدَمَا سَمِعَهُۥ فَإِنَّمَآ إِثْمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٨١﴾ فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨٢﴾﴾.

شرح المفردات

حَضَرَ أَحَدَكُم الموتُ: ظهرت أماراته من العلل والأمراض الخطيرة.
تَرَكَ خيراً: ترك مالاً.

الوصية: هي ما يُوصي به إنسانٌ من مالٍ أو غيره ليُصْرَفَ بعد موته لشخص أو جهة معيّنة.
فمن بَدَّلَهُ: فمن غَيَّر الوَصِيَّة بالزيادة أو النقصان أو أنكرها.
إثْمُهُ: الإثم ارتكاب الذنب.
جَنَفاً: الجَنَفُ هو الجوْر والميل عن الحقّ.

الوَصِيَّة بالعَدْل

ويُتابع القرآن فيدعو إلى الوصية للوالدين والأقربين وأن تكون الوصية بالحق والعدل ليعمّ نفعها ويحصل الخير منها، قال ٱللَّه تعالى:

﴿كُتِبَ عَلَيْكُم إذا حَضَرَ أحَدَكُمُ المَوْتُ﴾ كُتِبَ عليكم: بمعنى وجب عليكم، وحضور الموت حدوث أسبابه وظهور علامات على أن الموت صار قريباً بسبب العلل والهرم البالغ والأمراض الخطيرة ﴿إنْ تَرَكَ خَيْراً﴾ والخير: المال، ومقام الأمر بالوصية فيه يُشعر بأنّ المراد بالخير: المال الكثير، وجمهور العلماء يرى أن الوصية مشروعة في المال قليله أو كثيره ﴿الوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ والأقْرَبِينَ﴾ أي وجب عليه أن يُوصي بجانبٍ منه لوالديه: أبيه وأمه وأقاربه ﴿بالمَعْرُوفِ﴾ أي إنّ الوصية يجب أن تكون بالعَدْل الذي هو متعارف بين الناس وأن لا تتجاوز ثلث المال، وأن لا تكون الوصية للأغنياء ويحرم منها الفقراء ﴿حَقًّا على المُتَّقِينَ﴾ وهذه الوصية هي واجبة ثابتة ينفّذها المتّقون لله.

وقد كانت الوصية في بدء الإسلام فريضة للوالدين والأقربين على من له مال، وسبب ذلك أن العرب قبل الإسلام كانوا يوصون للأبعدين طلباً للفخر والجاه ويتركون الأقربين فقراء فأوجب ٱللَّه تعالى الوصية للأقربين وفي طليعتهم الوالدين، وجمهور المفسرين والفقهاء يرون أن هذه الآية منسوخة بآيات الميراث في سورة النساء التي خصت الوالدين والأقارب ممن يرثون بنصيب من

ميراث المتوفى ودليلهم في ذلك: أن النبي ﷺ خطبهم قائلاً: «إنَّ ٱللَّه قد قسم لكل إنسانٍ نصيبه من الميراث فلا تجوز لوارث وَصِيَّة»[1].

والقائلون بنسخ وجوب الوصية للوارث قالوا: إن النسخ مقتصر على الذين يرثون ولكنها مستحبة فيمن لا يرثون كأن يكون الوالدان كافرين أو يكون الأقارب ممن لا يرثون[2].

كما ذهب جمهور العلماء إلى أن الوصية يكون حدّها الأعلى: الثُّلُث من مال المتوفى، فإذا زادت عن الثلث بَطُلَ ما زاد عن الثلث. وفي الصحيحين «أن سعد بن أبي وقاص قال: يا رسول ٱللَّه إن لي مالاً ولا يرثني إلاّ ابنة لي أَفَأُوصي بِثُلُثَي مالي؟ قال: لا، قال: فبالشطر[3]؟ قال: لا، قال: فالثُّلُثُ؟ قال: الثلث، والثلث كثير، إنك إنْ تَذَر ورثتك أغنياء خير من أن تدعهم عالة يتكففون الناس».

---

(١) أخرجه الإمام أحمد وابن ماجه.

(٢) وبعض فقهاء السَّلَف قالوا بوجوب الوصية للوالدين أو الأقارب الذين لا يرثون، وهذه الوصية الواجبة أصبحت علماً يقصد بها إعطاء الحفيد المحجوب بالميراث حصة من مال جَدِّه لا على سبيل الإرث وإنما على سبيل الوصية الواجبة، فلو كان للأب ابنان توفي أحدهما في حياته وله أولاد ثم توفي الأب فإن ميراثه كله للابن الحي ولا شيء لأولاد الابن المتوفى لأنهم محجوبون بالابن الذي هو أقرب درجة.

ولكن الذين شرعوا الوصية الواجبة خصصوا لهذا الحفيد حصة من مال جَدّه لا على سبيل الإرث وإنما على سبيل الوصية الواجبة، ولهذا أخذ بالوصية الواجبة القانون الصادر في مصر سنة ١٩٤٦ والقانون الصادر في سوريا سنة ١٩٥٣، وقال المشرّعون: إنه يفرض لهذا الحفيد المحجوب بالميراث حصة من مال جَدّه بمثل حصة أبيه الإرثيّة لو كان حيًّا شرط أن لا تزيد عن الثلث الباقي من التركة سواء كان هذا الفرع واحداً أو متعدداً وسواء أوْصى الميت أو لم يوصِ، أو أجاز الوَرَثَة أو لم يجيزوا. نقلاً باختصار عن كتاب «الميراث على المذاهب الأربعة» للعلامة القاضي الشيخ حسين غزال.

(٣) الشطر: النصف.

﴿فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَمَا سَمِعَهُ﴾ فمن غَيَّرَ الوصية الواقعة بالعدل بالزيادة في الموصى له أو النقص من حصته من بعد ما سمعها وتحقق منها من الوصيّ ﴿فَإِنَّما إِثْمُهُ عَلى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ﴾ أي إنما الذنب يقع على الذين يُبَدّلون الوصية، ومن يُتوقع منهم تبديل الوصية هم الأوصياء المكلفون بتنفيذ الوصية وكذلك الشهود ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ إن ٱللَّه سميع لما أوصى به الموصي، عليمٌ بما يقع فيها من تبديل وتغيير.

﴿فَمَنْ خَافَ مِن مُوصٍ جَنَفاً أَوْ إِثْماً﴾ الخوف: المُراد به هنا العلم عن طريق المجاز، والفَرْق بين الجنف والإثم: أن الجنف هو الميل على جهة الخطأ من حيث لا يدري أنه يجور[1]، والإثم هو الذنب الذي يفعله الإنسان عن قصد. والمعنى: أي من علم في وصية الموصي ميلاً عن الحق خطأ أو إثماً مقصوداً بأن حرم من وصيته من يستحق من أقربائه أو قدّم عليه من هو أبْعَد نَسَباً أو أوصى إلى غنيّ من أقربائه وترك فقراءهم، أو أوصى لبني ابنه ليكون المال لأبيهم ﴿فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلاَ إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ أي من علم ذلك فسعى في إصلاح الوصية وطلب من الموصي تبديل وصيّته، أو سعى إلى إصلاح الوصية بعد وفاة الموصي بتبديل ما هو جائر إلى ما هو حق فأصلح ما وقع بين الورثة من خلاف فلا إثم عليه، بل يكون له ثواب الإصلاح ﴿إِنَّ ٱللَّه غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي إنه سبحانه واسع المغفرة والرحمة لمن قصد الإصلاح في الوصية.

وكان قتادة وهو من أئمة المفسرين يقول: من أوصى بجوْر أو حيف[2] في وصيته فردَّها وليّ المتوفى أو إمام من أئمة المسلمين إلى كتاب ٱللَّه وإلى العدل، فذاك له (أي جائز ومطلوب).

---

(١) الجوْر: الظلم.

(٢) الحيف: الظلم.

ويقول ابن عباس: إذا اخطأ الميت في وصيّته أو حاف[١] فيها، فليس على الأولياء حرج أن يَرُدُّوا خطأه إلى الصواب.

هذا وقد حذَّر الرسول محمد ﷺ من الإضرار في الوصية فقال: «إن الرجل ليعمل والمرأة بطاعة اللَّه ستين سنة ثم يحضُرُهما الموت فَيُضارَّان في الوَصِيَّةِ فتجب لهما النار»[٢].

وهنا تظهر عظمة التشريع الإسلامي بتوجيهه أولي الأمر أن يعملوا على جعل الوصية في حدود العدْل والحق، ليس فيها جنوح إلى الظلم فَتَمْنَحُ أشخاصاً غير مستحقّين وتَحْرُمُ آخرين أحقّ منهم بالوصية، بالإضافة إلى ذلك بأن تكون الوصية في حدود الثلث من المورث لغير الورثة حتى لا يُحرم الورثة من نصيبهم الذي بيَّنه القرآن.

ويزداد إعجابنا بعظمة التشريع الإسلامي عندما نقرأ أن بعض الأشخاص في الدول الغربية يوصون بأموالهم كلها للكلاب والقطط ويحرمون الورثة مما يستحقون من مال، أو يخصّون فرداً بعيداً عن العائلة بأموالهم كلها، والغريب أنّ مثل هذه الوصية تنفّذ على هذا الوجه الموصى به حسب قوانينهم المدنيّة.



(١) حاف: ظلم وجار.

(٢) أخرجه الترمذي وأبو داود.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ أَيَّامٗا مَّعۡدُودَٰتٖۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَۚ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدۡيَةٞ طَعَامُ مِسۡكِينٖۖ فَمَن تَطَوَّعَ خَيۡرٗا فَهُوَ خَيۡرٞ لَّهُۥۚ وَأَن تَصُومُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿١٨٤﴾ شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡفُرۡقَانِۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهۡرَ فَلۡيَصُمۡهُۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلۡعُسۡرَ وَلِتُكۡمِلُواْ ٱلۡعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمۡ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴿١٨٥﴾﴾.

شرح المفردات

كما كُتِبَ على الذين من قبلكم: كما فُرِضَ على الأُمم التي سبقتكم.

لعلّكم تتقون: لتتقوا المعاصي بصيامكم.

فَعِدّةٌ من أيام أُخَر: أي تصوموا الأيام التي أفطرتموها.

يُطيقونه: يحتملونه بمشقة كبيرة كما في كبير السن.

فمن تطوّع خيراً: فمن زاد على القدر المذكور في الفدية.

هُدًى للنّاس: هادياً ومرشداً من الضلالة.

بَيّنات: آيات واضحات.

الفُرقان: الفارق بين الحق والباطل.

فمن شَهِد: حضر أو علم به.

ولتُكْمِلُوا العِدّة: ولتكملوا عدد أيام شهر رمضان صياماً أداءً وقضاءً.

فريضةُ الصيام وأحكامها

ثم ينتقل القرآن إلى الكلام عن الصوم وأحكامه الذي فرضه ٱللَّه على المؤمنين قال ٱللَّه تعالى:

﴿يآأيُّها الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيامُ كما كُتِبَ عَلى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ يُخاطب ٱللَّه المؤمنين من أُمَّة محمدٍ بأنه قد فرض عليهم الصيام كما كان مفروضاً في الأمم السابقة، وإن اختلف الصيام بين أُمّة وأُمّة في الكيفية والمدة.

والصيام شرعاً في الإسلام: الإمساك عن الطعام والشراب والامتناع عن المباشرة الزوجية من طلوع الفجر إلى غروب الشمس طيلة شهر رمضان مع النية امتثالاً لأمر ٱللَّه.

وقد شرع ٱللَّه الصيام في الإسلام لما فيه من الخير والفضائل للإنسان والمجتمع، كما بيّن رسول ٱللَّه محمد ﷺ بأن الصيام من أركان الإسلام الخمسة حيث قال: «بُنِيَ الإسلام على خمس: شهادة أن لا إلّه إلاّ ٱللَّه، وأن محمداً رسول ٱللَّه، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت[1] من استطاع إليه سبيلاً»[2].

ثم بيّن ٱللَّه الغاية من الصوم بقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ لعلّ: بمعنى الإعداد والتهيئة، أي إن الصوم يهيئ النفوس ويُعدّها للتقوى، والتقوى هي وقاية النفس من كل ما يعرّضها لغضب ٱللَّه وعذابه، ويكون ذلك بالامتثال لأوامر ٱللَّه واجتناب نواهيه.

وإعداد الصيام نفوسَ الصائمين لتقوى ٱللَّه يظهر من وجوه كثيرة أهمها

---

(١) البيت: هو بيت الله الحرام.

(٢) متفق عليه.

وأعظمها شأناً: أن أمر الصيام موكول إلى نفس الصائم لا رقيب عليه إلاّ ٱللَّه، فإذا ترك الصائم شهواته من الطعام وغيره التي تُعرض له أثناء الصوم امتثالاً لأمر ٱللَّه شعوراً منه بأن ٱللَّه تعالى يعلم أحواله فلا جرَم أنه يحصل له من تكرار هذه الملاحظة طيلة شهر رمضان ملَكة مراقبة ٱللَّه تعالى وخشيته والحياء منه بأن يراه حيث نهاه، هذه المراقبة أيضاً تؤهّله لكل أعمال الخير وتبعده عن الشر، ولهذا يقول رسول ٱللَّه محمد ﷺ: «إنما الصوم جُنَّة (أي وقاية) فإذا كان أحدكم صائماً فلا يَرْفُث[1] ولا يَجْهَل[2]، وإن امرؤ قاتله أو شاتَمه فليقل: إني صائِمٌ، إني صائِمٌ»[3].

والصيام يربّي في الصائم الوازعَ الإنساني الداخلي الذي يحفزه نحو الخير والعطف على المساكين، فإنّ الصائم إذا ذاق أَلَمَ الجوع في شهر رمضان ذكر ما يُقاسيه المساكين من آلام الجوع في سائر الأيام فيتسارع إليه شعور الرحمة بهم والعطف عليهم.

كما أن الصوم يقوّي الإرادة، فالذي يصبر على آلام الجوع والعطش ويكبح نفسه عن الشهوات الجنسية وقت الصيام احتساباً لأمر ٱللَّه لا شك أنه يحصل له من جرّاء ذلك قوة في الإرادة تجعله مالكاً لزمام نفسه وليس أسيراً ومستعبَداً لأهوائه ورغباته الضارّة.

وأخيراً نقول: إن في الصيام شفاءً لكثير من العِلَل والأمراض الناشئة عن الإسراف في الطعام وهذه حقيقة اعترف بها الأطباء.

---

(١) فلا يرفث: المراد بالرفث هنا الكلام الفاحش.

(٢) ولا يجهل: ولا يفعل شيئاً من أفعال أهل الجهل والسفه في المخاصمة.

(٣) أخرجه البخاري.

وبعد هذه المقدمة نتابع ما ذكره ٱللَّه عن الصوم بقوله:

﴿أيّاماً مَعْدُوداتٍ﴾ والمُراد بهذه الأيام المعدودات التي يجب فيها الصوم شهر رمضان. والتعبير عن شهر رمضان بأنه أيام معدودات لتقليل مدّته وتيسيره على الصائمين، وكأنّ ٱللَّه سبحانه يقول: فرضناه شهراً تُعَدُّ أيامه ولم نفرضه أكثر من ذلك رحمةً بكم.

﴿فَمَنْ كَانَ مِنكُم مَرِيضاً أَوْ عَلى سَفَرٍ﴾ أي من كان من المسلمين في مرض أو سفر فقد أباح ٱللَّه له أن يمتنع عن الصيام ويفطر مدة المرض أو السفر، والمرض المبيح للإفطار هو الذي يُحدث أَلَماً وضَرَراً للصائم أو يزيد المرض شدةً أو يطيل مدّته؛ والذي يقرر الضرر من صيام المريض الطبيب المسلم المختص. كما يُباح للمسافر[1] الإفطار في شهر رمضان. ثم يقول ٱللَّه سبحانه ﴿فَعِدَّةٌ مِنْ أيّامٍ أُخَرَ﴾ العدة: العدد من الأيام، أي فعلى المسافر والمريض قضاء الأيام التي أفطرا فيها، وهذه الأيام التي يُقضى بها تبتدئ من وقت القدرة على الصوم كما ذهب الإمام أحمد، وأوجب الشافعي أن تكون في السنة التي يكون فيها رمضان.

﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾ والطاقة: اسم للقدرة على عمل الشيء مع الشدّة والمشقة، ولا تقول العرب: أطاق الشيء، إلاّ إذا كانت قدرته عليه في غاية الضعف بحيث يتحمل به مشقة شديدة.

---

(١) يُباح الفطر للمسافر بشرط أن يكون السفر مسافة تبيح قصر الصلاة وهي مسافة سفر يوم وليلة بسير الإبل، هكذا كان في زمن نزول القرآن، وقدّر العلماء المسافة بثمانين كيلومتراً ومايتان. وفي عصرنا الحاضر تُقطع هذه المسافة في فترة قليلة من الوقت بواسطة السيارات والطائرات، وعلى هذا، فالمسافر الذي لا يقاسي مشقة شديدة في سفره، فالأفضل له أن يصوم، كما قال مالك والشافعي في بعض ما رُوي عنهما: الصوم أفضل لمن قوِيَ عليه.

وإن الآية نزلت في الشيخ الكبير الهرم والمرأة الكبيرة الهرمة اللذين لا يستطيعان الصوم، فعليهما إطعام مسكين عن كل يوم أفطرا فيه ولا قضاء عليهما، أما المرضع والحامل فلهما أن تُفطرا وتقضيا الأيام التي أفطرتا فيها في شهر رمضان بعد نهاية الحمل أو الانتهاء من الرّضاعة ولكن ليس عليهما فِدْيَة[1].

﴿فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْراً فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ﴾ أي فمن تطوع خيراً بأن زاد على القدر المفروض في الفدية أو أطعم أكثر من مسكين فتطوُّعه سيكون خيراً له وأجره عند ٱللَّه ﴿وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ وأن تصوموا خير لكم من الفطر إن كنتم تعلمون ما في الصوم من فضيلة وخير وفائدة.

﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ القُرآنُ﴾ أي إن ٱللَّه شرّف شهر رمضان بإنزال القرآن فيه وكان ذلك في ليلة القدر، قال ٱللَّه تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾ [القدر: ١] أي ابْتَدأ إنْزال القُرآن في تلك الليلة ـ وهناك معنى آخر كما رُوي عن ابن عباس والحسن رضي ٱللَّه عنهما أن القرآن أُنزل في تلك الليلة إلى سماء الدنيا جملةً، ثم أُنْزِل مُفَرَّقاً في ثلاث وعشرين سنة حسب الوقائع والأحداث ﴿هُدًى لِلنَّاسِ﴾ أي إن القرآن أُنزِلَ لهداية الناس من الضلال ﴿وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الهُدَى والفُرْقَانِ﴾ وهو يشتمل على آيات واضحات ترشد إلى الحق وتبيّن الحلال والحرام وتفرّق بين الحق والباطل.

﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ فمن شهد: أي حضر أو علم، والمعنى: فمن حضر منكم دخول الشهر أو حلوله بأن كان مقيماً وليس عنده

---

(١) هذا ما ذهب إليه أبو حنيفة وأصحابه، وقال الشافعي وأحمد: يفطران ويطعمان عن كل يوم مسكيناً ويقضيان الأيام التي أفطرا فيها.

عذر يمنعه من الصوم، أو علم منكم بحلول شهر رمضان ـ والمراد بالشهر في الآية: الهلال، فقد كانت العرب تعبّر عن الهلال بالشهر، فعلى كل من رأى هلال رمضان وثبتت عنده رؤية غيره له عليه أن يبدأ صومه، ويثبت شهر رمضان بأحد أمرين:

الأول: أن يُرى الهلال فِعْلِيًّا إذا كانت السماء صافية.

الثاني: إذا كانت السماء غائمة ويمتنع معها رؤية الهلال فيجب إكمال شهر شعبان ثلاثين يوماً لقول النبي ﷺ: «صُومُوا لرؤيته وأفْطِروا لرؤيته، فَإنْ غُمَّ[١] عليكم، فأكملوا عِدّة شعبان ثلاثين»[٢].

﴿وَمَنْ كان مَرِيضاً أَوْ على سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أيَّامٍ أُخَرَ﴾ تكرّرت هذه الجملة في الدعوة إلى الصوم وذلك لأهميّة تلك الرخصة التي شرعها ٱللَّه للتخفيف من مشقة الصيام على المريض والمسافر، والحكمة من هذه الرخصة بيَّنها ٱللَّه بقوله: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ اليُسْرَ﴾ أي يُريد ٱللَّه لكم ما فيه السهولة واليسر للتخفيف عنكم من عناء الصوم حيث أباح الفطر لكم عند السفر أو المرض ﴿وَلا يُرِيدُ بِكُمُ العُسْرَ﴾ ولا يريد ٱللَّه أن يرهقكم بالصوم عند المرض والسفر لرأفته وسعة رحمته بكم ﴿وَلِتُكْمِلُوا العِدَّةَ﴾ ولتكملوا صيام عدد أيام شهر رمضان فلا تنقصوا من عدده يوماً أو أكثر فإن صيامه كله مفروض عليكم ﴿وَلِتُكَبِّرُوا ٱللَّهَ على ما هَدَاكُمْ﴾ والمراد بهذا التكبير هو تعظيم ٱللَّه على ما هداكم إليه من صيام هذا الشهر المبارك بأن تقولوا: (ٱللَّه أكبر) وهي جملة تدلّ على أن ٱللَّه أعظم من كل عظيم، وإثبات العظمة له وحده يستلزم نقصان مَن

---

(١) غُمّ: خفي.

(٢) متفق عليه.

عداه الذي لا يستحقّ الألوهية، لذلك كان من السنّة النبوية أن يُكَبِّر المسلمون عند الخروج إلى صلاة عيد الفطر، ويُكَبّر الإمام في صلاة العيد ويكبّر المسلمون معه كما يكبّر الإمام في خطبة العيد، وينقطع التكبير عند انقضاء صلاة العيد ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ ولتشكروا ٱللَّه على ما أنعم عليه من الهِداية والتوفيق لصيام هذا الشهر المبارك الذي فيه النفع لكم في الدنيا والثواب في الآخرة.

فضيلة الصيام: يقول الرسول محمد ﷺ: «إن في الجنَّة باباً يُقالُ له الرَّيّان يدخل منه الصائمون يوم القيامة لا يدخل منه أحد غيرهم، يُقالُ: أين الصائمون؟ فيقومون لا يدخل منه أحَدٌ غيرُهم، فإذا دخلوا أُغلِقَ فلم يدخل منه أحَدٌ»(١).

ويقول الرسول محمد ﷺ أيضاً: «مَنْ قام لَيْلَةَ القَدْرِ إيماناً واحْتِساباً غُفِرَ له ما تقدّم من ذنبه، ومن صام رمضان إيماناً واحتساباً غُفِرَ له ما تقدّم من ذنبه»(٢).



(١) أخرجه البخاري.

(٢) أخرجه البخاري.

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾ أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٨٧﴾﴾.

شرح المفردات

يَرْشُدون: يهتدون إلى مصالح دنياهم وآخرتهم.

الرَّفَثُ إلى نسائكم: المراد به المباشرة الزوجية.

تختانون أنفسكم: تخونون أنفسكم.

باشِروهن: المراد بالمباشرة الجِماع.

وابتغوا ما كَتَبَ ٱللَّه لكم: واطلبوا ما أحل ٱللَّه لكم منهن.

عاكِفون في المساجد: الاعتكاف ملازمة المسجد والمكوث فيه للعبادة.

تلك حُدودُ ٱللَّه فلا تقربوها: تلك ما حرَّمَهُ ٱللَّه ونهى عنه فلا تقربوا ما نهى عنه.

الدُّعاء من العبادة

ويُتابع القرآن الكلام عن الصيام وما يشتمل عليه من بعض الأحكام مستهلاً ذلك بالحضّ على الدُّعاء لأن الدعاء مستجاب من ٱللَّه، قال ٱللَّه تعالى:

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ ورد في أسباب نزول هذه الآية: أنَّ أعرابيًا قال: يا رسول ٱللَّه أقريبٌ ربنا فنناجيه أم بعيد فنناديه؟ فسكت النبي ﷺ، فأنزل ٱللَّه عزّ وجلّ قوله: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ . .﴾[1] الآية.

وفي قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي﴾ والمراد بالعباد هنا المؤمنون الذين يشعرون بحق العبودية لله ويرتضونها طيّبة نفوسهم بها، ومعنى ﴿فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾ والمراد بالقرب: الإحاطة والعلم لا القرب المكاني لأنه محال على ٱللَّه إذ يقتضي أنه جسم وٱللَّه سبحانه يتنزه عن ذلك، ولذا جاء في القرآن ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد: ٤] أي يعلم في أي مكان كنتم، وٱللَّه سبحانه قريب من عباده قرب إجابة ورضا ورحمة.

وتأمل كيف أن الجواب على سؤال الأعرابي لم يأتِ بلفظ (قُلْ) أي قل لهم يا محمد كما وقع في الجواب على أسئلتهم الواردة في آياتٍ أُخرى بل تولى ٱللَّه الجواب بنفسه إشعاراً بشدة قربه من عباده.

﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ أي إن ٱللَّه يُجيب دعوة الذي يدعوه إذا صدر هذا الدعاء عن إيمانٍ وخشوعٍ وعن طيب مأكل، وبما أنَّ هذه الآية وردت بين آيات الصيام فإنها تُشعر بأن استجابة الدعاء مرجوّة في شهر رمضان أكثر من أيام غيره وبذا يكون استحباب الدعاء عند انتهاء كل يوم من رمضان، وقد رُوِيَ أن النبي ﷺ قال: «الصّائِمُ لا تُرَدُّ دَعْوَتُه»[2] كما رُوي أيضاً عن النبي ﷺ قوله: «ثلاثة لا تُرَدُّ دَعْوَتُهم: الإمام العادل، والصائم حتى يفطر، ودعوة

(١) رواه الطبري في التفسير.

(٢) أخرجه الترمذي.

المظلوم»[١] هذا مع العلم أن استجابة الدعاء تابعة لمشيئة ٱللَّه كما جاء في القرآن: ﴿فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ﴾ [الأنعام: ٤١].

وجاء في القرآن أيضاً في الدعوة إلى الدعاء: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠].

ففي هذه الآية وصف ٱللَّه الدعاء بأنه عبادة يستحق من يستكبر عنها غضب ٱللَّه، ورُوي عن النبي ﷺ قوله: «الدُّعاءُ مُخُّ العِبادَةِ»[٢].

﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي﴾ أي فليجيبوني فيما أدعوهم إليه من طاعتي ﴿وَلْيُؤْمِنُوا بِي﴾ وليصدّقوا أني أجزل لهم الثواب والكرامة في الآخرة ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ ليهتدوا إلى ما فيه رشدهم وصلاح أمرهم الذي هو وسيلة لسعادتهم في الدنيا والآخرة.

﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيلَةَ الصِّيامِ الرَّفَثُ إلى نِسائِكُمْ﴾ الرفث: كناية عن الجِماع. أي أحلَّ ٱللَّهُ لكم ـ أيها المؤمنون ـ مُباشرةَ نسائكم في أي وقت من ليالي شهر رمضان. وقد رُوِي في أسباب نزول الآية: أنه كان المسلمون في شهر رمضان إذا صلوا العشاء أو ناموا قبلها حَرُمَ عليهم النساء والطعام إلى الليلة التالية، وكان ذلك في بدء الإسلام، ثم إن أُناساً من المسلمين باشروا نساءَهم بعد أن ناموا فشكوا ذلك إلى رسول ٱللَّه، فأنزل ٱللَّه تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيلَةَ الصِّيامِ..﴾ الآية، ويشمل ذلك أيضاً الأكل والشرب إلى الفجر تيسيراً على المسلمين.

﴿هُنَّ لِباسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِباسٌ لَهُنَّ﴾ هذا الشطر من الآية شَبَّهَ كُلاًّ من

---

(١) أخرجه الترمذي والنسائي وابن ماجه.

(٢) أخرجه الترمذي.

الزوجين باللباس لأن كلاً منهما يستر الآخر فحاجة كل منهما إلى صاحبه كحاجته إلى الملبس، فإذا كان الملبس لستر عورات الجسم ولحفظه من أذى البرد وللتجمل والزينة فإن كلاً من الزوجين يحفظ شَرَفَ صاحبه ويصون عرضه ويوفر له راحته وصحته. هذا وإن هذا التعبير يُوحي بشدّة القرب بين الزوجين، فهما كالثوب الملاصق للإنسان، مما يوحي بسكون كل منهما إلى الآخر وهذا ما ذكره القرآن بقوله: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الروم: ٢١].

﴿عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ﴾ تختانون: من الخيانة، وقد عبَّر ٱللَّه بهذا اللفظ عما وقعوا فيه من المعصية وذلك بالجِماع والأكل بعد النوم أو بعد صلاة العشاء، وكل من عصى ٱللَّه فقد خان نفسه، لأن الخيانة عبارة عن عدم الوفاء لما يجب عليهم الإتيان به ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ فقبل توبتكم ﴿وَعَفَا عَنكُمْ﴾ وعفا عما اقترفتموه من ذنب ومحا عنكم أثره.

﴿فالآنَ باشِرُوهُنَّ﴾ والمُباشرة كناية عن الجِماع، أي الآن أَبَحْنَا لكم المُعاشرة الزوجيّة، وسمي الجِماع مُباشَرَةً من البَشَرَةِ لتلاصق بَشَرَتَي الرجل والمرأة.

﴿وابْتَغُوا ما كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ أي واطلبوا من وراء هذه المُباشرة مع زوجاتكم ما كتبه ٱللَّه لكم من الذُّرِّيّة ﴿وَكُلُوا واشْرَبُوا﴾ أي وتمتعوا بما أباحه ٱللَّه لكم من الأكل والشرب في ليالي رمضان ﴿حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الخَيْطِ الأَسْوَدِ مِنَ الفَجْرِ﴾ والخيط الأبيض هو خيط الفجر يشقُّ السماء بنور كالخط ثم ينتشر ذلك الخط شيئاً فشيئاً حتى يختفي الظلام ويكون النهار،

والخيط الأسود ما يكون حول ذلك الخيط الأبيض من ظلام، وهذان الخطان يبدوان في الفجر، وقد شبه القرآن بياض النهار بخيط أبيض وسواد الليل بخيط أسود ﴿ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ﴾ أي ثم ابدأوا صومكم من طلوع الفجر إلى غروب الشمس ﴿وَلاَ تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ﴾ ولا تقربوا نساءكم في حال اعتكافكم في المساجد، والاعتكاف شرعاً: لزوم المسجد والمكث فيه لطاعة ٱللَّه والتقرب إليه. والاعتكاف سُنَّة ولا يجوز في غير المسجد، ويجوز الاعتكاف بغير صوم والأفضل أن يصوم معه، وكان رسول ٱللَّه ﷺ يعتكف في المسجد في العشر الأواخر من رمضان، وأقلّ الاعتكاف عند مالك وأبي حنيفة يوم وليلة، والجِماعُ في حال الاعتكاف يُبْطِلُهُ.

﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلاَ تَقْرَبُوها﴾ والحَدُّ في اللغة: هو الحاجز بين الشيئين المتقابلين ليمنع من دخول أحدهما في الآخر، وسُمِّيت أحكام ٱللَّه حدوداً لأنها تحجز بين الحق والباطل، والآية واردة مورد النهي عن مخالفة تلك الأحكام، ودلّ على النهي عن مخالفتها بالنهي عن قربها مبالغة في التحذير من مخالفتها، لأن النهي عن الاقتراب من الشيء أبلغ من النهي من مزاولته ﴿كَذلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ أي كما بيَّن ٱللَّه هذه الحدود يبيّن جميع الأحكام لتتقوا مجاوزتها ومخالفتها، وآيات ٱللَّه: هي العلامات الهادية للحقّ.

وهكذا نرى آيات الصيام قد ختمت بالتقوى ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ كما بدأت في مطلع آيات الصوم بقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ وذلك لبيان تأثير الصوم في اتقاء المعاصي، ومدى أهميته في القُرْبى من ٱللَّه تعالى.

﴿وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُوا۟ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا۟ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٨﴾ ۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ۗ وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٨٩﴾﴾

شرح المفردات

وتُدْلُوا بها إلى الحكّام: ولا تلقوا بأموالكم إلى الحكّام.

بالإثم: بالذنب، وقد يحصل بشهادة الزُّور أو الأَيمان الكاذبة أو الرِّشْوة.

الأَهِلَّة: جمع هلال، وهو القمر في بدء الشهر القمري.

مَواقيت للناس والحج: معالم زمنية يؤقت بها الناس شؤونهم الدنيوية ويعرفون بها وقت حجّهم.

البِرُّ: جُملة أعمال الخير التي تقرّب الإنسان من ربّه.

التحذير من أكل أموال النّاس بالباطل

لمّا كان الصوم يؤدي إلى تقوى ٱللّٰه انتقل القُرآن إلى الكلام عن المال الذي قد يُؤدي الحرص على جمعه إلى الظلم والطمع في مال الغير بغير حق، وهذا يُنافي صفة التقوى التي أمرنا ٱللّٰه بها، لذا حذَّر ٱللّٰهُ المؤمنينَ في الآية التالية من فتنة المال بقوله:

﴿وَلاَ تَأْكُلُوا أَمْوالَكُمْ بَيْنَكُمْ بالبَاطِلِ﴾ أي لا يأخذ بعضكم مالَ بعضٍ ويستولي عليه بغير حق. وعبّر عن أخذ المال بالأكل، لأن الأكل أهم وسائل الحياة وفيه تُصرف الأموال غالباً. واختار القرآن لفظ **﴿أموالَكُمْ﴾** بدل لفظ أموال الغير للإشعار بوحدة الأُمَّة وتكافلها، فمال الآحاد هو مال الأمة فيجب

المحافظة عليه، فالإنسان إذا استحل مال غيره يدفع غيره إلى استحلال ماله، وأخذ المال بغير حق يعرّض كل مال للضياع والذهاب، وأكل أموال الناس بالباطل يشمل: الرِّبا والقِمار والغشّ والسرقة والغَصْب وغير ذلك من طرق الاستيلاء على أموال الناس ظُلماً وعُدواناً ﴿وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ﴾ ولا تلقوا بالأموال إلى الحكام رشوة لهم ﴿لِتَأْكُلُوا فَرِيقاً مِنْ أَمْوالِ النَّاسِ بِالإِثْمِ﴾ لتأخذوا عن طريق حكمهم قطعة من أموال غيركم متلبسين بالإثم كاليمين الكاذبة أو شهادة الزُّور ﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ مع علمكم أن فعلكم هذا هو إثم وباطل، فالآية بَيَّنت أنَّ الاستعانة بالحُكّام على أكل المال بالباطل أمر محرَّم لأن حكم القاضي لا يغير الحق في نفسه ولا يحلّه للمحكوم له إذا كان فيه ظلم وجوْر للغير.

ولقد حذَّر رسول ٱللَّه ﷺ من الذين يأخذون أموال الناس بالباطل عن طريق الحُكّام بالأكاذيب والحجج المقنعة التي تؤثر على حكم القاضي فقال: «ألا إنما أنا بَشَرٌ؛ وإنّكم تختصمون إليَّ، ولَعَلَّ بعضكم أن يكون أَلْحَنَ بحجته من بعض فأقضي له على نحو ما أسْمَع، فمن قضيتُ له من حق أخيه شيئاً فلا يأخذه، فإنما أقْطَعُ له قطعةً من النَّار»[1].

الأَهِلَّةُ هي مواقيت للناس

سبق أن بَيَّنَت الآيات السابقة ذكر فريضة الصوم في شهر رمضان وأن البدء بالصوم يكون برؤية الهلال، ولعلّ ذلك أثار في بعض النفوس الرغبة في أن يسألوا رسول ٱللَّه ﷺ عن حقيقة الهِلال، وقد رُوي أن بعض المسلمين قالوا لرسول ٱللَّه: ما بالُ الهِلال يبدو دقيقاً مثل الخيط ثم يزيد حتى يعظم ويستوي

---

(١) متفق عليه.

ويستدير ثم لا يزال ينقص ويدق حتى يعود كما بدا، لا يكون على حالةٍ واحدةٍ؟!
فنزلت الآية: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالحَجِّ﴾[1].

والأهلة: جمع هلال وهو القمر يتراءى في أول الشهر القمري، وإنما قال ٱللَّه ﴿عَنِ الأَهِلَّةِ﴾ مع أنهم سألوا عن الهلال وهو واحد، ولكن لمّا كانت حالة الهلال التي سألوا عنها تتكرر كل شهر جاء الجواب بالجمع.

والقمر ليس له نور ذاتي بل يضيء بانعكاس نور الشمس عليه، وهو يبدو لنا بتغيير شكله في الفضاء، ويدور حول الأرض فيبدو هلالاً أول الشهر، وفي الليل التالي يتسع الهلال ويستمر ذلك ليلةً بعد ليلةٍ، واختلف اللغويون إلى متى يسمى القمر هلالاً، فقال بعضهم: يسمى هلالاً لليلتين من أول الشهر أو في ثلاث.

وبعد سؤالهم عن الأهلة يأتي الجواب بقوله تعالى: ﴿قُلْ[2] هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالحَجِّ﴾ والمواقيت: جمع ميقات وهو الوقت، والمعنى: قل يا محمد للذين يسألونك عن الأهِلَّة، قل لهم: بأنها معالم زمنية يؤقّت بها الناس شئونهم ويعرفون بها وقت حجّهم، وهذا لفت لأنظارهم إلى أن الواجب أن يسألوا عن فوائدها في الدِّين والمعاملات لا عن أشكالها. كما أن الإجابة عن سؤالهم كانت في صورة يستطيع العقل أن يفهمها في زمن نزول القرآن،أما الناحية العلمية فتركها للأزمنة القادمة بما يكشفه علم الفلك عن السبب في اختلاف شكله من يوم إلى يوم.

---

(١) ذكره القرطبي في التفسير.

(٢) قل: هذه اللفظة وردت في عشرات المواضع من القرآن وكانت جواباً لكثير من الأسئلة التي سئل رسول الله عنها وكان الجواب يأتي بعدها بأفصح عبارة وأبلغ حكم تقنع المتردد وتفحم الكافر، هذه اللفظة (قل) تنبئ بأن القرآن ليس من تأليف محمد كما يدّعي بعض أتباع الأديان، بل القرآن هو وحي من عند الله، فلو كان القرآن من تأليف محمد كما يدّعون لما كان بحاجة إلى أن يستهلّ الجواب بلفظة (قل) والتي هي خلاف جميع أساليب الكتّاب والأدباء والعلماء.

ولقد خَصَّ الإسلام مواقيت بعض العبادات برؤية الهلال كالصوم، وتُعرف هذه المواقيت بالأشهر القَمَرية لأنها تعرف برؤيتها، وهي لا تخفى على أحَد بخلاف الأشهر الشمسية التي لا يتيسر ضبطها إلاّ لِقِلّةٍ من العارفين بدقائق علم الفلك وبالأخص في زمن نزول القرآن.

﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا﴾ هذا الشطر من الآية نهيٌ لجماعة بعض المسلمين عن عادة كانوا يفعلونها قبل الإسلام وهي أنهم كانوا إذا عادوا من حجهم أو أَحْرَمُوا لا يدخلون من أبواب بيوتهم بل كانوا يدخلون من نقب ينقبونه من ظهور بيوتهم، فجاء رجل من الأنصار فدخل إلى بيته من بابه فكأنه عيّر بذلك، فأنزل ٱللَّه قوله: ﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا﴾ والبِرُّ: هو الصدق والصلاح والتوسع في فعل الخير، والمعنى: ليس من الخير والصلاح ما كنتم تفعلونه قبل الإسلام من دخولكم البيوت من ظهورها بعد إحْرامِكم وحَجّكم، ولكن البِرَّ يكون في تقوى ٱللَّه بامتثال أوامره واجتناب نواهيه.

وجملة ﴿وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا﴾ كناية عن أن إتيان البيوت من ظهورها يعني العدول عن الطريق الصحيح الذي يجب سلوكه بينما إتيان البيوت من أبوابها يعني التمسّك بالأساليب القويمة التي توصل إلى الخير والصلاح. وهناك مَثَلٌ مشهورٌ اقتبس من الآية، وهو أنَّ من أرشد غيره إلى الوجه الصواب يقول له: ينبغي أن تأتي الأمر من بابه.

ويختم ٱللَّه الآية بقوله: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ أي افعلوا ما أمركم ٱللَّه به واجتنبوا ما نهاكم عنه لتكونوا من الفائزين بالحياة الطيبة في الدنيا والنعيم الخالد في الآخرة.

﴿وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۚ وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ فِيهِ ۖ فَإِن قَٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ ۗ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩١﴾ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٢﴾ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ۖ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩٣﴾ ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْحُرُمَٰتُ قِصَاصٌ ۚ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩٤﴾ وَأَنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ ۛ وَأَحْسِنُوٓا۟ ۛ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾﴾.

شرح المفردات

وقاتِلوا في سبيل اللّه: قاتلوا لإعلاء كلمة الله، وإعزاز دينه، وإقامة شرائعه.

ثَقِفْتموهم: وجدتموهم وظفرتم بهم.

والفِتْنَةُ أشدُّ من القَتْل: أي إن فتنتهم للمؤمنين بإيذائهم وإلْجائهم إلى مفارقة وطنهم للتأثير في عقيدتهم أشدّ جرماً من القتل.

ويكون الدِّين للّهِ: وتخلص العبادة لله فلا يُعبد أحَدٌ سواه.

الشهر الحرام بالشهر الحرام: أي إن انتهك المشركون الشهر الحرام وقاتَلُوكم فيه فبادلوهم بالمِثْلِ.

الحُرُمات: جمع حُرْمة، وهي ما مُنع من انتهاكه.

قِصاصٌ: أي العقاب على الجريمة بمِثْلِها.

القتال للدفاع عن النفس

كان المسجد الحرام في مكة منذ عهد إبراهيم عليه السلام قِبْلَة العرب ومقصدهم يحجّون إليه في الأشهر الحُرُم[١] التي يَحْرُمُ فيها القتال، وكان المرء إذا الْتقى بأشد الناس عداوة له لم يجرؤ أن يُجرّد سيفاً في وجهه أو يسفك دماً، وظلت هذه الحرمة باقية بعد الإسلام وقد طهره من مظاهر الشرك بٱللَّه التي أدخلها المشركون عليه، وشرع للمسلمين مناسك الحج التي كان يؤديها إبراهيم عليه السلام.

وكانت قريش قد آلت على نفسها منذ أن هاجر النبي ﷺ من مكة أن يصدّوه ومن آمن معه عن المسجد الحرام ويحولون بينهم وبين زيارته وقد انقضت ست سنوات على الهجرة، والمسلمون يحدوهم الشوق لزيارة المسجد الحرام، فخرج رسول ٱللَّه ومَن معه مِنَ المهاجرين والأنصار ومن لحق بهم من العرب وكان عددهم ألفاً وأربعمائة لا يحملون من السلاح إلاّ السيوف في أغمادها، فلمّا علمت قريش بمجيئهم أجْمَعت على صدّهم عن زيارة المسجد الحرام واستعدّت لقتالهم، ولكن النبي ﷺ أبى أن يقتحم البيت الحرام عنوةً ويُقاتل المشركين في مكة، وسار حتى نزل بأقصى الحُدَيْبِيَة[٢].

ثم أرسل النبي ﷺ رسلاً إلى قريش وجرت مفاوضات بينه وبينهم انتهت بالاتفاق على أن يرجع المسلمون ذاك العام دون زيارة المسجد الحرام وأن يعودوا في العام المقبل لهذه الزيارة، واتفقوا على أن تُخلي قريش لهم مكة ثلاثة أيام يُؤَدُّون فيها العُمرة.

---

(١) الأشهر الحرم: هي ذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم، ورَجَب.

(٢) الحُدَيْبِيَة: هي بئر قرب مكة حدث عندها صُلْحُ الحديبية المشهور.

فلمّا أقبل العام التالي تجهَّز النبي ﷺ وأصحابه لأداء شعائر العُمرة التي سمّيت بِعُمْرَةِ القَضاء، وخاف المسلمون ألاّ تفي قريش بوعدها، وغلبت عليهم الحيرة فيما يفعلون في حال منعهم من العُمرة، فنزلت الآيات التالية وفيها تبيَّن للمسلمين الموقف الذي يجب عليهم أن يلتزموه إن قاتلهم المشركون وانتهكوا حرمة بيت ٱللَّه الحرام والأشهر الحرم ومنعوهم من أداء شعائر دينهم، قال ٱللَّه تعالى:

﴿وقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ﴾ وسبيلُ ٱللَّهِ: هو دِينهُ، والقتال في سبيل ٱللَّه هو الجِهَادُ لإعلاء كلمته حتى يكون المؤمنون أعِزَّة، لا يسومهم أعداؤهم ضيماً، ويكونون أحراراً في الدعوة إليه وإقامة شعائره دون أن يصدهم عن ذلك أحَدٌ.

تأمَّل كيف بَيَّنت الآية القرآنية أحكام القتال وهي أن يُقاتل المسلمون من قَاتلهم، أي أن لا يبدأوا بقتال أعدائهم بل يُقاتلون الذين يبدأون بقتالهم دفاعاً عن أنفسهم وحريتهم في أداء العبادة. ثم أمر ٱللَّه المسلمين بقوله: **﴿ولا تَعْتَدُوا﴾** والاعتداء: مُجاوزة الحدّ فيما أمر ٱللَّه به أو نهى عنه، أي ولا تعتدوا فيما نهى ٱللَّه عنه بقتل النساء والصبيان والشيوخ المسنين، وقد رُوي أن رسول ٱللَّه ﷺ كان يقول: «اغْزُوا في سبيلِ ٱللَّهِ، قاتِلوا من كَفَر بٱللَّهِ، اغْزُوا ولا تغلوا، ولا تغدروا ولا تمثّلوا، ولا تقتلوا الوليد ولا أصحاب الصوامع»[1] **﴿إِنَّ ٱللَّهَ لا يُحِبُّ المُعْتَدِينَ﴾** ومحبة ٱللَّه لعباده صفة اختص بها المتقين، من أثرها الرعاية والإنعام والقربى منه، ونفي ٱللَّه محبته للمعتدين كناية عن بغضه إياهم واستحقاقهم لعقوبته.

---

(١) أخرجه مسلم.

﴿وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾ واقتلوا الذين قاتلوكم في أي مكان أدركتموهم وظفرتم بهم في أي مكان يحلّ به القتال أو يحرم ﴿وَأَخْرِجُوهُمْ مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ﴾ أي وأخرجوا الكُفار من المكان الذي أخرجوكم منه، والمكان الذي أخرجهم الكفار منه هو مكة، فإن الكفار من قريش اشتدوا في أذى المسلمين واضطهادهم حتى ألجأوهم إلى الخروج من مكة والهجرة إلى الحبشة أولاً ثم إلى المدينة المنورة ثانياً ﴿وَالفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ القَتْلِ﴾ والفتنة تأتي بتلك المعاني: الابتلاء، والامتحان، والعذاب، والصدّ عن الدِّين، والكُفر بٱللَّه، أي إن فتنة المشركين للمؤمنين بصدهم عن الإسلام وإرْغامهم على الرجوع إلى الكفر بٱللَّه بالتعذيب والإيذاء ومصادرة أموالهم وإلْجائهم إلى مفارقة الأهل والوطن أصعب من القتل، إذ لا بلاء أشدّ وقعاً على الإنسان من اضطهاده وتعذيبه لإرْغامه على تغيير معتقده الذي تمكّن في قلبه.

﴿وَلاَ تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ المَسْجِدِ الحَرامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ﴾ أي وعلى المسلمين أن يؤدوا مناسك دينهم ولا يقاتلوهم عند المسجد الحرام الذي حرَّم ٱللَّه القِتال فيه، فإذا اعتدى المشركون على المسلمين واستباحوا القتال في المسجد الحرام، فقد أباح ٱللَّه للمسلمين أن يصدوا هذا العُدْوان بالدفاع عن حياتهم وعن عقيدتهم ﴿فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ﴾ أي فإن بدأُوكم بالقتال عند المسجد الحرام فلا حرج عليكم في قتلهم عنده، فإن المنتهك لحرمة المسجد إنما هو البادئ بالقتال فيه لا المدافع عنه ﴿كَذلِكَ جَزَاءُ الكَافِرِينَ﴾ أي مِثْل هذا الجزاء العادل من القتل والردع يُجازي ٱللَّه الكافرين الذين قاتلوا المؤمنين وأخرجوهم من ديارهم.

﴿فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي فإنْ كَفُّوا عن قتالكم ـ أيها المسلمون ـ فكفوا عن قتالهم ولا تتعرضوا لهم، فإن ٱللَّه غفور رحيم لكل من

تاب من كُفْرٍ أو معصية، ونظير هذا ما جاء في القرآن: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَنتَهُوا۟ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال: ٣٨].

﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ والفتنة هنا: الشِّرْك بٱللَّه والكفر، أي قاتلوهم حتى لا يكون هناك كُفر وشِرْك بٱللَّه وحتى لا يُعبد دونه أحَد، وتضمحلّ عبادة الأوثان والآلهة، ولتتحقق للمسلمين حرية العقيدة وحرية أدائهم لشعائرهم الدينية ﴿وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ﴾ والدِّينُ: هو العِبادةُ والطاعة لله في أمره ونهيه، أي قاتلوا المشركين لتكون العبادة والطاعة لله وحده وحتى لا يعبد إلاّ ٱللَّه ﴿فَإِنِ انتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ أي فإنِ انتهى الذين يقاتلونكم من الكُفار عن قتالكم ودخلوا في مِلّتكم وتركوا ما هم عليه من عبادة الأوثان فاتركوا الاعتداء عليهم بقتالهم، فإنه لا ينبغي أن يُعتدى إلاّ على الظالمين وهم المُشركون بٱللَّه الذين اعتدوا عليكم. وسمى ٱللَّه ما يُصنع بالظالمين عُدْواناً من حيث هو جزاء على عُدوانهم.

﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ﴾[1] أي الشهر الحرام من جانبكم ـ أيها المسلمون ـ مُقابل الشهر الحرام من جانب المشركين، فإن تقيد المشركون بالحرمة فيه ولم يثيروا حرباً ولم يعتدوا الْتَزَمْتُم حرمته ولم تقاتلوهم فيه. وإن استباح المشركون الشهر الحرام الذي لا يحلّ القتال فيه وقاتلوكم فيه فقابلوا عُدْوانهم بالمِثْلِ ﴿وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ﴾ كلمة جامعة لكل ما سبقها من معانٍ في القتال، والحرمات: جمع حرمة، والحرمة الأمر الذي حرَّمه ٱللَّه ومنع انتهاكه. والقِصاصُ من معانيه المساواة وتتبع آثار الجريمة بالعقوبة. ومعنى القِصاص في الحرمات أن يعامل منتهك الحرمات بمثل ما فعل وأن يكون العِقاب من جنس

(١) الشهر الحرام: الشهر هنا للجنس والمراد به الأشهر الأربعة: ذو القعدة، ذو الحجة، مُحرّم، رَجَب. والمراد بكلمة (الحرام) تحريم القتال في هذه الأشهر.

العمل. أي إذا قاتلوكم ـ أيها المسلمون ـ في الشهر الحرام وهتكوا حرمته فقاتلوهم في الشهر الحرام.

﴿فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ﴾ أي مَنْ يعتدي عليكم أيها المسلمون من الأعداء بحرب يشنُّها عليكم فاعتدوا عليه بالمِثْلِ. وهنا سؤال: كيف عَبَّر ٱللَّهُ عن مقاومة العدو بلفظ «الاعتداء». الجواب على ذلك: هو أن ٱللَّه سمى الجزاء على اعتدائهم وانتهاكهم لحرمة المسلمين اعتداء للمشاكلة أي الموافقة اللفظية، فالفعل الأول من جانب الأعداء اعتداء لأنه صدر عن ظلم، والثاني صدر عن مُقاومة ودفاع عن النفس فكان عدْلاً.

وهناك صور من اعتداء العدو: كأن ينتهك الأعراض، ويقتل الذرية الضعاف والشيوخ الكبار، فهل يسلك المسلمون مسلكهم؟ هنا تبين الآية عدم جواز ذلك بقوله تعالى ﴿وَاتَّقُوا ٱللَّهَ واعْلَمُوا أنَّ ٱللهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ وتقوى ٱللَّه هي أن يُراعي المسلمون الرحمة والعَدْل، وأن ٱللَّه مع المتقين بالنصر والتأييد.

﴿وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ وسبيل ٱللَّه هو الطريق الموصل إلى مرضاته والحصول على ثوابه، وسبيل ٱللَّه غلب استعماله شرعاً على الجهاد للدفاع عن دين ٱللَّه والدفاع عن الوطن وهذا يَسْتَدْعِي أموالاً طائلة لشراء الأعتدة الحربية الحديثة لتقوية الجيش ليكون سَدًّا منيعاً في وجه المعتدين، لهذا أوجب الإسلام على كل مسلم أن يُنفق من أمواله للمجهود الحربي عند اعتداء المعتدين حسب قدرته، وأوجب على الحاكم أن يفرض من الضرائب ما يكفي لحاجات الجيش إذا لم تَفِ ميزانية الدولة بذلك.

كما أن الإنفاق في سبيل ٱللَّه يكون في وجوه البرّ على الفُقراء والمساكين ما يسدّ حاجاتهم ويوفّر لهم العيش الكريم، وبهذا تَقْوَى الروابط بين الأغنياء

والفقراء وينتفي عن المجتمع الثورات والقلاقل التي يثيرها الجوع والحِرْمان.

فالبخل في الإنفاق في سبيل ٱللَّه يجعل الأُمّة تحت رحمة أعدائها، كما أن البخل يؤدي إلى شيوع الفقر والحِرْمان مما يُؤَدّي إلى إضعاف الجبهة الداخلية التي هي الحِصن المنيع في وجه أعدائها، لهذا كان القرآن بليغاً عندما رتب على البخل في الانفاق قوله: ﴿وَلاَ تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلى التَّهْلُكَةِ﴾ فليعتبر كل من يمتنع عن الإنفاق في سبيل ٱللَّه لأن عاقبة ذلك هلاك كل فرد من أفراد الأُمّة.

﴿وَأَحْسِنُوا إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ وأحسن هو الفعل الحسن والإنْعام والتفضّل على الغير، كما يأتي الإحسان بمعنى الإتْيان بالفعل على وجه الإتقان.

والإحسان إلى الناس يكون بإكرامهم وحسن معاملتهم والإنفاق على المحتاجين منهم. والإحسان في العبادة يكون كما قال النبي ﷺ: «أنْ تَعْبُدَ ٱللَّهَ كأنكَ تَراهُ، فإنْ لَمْ تَكُنْ تَراهُ فإنه يَراكَ»[1].

والإحسانُ هنا جاء بعد الأمر بالإنفاق في سبيل ٱللَّه فيكون مكملاً له والحث عليه، أي إن إحسانكم وإنفاقكم في سبيل ٱللَّه أمر محبب إلى ٱللَّه، ومن أَحَبَّهُ ٱللَّه حبب عباده به ويَسَّرَ أمره ووقاه من كل سوء.



(١) أخرجه البخاري.

﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (١٩٦) الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ (١٩٧)﴾.

شرح المفردات

أُحصِرتُم: مُنِعتُم بعد الإحرام من الوصول إلى بيت الله الحرام.

فما استَيسَرَ من الهَدْيِ: أي فعليكم إذا أردتم التَّحَلُّلَ من الإحرام ذبح ما تيسر لكم من الهَدْيِ وهي الأنعام.

ولا تحلقوا رؤوسكم حتى يبلغ الهدي محلّه: ولا تتحللوا من الإحرام بالحلق حتى تعلموا أن الهدي قد بلغ مكانه الذي يجب أن يراق فيه دمه وهو الحرم.

نُسُك: ذبيحة وأقلها شاة.

حاضِري المسجد الحرام: هم أهل مكة.

فمن فَرَضَ فيهن الحَجَّ: فمن أَلزَمَ نفسه بأداء فريضة الحج.

رَفَث: الجماعُ أو الكلام المتضمن لما يُستقبح ذكره من الجماع ودواعيه.

فُسوق: المعصية مطلقاً، أو مخالفة أوامر الحج وارتكاب نواهيه.

جِدال: المُناقشة الحادة مع الرُّفقاء والخَدَم وغيرهم.

بعض أحكام الحج أو العمرة

ويُتابع القُرآن فيذكر بعض أحكام الحج والعمرة، وما يجب على من يقوم بهما في حال منعه مانع من أداء حَجِّه أو عُمرته، مع بيان الآداب التي يجب الأخذ بها، قال ٱللَّه تعالى:

﴿وَأَتِمُّوا الحَجَّ وَالعُمْرَةَ للَّهِ﴾ وإتمام الحج والعمرة هو الإتيان بهما كاملين بمناسكهما المشروعة مع الإخلاص التام لله سبحانه لا تشوبهما شائبة من رياء أو مما هو محظور.

والحَجُّ فريضة تجب مرة في العمر لمن استطاع القيام به، وأركان الحج عند جمهور الفقهاء أربعة: الإحرام[1] والوقوف بعرفة وطواف الزيارة حول الكعبة، والسعي بين الصفا والمروة، وزاد الشافعية على ذلك حلق الشعر أو تقصيره، والترتيب بين معظم الأركان.

وهناك واجبات في الحج، والواجب هو ما يطلب فِعله ويَحْرُمُ تركه ولكن لا تتوقف صحة الحج عليه ويأثم تاركه إلاّ إذا تركه بعذر معتبر شرعاً، ويجب عليه الفدية في حال تركه وهي ذبح شاة أو غيرها من الأنعام، وقد اصطلح على ذلك بالقول: عليه دم.

أما العمرة فقد اختلف الفقهاء فيها، فبعضهم يرى أنها فريضة وبعضهم يرى أنها سُنَّة مؤكدة، وأركان العمرة عند جمهور الفقهاء ثلاثة: وهي الإحرام والطواف والسعي بين الصفا والمروة، وزاد الشافعية على ذلك حلق الشعر أو تقصيره.

والصلة بين العمرة والحج وثيقة، فالحج يتضمن أعمال العمرة ويزيد عليها

---

(١) الإحرام: هو نيّةُ الدخول في حرمات الحج أو العمرة على هيئة مخصوصة. والإحرام له ميقات زماني وميقات مكاني، فبالنسبة لمن يريد أن يحج فزمانه في أشهر الحج، أما الميقات المكاني فهو يختلف باختلاف الجهة التي يأتي منها المسافر، وقد جاء تعيينها في كتب الفقه.

بأشياء كالوقوف بعرفة، والمبيتِ بِمنى والمُزْدَلِفة، ورمي الجمار وغير ذلك من أعمال الحج.

﴿فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ﴾ والإحصار هو المَنْعُ، أي إن منعكم مانع من دخول مكة أو عن إتمام مناسك الحج أو العمرة كمرض أو عَدُوّ، وأردتم التَّحَلُّل[1] من الإحرام ﴿فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الهَدْيِ﴾ فعليكم تقديم ما تيسّر لكم من الهدي من غير كلفة ولا مشقة، كشاةٍ مثلاً. والهَدْيُ: هو ما يُهْدى من الأنعام إلى بيت ٱللَّه الحرام لتذبح في الحرم وتوزع على الفقراء تقرُّباً إلى ٱللَّه، والأنعامُ: هي الإبل والبقر والغنم والماعز.

﴿وَلاَ تَحْلِقُوا رُؤُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الهَدْيُ مَحِلَّهُ﴾ أي لا يحل للمحرم المُحْصَر وهو الذي منعه من أداء الحج أو العُمرة مرضٌ أو عدو أن يحلق رأسه ويتحلل من إحْرامه حتى يصل الهدْي إلى محل ذبحه وهو الحرم حيث يُذبح هناك، ويرى جمهور من الفقهاء أن المحصَر يذبح الهدي حيث أُحْصِر.

وحَلْق الشعر أو تقصيره هو مظهر من الانتهاء من الإحرام، ولكن قد يطرأ على الحاج أو المعتمر عُذْر بأن يحلق شعره إذا كان برأسه حشرات تؤذيه كالقمل مثلاً وتجعل غيره يتقزز منه، أو قد يصير مصدر أذى لغيره وعدوى له، ففي تلك الحالة رَخَّص ٱللَّه لذلك المريض بأن يحلق شعره ويظل على إحرامه مقابل فدية لقوله تعالى: ﴿فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضاً أَوْ بِهِ أَذًى مِّنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِّنْ صِيام أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾ نُسُكٌ: جمع نَسِيكَةٌ وهي الذَّبيحة، أي من كان منكم ـ أيها المُحْرِمُونَ ـ مريضاً بمرض يضطر معه إلى حَلْقِ شعره أو كان به أذًى من رأسه

(١) التَّحلُّلُ لغة: هو أن يفعل الإنسان ما يخرج به من الحرمة، واصطلاحاً: هو فسخ الإحرام والخروج منه بالطريق الموضوع له شرعاً، والتحلل للمحصر يحصل بنحر الهَدْي وحَلْق الشَّعر أو تقصيره.

كجراحةٍ وحَشَرات مُؤذية، فعليه إن حَلَق فِدْيَةٌ من صيام ثلاثة أيام أو إطعام ستة مساكين أو ذبح شاة يوزع لحمها على الفقراء، وهذا ما بينته السُّنَّة النبوية.

﴿فَإِذَا أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ﴾ أي إذا كنتم في أمان وأردتم أداء الحج والعُمرة معاً في أشهر الحج فأول شيء تفعلونه هو الإحرام من الميقات للعمرة، ثم تأتون بأركانها، وعند التحلل منها وذلك بقص شعركم يحل لكم التمتع بما كان محظوراً عليكم في الإحرام من مُباشرة زوجاتكم والتطيب وقص الأظافر وغير ذلك. وقبل يوم عَرَفَة بأيام أو صبيحة ذلك اليوم تُحرمون من مكة باللباس المعهود وبنية أداء فريضة الحج، ومقابل هذا التمتع بعد أداء العُمرة عليكم تقديم ﴿فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾ أي ما تيسّر من الهَدْيِ من حيث تقربتم إلى ٱللَّه بالعُمرة، وهذا الهدي يُذْبح في الحَرَم لينتفع به سكانه، ولا يأكل منه الحاج عند الشافعي، وأجاز أبو حنيفة الأكل منه ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ﴾ أي من لم يجد الذبيحة التي يجب تقديمها إلى الحرم إما لِفَقْرِهِ أو عدم وجودها فعليه صيام ثلاثة أيام من أيام حجِّه، والأفضل أن يكون في سابع ذي الحجة وثامنه وتاسعه ولا يجوز صوم يوم النحر.

﴿وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ﴾ وعليه أيضاً أن يصوم سبعة أيام إذا عاد إلى بلده وأهله فيصبح عدد الأيام التي سيصومها عشرة، إكمال صومها وجب عليه ﴿ذَلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ أي هذا الحكم خاص بمن لم يكن من أهل حاضري المسجد الحرام، وهؤلاء هم أهل مكة وما حولها، فهؤلاء لا يحصل لهم تمتع، وليس عليهم فِدْيَة لإمكان أدائهم العُمرة طول العام ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ أي اتقوا ٱللَّه بطاعته فيما أَلْزمكم به من فرائضه، واحذروا الإخلال بشعائره فهو سبحانه شديد العقاب لمن خالف مناسكه فترك ما أُمر به وارتكب ما نهاه ٱللَّه عنه.

﴿الحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ﴾ أي إن الوقت الذي يُؤَدّى فيه الحج هو أشهر معروفات وهي: شَوَّال، وذُو القعدة، والعشرة الأيام الأولى من ذي الحِجّة، فلا يَصِحُّ الحج في غير هذه الأشهر، كما أنّ الإحْرام بنيّة الحج في غير هذه الأشهر ليتمّه في أشهره لا يصح عند الشافعية، ويَصِحُّ مع الكراهة عند الحنفية.

﴿فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الحَجَّ فَلاَ رَفَثَ وَلاَ فُسُوقَ وَلاَ جِدَالَ فِي الحَجِّ﴾ أي من أَلْزَمَ نفسه بأداء فريضة الحج وأحْرم ﴿فَلاَ رَفَثَ﴾ أي عليه أن يجتنب الرفث وهو الجِماع والإفْحاش في الكلام ﴿وَلاَ فُسُوقَ﴾ والفُسوق هو الخروج عن طاعة ٱللَّه بارتكاب المعاصي ومنها السِّباب وفعل محظورات الإحرام ﴿وَلاَ جِدَالَ فِي الحَجِّ﴾ والجدال هو أن تُماري صاحبك حتى تغضبه، وقيل: السباب والمنازعة.

﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ﴾ أي ومهما تفعلوا من خَيْرٍ وعمل صالح ابتغاء مرضاة ٱللَّه فٱللَّه به عليم يُوفّيكم أجره، وهو سبحانه لا تخفى عليه خافية.

﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾ التزوّد هنا مادي ومعنوي، أما المادي فقد رُوِيَ أن طائفةً من العرب كانت تجيء إلى الحج بلا زاد ويقول بعضهم: نحن المتوكلون على ٱللَّه، فكانوا يبقون عالةً على النّاس، فأمرهم ٱللَّه بالتزود من الطعام بما يقيهم ذُلَّ الحاجة. كما أن الزاد في الآية يشمل الزاد المعنوي وهو الطلب من المؤمنين التزود لآخرتهم بالأعمال الصالحة، ويؤكد ذلك أنه جاء عقب ذلك قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوى﴾ والتقوى في عُرْفِ القُرآن عبارة عن فِعْلِ الواجبات التي أمر ٱللَّه بها وترك المحظورات. فالسفر في الدنيا لا بدّ له من زادٍ من الطعام والشراب، والسفر إلى الآخرة لا بدّ له من زادٍ وهو معرفة ٱللَّه ومحبته وطاعته واجتناب ما نهى عنه، وزاد الآخرة هو خيرٌ من زاد الدنيا لأنه يُوصل إلى النعيم الدائم في الآخرة ﴿وَاتَّقُونِ يا أُولِي الأَلْبَابِ﴾ أي

اتخذوا من عمل الخير واجتناب الشرّ والقيام بالطاعات وقاية لكم من غضب ٱللَّه ومعاقبته لكم، وخص ٱللَّه أصحاب العُقول بتوجيه الخطاب لهم ﴿يَا أُولِي الأَلْبَابِ﴾ لأنهم أهل التمييز بين الحقّ والباطل، وهنا إشارة إلى أن من لا يتقي ٱللَّه ليس له عقل يميّز به الصالح من الفاسد من الأمور.

﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ۚ فَإِذَا أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ ۖ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ (١٩٨) ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٩٩) فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ۗ فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ (٢٠٠) وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (٢٠١) أُولَٰئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا ۚ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٢٠٢) ۞ وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ ۚ فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ لِمَنِ اتَّقَىٰ ۗ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٢٠٣)﴾.

شرح المفردات

جُناحٌ: إثم.

فَضلاً من ربِّكم: أي تحصيل الرزق من تجارةٍ أو غيرها.

أفضتم من عَرَفاتٍ: اندفعتم في زحمة وكثرة من عرفات.
المَشْعَرِ الحَرامِ: هو مُزْدَلِفَة.
قَضَيْتُم مناسككم: أدَّيْتُم عبادات الحج.
من خَلاق: من نصيب وحظ من الخير.
أيّاماً معدودات: هي أيام التشريق الثلاثة التالية ليوم النحر.
تُحشرون: تُجمعون يوم القيامة للحساب.

من أعمال الحج

ويُتابع القُرآن الكلام عن الحجّ موضحاً الأعمال التي يجب أن يُؤديها المسلمون ونافياً الحَرَج من تعاطي بعض الأعمال التجارية في الحج التي يُتوهم أنها تخلّ بأعمال الحج، قال تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُناحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ﴾ الجُناح: الحَرَج والإثم، والمعنى: ليس عليكم ـ أيها المسلمون ـ إثم أن تطلبوا من ربكم رزقاً حلالاً في أيام الحج عن طريق التجارة. فقد كان الناس يمتنعون عن البيوع والتجارة أيام موسم الحج حتى يقضوا حجهم فأحله ٱللَّه لهم ﴿فَإِذَا أَفَضْتُم مِّن عَرَفَاتٍ[1]﴾ الإفاضة: السير متدافعين في جمع متزاحمين، وذلك تشبيه لهم بالماء إذا فاض ودفع بعضه بعضاً، والمعنى: فإذا سِرْتُم ـ يا معشر الحُجّاج ـ من عَرَفات متزاحمين متجهين إلى المُزْدَلِفَة.

وقبل أن ننتقل إلى المزدلفة نُذَكِّرُ أن الوقوف بعرفة رُكْنٌ، من أركان الحج ولا يتم الحج إلاّ بِهِ، وقد قال النبي ﷺ: «الحَجُّ عَرَفَة»[2] ومن فاته الوقوف

---

(١) عرفات: جمع عرفة وسُمّيَ بذلك بما رُوي أن جبريل كان يُري إبراهيم عليه السلام المناسك فيقول: عرفتُ عرفتُ: فسمي عرفات، وقيل سُمّيَ بذلك لأن الناس يَتعارَفُون فيه حيث يجتمع الحجيج جميعاً على جبل عرفات في وقتٍ واحدٍ فيجري التعارف بينهم.

(٢) أخرجه أبو داود.

بِعَرَفَة في وقته فاته الحج، ويدخل وقت الوقوف بعرفة من زَوال اليوم التاسع من ذي الحجة ويمتدُّ إلى طلوع فجر يوم عيد النحر العاشر من ذي الحجة، ووقته نصف يوم وليلة كاملة، فمن وقف بعرفات في هذا الوقت ولو لفترة قصيرة من ليل أو نهار فقد حصل له الوقوف بعرفة[١].

ولنرجع إلى الكلام عن المُزدلفة حيث يقول ٱللَّه سبحانه: ﴿فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ فَٱذْكُرُوا ٱللَّهَ عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ﴾ والمَشْعَرُ الحرام هو المُزْدَلِفَة كلها، وسمّيت المزدلفة مَشعراً من الشِّعار وهو العلامة، لأنه من معالم الحج، ووُصف بالحرام لحرْمته أو لأنه من أرض الحَرَم. ويُطلقُ المَشعر الحرام على جبل قُزَح الذي هو ضمن المزدلفة، وإن الوقوف فيما يقرب منه أفضل من الوقوف في سائر مواضع أرض مزدلفة، فبعد غروب الشمس يوم عرفة ومكوث الحجاج فترة بعد الغروب في عَرَفَةَ يندفعون إلى المزدلفة للمبيت بها.

والمبيت بالمزدلفة ليس رُكْناً من أركان الحج عند جمهور الفقهاء بل هو واجب من واجبات الحج فمن تركه فعليه دم (ذبح شاة) ويتحقق فعل المبيت إلى ما بعد منتصف ليلة النحر أي العاشر من ذي الحجة.

فالآية تطلب من الحجاج أن يذكروا ٱللَّه عند المَشْعَرِ الحرام بالتلبية[٢] والتهليل[٣] والدعاء بقلوبٍ خاشعة، لأن ذكر ٱللَّه في تلك الأماكن المقدسة يقرّب الحجاج إلى ٱللَّه ويمحو خطاياهم.

---

(١) هذا ما ذهب إليه الشافعية، أما المالكية فقالوا: إن وقت الوقوف هو الليل فمن لم يقف جزءاً من الليل فحجّه باطل، ويرى بعض الفقهاء أن من فارق عرفة قبل غروب الشمس وجب عليه دم (ذبح شاة).

(٢) التلبية: هي قولهم: لبّيك اللهمّ لبّيك..

(٣) التهليل: هي قولهم لا لإله إلا الله.

﴿وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ﴾ واذكروا ٱللَّه بالثناء عليه والشكر له على نِعَمِهِ كما هداكم فاستنقذكم من النار ﴿وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ﴾ وقد كنتم قبل ذلك في الشرك والحيرةِ والعمى عن طريق الحق.

﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ﴾ كانت قريش ومن دَانَ دِينَها يقفون بالمزدلفة وكانوا يسمون (الحُمْس) وكان سائر العرب يقفون بعرفات، وكانت قريش تفعل هذا ترفعاً عن بقية الناس متعللين بأنهم أهل الحَرَم، فأمرهم ٱللَّه بالوقوف بعرفة وأن يفيضوا مع الناس جميعاً إلى المزدلفة بعد الوقوف بعرفة، ليكونوا في منزلة واحدة مع المؤمنين، فيستوي الغني والفقير والشريف والوضيع، لتصبح المُساواة شعارهم في هذا الموقف المهيب أمام ربّ العالمين.

﴿وَاسْتَغْفِرُوا ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ الخِطاب هنا للحجاج جميعاً بأن يطلبوا المغفرة من ٱللَّه ويُقلعوا عن ذنوبهم ليشملهم ٱللَّه برحمته ومغفرته.

وطلب المغفرة من ٱللَّه فور الانتهاء من العبادة أمر تطمئن به نفس المؤمن، والمؤمن الصادق الإيمان كلما قوي إيمانه شعر بأنه مقصّر تجاه ربه فيلجأ إلى طلب الغفران مما قصّر في العبادة.

﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ﴾ المراد بالمناسك أعمال الحج، أي فإذا فرغتم من أعمال الحج ﴿فَاذْكُرُوا ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْراً﴾ فقد كان العرب في الجاهلية بعد فراغهم من حَجّهم ومناسكهم يجتمعون فيتفاخرون بمآثر آبائهم، فأمرهم ٱللَّه في الإسلام أن يكون ذكرهم بالثناء والشكر والتعظيم لربهم دون غيره، وأن يُلزموا أنفسهم بالإكثار من ذكره نظير ما كانوا أَلْزَموا أنفسهم في جاهليتهم من ذكر آبائهم أو أشدّ ذكراً. وقيل في معنى الآية: اذكروا ٱللَّه كذكر

الأطفال آباءهم وأمهاتهم واستغيثوا به والْجأوا إليه كما كنتم تفعلون في حال صغركم بآبائكم.

﴿فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيا﴾ هنا يُبيِّن ٱللَّهُ حال بعض الناس بعد الانتهاء من مناسك الحج، فمنهم من يكون همهم الدنيا وحدها، فلا يكون دعاؤهم لربهم إلاّ ما يشبع رغباتهم وشهواتهم، وكأن العبادة في نظرهم ليست إلاّ ذريعة لطلب الشهوات والحصول على ما يرغبون منها. هذا وقد حذف المفعول به لفعل ﴿آتِنا﴾ ليعمّ كل ما يطلبون من متاع الدنيا وهذا من الإيجاز الرائع الذي يدلّ على بلاغة القُرآن ﴿وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاَقٍ﴾ وهذا الصنف من الناس لا نصيب لهم ولا حظ من نعيم الآخرة لأنهم لم يطلبوها ولم يعملوا لها.

ثم يُبَيِّنُ ٱللَّه حال الصِّنْف الآخر من الناس الذين حازوا رضاه:

﴿وَمِنْهُم مَّنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً﴾ والحَسَنَةُ في الدُّنيا التي يطلبونها هي عبارة عن الصحة والأمْن والكِفاية من الرِّزْق والتوفيق إلى الخير والزوجة الصالحة والأولاد الأبرار، والعلم والعبادة، أما الحسنة في الآخرة فهي الجنة ﴿وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ أي احفظنا يا ربّ من عذاب النار بالعفو والمغفرة واجْعَلْنا ممن يدخل الجنة بغير عذاب.

﴿أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا﴾ أولئك: إشارة إلى الفريقين جميعاً، أي للأوَّلِينَ نصيبٌ من الدُّنيا ولا نصيب لهم في الآخرة، لأنهم لم يعملوا لآخرتهم وللآخرين ثواب جزيل على ما كسبوا من الأعمال الصالحة ﴿وَٱللَّهُ سَرِيعُ الحِسَابِ﴾ أي إنه سريع الحساب للعباد لا يشغله شأنٌ عن شأن فَيُحاسبهم جملة واحدة، وقد قيل لعليّ بن أبي طالب رضي ٱللَّه عنه: كيف يُحاسب ٱللَّه العباد في يوم؟ قال: كما يرزقهم في يوم.

وبعد أن أمر ٱللَّه سبحانه الحُجَّاج بأن يذكروه بتقديسه والثناء عليه عند المَشْعَرِ الحرام، أمرهم سبحانه بأن يواصلوا ذِكره في أيام معدودات، قال ٱللَّه تعالى:

﴿وَاذْكُرُوا ٱللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ﴾ وهذه الأيام هي أيام مِنى وتُسَمَّى أيام التشريق الثلاثة التي تقع بتاريخ (١١ ـ ١٢ ـ ١٣) من شهر ذي الحجة التي تلي يوم النحر يوم عيد الأضحى. والمقصود بذكر ٱللَّه في هذه الأيام هو التكبير والتهليل (أي قول لا إلَه إلاّ الله) والتحميد عقب الصلوات وعند رمي الجَمَرات.

ولا يجوز الصيام بهذه الأيام لما رُوي عن النبي ﷺ قوله «إنَّ هذه الأيام أيام أكل وشُرب وذِكر الله»[1]. وأيام التشريق هي وقت لرمي الجَمَرات بِمِنًى والمبيت بِمِنًى معظم الليل واجب من واجبات الحج **﴿فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلاَ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلاَ إِثْمَ عَلَيْهِ﴾** أي من تعجَّل بالرَّحيل عن مِنى قبل غروب اليوم التالي من أيام التشريق فلا يأثم بهذا التعجيل كما لا حرج عليه في ذلك، ومن تأخر بالمبيت بِمِنًى حتى رَمْيِ الجِمَار في اليوم الثالث فلا إثم عليه في تأخره. والمقصود بذلك: التخيير بين التعجيل والتأخير. وبيان ذلك أن العرب في الجاهلية كانوا فريقين: فريقاً جعل المتعجل آثماً، وفريقاً جعل المتأخر آثماً فجاء الإسلام ينفي الإثم عنهما جميعاً وقد قيّد ٱللَّه نفي الإثم بقوله: **﴿لِمَنِ اتَّقَى﴾** للإشارة إلى أن العِبرة في مناسك الحج تكون بتقوى القلوب وتهذيب النفوس **﴿واتَّقُوا ٱللَّهَ واعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾** أي واتقوا ٱللَّه في جميع مناسك الحج بأدائها كما أمر ٱللَّه واجتناب ما حرّم عليكم واعلموا أنكم إلى ٱللَّه وحده تُجمعون يوم القيامة للحساب والجزاء على أعمالكم، فاحذروا مخالفة أمره.

---

(١) أخرجه مسلم.

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ ۚ فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ ۚ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٢٠٦﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠٧﴾﴾.

شرح المفردات

أَلَدُّ الخصام: شديد الخصومة في الباطل.

تَوَلَّى: انصرف، أو بمعنى صار والياً.

الحَرْث: الزَّرع.

النَّسْل: الذُّرِّية.

أَخَذَتْهُ العِزَّةُ بالإثم: أي حملته الأنفة وحميّة الجاهلية على فعل الإثم.

المِهادُ: الفِراش والموضع المهيأ للنوم.

يَشْري نفسه: شرى في اللغة يأتي بمعنى البيع والشراء، وهنا بمعنى البيع.

ابتغاء: طلباً.

صفات المنافق المفسد في الأرض

ثم يُقَدِّم لنا القُرآنُ صورتين بليغتين: صورة عن المنافق الذي يَعيثُ في الأرض فَساداً ويَخْدع الناس بكلامه المعسول، وصورة عن المؤمن التقي الورع الذي يبتغي رضا ٱللَّه، قال ٱللَّه تعالى:

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الحَيَاةِ الدُّنيا﴾ هنا يذكر القُرآن جانباً

من أحوال المنافقين المرائين الذين يثيرون إعجاب الناس بحسن بيانهم وحلاوة منطقهم عندما يتحدثون عن أمور الدنيا ومشاكلها ووسائل الإصلاح فيها، ويزعمون أن غايتهم إيصال الخير للناس والعمل لأجلهم ﴿وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِۦ﴾ وهذا الذي يثير إعجاب الناس بذلاقة لسانه إذا رأى الناس يرتابون في قوله، أقسم لهم أن ما في قلبه يُوافق ما يجري على لسانه كأن يقول: ٱللَّه يعلم أني أقول حقاً وإني صادق فيما أقول لكم[١] ﴿وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ﴾ وهو شديد الخصام في الباطل وقد يأتي الخصام بمعنى الجدال، أي هو شديد الجدال بالباطل، كاذب في القول يتكلم بالحكمة ويعمل بالخطيئة، لا يهمه الحق بمقدار ما يهمه انتصار فِكْرِهِ وغَلَبَة رأيه، وهذا الصنف من الناس قال النبي ﷺ فيهم: «إنَّ أبغض الرّجال إلى ٱللَّه الألَدّ الخَصِم»[٢].

﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا﴾ والتَّوَلّي: يأتي بمعنى الإدْبار والانْصراف، أي وإذا أعرض عنك يا محمد هذا المنافق المُرائي بعد أن خدع الناس بحلاوة لسانه وفصاحة منطقه عَمِلَ إلى الإفْساد بين الناس وألْقى بينهم بذور الفِتنة وعَمِلَ في الأرض بما حرَّم ٱللَّه. وقد يأتي تَوَلَّى بمعنى: صار والِياً، أي هذا الذي اجتذب ثقة الناس بأقواله الخادعة وأيْمانِهِ الكاذبة وخُطَبِهِ الرنَّانةِ إذا صارَ والياً على الناس وتربع على سدّة الرئاسة لا يسعى لنفع الناس ولا يحكم بينهم بالعَدْل، بل يسعى لإشْباع رغباته وأهوائه ويثير الأحقاد نحو خُصُومه مما يؤدي إلى الفَساد في الأرض ﴿وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ﴾ الحَرْثُ: الزرع. والنسل: المراد به نَسْل كل دابةٍ والناس أيضاً. أي هذا المُرائي الخَدّاع

(١) قرر علماء اللغة أنّ من ألفاظ القسم: الله يعلم أني فعلت كذا أو الله يشهد أني قلت كذا، فهذا تأكيد للقسم معروف في لغة العرب.

(٢) متفق عليه.

لا يكتفي بالإفساد في الأرض بل يعمل على هلاك مُقومات الأُمة ومرافقها الحياتية من نبات وحيوان، أو يعمل لإثارة الأحقاد التي تؤدي إلى الصراع الدّموي وهلاك زهرة شباب الأمة ﴿وَٱللَّهُ لا يُحِبُّ الفَسَادَ﴾ وٱللّه لا يحب المفسدين في الأرض بل يبغضهم، وفي بُغْضِ ٱللَّه لهم بيان لما أعدَّ لهم من عذاب في الآخرة.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ ٱللَّهَ﴾ وإذا قيل لهذا المنافق المرائي: اتق غضب ٱللَّه واخش عقابه بالامتناع عن الفساد في الأرض ﴿أَخَذَتْهُ العِزَّةُ بِالإِثْمِ﴾ بالإثم: أي بالمعصية، والباء الداخلة على الإثم للسَّبَبِيّة، أي استولت عليه العزة والأنفة والكبرياء بسبب الإثم الذي ملأ قلبه وأحاط بنفسه فلم يدع سبيلاً لنفاذ الهداية إلى قلبه. فهذا المفسد يتعاظم عن أن يؤخذ عليه خطأ أو أن يوجه إلى الصواب، فقد أخذته العزة لا بالحق ولا بالعدل ولكن بالإثم، فاستمر في إجرامه وتمادى في طغيانه، وهذا وصف دقيق ينطبق على الطغاة في كل العصور[1].

ثم يُبين ٱللَّه مصير هذا المفسد بقوله: ﴿فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ﴾ أي كفاه عذاب جهنم على كبريائه وإفساده في الأرض ﴿وَلَبِئْسَ المِهَادُ﴾ والمِهَادُ: هو الفراش الذي يأوي إليه المرء للراحة والنوم، فاستعمال المهاد لجهنم للتهكم به وإذلاله فهو مهاد له للعذاب لا للراحة.

وفي مقابل الحديث عن هذه الفئة المفسدة في الأرض يأتي الحديث عن الفئة الصالحة من عباد ٱللَّه:

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغاءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ﴾ يَشْرِي: يبيع، أي ومن

(١) يقول ابن مسعود: إنَّ من أكبر الذنب عند الله أن يُقال للعبد: اتّقِ الله، فيقول: عليك بنفسك.

الناس مؤمنون صادقون سَمَت نفوسهم، وترفَّعُوا عن النفاق والفساد في الأرض، فلم يستجيبوا لأهوائهم وشهواتهم، وإنما باعوا أنفسهم في سبيل ٱللَّه وطلباً لمرضاته، وفِداءً لِدِينه، وقاسوا أنواع المشقات في طاعة ٱللَّه فقبل ٱللَّه هذا البيع وأعطاهم الثواب الجزيل والنعيم في الآخرة كما جاء في القرآن: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ﴾ [التوبة: ١١١].

ثم يختم ٱللَّه الآية بقوله: ﴿وٱللَّهُ رَؤُوفٌ بالعِبَادِ﴾ وٱللَّه سبحانه رحيم بعباده حيث أسبغ عليهم نعمه ظاهرة وباطنة ولكنهم قصّروا في واجباتهم نحو ربهم ولم يقوموا بما يتوجب عليهم من شكره والعمل بمرضاته.

صورتان يبرزهما القرآن ليتعلم الناس مدى التفاوت بين الخداع والصدق، وليبحثوا عن الحقيقة وراء هذه المظاهر المموهة الخَدَّاعة من كثيرٍ من الناس، وأنْ لا ينخدعوا بمن اتخذوا الكلام المزوّق سلعة لهم للوصول إلى الحكم وإلى أغراضهم الدنيئة.



﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴿٢٠٨﴾ فَإِن زَلَلۡتُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡكُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٠٩﴾ هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِي ظُلَلٖ مِّنَ ٱلۡغَمَامِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ ﴿٢١٠﴾ سَلۡ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ كَمۡ ءَاتَيۡنَٰهُم مِّنۡ ءَايَةِۭ بَيِّنَةٖۗ وَمَن يُبَدِّلۡ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴿٢١١﴾ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَيَسۡخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۘ وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ فَوۡقَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ وَٱللَّهُ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ ﴿٢١٢﴾﴾.

شرح المفردات

السِّلْم: المُسالمة أو الإسلام.

خُطُوات الشيطان: آثاره وطرائقه التي يُزَيِّن لكم بها المعاصي.

زَلَلْتُم: مِلْتُم وضللتم عن الحق.

ينظرون: ينتظرون.

ظُلَل: جمع ظلة، وهي ما يحجب ضوء الشمس.

آية بَيِّنَة: حُجَّة واضحة.

الدعوة إلى السِّلْم

وبعد أن بَيَّنَ القُرآن حال الذين يعيثون في الأرض فساداً انتقل إلى دعوة المؤمنين إلى العمل بأحكام الإسلام لأنه الدين المرتكز على السلام ونبذ العنف قال ٱللَّه تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً﴾ السلم: قرئ بكسر السين كما قرئ بفتحها، وقد ذهب فريق من أهل اللغة والمُفسرين إلي أن السِّلم بالكسر والسَّلم بالفتح بمعنى واحد، ويُطلقان على الإسلام، وعلى المُسالمة والمُوادعة والصُلْح.

فإذا أخذنا السِّلم بمعنى الإسلام فيكون الخطاب لجملة أناس، قد يكون الخطاب للمؤمنين بنبوّة محمد وبالقرآن الذي أُنزل عليه، أمرهم ٱللَّه جميعاً بالثبات على دينهم وأن يعملوا بجميع أحكام الإسلام وشرائعه ويحافظوا على فرائضه وإقامة حدوده.

وقيل: الخطاب في الآية لمن آمن بنبوّة محمد من بني إسرائيل كعبد ٱللَّه بن سلام وغيره، وذلك أنهم ذهبوا إلى تعظيم يوم السبت وكرهوا لحم الجمل وأرادوا الأخذ بشيء من أحكام التوراة فنزلت الآية فيهم، والمعنى: ادخلوا مع المسلمين في شريعتهم جميعاً ولا تفترقوا عنهم بالأخذ بما نسخه القرآن من التوراة، وقيل: الخطاب لأهل الكتاب، والمعنى: يا أيها الذين آمنوا بنبوّة موسى وعيسى ادخلوا في الإسلام جميعاً وآمنوا بنبوة محمد فليس إيمانكم بالتوراة والإنجيل وحدهما بنافعكم. وقد قال النبيّ محمد ﷺ: «والذي نَفْسُ محمدٍ بيده لا يسمع بِي أَحَدٌ من هذه الأمّة: يهوديٌّ ولا نصرانيّ، ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلْتُ به إلاّ كان من أصحاب النار»[1].

أما إذا أخذنا معنى (السِّلْم) على أنه المُوادعة والمُسالمة والصلح فيكون دعوة المسلمين إلى المُسالمة فيما بينهم، وأن لا يتفرقوا ولا يتنازعوا بالجدل والخلاف المذهبي فيصبحوا شِيَعاً وأحْزاباً يَقْتُلُ بعضُهم بعضاً كما حصل ذلك بعد الإسلام، كما تشمل الدعوة إلى (السلم) مُسالمة المسلمين لغيرهم فلا

(١) أخرجه الإمام مسلم.

يعتدون عليهم ما داموا مسالمين للمسلمين وقد جاء في القرآن: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ [المائدة: ٨٧].

وإن نصوص القرآن بجملتها تدعو إلى السلام بين البشر ونَبْذِ الحروب والصراعات فيما بينهم، كما دعا القُرآن شُعوبَ الأرض إلى التعارف بينهم بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣]. والتعارف ينفي النزاع والتقاتل فيما بينهم.

ومن وصية ٱللَّه لرسوله محمد ﷺ: ﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [الأنفال: ٦١] أي وإن مال أعداؤك إلى الصلح والسلام وكفّوا عن مقاتلتك فعاملهم بالمثل.

﴿وَلاَ تَتَّبِعُوا خُطُواتِ الشَّيطانِ﴾ هنا تنبيهٌ إلى أنَّ ما يصرف الناس عن السلم ويدعوهم إلى التفرقة هو من وساوس الشيطان، ولما كان من أساليب الشيطان أنه لا يجرّ الناس بوساوسه إلى الشر دُفعة واحدة بل يأخذهم بالتدرج من شرٍّ إلى ما هو شر آخر، لذا عبَّر ٱللَّهُ عن ذلك بخطوات الشيطان، أي خطوة إلى الشر إثر خطوة ﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ أي إن الشيطان ظاهر العداوة لكم ـ أيها الناس ـ فهو يحرضكم على الفرقة والتنازع، ويغريكم باتّباع الشهوات والمنكرات ﴿فَإِنْ زَلَلْتُمْ[1]﴾ فإن أخطأتم الحق فضللتم عنه وخالفتم الإسلام وشرائعه ﴿مِّن بَعْدِ ما جَاءَتْكُمُ البَيِّنَاتُ﴾ أي من بعد أن ساق ٱللَّه لكم الحجج والأدلة المبينة لكم الحق من الباطل والضلال من الهدى ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّ ٱللَّهَ

---

(١) زللتم: يقال: زلّ، أي زلت به القدم ووقع أرضاً، ثم استُعملت كلمة زلّ في العدول عن الحق.

﴿عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ أي فاعلموا أن ٱللَّه هو القوي الغالب لا يعجزه الانتقام منكم على معصيتكم إياه، حكيم يضع الأمور في مواضعها فلا يجعل المصلح كالمفسد بل يثيب المحسن ويعاقب المسيء.

﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الغَمَامِ والمَلاَئِكَةُ﴾ ينظرون: ينتظرون، والاستفهام هنا إنكاريّ بمعنى النفي، أي: لا ينتظرون، وإتيان ٱللَّه إنما هو بالمعنى اللائق به لأنه سبحانه يتنزه عن مشابهة الخلق فيحمل معنى إتيان ٱللَّه وملائكته على إنزال عذابه الدنيوي. والمعنى: ما ينتظر هؤلاء الذين يأبون الدخول في الإسلام من بعد ما جاءتهم الحجج الواضحة بأن الإسلام حق إلا أن يأتيهم أمر ٱللَّه للملائكة بإهلاكهم وإنزال العذاب بهم في ظلل من السحاب الأبيض يحسبونه رحمة يجود عليهم بالمطر بينما هو عليهم عذاب فيكون ذلك أشدّ وقعاً على نفوسهم ﴿وَقُضِيَ الأَمْرُ﴾ أي إذا نزل فيهم عذاب ٱللَّه في الدنيا فقد قُضي أمر ٱللَّه فيهم إذ لم يكن ثمة رجاء في إيمانهم كما أهلك ٱللَّه قوم عاد وثمود وفرعون وجيشه وغيرهم ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ﴾ وإلى ٱللَّه وحده تصير الأمور، وسيجازي الذين أساءوا بما عملوا وسيجازي الذين أحسنوا بالحسنى.

﴿سَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَمْ آتَيْنَاهُم مِّنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ﴾ والمأمور بالسؤال هو الرسول محمد ﷺ، والمراد من ﴿بَنِي إِسْرائِيلَ﴾ في الآية الحاضرون من اليهود في عهد الرسول ﷺ، والضمير في ﴿آتَيْنَاهُم﴾ هم سلفهم وأجدادهم، والآية البيّنة: المعجزة الواضحة.

فٱللَّه سبحانه يطلب من رسوله محمد أن يسأل اليهود على عهده سؤال توبيخ وتقريع كم أعطى أسلافهم من معجزات على يد رسل ٱللَّه بما يدعوهم للإيمان بٱللَّه، ومثال على ذلك ما أيّد ٱللَّه به موسى، فعصاه انقلبت إلى حية

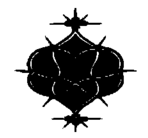
تسعى وابتلعت أدوات السحرة، وضرب موسى بعصاه البحر فانشق إلى اثني عشر طريقاً سلكه بنو إسرائيل ونجوا من بطش فرعون، وظللهم ٱللَّه بالغمام وهم في صحراء سيناء ومنع عنهم حرارة الشمس اللآهبة، ونزّل ٱللَّه عليهم المَنّ والسَّلْوى لغذائهم وهم في الصحراء القاحلة، ومع هذه المعجزات وغيرها يقولون لموسى: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ [البقرة: ٥٥] ومنهم من كفروا وعبدوا العِجْلَ فاستحقوا بذلك غضب ٱللَّه وعذابه، وكأن ٱللَّه يُذَكِّر بني إسرائيل على عهد رسوله محمد ﷺ بأنهم إذا أعْرضوا عما جاءهم به من الهُدى فإنهم سيلقون العذاب كما حصل لأسلافهم من قبل.

﴿وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ﴾ ونعمة ٱللَّه تشمل: نعمة الصحة، ونعمة المال، ونعمة العقل، ونعمة الهداية بإرسال الرسل، ونعمة الإسلام الذي جاء به رسول ٱللَّه محمد ﷺ، أي ومن يُبدّل هذه النِّعَم بالكفر ولا يبذل جهده في مرضاة ٱللَّه وينغمس في المعاصي والمنكرات ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ العِقَابِ﴾ أي لكل من ضلّوا بعد ما جاءتهم البيّنات وبدّلوا نعمة ٱللَّه كفراً.

﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ زُيِّنَ: حُسِّنَ، أي حُسِّنت الدنيا في أعينهم وتغلغلت محبتها في قلوبهم حتى تهالكوا عليها معرضين عن العمل للآخرة، والتزيين من حيث الإيجاد يرجع إلى ٱللَّه سبحانه، فهو الذي حسّنها وجمّلها ليمتحن بها عباده كما جاء في القرآن ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٧].

ويجوز أن يكون التزيين من الشيطان إذْ يوسوس للإنسان الارتماء في شهوات الدنيا وملذّاتها وعصيان ٱللَّه فيها على حدّ ما جاء في القرآن على لسان

إبليس ﴿لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الحجر: ٣٩] فالكُفار حسّنت لهم الدنيا فحسبوها كل شيء وأنساهم ذلك العمل للآخرة، وظنوا أن ليس هناك بعث ولا نشور ولا حساب ولا جزاء ولذلك انكبّوا على ملذّاتها وشهواتها بأي السبل كانت حلالاً أم حراماً ﴿وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ وقد أدّى بهم تهافتهم على الدنيا أن سخروا من الذين آمنوا لأن أكثرهم من الفقراء، بينما هم كانوا في ثراء يحقق لهم كل ما يشتهون، ولكن ليس هناك صلة وارتباط بين نعيم الدنيا ونعيم الآخرة، فقد يكون المحروم من متاع الدنيا هو المنعّم في الآخرة ﴿وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أي والذين يخافون ٱللَّه ويحذرون عقابه بترك المعاصي يكونون يوم القيامة أرفع منزلة وأعلى مكانةً عند ٱللَّه من الذين كفروا، فالفوقية هنا فوقية تشريف وتكريم وهي مجاز في تناهي الفضل والنعيم لهم في الجنة، بينما الكُفار في عذاب النار ﴿وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ وٱللَّه سبحانه يُعطي من يشاء من الرزق بغير حصر وبلا تقتير، فَيُعطي الرزق في الدنيا من يطيعه ومن يعصيه، ولكن لا يعطي نعيم الآخرة إلا للمتقين، والرزق في الدنيا والحصول عليه منوط بالعمل بأسبابه وبتوفيق ٱللَّه لمن يرزقه.



﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾﴾.

شرح المفردات

أمّةً: جماعة من الناس أمْرُهُم ومقصدهم واحد.

مُبشّرين: يخبرون الناس بما يسرّهم برضوان ٱللّٰه عليهم إن أطاعوه.

مُنذرين: يُخوّفون الناس من سخَط ٱللّٰه عليهم إن عصوه.

البيّنات: الأدلّة المقنعة الظاهرة.

بغياً: ظلماً وعدواناً.

صراط مستقيم: الطريق الذي لا اعوجاج فيه وهو طريق الإيمان والخير.

اختلاف الناس سببه العدول عن الحق

وبعد أن ذكر ٱللّٰه في الآيات السابقة أن الناس فريقان: فريق فاسد اختار الشرّ طريقاً له، وفريق صالح باع نفسه في سبيل ٱللّٰه لنيل رضاه، بيّن ٱللّٰه في الآية التالية أن اختلاف الناس هو من طبيعة الوجود الإنساني، فالناس منهم الصالح ومنهم المفسد، ولكن يتدارك ٱللّٰه عباده بإرسال الرسل إليهم ليهدوهم إلى الحقّ والهُدى، قال ٱللّٰه تعالى:

﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً واحِدَةً﴾ الأمّة: كل جماعة يجمعهم أمْرٌ، إمّا دين واحد، أو زمان واحد، أو مكان واحد، وجمعها أُمم. والمعنى: كان الناس جماعة

واحدة متفقين على العقيدة الحقة وهي وحدانية ٱللَّه التي فطر ٱللَّه الناس عليها، مقرّين بالعبودية له وحده ثم اختلفوا ما بين ضالٌ ومهتد.

أو يكون المعنى: كان الناس جماعة واحدة في خلوّهم من الشرائع وجهلهم بالحقائق، أو كانوا قبل إرسال الرسل إليهم على مِلّة واحدة وهي الكُفر ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ فأرسل ٱللَّه النبيين لإرشاد الناس إلى دين ٱللَّه الحق، مبشرين من سار منهم على هدى ٱللَّه بجزيل الثواب، ومنذرين من ضلّ منهم بسوء العذاب ﴿وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الكِتَابَ بالحَقِّ﴾ الكتاب: اسم جنس بمعنى الكتب، أي وأنزل ٱللَّه الكتب المنزلة من عنده وفيها شرائع ٱللَّه داعية إلى الحق.

وأورد القرآن كتب الأنبياء بصيغة المفرد للإشارة إلى أن كتب النبيين وإن تعددت إلاّ أنها في جوهرها كتاب واحد لاشتمالها على أصول الدين من عبادة ٱللَّه وحده، والإيمان بالبعث والحساب، والجزاء على الأعمال، والدعوة إلى مكارم الأخلاق، أما الشرائع فهي تختلف بين أمّة وأخرى ﴿لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فيما اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ أي ليحكم كل نبيّ بين الناس من قومه فيما اختلفوا في دين ٱللَّه ويردّهم إلى الحق والصواب ﴿وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إلاَّ الَّذِينَ أُوتُوهُ﴾ أي وما اختلف في الكتاب المنزل من عند ٱللَّه إلاّ الذين أُوتوه من أرباب العلم به والدراسة له، واختلافهم في كتاب ٱللَّه هو تأويله على غير معناه بما يُوافق أهواءهم ومذاهبهم وتكفير بعضهم بعضاً ﴿مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ البَيِّنَاتُ﴾ أي من بعد ما جاءتهم الحجج الواضحات على وجوب الأخذ به وعدم الاختلاف فيه. ولكن كان السبب الدّاعي لاختلافهم فيه هو ﴿بَغْياً بَيْنَهُمْ﴾ والبغي أصله الحَسَد والظلم، ثم سمّي الظلم بغياً لأن الحاسد يظلم المحسود، كما يأتي البغي بمعنى العُدول عن الحق والكِبْر ﴿فَهَدَى ٱللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ

الحَقِّ بِإِذْنِهِ﴾ أي وإذا كان هذا شأن الظالمين في اختلافهم في كتاب ٱللَّه فقد هدى ٱللَّه الذين آمنوا وصدَّقوا رسله إلى الحق الذي اختلفوا حوله، وقد يُراد من قوله تعالى ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ هم أُمّة محمد الذين هداهم ٱللَّه لِما اختلف فيه أهل الكتاب بأن وفقهم ٱللَّه لإصابة الحق بإذنه تعالى وتيسيره ﴿وَٱللَّهُ يَهْدِي مَن يَشاءُ إلى صِراطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ بهذه الجملة ختم ٱللَّه الآية لبيان كمال سلطته وإرادته، ولو أراد ٱللَّه أن يكون الناس جميعاً مهتدين لحصل ذلك، ولكن حكمته اقتضت أن يختبرهم ليتميز الصادق في إيمانه من الكاذب فَيُجازي كل فريق بما يستحقه من ثواب أو عقاب.

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَاءُ وَٱلضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾ يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ۖ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢١٥﴾ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾﴾.

شرح المفردات

حَسِبتم: ظننتم.

خلوا: مضوا.

مسّتهم: أصابتهم.

البأساء: الفقر أو الشدة.

الضراء: المرض أو الضرر مطلقاً.

زُلزلوا: أُزعجوا إزعاجاً شديداً بالبلايا.

دعوة للصمود عند الشدائد

ويتابع القرآن فيحثّ المسلمين على الصمود والصبر وكان ذلك حينما أحاط الأعداء بالمدينة المنورة من كل جانب ينتظرون فرصة للانقضاض على المسلمين وإهْلاكهم، وفي هذا الجو المشحون بالخوف والقلق على المصير نزلت الآية التالية تثبيتاً لقلوبهم ومُبشّرة لهم بالنصر القريب على أعدائهم:

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ﴾ أم حسبتم: اسْتفهام إنْكاري، أي هل حسبتم أيها المسلمون أن تدخلوا الجنة يوم القيامة **﴿وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم﴾** لَمّا: أداة نفي فيها معنى التوقع، والمعنى: ولم تأتكم محنة يتوقع حلولها بكم، ولم يصبكم مثل ما أصاب مَنْ قَبْلَكُم من أتباع الأنبياء والرسل من الشدائد والمحن والاختبار فَتُبْتَلُوا بما ابتُلوا به **﴿مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ﴾** أي أصابهم البأساء وهو الفقر والشدة والبلاء وأصابتهم الضرّاء وهي الأمراض والآلام **﴿وَزُلْزِلُوا﴾** والزلزلةُ: شِدّة التحريك، أي أزعجوا إزعاجاً شديداً بما نزل بهم من البلايا **﴿حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ﴾** والرسول: للجنس، أي إن تلك الحالة من البلايا والشدّة والاختبار كانت تعرض لكل رسول من رسل ٱللّه، إذ يمتحنهم ٱللّه بأنواع البلايا ويختبرهم بصنوف الشدة. ومن المعلوم أن رسل ٱللّه في غاية الثبات والصبر عند نزول البلاء، فإذا لم يبق لهم صبر حتى استغاثوا بٱللّه وشاركهم في الاستغاثة المؤمنون من أتباعهم متسائلين: متى نصر ٱللّه؟ فهذا يصوّر عِظَم البلاء الذي

حلّ بهم، وفي تلك الحالة تأتي البشرى من ٱللَّه ﴿أَلَا إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾ في هذه الجملة أنواع من المؤكدات على حصول النصر. منها: تصدير الجملة بأداة الاستفتاح ﴿أَلَا﴾ الدالّة على تحقيق مضمونها. ومنها: ذكر ﴿إِنَّ﴾ المؤكِّدة لمضمون القول. ومنها: إضافة النصر إلى ٱللَّه القادر على كل شيء وهو سبحانه إذا وعد وَفَى.

هكذا كانت حال المؤمنين مِنْ قَبلِكم ـ يا أتباع محمد ـ لم يغيّرهم طول البلاء وعِظَم الشدة عن الثقة بٱللَّه، فكونوا مثْلهم في تحمّل الأذى ومقاساة الأهوال، فإن نصر ٱللَّه قريب.

هذه الآية، قيل: إنها نزلت في غزوة الأحزاب إذ اجتمع المشركون مع أهل الكتاب على الإيقاع بالمسلمين والقضاء عليهم، وأصاب المؤمنين يومئذٍ ما أصابهم من الجهد والجوع والخوف، وقد وصف ٱللَّه ذلك بقوله: ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠. هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾ [الأحزاب: ١٠ ـ ١١].

وروى البخاري عن خبّاب بن الأرتّ قال: شكَوْنا إلى رسول ٱللَّه ﷺ وهو متوسِّدٌ بُردة في ظل الكعبة فقلنا: ألا تَسْتنصر لنا؟ ألا تدعو لنا؟ فقال: «قد كان مَنْ قَبْلَكُم يُؤخذ الرجلُ فيُحْفَرُ له في الأرض فَيُجْعَلُ فيها، فَيُجاءُ بالمنشار فيوضعُ على رأسه فيُجْعَلُ نصفين، ويمشَّطُ بأمشاط الحديد ما دون لحمِهِ وعَظْمِه فما يصدُّه ذلك عن دِينِهِ، وٱللَّه لَيُتِمَّنَّ ٱللّٰهُ هذا الأمرَ حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضْرَمَوْت لا يخافُ إلاّ ٱللَّه، والذئب على غنمه، ولكنّكم تستعجلون»[1].

---

(١) أخرجه البخاري.

التكافل الاجتماعي

ثم ينتقل القرآن إلى موضوع آخر وهو الدعوة إلى التكافل الاجتماعي عبر سؤال بعض المسلمين عن كيفية إنْفاق أموالهم ومواقعه التي بها يقع القبول عند ٱللَّه، فيأتي الجواب من ٱللَّه على سؤالهم:

﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ مَا أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ﴾ أي يسألك أصحابك يا محمد: ما هي الوجوه التي ينفقون فيها؟ وأين يضعون ما لزم إنفاقه[1]؟ والخير في الآية هو المال، ويطلق على الوفير منه، والخير يفترض أن يكون المال حلالاً، وإنما سمي المال خيراً للتنبيه على أن من حقه أن يُصرف إلى جهة الخير، والخير هو الشيء الحسن النافع. ثم تُبَين الآية الجهة التي تستحق الإنفاق عليها وهي: ﴿فَلِلْوَالِدَيْنِ والأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى والمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ قدَّم القرآن الآباء والأمهات على غيرهم أداءً لحق تربيتهما للمنفِق ووفاء لبعض حقوقهما عليه، ثم الأقرباء من الإخوة والأخوات والأعمام والعمّات والأخوال والخالات وغيرهم وفاءً لحق القرابة. واليتامى هم الذين فقدوا آباءهم وكانوا صِغاراً فُقراء، ثم المساكين وهم من لا كسْب لهم من المال، أو لهم كسْب ولكن لا يفي بحاجاتهم، وابن السبيل وهو المسافر الذي انقطع عن ماله. فالترتيب في الآية يشير بتفضيل البعض على البعض الآخر في الإنْفاق، فيسدّ المنفق حاجة الأبوين أولاً، ثم يسدّ حاجة الأقرباء، ثم يسدّ حاجة المحتاجين من غير أسرته.

وأكثر العلماء قالوا: إنَّ الآية حكمها في صدقة التطوع لأن هناك فريضة الزكاة التي تُصرف على المحتاجين الذين نص عليهم القرآن.

---

(١) عن ابن عباس قال: كان عمرو بن الجموح شيخاً كبيراً وعنده مال كثير، فقال: يا رسول الله، بماذا نتصدق؟ وعلى من ننفق؟ فنزلت هذه الآية.

ثم يختم ٱللَّه الآية بقوله: ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ عليم: صيغة مبالغة من العلم، وإحساس المؤمن بأن ٱللَّه يرى عمله في الخير حين يعمله، وأنه سيكافئه عليه، إن هذا سيشجعه على فعل الخير والاستمرار عليه.

ثم يبين ٱللَّه الواجب على المسلمين في حال الاعتداء عليهم:

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ القِتالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ﴾ كُتِبَ أي فرض ٱللَّه عليكم القتال ـ أيها المسلمون ـ وهو أمْر تلجأون إليه وتضطرون إليه مكرهين على القتال لإزالة الفتنة التي يثيرها أعداؤكم، ذَوْداً عن الدِّين ودفاعاً عن أرواحكم وأموالكم. وكراهية القتال أمر طبيعي لأنه يحول بين المقاتل وبين طمأنينته ولذّاته وأهله ويعرِّضه لخطر الهلاك وألَم الجراح ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ وعسى أن تكرهوا ما في الجهاد من المشقة والخطر على حياتكم ولكن نهايته تكون خيراً لكم ﴿وَعَسى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ﴾ وقد تحبون شيئاً وتحرصون عليه ولكنّ نهايته شرٌّ لكم. فالقعود عن الجهاد عند الاعتداء عليكم يؤدي بكم إلى الضعف والفقر والذُّل والهَوان، أما الجهاد ومقارعة العدو المعتدي فهو سبب للعِزَّة والكرامة، وفيه إحدى الحسنيين: إما الشهادة ودخول الجنة في الآخرة وإما الظفر والغنيمة ﴿وٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ﴾ وٱللَّه يعلم ما هو خير لكم وما هو شرّ لكم، وأنتم لا تعلمون ذلك، فأطيعوا ٱللَّه في كل ما يأمركم به لأن فيه الخير دائماً.



﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۗ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟ ۚ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢١٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢١٨﴾﴾.

شرح المفردات

الشهر الحرام: أحد الأشهر الأربعة التي حرّم ٱللّه القتال فيها وهي: رجب، وذو القعدة، وذو الحجة، والمحرّم.

وصدّ عن سبيل ٱللّه: وصرف للمسلمين عن كل ما يوصل إلى طاعة ٱللّه.

الفتنة: المراد بها تعذيب المسلمين وإخراجهم من ديارهم وعن دين ٱللّه.

أكبر عند ٱللّه: أعظم إثماً عند ٱللّه.

حتى يردّوكم عن دينكم: حتى يخرجوكم من الإسلام ويعيدوكم إلى الكفر.

حبطت أعمالهم: بطلت أعمالهم الصالحة.

حكم القتال في الأشهر الحرام

ويتابع القرآن فيبين الآثام التي تنجم عن القتال في الأشهر الحرم، وعن منع الناس وصرْفهم عن دين ٱللّه، وعن الكفر بٱللّه، وعن الفتنة في دين ٱللّه، قال ٱللّه تعالى:

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الحَرامِ قِتَالٍ فِيهِ﴾ أي يسألك المسلمون ـ يا محمد ـ عن القتال في الشهر الحرام أهو جائز أم محرّم؟ ﴿قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ﴾ قل لهم يا محمد: إن القتال في الشهر الحرام هو ذنب عظيم. والشهر الحرام في الآية المراد به جنس الأشهر الحرام وهي الأشهر الأربعة: رَجَب، وذو القعدة، وذو الحجة، والمحرّم. وأطلق عليها الأشهر الحرم لأن القتال فيها محرّم، وقد كانت العرب لا تسفك دماً في تلك الأشهر ولا تقوم بغارة على عدو، والحكمة في تحريم القتال في الأشهر الحرم تأمين السبل وإشاعة الأمن لمن يريد أداء الحج أو العمرة.

وقد سأل المسلمون هذا السؤال بعدما علموا من قتل أحد المشركين في الشهر الحرام على يد بعض المسلمين، وقد جرى ذلك في حادثة مفادها بما سنذكره باختصار: بعث رسول ٱللَّه عبد ٱللَّه بن جحش ومعه ثمانية رهط من المهاجرين إلى مكان يسمى (بطن نخلة) ليترصدوا عيراً[1] لقريش ويأتوه بخبرهم، فمرّت بهم عير لقريش فيها عمرو بن الحضرمي وثلاثة آخرون، فقتله المسلمون وأَسَروا اثنين واستاقوا العير إلى المدينة التي كانت تحمل تجارة لقريش وكان ذلك أول يوم من شهر رجب وهم يظنونه من شهر جمادى الآخرة. فلمّا قدموا على رسول ٱللَّه قال لهم: وٱللَّه ما أمرْتكم بقتال في الشهر الحرام، فلمّا قال لهم ذلك سُقط في أيديهم، وظنّوا أن قد هلكوا وعنَّفهم إخوانهم من المسلمين، وأوْقف رسول ٱللَّه توزيع الغنيمة[2]، وقالت قريش: استحلَّ محمدٌ الشهر الحرام! عندئذٍ سأل بعض المسلمين رسول ٱللَّه عن حكْم القتال في

---

(١) عير: قافلة من الجمال.

(٢) وبعد نزول الآية التي تستنكر ما فعله المشركون وزّع رسول الله الغنيمة وفادى الأسيرَيْن.

الشهر الحرام، فبيَّن ٱللَّهُ أنَّ القتال فيه إثم كبير، ولكن هناك جرائم أكبر من ذلك قد اقترفها المشركون وهي الأمور الآتية:

﴿وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ فهم فعلوا أولاً: ﴿وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي منعوا الناس وصرفوهم عن دين ٱللَّه والدخول فيه. ثانياً: ﴿وَكُفْرٌ بِهِ﴾ أي وكفروا بٱللَّه إذْ عبدوا الأوثان وأشركوا به غيره. ثالثاً: ﴿وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ أي منعوا المسلمين من زيارة المسجد الحرام للحج أو العمرة. رابعاً: ﴿وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ﴾ وإخراج أهل المسجد الحرام حين آذوهم حتى هاجروا وتركوا مكة، وإنما جعلهم ٱللَّه أهل المسجد الحرام لأنهم كانوا يسكنون حوله ﴿أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي إن هذه الأمور مجتمعة ومنفردة أكبر من القتال في الشهر الحرام، ومع ذلك ارتكبها المشركون، وأخذوا على بعض المسلمين القتال في الشهر الحرام.

هذه الأُمور الأربعة كلها جرائم اقترفها المشركون وهي في مجموعها تُساوي واحدة قائمة بذاتها وهي الفتنة في دين ٱللَّه، ولذلك خَصَّها اللهُ بالذكر بقوله:

﴿وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ﴾ والفتنة تطلق على الإيذاء والتعذيب والمحنة، والفتنة هنا أُريد بها ما لقيه المسلمون من المشركين من صُنوف الأذى والتعذيب لصرفهم عن دينهم، وقطيعتهم في المعاملة والسخرية بهم، ومنعهم من إظهار عبادتهم، ولقد بالغ المشركون في إيقاع الأذى والعذاب بالمسلمين حتى إن بعض المسلمين مات تحت العذاب وهو ياسر وزوجه سُميَّة. وكان أُمَيَّةُ بن خلف يُعذِّب بلالاً ويمنع عنه الطعام والشراب ويطرحه في رمال الصحراء الحارة ويكويه بالنار ليرتدّ عن الإسلام، وغيرهم كثير ذاقوا مُرَّ العَذَابِ.

﴿وَلاَ يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ﴾ أي لم يكتف المشركون بإنزال العذاب بكم ـ أيها المؤمنون ـ بل لا يزالون يشنّون الحرب عليكم لصرفكم عن دينكم القويم ويردّوكم إلى الكفر ﴿إِنِ اسْتَطَاعُوا﴾ هذه العبارة تدلّ على عدم قدرتهم على ذلك، وعلى استبعادٍ لاستطاعتهم، كقول الرجل لعدوّه: إن ظفرتَ بي فلا تُبْقِ عَلَيَّ.

﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ﴾ ومن يرجع منكم ـ أيها المؤمنون ـ عن دينه الذي أقرّ به، ويكفر بٱللَّه بعد إذ آمن بوجوده ووحدانيته أو ينكر نُبُوَّة محمد ويطعن بها بعد أن أذعن لِما جاء به النبيّ من الهدى فيمت وهو على كفره ﴿فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ﴾ أي أولئك تبطل كل أعمالهم الصالحة التي قدّموها في دُنياهم ويبطل الثواب عليها في الآخرة ﴿وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ أي أولئك المرتدّون عن دينهم هم ملازمون عذاب النار يوم القيامة ملازمةَ الصاحب لصاحبه وهم خالدون في العذاب بها وباقون فيها أبداً.

وبعد أن نفى ٱللَّه الإثم عن الذين قتلوا عَمرو بن الحضرمي في الشهر الحرام عن خطأ منهم، وبيّن أن ما فعله المشركون بالمؤمنين من الأذى والاضطهاد أكثر إثماً، سأل عبدُ ٱللَّه بن جحش ومن معه من المؤمنين رسول ٱللَّه بقولهم: يا رسول ٱللَّه، هَبْ أنه لا عقاب علينا فيما فعلنا، فهل نطمع منه أجراً وثواباً؟ فنزلت الآية التالية:

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللهِ واللهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

في هذه الآية ثلاث صفات لأولئك المُقرَّبين إلى ٱللَّه:

١ ـ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي صدَّقوا بوجود ٱللَّه ووحدانيته وأذْعنوا لحكمه وأخْلصوا قلوبهم له.

٢ ـ ﴿والَّذِينَ هَاجَرُوا﴾ وهم الذين هاجروا من مكة إلى المدينة المنورة وتركوا أموالهم فداء لدينهم وتمسكاً به.

٣ ـ ﴿وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ والجهاد بذْل الجهد في طاعة ٱللَّه والقتال في سبيل إعلاء كلمته وإقامة دينه.

هؤلاء الذين فعلوا ذلك كله هم على رجاء برحمة ٱللَّه لهم ﴿أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ ٱللَّهِ﴾ والرجاء ترقّب الخير مع تغليب الظن في حصوله، وإنما قال سبحانه: يرجون لأنه لا يعلم أحد في الدنيا أنه صائر إلى الجنة ولو بلغ في طاعة ٱللَّه كل مبلغ، لأمرين: الأول، أنه لا يدري بما تنتهي حياته من صالح الأعمال أو من سيئها. والثاني: لئلا يتكل على عمله، فدخول الجنة لا يكون بالأعمال وحدها ولكن بفضل ٱللَّه ورحمته. وقد قال الرسول محمد ﷺ: «لن يدخل أحدكم الجنة بعمله، فقالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا، حتى يتغمدني ٱللَّه برحمته»[1].

وختم ٱللَّه الآية بقوله: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ هاتان صفتان من صيغ المبالغة، أي إن ٱللَّه واسع المغفرة لمن تاب إليه وعمل صالحاً، وهو سبحانه عظيم الرحمة لمن آمن به وهاجر إليه وجاهد في سبيله.

---

(١) متفق عليه.

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ (٢١٩) فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٢٠) ﴾.

شرح المفردات

الخمر: كل شراب مُسكر، وسميت بذلك لأنها تستر العقل عن التفكير الصحيح.

الميسر: القمار.

العفو: ما فضل عن النفقة الواجبة للعيال ويزيد عن الحاجة.

تُخالطوهم: تخلطوا نفقتهم بنفقتكم، وتعيشوا وتسكنوا معهم.

لأعنتكم: لَكَلَّفكم مشقةً وضيّق عليكم.

تحريم الخمر والقمار

وبعد أن سأل المسلمون رسول ٱللَّه عما ينفقون من أموالهم على المستحقين للصدقة وعن حكم القتال في الشهر الحرام، سألوه عن الخمر والميسر ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الخَمْرِ وَالمَيْسِرِ﴾ أي يسألك يا محمد المسلمون عن الخمر والميسر: هل تعاطيهما حلال أم حرام؟ والميسر هو القمار، فيأتي الجواب من ٱللَّه ﴿قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾ قل لهم إن شرب الخمر وتعاطي القمار ينشأ عنهما إثم كبير، والإثم: الذنب، وفي وصف الإثم بأنه كبير يظهر لنا مبلغ النهي عن تعاطي شُرب الخمر والقمار ﴿وَمَنافِعُ لِلنَّاسِ﴾ أما منافع الخمر التي أشارت إليها الآية فأهمّها التجارة، فقد كانت ولا تزال مورداً مهمًّا للثروة، كما

أنها توفر العمل لكثير من العمّال في تصنيعها. ومنافع القمار هي ما يُؤخذ من أرباح صالات القمار ومن أوراق اليانصيب في مساعدة الجمعيات الخيرية، ولكن القرآن ينفي نفعهما فيقول: ﴿وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾ وهذه إشارة إلى تحريمهما، لأن ما غلبت مضرّته على منفعته يكون حراماً.

ولقد نزل في الخمر أربع آيات من القرآن الكريم:

أولها: قوله تعالى: ﴿ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا﴾ [النحل: ٦٧]. فعندما قال ٱللَّه ﴿سَكَراً﴾ مر عليها بلا تعليق، وعندما قال ﴿رِزْقاً﴾ وصفها بأنها ﴿حَسَناً﴾ فتسمية أحد النوعين بأنه رزق حسن، معنى ذلك أن مقابله ليس رزقاً حسناً.

ثانياً: نزل قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الخَمْرِ وَالمَيْسِرِ قُلْ فِيهِما إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ..﴾ وهي الآية التي نحن في صددها، فشربها قوم وتركها آخرون.

ثالثاً: نزل قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ﴾ [النساء: ٤٣]. وأسباب نزول الآية أن بعض المسلمين جاءوا لأداء الصلاة ووقف أحدهم إماماً وكان في حالة السكر فقرأ (قل يا أيها الكافرون أعبد ما تعبدون) بغير (لا) النافية، بدلاً من أن يقرأها (لا أعبد). وهذه الآية التي نهت عن الصلاة في حالة السكر فيها خطوة تمهّد لتحريمها، والصلاة خمسة أوقات معظمها متقارب لا يكفي ما بينهما للسكر ثم الإفاقة منه.

رابعاً: نزل قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة: ٩٠] وفي هذه

الآية التحريم القاطع لِشُرْبِ الخمر وتعاطي القمار، ولذلك أراق المسلمون كل الخمور التي كانت لديهم حتى سالت في الطرقات.

فالإسلام حرَّم الخمر بالتدرّج، وهذا ما يتوافق مع أحدث الأساليب العلمية لمعالجة المدمنين على الخمر، فالمدمن لا يستطيع أن يترك الخمر دفعة واحدة بل يحتاج إلى وقت طويل وفترات متباعدة، وهذا ما سلكه القرآن.

والخمر: مأخوذة من خمر الشيء إذا ستَره وغطَّاه، سمِّيت بذلك لأنها تَسْتُرُ العقل وتُغَطِّيه. والخمر تشمل كل مسكر، فقد قال النبي ﷺ: «كُلُّ مُسْكِرٍ خَمْرٌ وكُلُّ مُسْكِرٍ حَرامٌ»[1] ورُوِيَ عنه أنه قال: «كل شراب أسكر فهو حرام»[2]، وقوله أيضاً: «ما أسكر كثيره فقليله حرام»[3].

مضارّ الخمر: تشمل الناحية الجِسمية والناحية النفسية، فالخمر وما تحتويه من كحول تفتك بالجسم مروراً بالمريء والمعدة مما يسبب فيهما الإصابات السَّرَطانية وذلك بصورة مؤكدة، والكبد هو العضو الأساسي المعرّض لأضرار الموادّ الكحولية، فالموادّ الكحولية تسبّب للكبد الْتهابات وتمزيقاً لخلاياه وتجمّعاً للدُّهْنِيّات في ما تبقّى منها، ثم تحجّراً مع تليّف يصل بالكبد إلى مرحلة التشمع التي لا شفاء منها. هذه بعض أضرار الخمر على صحة الإنسان نقتصر عليها خوفاً من التطويل.

أما من الناحية النفسية، فإن الخمر تؤدي بالشارب إلى إضعاف صوت ضميره وذهاب حيائه، مما يدفع به إلى عدم التمسك بالأخلاق الكريمة وفعل

---

(١) أخرجه مسلم.

(٢) أخرجه البخاري.

(٣) أخرجه ابن ماجه.

كل منكر قبيح، وإن كثيراً من حوادث الزنى والاغتصاب تقع تحت سلطان الخمر.

والخمر تؤدي بالشارب إلى ذهاب رشده، وضعف إدراكه، وعدم وزنه الأمور وَزْناً صحيحاً، مما يترتب على ذلك الخُسران في كل مجالات عمله من تجارة أو معاملات بين الناس.

مضارّ القمار: سمّى ٱللَّه القمار في القرآن «ميسراً» وهو الذي كان يتعامل به العرب، والميسر مشتقّ من اليُسْر بمعنى السهولة، لأن المال يجيء للرابح من غير جهد، ويدخل ضمن الميسر اليوم: أوراق اليانصيب، والرّهان في سباق الخيل، وألعاب الروليت وما يأتي عن طرقٍ أخرى فيها الكسب والخسارة.

فالمُقامر لا يقوم ربحه إلاّ على خُسران الغير، فهو مغتصبٌ مال أخيه على مرأى منه، والإسلام حريص على تعزيز الأخوّة بين المؤمنين، فأيّ أُخُوَّةٍ تبقى بين هؤلاء؟

ويقول الشيخ محمد عبده في مضارّ القمار: «تعويد النفس الكسل وانتظار الرزق من الأسباب الوهمية، وإضعاف القدرة العقلية بترك الأعمال المفيدة في طرق الكسب الطبيعية، وإهْمال المقامرين للزراعة والصناعة والتجارة التي هي أركان العمران، ومنها، وهو أشهرها، تخريب البيوت فجأة بالانتقال من الغنى إلى الفقر في ساعةٍ واحدةٍ..»[١].

وبعد أن نهى ٱللَّه المسلمين عن إنْفاق أموالهم في الوجوه المحرَّمة كتعاطي الخمر والميسر سألوا عن وجوه الإنفاق في طرق الحلال، وقد رُوِيَ عن ابن عباس أن نفراً من الصحابة حين أُمِروا بالنفقة في سبيل ٱللَّه أتوا النبي ﷺ

(١) نقلاً عن تفسير المنار.

فقالوا: إنّا لا ندري ما هذه النفقة التي أُمرنا بها في أموالنا، وما الذي ننفقه منها؟ فأنزل ٱللَّه قوله:

﴿وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ العَفْوَ﴾ العَفْوُ: ما سهل وتيسر مما فضل من الكفاية. والمعنى: ويسألك المسلمون يا محمد ما الذي ينفقون من أموالهم؟فقل لهم: أن ينفقوا السهل الزائد عن حاجاتهم ولا يشقّ عليهم بَذْلُهُ، والمراد من الآية أنّ على المتصدق أن يُبْقِيَ لنفسه ولعياله ما يكفيهم من المال، وما يزيد من المال يتصدَّق منه، وقد رُوِي أنّ النبي ﷺ قال: «خير الصدقة ما كان عن ظهر غنىً وابدأ بمن تعول»[1].

﴿كَذلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ الآياتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ. فِي الدُّنْيا والآخِرَةِ﴾ أي مثل هذا البيان الواضح في الخمر والميسر والإنفاق، يُبين ٱللَّه لكم آيات الأحكام في كتابه لكي تتفكروا في أُمور الدنيا والآخرة، وتعملوا بهذه الأحكام مما يقربكم من ربكم.

وبعد سؤال المسلمين ماذا ينفقون من أموالهم، يأتي سؤالهم عن اليتامى وكيفية معاشرتهم. وسؤالهم عن اليتامى يَسْتدعي أن نذكر هذه المقدمة الوجيزة، وعلى ضوئها نفهم الآية التي وردت بشأنهم.

كان العرب في الجاهلية قبل الإسلام ينتفعون بأموال اليتامى لمصالحهم الذاتية، واستمر بعضهم على ذلك بعد إسْلامهم، فأنزل ٱللَّه سبحانه قوله مُحَذِّراً إياهم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ [النساء: ١٠] فعند ذلك اعتزل الناس اليتامى فلم يخالطوهم في مأكل ولا مشرب ولا مال خوفاً من تحذير ٱللَّه لهم، فعند ذلك اختلّت مصالح

---

(١) أخرجه البخاري ومسلم.

اليتامى وساءت معيشتهم، فمن كان عنده يتيم يقوم برعايته عزل طعام اليتيم عن طعامه، وربما كان يزيد عن اليتيم طعام فيتركه له حتى يأكله أو يفسد فيرمي به، وهذا مما سبب الشدة والضيق للأوصياء على اليتامى، فسأل بعضهم رسول ٱللَّه عن الطريق السليم في معاملتهم، فنزل قوله تعالى:

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ﴾ أي يسألك بعض المسلمين يا محمد عن أمر اليتامى، قل لهم: إن المطلوب إصْلاح نفوسهم بالتهذيب والتربية والعطف وإصلاح أموالهم بالتنمية من غير أن تؤكل أموالهم، فإصلاحهم خير من إهمال شأنهم وتركهم بدون رعاية والسهر عليهم فتفسد أخلاقهم وتضيع حقوقهم.

﴿وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ﴾ وإن تخالطوهم في الطعام والشراب والمسكن فإنهم إخوانكم في الدين، والمُخالطة تستدعي الإخلاص وحسن النية فيكون اليتيم في البيت كالأخ الصغير، وهذا يستدعي أن تُراعوا مصلحته على أكمل وجه وتشعروه بأنه في بيت أهله وذويه ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ﴾ وٱللَّه يعلم ما تضمره القلوب نحوهم من قصد الإصلاح لهم أو الإفساد، فعليكم ـ أيها المسلمون ـ أن تُراقبوا ٱللَّه في معاملتكم لليتامى، فإنه سبحانه سيجازي كُلاً من المصلح والمفسد بما يستحقه من ثواب أو عقاب ﴿وَلَوْ شَاءَ ٱللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ﴾ العَنَتُ: المشقة، أي لو شاء ٱللَّه لأوقعكم في المشقة وما يصعب احتماله بأن يكلفكم القيام بشؤون اليتامى وتربيتهم وحفظ أموالهم دون مخالطتهم ولا بأكل لقمة واحدة من طعامهم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ إن ٱللَّه هو القويّ الغالب لا يُعجزه أمر أراده، حكيم فيما يُشَرّعه لكم من الأحكام التي فيها خيركم.

﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ۚ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ۗ وَلَا تُنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا۟ ۚ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦ ۖ وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٢١﴾﴾.

شرح المفردات

ولا تَنْكِحُوا المشركات: لا تتزوجوهن، والمشركات المراد بهن الوثنيات ومن لا دين لهنّ.

ولأمة: الأمة هي المرأة المملوكة.

ولا تُنكحوا المشركين: ولا تزوّجوهم من المؤمنات، والمراد بالمشركين هنا الكافرون مطلقاً.

يدعون إلى النار: يدعون من يتزوجهم ويعاشرهم إلى الأعمال التي تؤدي إلى عذاب النار.

تحريم الزواج من المشركات

وبعد أن بينت الآية السابقة الدعوة إلى الاعتناء باليتامى وإصلاح أُمورهم، انتقلت الآيات للدعوة إلى الاعتناء بالأُسرة عن طريق اختيار الزوج أو الزوجة مبيناً في ذلك ما يحلّ وما يحرم مما فيه الخير للمؤمن، قال ٱللَّه تعالى:

﴿وَلاَ تَنْكِحُوا المُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَّ﴾ أي لا تتزوجوا ـ أيها المؤمنون ـ المشركات الوَثَنيات حتى يُصَدِّقْنَ بٱللَّه ورسوله وما أنزل عليه من ربّه.

فالنكاح هو الزواج وأصله الوطء أو الضم، ويطلق على العقد الذي يُحِلّ العلاقة الجنسية بين الرجل والمرأة، والمراد بالمشركات في الآية من يَعْبُدْنَ غير ٱللَّه ومن ليس لَهُنَّ دِين، وقد حرَّمت الآية نكاحهنَّ.

أما الكتابيّات (اليهوديّات والمسيحيّات) فلا تدلّ الآية على منع الزواج

بهنّ، فإنهن لا يُعرفن بالمشركات في لسان الشريعة الإسلامية، وإنما يُعرفن بالكتابيّات، وقد أُبيح الزواج منهنَّ صراحةً في قوله تعالى:

﴿ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ۖ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ ۖ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾ [المائدة: ٥].

تأمل كيف أباح ٱللَّه الزواج من الكتابيّات، ولكنه اشترط أن يَكُنَّ مُحْصَنات، والمحصنات هن العفيفات.

وقد قال بتحليل نكاح نساء أهل الكتاب جماعة من الصحابة: عثمان، وطلحة، وابن عباس، وجابر، وحُذَيْفَة، ومن التابعين: سعيد بن المسيَّب، وسعيد بن جبير، والحسن، ومجاهد، وعِكْرِمة، والشَّعْبِيُّ وغيرهم، كما ذهب إلى ذلك فُقهاء الأمصار، وعلى هذا يمتنع أن تكون الآية **﴿وَلاَ تَنْكِحُوا المُشْرِكاتِ﴾** من سورة البقرة ناسخة للآية التي في سورة المائدة التي أحلَّت الزواج من الكتابيّات كما يَدَّعِي البعض، لأن سورة البقرة أول ما نزل بالمدينة المنورة وسورة المائدة هي آخر ما نزل، وإنما الآخر ينسخ الأول وليس العكس.

وبهذا الحُكْم أخذ جمهور العلماء والصحابة بتحليل الزواج من اليهودية أو النصرانية، وقد رُوي أن عثمان تزوج نائلة بنت الفرافصة الكلبيّة وهي نصرانية على نسائه، وطلحة بن عبيد ٱللَّه تزوج يهودية من أهل الشام.

وعلى هذا فزواج المسلم بالكتابية جائز، لأن القرآن صريح في إباحة ذلك، ولكن هذا الجواز لا يمنع كراهيته كما ذهب إلى ذلك الإمام مالك والإمام أحمد بن حنبل، فقد كَرِها ذلك مع وجود المسلمات والقدرة على نكاحهن، وهم على صواب في ذلك لأن زواج المسلم بكتابيّة قد يُؤَثِّرُ قَطْعاً في دين الأطفال التي تنجبهم وترضعهم من لبنها وتوجههم نحو معتقدها، فينشأ

الأولاد وبهم ميْل إلى دين أُمهم، وبالأخص إن كان آباؤهم المسلمون ليس لهم من قوة الإيمان وصلابة النفس ما كان للسلف الصالح من المسلمين الأولين، وليس لهم الحرص على تنشئة أولادهم على دين الإسلام، وهذا مما يجعل أولادهم يتبعون أُمهم في دينها.

﴿وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ﴾ الأَمَةُ: الأنثى من الرقيق، أي إن زواج المؤمن من أَمَةٍ مؤمنةٍ خيرٌ من زواجه من مُشركةٍ ولو أعجبه حُسْنها أو مالها أو نسبها أو جاهها. والسبب في ذلك أن الزواج يقوم على المودة والرحمة والإخلاص، فالأَمَة المؤمنة تتوفر فيها هذه الصفات التي هي ثمرة الإيمان بٱللَّه وتعاليم الإسلام، أما المُشركة التي تثير الإعجاب بجمالها، فهي مزهوّة بجمالها، لا عاصم لها من دين يعصمها عن الغواية، ولا مانع من خُلُق يمنعها من الخيانة، وكيف يلتقي قلبان على تناقض: قلب يعبد ٱللَّه وحده، وقلب يعبد الأوثان؟ هذا مع العلم أن الزواج هو علاقة دائمة تقوم على التوافق بين الميول والمعتقدات.

تحريم زواج المسلمة من مشرك وكافر

وإذا كان زواج المؤمن بالمشركة حرام فتزويج المؤمنة بالمشرك حرام أيضاً، قال تعالى: ﴿وَلاَ تُنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ﴾ تنكحوا: بضم التاء تزويج الإنسان غيره، والمعنى: ولا تزوّجوا أيها المؤمنون النساء المؤمنات بالرجال المشركين حتى يتركوا ما هم عليه من الشرك بٱللَّه ويدخلوا في دين الإسلام، والعبد المؤمن مع ما عليه من رِقٍّ خير من مشرك ولو أعجبكم بِحَسَبِهِ ونَسَبِهِ وغِناه وجماله. تأمّل كيف فضَّل ٱللَّه العبد المؤمن على الرجل الحُرّ المُشرك، لأن المؤمن له من خشية ٱللَّه ما

يردعه عن الآثام والظلم، وله من تعاليم الإسلام ما يوفر لزوجته السلامة والطمأنينة والسعادة، بينما المشرك يغترّ بماله وحسبه ونسبه، وهذا مما يطغيه ويجعله يسيء معاملة زوجته لأنه ليس له دين يردعه.

والنهي هنا يتناول المشرك الذي يعبد الأوثان ويتناول غيره ممن لا يدين بالإسلام كأهل الكتاب، لأن القرآن جعل عدم الإيمان غاية للنهي، فإذا لم يكن هناك إيمان من الرجل بوحدانية ٱللَّه وبنبوة محمد لم يكن له أن يتزوج من المرأة المؤمنة. والدليل على ذلك أيضاً ما جاء في القرآن: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾ [الممتحنة: ١٠] فهذه الآية صريحة في أن زواج المسلمة بالكافر لا يجوز، وكلمة كافر تشمل الكتابي والمشرك كما قال ٱللَّه تعالى: ﴿مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [البقرة: ١٠٥]، كما قد جاء في القرآن: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ﴾ [المائدة: ٧٣]، وعلى هذا أجمع الصحابة والتابعون ومن جاء بعدهم من العلماء على تحريم زواج المرأة المسلمة من رجل لا يدين بدين الإسلام.

هذا وقد استنبط العلماء من قوله تعالى: **﴿وَلاَ تُنْكِحُوا المُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا﴾** أنه لا يجوز عقد النكاح إلاّ بوليّ، لأن النهي عن تزويجهن إلى المشركين إنما وُجّهَ إلى أوليائهن، وبذلك جاء في الحديث الشريف: «لا نكاح إلاّ بوليّ»[1] ويقوّي ذلك ما جاء في القرآن أيضاً ﴿فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ﴾ [النساء: ٢٥] أمّا الإمام أبو حنيفة فيقول: إذا زوّجت المرأة نفسها برجل كفء

(١) رواه أحمد وأبو داود والنسائي والترمذي وابن ماجه.

بشاهدين فذلك نكاح جائز بناء لقوله تعالى: ﴿فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ﴾ [البقرة: ٢٣٢].

ثم يُبين ٱللَّه الحكمة من منع الزواج من المشركات أو المشركين بقوله:

﴿أُولَٰئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ﴾ أي هؤلاء المشركون بما لهم من اتصال ومعاشرة مع زوجاتهم قد يدعونهم إلى الأقوال والأفعال والعقائد التي تفضي بهم إلى دخول النار في الآخرة. والسبب في ذلك أن رابطة الزواج هي رابطة اتصال ومعاشرة بين الزوجين، والحرص على إرضاء أحدهما للآخر، وسلطة الرجل على المرأة أقوى من سلطتها عليه، لذا نهى القرآن عن وقوع الرابطة الزوجية مع المشركين لما لهم من تأثير على زوجاتهم، والاقتداء بهم في عقائدهم الباطلة ﴿وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ﴾ أي إن ٱللَّه يدعو المؤمنين إلى الإيمان الحق والعمل الصالح الموصل إلى الجنة بأمره وهدايته وتوفيقه ﴿وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ أي ويُوضح ٱللَّه حججه وأدلّته في كتابه الذي أنزله على رسوله محمد ليتذكروا ويعتبروا بما فيه من الإرشادات القيّمة.



﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾ نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ وَقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُمْ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٢٣﴾﴾.

شرح المفردات

المحيض: دم العادة الشهرية للمرأة.

أذى: أي يؤذي ويجلب الضرر.

فاعتزلوا النساء في المحيض: أي امتنعوا عن الاتصال الجنسي بنسائكم زمن الحيض.

ولا تقربوهن حتى يطهرن: ولا تجامعوهن حتى ينقطع الحيض ويغتسلن.

نساؤكم حرث لكم: نساؤكم موضع زرع لكم تلقون نطفكم في أرحامهن، والحرث: الزرع.

الضرر من مضاجعة الزوجة الحائض

وتتوالى الأسئلة على رسول ٱللَّه فيأتي السؤال عن الحيض، وقد روى الإمام مسلم عن أنس رضي ٱللَّه عنه: أن اليهود كانوا إذا حاضت المرأة منهم أخرجوها من البيت، ولم يؤاكلوها ولم يُشاربوها ولم يجامعوها في البيوت (أي لم يكونوا معها في البيت)، فَسُئِلَ رسول ٱللَّه عن ذلك فأنزل ٱللَّه قوله:

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ المَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي المَحِيضِ..﴾ الآية.. والمحيض مشتق من الحيض، والحيض هو ما يقذفه رحم المرأة من دم في حال فراغه من الحمل، والسؤال عن المحيض هو سؤال عن حكم العلاقة الجنسية بين الرجل والمرأة عند وجوده، ويأتي الجواب بأن

المحيض ﴿هُوَ أَذًى﴾ وهذه الكلمة من معجزات القرآن التي تلخص أضرار الحيض.

الأذى النفسي للمرأة: فالمرأة في زمن الحيض لا تكون في حال تستسيغ معها العلاقة الجنسية، لأنها تُعاني عادةً انحرافاً في مزاجها وتشعر بتعب عامّ، وتظهر حدة في طبعها، ويكون جهازها التناسلي في حال اضطراب فتتألم من المضاجعة. وكثير من حالات العجز الجنسي والبرودة الجنسية عند الرجال والنساء هو بسبب الجِماع في المحيض، وهناك فوق ذلك قذارة الدم ورداءة الموضع، كما أن النسل وتلقيح بويضة الأنثى لا يحصل في تلك الحالة.

الأذى الصحي للمرأة والرجل: الاتصال الجنسي في غير أيام الحيض يكون سليماً، إذ إن الموادّ المطهِّرة والإفراز الحامض للمهبل عند المرأة تقتل الميكروبات، أما في أوقات الحيض فيكون المهبل ميداناً مفتوحاً لغزو أسراب من مختلف الميكروبات، وقد ثبت أن الاتصال الجنسي في زمن الحيض هو العامل الأكبر في وصول هذه الميكروبات إلى المهبل مما يؤدي إلى التهابه، ويسبب آلاماً شديدة عند المرأة، وقد يؤدي هذا الالتهاب إلى العُقم.

وقد تمتد العدوى إلى الرجل بما يحمل الدم من ميكروبات عن طريق قناته البولية فتحدث عنده التهابات مختلفة في أعضائه التناسلية، بل قد تصيب المثانة والبروستاتا والخصيتين بأشدّ الآلام ويصاب بالضعف الجنسي[١].

أمام هذه الأضرار كلها الناشئة عن الاتصال الجنسي أثناء الحيض يأمر ٱللَّه الأزواج بقوله ﴿فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ﴾ والمراد بالاعتزال الامتناع عن العلاقة الجنسية عندما تكون المرأة في الحيض، وقد رُوِي عن النبي ﷺ قوله

(١) نقلاً باختصار عن كتاب (القرآن والطب) للدكتور محمد وصفي ـ دار ابن حزم.

في تلك الحالة: «اصنعوا كل شيء إلاّ الجِماع»[1]، وعن ميمونة قالت: «كان رسول اللَّه يُباشر[2] نساءه فوق الإزار وهن حُيَّض»[3]. وسئل ابن عباس: ما للرجل من امرأته إذا كانت حائضاً؟ قال: ما فوق الإزار. وقال جمهور من الفقهاء: إن الذي أمر اللَّه باعتزاله منهن في حال حيضهن ما بين السرّة والركبة.

﴿وَلاَ تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ﴾ والقرب المنهي عنه هو كناية عن الامتناع عن الاتصال الجنسي، وهي من الكنايات القرآنية التي تربّي الذوق السليم وتمنعه من التلفظ بالألفاظ النابية التي يجافي سمعها الذوق السليم. فالآية تمنع من مجامعة الحائض حتى تطهر، وطهرها يكون بانقطاع حيضها واغتسالها، وإلى هذا ذهب جمهور الفقهاء.

﴿فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾ أي فإذا تطهرت النساء بانقطاع دم الحيض والاستحمام منه، فلكم أن تجامعوهن من المكان الذي أمركم اللَّه، وكلمة ﴿فَأْتُوهُنَّ﴾ ليس المراد بها أمر إلزامي بل المراد بها الإباحة.

﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ﴾ إن اللَّه يحب التوابين من الذنوب المبالغين في التوبة، النادمين على ما فعلوا ﴿وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ ويحب المتنزهين عن الفواحش والأقذار. رُوي عن النبي ﷺ قوله: «من أتى حائضاً (أي جامعها) فقد كفر بما أنزل على محمد»[4] وهذا من باب الترهيب لا من حيث الخروج عن الإسلام، أي إنه فَعَل ما يفعله الكافرون.

---

(١) أخرجه مسلم.

(٢) يباشر: المراد بالمباشرة الاستمتاع بما دون الفرج كالتقبيل والمعانقة والملامسة.

(٣) أخرجه مسلم.

(٤) أخرجه أحمد والترمذي.

أحكام الحيض

الحيض هو بروز الدم من رحم الأنثى إلى الفرج من غير داء لها وألاّ يكون بسبب الولادة، فالخارج بسبب الولادة يسمّى دم نفاس.

وقد اتفق الفقهاء على أن الدم الخارج من رحم الأنثى لا يعتبر حَيْضاً إلاّ ببلوغها تسع سنوات قمرية، وما كان من دم دون التسع سنوات فغير معدود به.

ويُعرف دم الحيض بلونه الأسود (أحمر مائل إلى السواد) وله رائحة خاصة، وقد يكون باللون الأحمر المشرق، وقد يكون دم الحيض باللون الأصفر[1] واللون الأكدر[2].

واللون الأصفر واللون الأكدر هما شيئان كالصديد، ويُبْنى عليهما الأحكام الآتية:

١ ـ لا يثبت ابتداء العادة الشهرية لدى الأنثى برؤية الأصفر والأكدر بل بلون الدم الأسود أو الأحمر المشرق.

٢ ـ الأصفر والأكدر في وقت الحيض، هما حيض.

٣ ـ رؤية الأصفر والأكدر بعد الطهر، هما طهر.

وعلامة الطهر من الحيض هي رؤية ماء لزج أبيض يعقب انتهاء الحيض، كما أن الحائض تتعرف على طهرها بإدخال خرقة مكان خروج الدم، فإذا رأت عليها أثراً كالخيط الأبيض فهي العلامة الطبيعية على طهارة الرحم، فإن لم ترَ ذلك تكتفي برؤية الأثَر الجاف على القطن.

---

(١) اللون الأصفر: هو كصفرة القزّ والتبن.

(٢) اللون الأكدر: هو كلون الماء الكَدِر.

فترة الحيض: ذهب الحنفية إلى أن أقلّ مدة الحيض ثلاثة أيام بلياليها، وأكثرها عشرة أيام بلياليها.

وذهب المالكية إلى أنه لا حد لأقلّه من الزمان، وأكثره خمسة عشر يوماً.

وذهب الشافعية والحنابلة إلى أن أقلّ الحيض يوم وليلة، وأكثره خمسة عشر يوماً بلياليها، كما نصّ الشافعية والحنابلة إلى أن غالب الحيض ستة أيام أو سبعة.

ولا بد من التنبيه إلى أن ما ذكره الأئمة عن أقلّ الحيض وأكثره يكون في حق المرأة المبتدئة بالحيض، أما التي اعتادت أن يكون حيضها عدداً محدداً من الأيام: خمسة أيام أو ستة أو سبعة مثلاً، كما هي العادة عند معظم النساء، فهذه تكون عادتها ملزمة لها، والعادة الشهرية تثبت بمرة واحدة في المبتدئة، وبمرتين فأكثر في غيرها.

فمثلاً المرأة التي عادتها أن ترى الدم ستة أيام من كل شهر إذا استمرت في رؤية الدم أكثر من ستة أيام نقول لها: إن الأيام الستة فقط هي حيض، وما زاد عن الستة أيام يطلق عليه دم استحاضة، لذا يصحّ لها أن تغتسل بعد انقضاء اليوم السادس وتصوم وتصلي، وحكم الاستحاضة أنها لا تمنع الأمور التي يمنعها الحيض، والمرأة المستحاضة تتوضأ لوقت كل صلاة وتصلي به ما تشاء حتى يخرج الوقت.

أما إذا انقطع دم المعتادة دون عادتها ورأت الماء اللزج الأبيض فإنها تطهر بذلك ولا تتمم عادتها.

ومما ينبغي معرفته أنه لا يُشترط في الحيض ـ العادة الشهرية ـ استيعاب مدته كلها لنزف الدم، فالعبرة في الحكم لأول الدم وآخره، وإن ما بين الدَّمين

من نقاء يعتبر حيضاً شرط عدم بلوغ النقاء خمسة عشر يوماً.

ما تمتنع عنه الحائض: اتفق الفقهاء على عدم صحة الصلاة من الحائض، وأنه لا قضاء عليها ما فات من الصلاة في أيام حيضها. كما أنه يحرم عليها الصيام وأن عليها قضاء الأيام التي أفطرت فيها، ومتى انقطع دم الحيض وجب عليها الصوم. والحيض لا يمنع شيئاً من أعمال الحج إلاّ الطواف حول الكعبة.

وذهب جمهور الفقهاء إلى حرمة قراءة الحائض للقرآن ومسّ المصحف وحمله، واستثنى المالكية من ذلك المُعَلِّمة والمُتَعَلِّمة، فإنه يجوز لهما قِراءة القُرآن ومَسّ المصحف[١]. كما اتفق الفقهاء على حرمة اللبث في المسجد للحائض إن خافت تلويثه، وجواز عبورها دون لبث فيه للضرورة والعذر.

طهارة الحائض: لا خلاف بين الفقهاء في طهارة جسد الحائض وعَرَقها، وجواز أكل طبخها وعَجْنها، وما مسَّته من المائعات والأكل معها.

أما وطء الحائض فهو إثم كبير من العامد العالم بالتحريم، ومن يفعل ذلك فعليه كفّارة، فقد أوجب الحنابلة نصف دينار ذهباً[٢] لمن يفعل ذلك.

﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ﴾ الحرْثُ في الأصل: إلْقاء البذْر في الأرض، أو هو الزَّرْع، والمُراد: أنهن مزْرع لكم ومَنْبِتٌ للولد أعدّهنَّ ٱللَّه لذلك، فالآية تُشَبِّهُ الزوجة بالحرث، ووجه الشبه بينها وبين الزرع أنّ كليهما وسيلة لمَدّ الوجود الإنساني بالحياة، فالزوجة تمدّ النوع الإنساني بعنصر تكوينه وإنشائه في رحمها، والأرض تمدّه بالزرع الذي يتغذى منه ويكون به استمرار حياته.

---

(١) نقلاً عن (الموسوعة الفقهية) الصادرة عن وزارة الأوقاف ـ الكويت: مادة (حيض) ومادة (مصحف).

(٢) أي ما يوازي ٢,١٣ غراماً ذهباً.

﴿فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ﴾ أنَّى معناها: كيف، أي باشروا نساءكم في موضع الحرث على أي شكل كانت المُضاجعة من خلْف أو من أمام، مستلقية أو مضطجعة، قائمة أو قاعدة على أن يكون ذلك في فرج المرأة.

أما من فسَّر قوله تعالى ﴿أَنَّى شِئْتُمْ﴾ في أي مكان شئتم في قُبُل المرأة أو دُبُرِهَا، فالآية لا تُفيده لأن ٱللَّه سبحانه يقول: ﴿فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ﴾ والمعنى المراد أن يكون الجِماع في موضع النَّسْلِ، ومعاذ ٱللَّه أن يتبادر إلى الذهن المعنى الآخر. ولأن ٱللَّه يقول أيضاً ﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ﴾ ولا يُتصور الحرث إلاّ في موضع النسل وإنجاب الذرّية، وهل في الدُّبُر من حَرْث؟ ومما يؤيد ذلك أن ٱللَّه حرَّم إتيان النساء في المحيض لاستقذاره وما ينشأ عنه من أذًى، فكيف يُباح إتيانهن في الأدبار وهي أشدّ قذارة من مكان المحيض وأشد ضرراً في ذلك؟

وقد وردت الأحاديث الشريفة في النهي عن ذلك فقد رُوي عن النبي ﷺ قوله: «مَلْعُونٌ من أتى امرأةً في دُبُرها»[1].

ويقول أيضاً: «لا ينظرُ ٱللَّهُ إلى رَجُلٍ أتى رجلاً أو امرأةً في الدُّبُرِ»[2].

ثم يقول ٱللَّه تعالى: ﴿وَقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ﴾ هذه الجملة يندرج في مضمونها كل خير، أي قَدِّمُوا لأنفسكم كل عمل صالح يقربكم إلى ٱللَّه تعالى.

أو قَدِّموا لأنفسكم في أمر الزواج بأن تختاروا ذاتَ الخُلُق والدِّين والعَفاف حتى تكون لكم عيشة هنيئة في حياتكم الزوجية.

---

(١) أخرجه أبو داود والنسائي.

(٢) أخرجه الترمذي وابن حبان.

أو قدّموا لأنفسكم بأن تُحسنوا تربية أولادكم، فينشأوا على الصلاح والتقوى وليكونوا بارّين بكم عند هَرَمكم.

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ وتقوى اللَّه هي خشيته واتّقاء غضبه وذلك بطاعته وترك ما نهى عنه ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّكُم مُلَاقُوهُ﴾ والإيمان بلقاء اللَّه هو الذي يمنع الإنسان من اقتراف المنكرات والظُّلْم يقيناً منه بأن اللَّه سيحاسبه على ما اقترفت يداه، وسيجزيه على الإحسان إحساناً وعلى السوء سوءاً ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ وبشر يا محمد المؤمنين بالثواب الجزيل على ما تُقدّمه أيديهم من الأعمال الصالحة.

﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَن تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٤﴾ لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٢٥﴾ لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِن فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٢٦﴾ وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٧﴾﴾.

شرح المفردات

عُرْضَة: معترضاً وحاجزاً.

لأيمانِكم: الأيمان، جمع يمين وهو الحَلِفُ والقَسَم.

أن تبرّوا: أن تفعلوا البِرّ، والبِرُّ هو التوسّع في فعل الخير.

اللغو: ما لا يُعْتَدّ به من الكلام.

يُؤْلُونَ: يقسمون، والإيلاء شرعاً أن يحلف الرجل أن لا يضاجع امرأته.

وإن عزموا الطلاق: وإن صمموا على الطلاق ليوقعوه.

تربّص: انتظار.

فاءوا: رجعوا.

النهي عن جعل الحلف بالله مانعاً للخير

وبعد أن ذكر ٱللَّه فيما سبق الدعوة إلى الإنفاق في وجوه الخير وصحبة اليتامى ورعاية شؤونهم، أمر ٱللَّه المؤمنين في الآية التالية بأن لا يمتنعوا عن هذه الفضائل وغيرها تَعَلُّلاً منهم بأنهم حلفوا بٱللَّه أن يمتنعوا عنها، قال ٱللَّه تعالى:

﴿وَلاَ تَجْعَلُوا ٱللَّهَ عُرْضَةً لأَيْمانِكُمْ أَن تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ﴾

عُرضة: حاجزاً ومعتَرَضاً، واليمين[1]: بمعنى القَسَم. والمعنى: لا تجعلوا ٱللَّه ـ لأجل حلفكم به ـ حاجزاً دون فعل ما حلفتم على تركه من البِرّ والتقوى والإصلاح بين الناس.

والآية بيَّنت ثلاثة أنواع من الخير قد يقسم الناس بٱللَّه على تركها إما بوازع الغضب أو عند تلقّي الإساءة من الغير. أولها: البِرُّ، وهو التوسع في فعل الخير. والثاني: التقوى، وهي اتقاء ٱللَّه والحذر من عقابه بطاعته والقيام بفرائضه. والثالث: الإصلاح بين الناس بإزالة ما بينهم من عداوة وخصومة.

وقد رُوِيَ في أسباب نزول الآية أن أبا بكر الصديق رضي ٱللَّه عنه حلف أن لا يعطي ذا قرابة له صَدَقة وهو (مسطح) عندما خاض بالبهتان في شأن ابنته عائشة.

وجلّ ما تدعو إليه الآية، أن المسلم إذا حلف على ترك فعل الخير فليفعله، وليكفّر عن يمينه، ولا يجعل اليمين مانعاً من إتيانه، وقد جاء في الحديث الشريف أن النبي ﷺ قال: «مَن حَلَفَ على يَمِينٍ فرأى غيرها خيراً منها

---

(١) اليمين: بمعنى القَسَم، وأصل ذلك أن العرب كانوا إذا وثّقوا عهودهم بالقَسَم وضع كل واحد من المتعاهدين يمينه في يمين صاحبه، ولهذا أُطلق على القَسَم كلمة اليمين.

فليأتِ الذي هو خيرٌ، وليكفِّر[١] عن يمينه»[٢].

ثم يختم ٱللَّه الآية بقوله: ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أي سميع لما يقوله الحالف منكم بٱللَّه إذا حلف، وهو عليمٌ بنيَّاتكم والدوافع التي دعتكم إلى القَسَم، فحافظوا على فعل الخير والإصلاح بين الناس.

﴿لا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمانِكُمْ﴾ اللغو: هو الساقط من الكلام، وما لا يُعْتَدُّ به، ولا يصدر عن فكر وَرَوِيَّة. ويمين اللغو التي لا قصد فيها إلى الحَلِفِ، وهي التي تجري على اللسان دون قصد ولا نية، ومعنى نفي المؤاخذة في يمين اللغو: أنه لا إثم فيها ولا يجب عليها كفّارة.

ومن أمثلة يمين اللغو ما رُوي عن عائشة: قول الحالف «لا واللَّهِ» و «بَلَى واللَّهِ».

ورُوِيَ عن مالكٍ قوله: «لَغْوُ اليمينِ أن يحلف على شيءٍ يظنُّه كذلك ثم يتبين خلاف ظنِّهِ».

وعن ابن عباس قوله: «اللغو أن يحلف الرجل على الشيء يراهُ حقًّا، وليس بحقٍ».

كما رُوي عن ابن عباس قوله: «لغو اليمين أنْ تحلف وأنت غضبان». قد يُراد بالغضب ما يُخرج الإنسان عن اتّزانه.

ومما قيل عن لغو اليمين: هو أن يحلف الرجل على المعصية فلا يؤاخذه ٱللَّه بإلْغائها، وكفّارتها أن يتوب منها.

---

(١) كفارة اليمين عند عدم الوفاء به هي: إطعام عشرة مساكين أو كسوتهم أو تحرير رقبة من الرق، فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام.

(٢) أخرجه مسلم.

ومن أمثلة لغو اليمين: أن يتساوم الرَّجُلان في البيع والشراء فيقول أحدهما: «وٱللَّه لا أشتريه منك بكذا» ويقول الآخر: «وٱللَّه لا أبِيعك بكذا وكذا» ﴿وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ أي إنه سبحانه لا يعاقبكم على أيْمان اللغو غير المقصودة، ولكن يعاقب من أقسم كاذباً ليخدع الناس ويستولي على أموالهم بالباطل.

وقد روي عن النبي ﷺ قوله: «مَنِ اقْتَطَعَ حَقَّ امرئٍ مسلم بيمينه[١] فقد أوجب ٱللَّه له النار، فقال رجل: وإن كان شيئاً يسيراً؟ قال وإن كان قضيباً من أراكٍ»[٢].

ويختم ٱللَّه الآية بقوله ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ غفور: من صيغ المبالغة أي أنه سبحانه واسع المغفرة، حليمٌ لا يُعاجل بالعقوبة من يعصيه.

من فروع القَسَم: الإيلاء

ثم تأتي الآية التالية متممة لأحكام القَسَم ومن فُروعه: الإيلاء، وهو أن يُقْسِمَ الرجل على هِجران امرأته جِنْسياً. والإيلاء لغة: الحَلِفُ، وشرعاً هو أن يقول الرجل لزوجته حالِفاً: واللهِ لا أقربكِ (أي لا أُجامعكِ) أربعة أشهر أو أكثر من أربعة أشهر، أو يقول: وٱللَّه لن أقربكِ أبَداً.

وقد كان الرجل عند العرب في الجاهلية ـ أي قبل الإسلام ـ لا يحب امرأته ولا يحب أن يتزوجها غيره، فكان يحلف أن لا يطأها السنة والسنتين وأكثر من ذلك للإضْرار بها، ومن أشد الإضرار بالحياة الزوجية هجر المرأة في المبيت والامتناع عن مضاجعتها، لأنه يدل على البغض الشديد لها من زوجها،

(١) يمينه: أي بِقَسَمِهِ.
(٢) أخرجه مسلم.

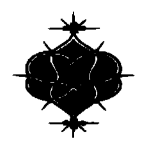
وعلى الطعن في أنوثتها، وهذا ما يسبب لها آلاماً نفسية يصعب تحمّلها، كما أنها تصبح كالمُعَلَّقة: لا هي متزوجة ولا هي مطلّقة.

ثم جاء الإسلام وبعض المؤمنين يفعلون ذلك استمراراً لما كانوا يفعلونه قبل الإسلام، فأزال هذا الظلم عن المرأة وأمهل الزوج مدةً من الزمن حتى يَتَرَوَّى ويُراجع نفسه عن الظلم، وتعود المودة بين الرجل والمرأة إلى سابق عهدها، وهذه المدة بيَّنها ٱللَّه بقوله: ﴿لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ﴾ والتربُّص: الانتظار، أي فمن حلف أن لا يطأ امرأته مطلقاً أو زيادة على أربعة أشهر يُمْهَلُون أربعة أشهر ﴿فَإِنْ فَاءُوا﴾ والفَيءُ: هو الرُّجوع، وفسّروه هنا بالجِماع، أي إن رجعوا إلى ما كانوا عليه من المعاشرة الزوجية بوطء نسائهم إن قدروا عليه، أو بالقول إن عجزوا عنه جنسيًّا بعد مضيّ أربعة أشهر مخالفين بذلك ما حلفوا عليه، فيكونون بذلك قد حنثوا في أيْمانهم ويلزمهم كفارة اليمين ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي إن ٱللَّه سبحانه يغفر لهم ما فرط منهم نحو زوجاتهم، وهو رحيم بهم بإسقاط العقوبة عنهم.

فالرجل الذي يحلف بٱللَّه أن لا يجامع زوجته مدة من الزمن، فإذا كانت المدة أربعة أشهر أو أقلّ ثم يرجع إلى معاشرتها جنسيًّا قبل مضيّ تلك المدة يكون قد حَنَثَ في قَسَمِهِ، وعليه كفّارة اليمين. وهذا ليس من الإيلاء في نظر الأئمة: مالك، والشافعي وأحمد، وهي عندهم يمين محضٌ. أما إذا زادت المدة على أربعة أشهر ولم يُراجع الزوج زوجته ولم يطأها، فللزوجة الحق بمطالبة زوجها بأن يفيء: أي يرجع إلى معاشرتها واستئناف حياته الزوجية معها وعليه كفّارة اليمين، وفي حال رفْضه يحقّ لها طلب الطلاق، ويُجبره القاضي على ذلك، وتكون الطلقة رجعية أي يحقّ للزوج مراجعة زوجته بدون عقد ومَهْرٍ جديدَيْن ضمن العِدَّة.

وأما الإمام أبو حنيفة فيرى أن الطلاق يقع بانتهاء الأربعة أشهر، والرجوع إلى الزوجة إنما وقته دون الأربعة أشهر وعليه كفّارة اليمين، فلا زيادة على تلك المدة، ويقع الطلاق طلاقاً بائناً بعد مضيّ أربعة أشهر. والطلاق البائن هو أنه لا يجوز للرجل الرجوع إلى زوجته إلا بعقد ومهر جديدَيْن وبعد موافقة الزوجة.

وقد يكون هِجران الزوجة من الوسائل لتأديبها: كما إذا أهملت شؤون بيتها أو أساءت معاملة زوجها أو غير ذلك من الأمور التي تستدعي هجرها، علّها تعود إلى رشدها ويستقيم حالها، فيحتاج الرجل في مثل هذه الحالات إلى الإيلاء يقوّي به عزمه على ترك قربان زوجته تأديباً لها أو رغبة في إصلاحها، ولكن هذه المدة حدَّدها الشرع الإسلامي بأربعة أشهر، فإمّا الرجوع إلى معاشرة زوجته وإما أن يطلقها كما جاء في تتمة الآية ﴿وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أي وإن عزم هؤلاء الحالِفون بهجر نسائهم على الطلاق بعد مضي الأربعة أشهر، فإن ٱللَّه سميع لقولهم وما حلفوا عليه، عليمٌ بِنيّاتهم فليراقبوه فيما يفعلون، لأنهم إن كانوا يريدون إيذاء نسائهم فإن ٱللَّه لا تخفى عليه خافية، فليتقِ ٱللَّه من يُبيّت الأذى لزوجته لأن ٱللَّه سيتولى عقابه.



﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِىٓ أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِى ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوٓا إِصْلَٰحًا وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٨﴾﴾.

شرح المفردات

يتربّصن: ينتظرنَ.
قُروء: جمع قُرْء وهو الحيض أو الطهر منه.
بعولتهن: البعولة، جمع بعل وهو الزوج.
أحق بردّهن: أي هم أصحاب الحق بمراجعة زوجاتهم في العدة عند الطلقة الأولى والثانية.
بالمعروف: هو كل فعل يُعرف حُسْنُهُ بالعقل والشرع.

من أحكام الطلاق

وبعد أن بيَّن القرآن أن من الرجال من يعزم على الطلاق، ناسب أن يذكر أحكام الطلاق وما يترتب على الزوج من واجبات وحقوق نحو امرأته في حال أن طلقها، قال ٱللَّه تعالى:

﴿وَالمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلاثَةَ قُرُوءٍ﴾ والمراد بالمطلّقة هنا: المرأة الحُرَّة خلاف الأَمَة، والتي تكون من ذوات الحيض، أي التي يأتيها الحيض والتي سبق لزوجها أن دخل بها ـ أي جامعها ـ فخرج بذلك المرأة الآيسة التي لا تحيض لكبر سنها أو التي لم تر الحيض بعد لصغر سنها، أو المرأة التي لم يدخل بها زوجها، أو المرأة الحامل، وكل هؤلاء لهن أحكام خاصة بهن نصَّ عليها القرآن.

ومعنى **﴿يَتَرَبَّصْنَ﴾**: ينتظرن مرور ثلاثة قُروء، وزيدت كلمة **﴿بِأَنْفُسِهِنَّ﴾**

إشعاراً لهنّ بالانتظار وصيانة لأنفسهن من الابتذال والاحتفاظ بكرامتهن حتى لا يرتمين على أي رجل يتقدم إليهن بعد الطلاق. و﴿قُرُوء﴾ جمع قُرْء، وقد اختلف الفقهاء وعلماء اللغة في تحديد معناه:

فالإمام أبو حنيفة والإمام أحمد بن حنبل قالا: المراد بالقُرء في الآية مدّة الحيضة التي تأتي كل شهر، أما الإمام مالك والإمام الشافعي فقالا: إنَّ المراد بالقُرء مدة الطهر بين حيضتَيْن.

ولنرجع إلى كيفية التربُّص، فإذا كان تفسير القرء بمعنى الحيض يكون الحكم كما يأتي: إذا طلَّق الرجل امرأته في طهر لم يجامعها فيه، استقبلت المطلقة حيضة، ثم حيضة ثانية، ثم حيضة ثالثة، فإذا اغتسلت من الثالثة خرجت من العِدّة وطُلِّقت من زوجها طلقة بائنة[1].

أما إذا فسَّرنا القُرء بمعنى الطُّهْر، فيكون الحكم كما يأتي: إذا طلَّق الرجل امرأته في طُهْرٍ لم يجامعها فيه استقبلت بعده طُهْراً ثانياً بعد حيضة، ثم طهراً ثالثاً بعد حيضة ثانية، فإذا رأت الدم من الحيضة الثالثة خرجت من العِدَّة ومن عصمة زوجها الذي طلَّقها، ولا يجوز له مراجعتها إلاّ بعَقْدٍ ومَهْرٍ جديدَيْن.

والمدة التي تتربص فيها المطلقة أثناءها ثلاثة قُروء تسمى (العِدَّة) التي لا يجوز للمطلقة في أثنائها أن تتزوج من أحَدٍ، كما أن الغاية من هذه الفترة براءة رحمها من الولد إن كانت حاملاً من زوجها الذي طلقها.

﴿وَلاَ يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ﴾ أي ولا يحلّ لهؤلاء المطلقات أن يكتمن ما يكون في أرحامهن من جنين أو دم حيض، وذلك لأن أمر العدة يدور على الحيض والحَمْل، لذا جُعِلَ القول قولهن في

---

(١) الطلقة البائنة: هي التي لا يحق للزوج مراجعة زوجته إلاّ بعقد ومهر جديدن.

انقضاء العدة، والمراد بالنهي عن الكتمان: النهي عن الإضرار بالزوج. فإذا قالت المطلقة: حُضْتُ وهي لم تَحِض، فمعنى ذلك أنها حامل بولد تريد أن تنسبه إلى غير أبيه، وقد كان بعض نساء العرب قبل الإسلام يكتمن الحمل ليلحقن الولد بالزوج الجديد، فنزلت الآية مُحَذِّرةً من ذلك. وإذا قالت المطلقة: لم أحِضْ وهي قد حاضت، فمعنى ذلك أنها تدّعي الحمل وتريد إلْزام زوجها بالنفقة فتكون قد أضرَّت به.

﴿إِنْ كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ هنا وعيدٌ شديدٌ للمطلقات لتأكيد تحريم كتمان ما في أرحامهن، وبيان أن من كتمت منهن لم تستحق اسم الإيمان بٱللَّه لأن سبيل المؤمنات أن لا يكتمن الحق، وفوق ذلك تهديد ووعيد لهن بالمحاسبة يوم القيامة وما يكون فيه من عذاب شديد لمن يعصي ٱللَّه.

﴿وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ والبعولة: جمع بعل وهو الزوج، أي أن المرأة في مدة انتظار حصول ثلاثة قروء لها ليثبت طلاقها تظل في كنف زوجها، وله الحق في أن يُراجعها قبل انتهاء عِدّتها إلى عصمته بعد أن تكون مسبّبات الخلاف بينهما قد زالت، وبعد أن يكون الزوج قد شعر بالندم على طلاقها، وظهرت له الأضرار المترتبة عليه، وما يلي ذلك من عواقب وخيمة على أسرته، وقد يتدخل الأهل والأصدقاء لإصلاح ما بين الزوجين من سوء تفاهم، كل هذه العوامل قد تساعد إلى إعادة الحياة الزوجية إلى عهدها السابق. لذا جعل ٱللَّه الحق للزوج أن يُعيد زوجته إلى كنفه ويلغي الطلاق إما بالقول كأن يقول لزوجته: أرْجَعْتُكِ إلى ذمّتي، أو تكون المراجعة بالفعل بإقامة العلاقة الجنسية معها، وبذلك يبطل الطلاق ويحسب عليه بذلك طلقة واحدة، والرجعة إلى الحياة الزوجية أثناء العدة تعود إلى الزوج وحده وليس فيها عقد ومهر جديدان.

ثم أتبع القرآن هذا الحكم قوله: ﴿إِنْ أَرَادُوا إِصْلاَحاً﴾ أي إنّ الرجل لا يسوغ له أن يفكر في الرجعة إلى الحياة الزوجية إلاّ إذا حاول إصلاح حاله وحملها على الاستقامة والعمل لخير الأسرة، ومعاملة زوجته بالرفق واللين والمعاملة الحسنة، والسبب في ذلك أن العرب في الجاهلية قبل الإسلام كانوا يُراجعون المطلقة ويريدون بذلك الإضرار بها، وذلك بأن يُراجعوها قبل أن تنتهي عِدَّتُها ثم يُطلّقونها بعد ذلك لتستأنف العدّة من جديد وهلّم جرّا.

﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالمَعْرُوفِ﴾ أي للنساء على أزواجهن من الحقوق وحُسن المعاشرة مثل الذي عليهن للأزواج من الواجبات. وقوله سبحانه: ﴿بِالمَعْرُوفِ﴾ أي ما يُستحسن من الأفعال وحُسن الصحبة ولين الكلام وغير ذلك من الأخلاق الكريمة.

فالنص القرآني يُعطي للرجل ميزاناً يزن به معاملته لزوجته في جميع الشؤون والأحوال، فإذا همَّ بمطالبتها بأمر من الأمور عليه أن يتذكر أنه يجب عليه مثله بإزائها، وليس المراد بالمِثْلِ في كل الأمور، وإنما المراد أن الحقوق بينهما متبادلة، فما من عمل تعمله المرأة للرجل بما هو من اختصاصها إلاّ وللرجل عمل يقابله لها بما هو من اختصاصه، فليس من العدل أن يتحكَّم أحَد الزوجين بالآخر ويستذلّه ولا سيما بعد الرباط بين الزوجين الذي لا يقوم إلاّ على الحبّ والرحمة والاحترام المتبادل بينهما.

ثم إن الآية التي مرّت معنا والتي أقرّت المساواة بين الزوجين في المعاملة بيَّنت بعد ذلك الفرق بينهما بقوله تعالى: ﴿وَلِلرِّجالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ أي للأزواج على الزوجات زيادة درجة لأنه هو ربّ الأُسرة والقائم المشرف عليها، والمنفق أمواله في مصالحها، وهذه الدرجة فسّرتها الآية القرآنية الآتية: ﴿الرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنْ

أَمْوَٰلِهِمْۚ﴾ [النساء: ٣٤]. فحق القَوّامة مستمد من التفوق الفطري لطبيعة الرجل، فهو أقدر من المرأة على كفاح الحياة، ولو كانت مثله في القدرة العقلية والجسدية، لأنها تنصرف عن هذا الكفاح قسراً في فترة الحمل والرَّضاعة، إضافة إلى نهوض الرجل بتكاليف الأسرة.

ويختم ٱللَّه الآية بقوله: ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ أي إنه سبحانه القوي الغالب المنتقم ممن خالف أمره وتعدّى حدوده، الحكيم في أفعاله وما شرع لعباده من الأحكام.

﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ فَإِمۡسَاكُۢ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ تَسۡرِيحُۢ بِإِحۡسَٰنٖۗ وَلَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَأۡخُذُواْ مِمَّآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ شَيۡـًٔا إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِۖ فَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَا فِيمَا ٱفۡتَدَتۡ بِهِۦۗ تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعۡتَدُوهَاۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٢٩﴾ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعۡدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوۡجًا غَيۡرَهُۥۗ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِۗ وَتِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ﴿٢٣٠﴾﴾.

شرح المفردات

فإمساك بمعروف: فردُّوهنّ إلى عصمتكم، والمعروف: ما أَلِفَتْهُ العقول واسْتَحْسَنَتْهُ النفوس.

تسريح بإحسان: ترك الزوجة بلا مُراجعة حتى تنقضي عِدَّتها مع أداء حقوقها من غير إساءة لها.

أن يخافا ألاّ يُقيما حدود الله: أن يظنّا أن لا يؤدّيا واجبات الزوجية التي فرضها الله.

جُناح: إثم.
تنكح زوجاً غيره: تتزوج زوجاً آخر ويدخل بها.
أن يتراجعا: أن يرجع كل منهما إلى حالة الزوجية السابقة.
تلك حدود الله: أحكامه المفروضة.

ضوابط الطلاق

كان الطلاق في الجاهلية ـ وفي مستهلّ الإسلام ـ غير مقيَّد بعدد محدود، وكانت العِدَّةُ معروفة مقدَّرة، فكان الرجل ـ في بدء الإسلام ـ إذا غاضب زوجته طلَّقها ثم راجعها قبل انقضاء عدتها، يكرر ذلك كما يشاء، فلا هو يحسن عشرتها ولا هو يُخلّي سبيلها. حتى قال رجل لامرأته: وٱللَّه لا أُطَلِّقك فَتَبِينِي[1] ولا آويكِ أبداً، قالت: وكيف ذلك؟ قال: أُطَلِّقُكِ، فكلما هَمَّت عِدّتك أن تنقضي راجَعْتُكِ، فذهبت المرأة فشكت حالها إلى رسول ٱللَّه، فأنزل ٱللَّه قوله:

﴿الطَّلاقُ مَرَّتانِ﴾ أي إن الطلاق الذي يقره الشرع الإسلامي هو أن يكون مرّتان منفصلتان الواحدة عن الثانية، أي مرّة بعد مرّة لا طلقتان دفعة واحدة ﴿فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ﴾ أي إن للزوج الحق بعد كل واحدة من الطلقتين أن يُرجع زوجته إلى عصمته ما دامت في العدة، أو يعقد عليها بعقد ومهر جديدَيْن وموافقة الزوجة بعد انتهاء العدة، وفي حال إرْجاعها إلى الحياة الزوجية يجب على الزوج معاملتها بالمعروف: وهو اسم لكل فعل يعرفُ بالعقل والشرع حُسْنُهُ، فلا يُؤذيها ولا يُلحق الضَّرر بها، ولا يَبخل عليها بالإنفاق ﴿أَوْ تَسْرِيحٌ

---

(١) فتبيني: بانت الزوجة أي أصبحت خارجة عن عصمة زوجها، فلا يحق للزوج إرْجاعها إليه بعد انقضاء عدّتها إلاّ بعقد ومهر جديدين وموافقة الزوجة.

بِإِحْسَانٍ﴾ وتسريح الزوجة أن يترك مراجعتها بعد إيقاع الطلاق بها حتى تنقضي عِدَّتُها مع الإحسان إليها وإعطائها من المال ما يليق بها وإكرامها، وعدم إهانتها.

﴿وَلاَ يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئاً﴾ أي ليس من الحلال أن تأخذوا من زوجاتكم في حال الطلاق ما أعطيتموهن من مالٍ، ويدخل في ذلك أخذ المهر الذي وهبه الزوج لزوجته وغيره مما يُعطيه الرجل امرأته على سبيل التمليك، بل يجب على الزوج أن يُمَتِّعَها بشيءٍ من ماله زائداً على ذلك، ومحل هذا الحكم إذا كان الزوج هو الذي اختار فراق زوجته ﴿إِلاَّ أَن يَخَافَا أَلاَّ يُقِيما حُدُودَ اللَّهِ﴾ أي ولكن أباح الشرع للزوج أن يأخذ من زوجته بعض ما أعطاها من المال مقابل طلاقها إذا خاف الزوجان أن لا يقيما حدود ٱللَّه، وهي أحكام ٱللَّه وشرائعه، وسُمّيت حُدوداً لمنع تخطيها إلى ما وراءها، ويكون الطلاق بسبب عدم قيام المرأة بحقوق زوجها وسوء طاعتها له أو يكون بطلب الزوجة الطلاق من زوجها مقابل رَدّ المال الذي دفعه زوجها لها ويسمى ذلك بالخُلْع. وقد رُوِيَ أنَّ امرأة ثابت بن قيس بن شماس أتتِ النبي ﷺ فقالت: يا رسول ٱللَّه، ثابت بن قيس ما أعتب عليه في خُلُقٍ ولا دِيْنٍ، ولكن لا أُطيقه بغضاً وأكره الكُفر في الإسلام (أي كفر نعمة الزوج وخيانته) فقال لها النبي: «أَتَرُدِّينَ عليه حديقته؟» (حديقة كان زَوْجها قد وهبها إياها) قالت: نعم، قال النبي لثابت: «اقْبَلِ الحديقة، وطَلِّقْها تَطْلِيقة»[1].

﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ يُقِيما حُدُودَ اللَّهِ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِما فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ﴾ فإن خفتم يا معشر المسلمين ألاّ تؤدي الزوجات حقوق الزوجية سليمة كما بيَّنها ٱللَّه سبحانه، فلا إثم على الزوجة فيما افتدت به نفسها من المال مقابل الطلاق من

---

(١) أخرجه البخاري.

زوجها، ولا إثم على الزوج فيما أخذه من المال من زوجته.

﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلاَ تَعْتَدُوها﴾ أي تلك أحكام ٱللّه وشرائعه فلا تتجاوزوها إلى ما حرَّم عليكم وما أمركم به ﴿وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولئِكَ هُمُ الظَّالِمونَ﴾ أي ومن تخطّى حدود ٱللّٰه وتجاوزها إلى ما حرَّم ٱللّٰه وما نهى عنه، فإنه هو الظالم الذي فعل ما نهى ٱللّٰه عنه وعصى ٱللّٰه في ذلك، وقد نهى ٱللّٰه عن الظلم وأوعد عليه في القرآن بالعذاب يوم القيامة.

﴿فَإِنْ طَلَّقَها فَلاَ تَحِلُّ لَهُ مِن بَعْدُ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجاً غَيْرَهُ﴾ أي إذا طلَّق الرجل امرأته التطليقة الثالثة بعد التطليقتين اللتين ذكرهما ٱللّٰه بقوله: ﴿الطَّلاقُ مَرَّتانِ﴾ فلا تحلّ له امرأته إلاّ بعد أن تتزوج زوجاً غيره ويُجامعها ويطلقها عن رضا بدون شروط مسبقة وبعد انتهاء عدّتها. وقد سُئِلَ رسول ٱللّٰه عن رَجُلٍ طَلَّقَ امرأته الطلقة الثالثة فتزوجت رجلاً غيره، ثم طلَّقها قبل أن يُجامعها: أَتَحِلُّ لزوجها الأوَّل؟ فقال رسول ٱللّٰه: «لا تَحِلُّ لِزَوْجِها الأوَّل حتى يذوق الزوج الآخر عُسَيْلتَهَا وتذوق عُسَيْلَتَهُ»[1]، والمراد أن يُجامعها، شبّه لذّة الجماع بذوْق العسل.

واتخاذ زوج آخر قبل الرجوع إلى الأول أكبر مانع من إيقاع الطلاق عند قوم كالعرب عُرفوا بشدة الغَيْرَة والحَمِيَّةِ وأقوى رادع لهم عن ممارسة الطلاق، فجاء القرآن بأكبر زجر لمنع الطلاق في أُمّة اشتهرت بالغَيْرَة على نسائها والمحافظة على العزّة والشرف.

ويشترط في الزواج الثاني أن لا يكون مؤقّتاً، الغاية منه تحليل الزوجة المطلقة ثلاثاً للزوج الأول، وقد نهى رسول ٱللّٰه أن يتزوج الرجل بالمرأة بقصد

(١) أخرجه البخاري.

تحليلها للزوج الأول فقال: «ألا أُخبركم بالتَّيْسِ المُسْتَعار؟ قالوا: بَلَى يا رسول ٱللَّه، قال: هو المُحَلِّل، لَعَنَ ٱللَّهُ المُحِلِّلَ والمُحَلَّل له»[1].

ولقد اتفق فقهاء المسلمين على أن نكاح التحليل حرام إذا قصد به في عقد الزواج لتضافر الأدلة بلعن النبي ﷺ للمحلّل، ولهذا ذهب الإمام مالك والإمام أحمد والشافعي في أحَد قوليه إلى أن من تزوج بالمطلقة ثلاثاً بقصد تحليلها لزوجها الأول فنكاحه باطل.

ويرى الإمام أبو حنيفة أنه لو تزوجها ولم يشترط في عقد النكاح أنه يفارقها وبِنِيَّته أنه يفارقها فالنكاح صحيح، ويحصل به التحليل إذا دخل بها وطلقها وانقضت عِدَّتها، ولكن يُكْرَه ذلك، لأن الأحكام تُناط بالظواهر، والنيّات علمها عند ٱللَّه، وهو الذي يُؤاخذ الناس عليها.

ولنرجع إلى تتمة الآية السابقة حيث يقول ٱللَّه تعالى:

﴿فَإِنْ طَلَّقَها فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِما أَن يَتَرَاجَعَا إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيما حُدُودَ اللَّهِ﴾ أي فإن طلَّقها الزوج الثاني بعد الدخول بها (أي بعد وطئها) وانقضاء عِدّتها، فلا إثم على المرأة وعلى زوجها الأول أن يتزوجا زواجاً جديداً إن اعتقدا أنهما سيقيمان حدود ٱللَّه بالمعاشرة بالمعروف، والقيام المتبادل بواجباتهما الزوجية الحَسَنة ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُها لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ وتلك الأحكام الشرعية في شأن الطلاق يُبَيِّنها اللَّهُ للناس ليعلموا حقيقتها الشرعية ويُدركوا الفائدة منها، فيراعوها ويتعهدوا بالقيام بها.

---

(١) أخرجه ابن ماجه.

﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍۚ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُواْۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥۚ وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًاۚ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٣١﴾ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ إِذَا تَرَٰضَوْاْ بَيْنَهُم بِٱلْمَعْرُوفِۗ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِۗ ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٢﴾﴾.

شرح المفردات

فبلغن أجَلَهُنَّ: شارفت عدتهن على الانتهاء.

فأمسكوهن بمعروف: فردّوهن إلى عصمتكم مع معاشرتهنّ بالإحسان.

أو سَرِّحوهن بمعروف: أو اتركوهن حتى تنقضي عِدّتهن وينفصلن عنكم من غير إضرارٍ بهنّ.

ولا تُمسكوهن ضِراراً: ولا تُراجعوهنّ إلى عصمتكم بقصد الإضرار بهِنّ.

ولا تتخذوا آيات ٱللَّه هُزواً: ولا تأخذوا أحكام الله هازئين غير جادّين.

فلا تَعْضُلُوهُنَّ: فلا تمنعوهن وتُضيّقوا عليهن.

أزكى لكم: أنمى وأنفع لكم.

النهي عن الإضْرار بالمُطَلَّقَةِ

ويتابع القرآن الكلام عن الطلاق مع إرشاد الزوج والزوجة إلى ما فيه الخير لهما، إما بإرجاع الحياة الزوجية إلى سابق عهدها بعد إيقاع الطلاق، وإما بالفراق، قال ٱللَّه تعالى:

﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾ وإذا طلقتم ـ أيها الأزواج ـ نساءكم طلاقاً رجعيًّا وكانت نساؤكم في العِدّة ﴿فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾ أي قاربت العدة على الانتهاء ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ أي فإن رجح لديكم أنّ الإبقاء على حياتكم الزوجية أصلح لكم من انقطاعها، فأعيدوا هذه المُطلّقة إلى سابق عهدها مع معاشرتها بحسن الصحبة وبما يُستحسن من الأفعال ﴿أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ وإن غلب على ظنكم أنه يتعذر العيش مع زوجاتكم المطلقات بالمعروف لسبب من الأسباب فاتركوهن حتى تنقضي عدتهن ويصبحن أحراراً من الرابطة الزوجية، وأعطوهن حقوقهن المالية من غير إيذاءٍ لهن ولا إهانة ولا طعن بهنّ ﴿وَلاَ تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَاراً لِتَعْتَدُوا﴾ أي لا تُراجعوا زوجاتكم إلى عصمتكم بعد طلاقهن وهن في العِدَّة رغبة في الإضرار بهنَّ وإيذائهنَّ ليفتدين أنفسهن بالمال. وقد كان بعض العرب يفعل ذلك كما روى ابن جرير أن ثابت بن بشار طلّق امرأته حتى إذا انقضت عِدّتها إلاّ يومين أو ثلاثة راجعها، ثم طلقها لتستقبل العدة من جديد حتى مضت لها تسعة أشهر يضارّها بذلك، فأنزل ٱللَّه قوله: ﴿وَلاَ تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَاراً لِتَعْتَدُوا﴾ والضرار يعني المشاركة في الضرر للإشعار بأن ضُرَّه إياها يستتبع ضُرَّها إياه وذلك بإهمالها واجباتها المنزلية وتبديد أمواله ومناكفته، مما يجعل بيت الزوجية مكاناً للنكد والخصام والتعاسة بدلاً من أن يكون ساحة للوئام والودّ والسعادة ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾ ومن يعتدي على زوجته ويلحق الضرر بها فقد ظلم نفسه، واكتسب بذلك إثماً، وأوجب لنفسه من ٱللَّه عقوبة ﴿وَلاَ تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللهِ هُزُواً﴾ ولا تتخذوا أحكام ٱللَّه وشرائعه في شأن الطلاق وغيره استهزاء ولعباً، فإنها كلها قائمة على الجدّ، ولا تتهاونوا في الالتزام بها.

وقد رُوي أن الرجل في الجاهلية كان يُطلِّق ويقول: إنما طلقت وأنا

لاعب، ولهذا قال رسول ٱللَّه ﷺ: «ثلاثٌ جَدُّهُنَّ جَدٌّ وهَزْلُهُنَّ جَدٌّ: النِّكاح، والطلاق، والرَّجْعَة»[1].

﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ واذكروا نِعَمَ ٱللَّه الكثيرة عليكم ومنها نعمة الزوجية وما فيها من السعادة لكم حيث جعل ٱللَّه زوجاتكم سَكَناً لكم تُبادِلونهنَّ الوُدَّ والعطف، وتتعاونون معاً لاجتياز مصاعب الحياة ﴿وَمَا أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ﴾ واذكروا ما أنزل ٱللَّه عليكم من الكتاب وهو القرآن الكريم وما أنزل عليكم من الحكمة وهي السُّنَّة النبوية التي تتمثل بأقوال النبي ﷺ وأفعاله. فالسنّة النبوية تُبين أحكام القرآن من تفصيل المجمَل، وتوضيح المشكل، وتخصيص العامّ، والكشف عن الأحكام المنطوية في نصوصه العامة وقواعده الكلية، ودل على أنّ السُّنَّة النبوية أنزلها ٱللَّه على رسول ٱللَّه محمد ﷺ قوله سبحانه: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ. إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٣ ـ ٤] ولكن السنّة هي غير ما أنزل ٱللَّه في القرآن ﴿يَعِظُكُم بِهِ﴾ والوعظ: النصح والتذكير بما يليّن القلوب إلى الخير، فٱللَّه سبحانه يُذَكِّر المسلمين بما أنزل عليهم من القرآن وما جاءهم به رسوله محمد ﷺ من الحكمة ليعملوا بها ويَتَّعِظوا ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ أي وخافوا ٱللَّه وتجنبوا عذابه بالعمل بما أمر وترك ما نهى عنه ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ أي واعلموا أنَّ ٱللَّه يعلم سِرَّكم وجهركم ويعلم كل شيء في الكون، ولا شك أنَّ معرفة ذلك تدعو المؤمن إلى طاعة ٱللَّه وعدم عصيانه.

ثم يأتي الخطاب لأولياء المُطَلَّقات بأن لا يمنعوهن من الرجوع إلى أزواجهن السابقين إذا حصل التوافق بينهم بعد الطلاق وانقضاء العدة:

---

(١) أخرجه أبو داود.

﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ[١]﴾ أي وإذا طلّقتم أيها الأزواج نساءكم وانقضت العِدَّة ﴿فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ﴾ العَضْلُ: المنع والتضييق، أي فلا تمنعوهن ـ أيها الأولياء ـ أن يتزوجن أزواجهن الذين طلقوهن ويستأنفن حياتهن الزوجية السابقة ﴿إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُم بِالْمَعْرُوفِ﴾ إذا حصل التراضي بينهم بعد النزاع الذي أفضى بهنَّ إلى الطلاق، وكان هذا التراضي قائماً بالمعروف، والمعروف هو الذي يُعرف بالعقل والشرع حُسْنُهُ، ولم يكن ثمة سبب للاعتراض عليه.

وقد جاء في أسباب نزول الآية ما رُوِي عن معقل بن يسار أنه قال: «كانت لي أُختٌ، فأتاني ابن عمٍّ لي فأنكحتها إياه (أي زوجتها إياه) فكانت عنده ما كانت ثم طلَّقها تطليقة ولم يُراجِعْها حتى انقضت عِدّتها، فهوِيَها وهويَتْه (أي أحَبَّها وأحَبَّته) ثم خطبها مع الخُطّاب، فقلت له: يا لُكَع[٢]، أكرمتك بها وزوجتُكها فطلقتها ثم جئت تخطبها، واللهِ لا ترجع إليكَ أبداً، وكان رجلاً لا بأس به، وكانت المرأة تريد أن ترجع إليه، فعلم ٱللَّه حاجته إليها وحاجتها إلى بعلها فأنزل هذه الآية، قال: فَفِيَّ نزلت، فكفّرْتُ عن يميني وأنكحتها إياه..»[٣].

﴿ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ أي ذلك التوجيه الكريم المشتمل على أفضل الأحكام وأعدلها يُذكّر به من كان منكم يُصَدِّقُ بوجود ٱللَّه ووحدانيته وبثوابه وعقابه يوم القيامة ﴿ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ﴾ وهذا الحكم هو أعظم برَكَةً ونفعاً لكم وأكثر تطهيراً لكم من الريبة والتّهم، فإنّ

(١) المراد ببلوغ الأجل هنا انتهاء العدّة، أما بلوغ الأجل في الآية التي قبلها فإنها تعني المشارفة والمقاربة، وسياق الكلامين في الآيتين يدل على اختلاف البلوغين.

(٢) يا لكع: أي يا لئيم.

(٣) أخرجه البخاري والنسائي والترمذي وأبو داود.

المرأة إذا عوملت معاملة كريمة الْتزمت في سلوكها العفاف والطهر، أما إذا عوملت بالظلم والامتهان فإن هذه المعاملة قد تدفعها إلى ارتكاب ما نهى ٱللَّه عنه ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُم لاَ تَعْلَمُونَ﴾ وٱللَّه سبحانه يعلم ما فيه صلاح أموركم من الأحكام والشرائع التي أنزلها على رسوله محمد ﷺ وأنتم لا تعلمون ذلك، فامتثلوا ما أمركم به وانتهوا عما نهاكم عنه.

﴿۞ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ۚ وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةٌۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ ۚ وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ ۗ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا ۗ وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّآ ءَاتَيْتُم بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٣﴾﴾.

شرح المفردات

حَوْلَيْن: سنتين بالتقويم القمري.

رزقهن وكسوتهن بالمعروف: أي النفقة لهن بما يتعارف عليه الناس ولا تُنكره العقول السليمة.

وُسْعها: استطاعتها.

لا تُضارّ والدةٌ بولدها: أي لا يحصل لها الضرر بسبب ولدها.

فِصالاً: فِطاماً للمولود عن الرَّضاع.

أن تسترضعوا أولادكم: أن ترضعوهم من غير أمهاتهم.

الحقوق المتوجبة للمرضعة

ويعد أن بيَّن اللَّهُ حقوق الزوجين بعضهما على بعض وكذلك أحكام الطلاق عند استحكام النفرة بينهما، بيَّن ٱللَّهُ فيما يلي حقوق من كانوا ثمرة الزواج وهم الأطفال الرُّضَّع، وما لهم من واجبات على آبائهم وأُمهاتهم، وكذلك ما يجب للمرضعة من حقوق، قال ٱللَّه تعالى:

﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ﴾ هو أمر جاء على صيغة الخبر، أي على جميع الوالدات مطلقات كُنَّ أو غير مطلقات إرضاع أولادهن. وهذا الأمر هو للاستحباب وللوجوب، فهو يكون مستحَبًّا عند توفّر شروطٍ ثلاثةٍ: قُدرة الأب على استئجار المرضعة، ووجود من ترضعه غير الأم، وقبول الولد لِلَبَنِ[1] الغير، ويكون للوجوب عند فقد أحد هذه الشروط.

ويرى بعض المفسرين أن المراد بالوالدات هنا المطلقات لأن سياق الآيات قبل ذلك في أحكام الطلاق، ولأن المطلقة عرضة لإهمال العناية بطفلها وترك إرضاعه.

ولبن الأم هو الغذاء الطبيعي لولدها، وهو أكثر فائدةً للرضيع، وأسلم وسيلة لضمان صحته ونموّه، كما أن عناية الأُم بطفلها وما تحيطه به من حنوّها في هذه الفترة من إرضاعه يؤدي إلى تحسين أحواله.

وفي عصرنا الحاضر أصبح الأطباء يُوصون لبعض الأطفال أنواعاً من اللبن الصناعي المستخرج من ألْبان البقر عند تعذّر الأم إرضاع ولدها، ولكنهم مجمعون على أنه لا أصلح للطفل من لبن أُمّه، هذا مع العلم أن الإرضاع من اللبن الصناعي يحتاج إلى مزيد من الحَذَر من تلوّثه، بينما لبن الأم هو بمنأى عن ذلك.

(١) اللَّبَنُ: يطلق على الحليب، كما يطلق على الحليب الرائب، والمراد به هنا الحليب الطبيعي.

وحتى لا يختلف الوالدان في مدّة الرضاعة بأن يريد الأب أن يقصّر مدة الرضاعة في حال طلاق زوجته ليتخلص من نفقة الرَّضاعة لها، أو تحاول الأم إطالة مدة الرضاع للانتفاع بالنفقة من زوجها، حَدَّدَ ٱللَّهُ مدة الرضاعة اللّازمة للطفل لقطع النزاع بين الزوجين بقوله ﴿حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ﴾ والحَوْلُ: هو السَّنَةُ بالتقويم القمري ﴿لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ﴾ أي هذا الحكم هو لمن أراد إتمام الرَّضاع، فإذا أراد الأبَوان أن يُنقصا مدّة الرضاع عن السنتين كان لهما ذلك.

﴿وَعَلَى المَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بالمَعْرُوفِ﴾ المولود له: هو الأب، أي وعلى الآباء أن يقدّموا للأمهات في حال إرْضاع أولادهن عند طلاقهن ما يلزمهن من نفقةٍ وكسوةٍ بالمعروف: أي بالطريقة المتعارف عليها عند أصحاب المروءة والفضل ﴿لاَ تُكَلَّفُ نَفْسٌ إلاَّ وُسْعَها﴾ أي لا يُلزم الوالد من النفقة بما يشقّ عليه، بل يكون الأجر الذي يدفعه في حدود طاقته ﴿لاَ تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا﴾ أي لا ينبغي أن يقع ضرر على الأم المرضعة بسبب ولدها بأن يستغل الأب حنوّها على وليدها فيمنع عنها ما يتوجب عليه من نفقتها وكسوتها، أو يأخذ منها طفلها وهي تريد إرضاعه ويضعه عند مرضعة أخرى ﴿وَلاَ مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ﴾ أي ولا ينبغي أن يقع ضرر على الأب بسبب ولده بأن تطلب منه أم طفله ما لا تتسع قدرته عليه من النفقة مستغلة عاطفته نحو ولده. تأمّل كيف أضاف ٱللَّه الولد إلى أمه وأبيه لإثارة عاطفة الأبوة والأمومة نحوه، وأن هذا الولد الذي رزقهما ٱللَّه إياه جدير بأن ينال حظًا وافراً من العناية والعطف والحنان ﴿وَعَلَى الوَارِثِ مِثْلُ ذلِكَ﴾ أي في حال وفاة الأب، فإنه يتوجب على وارث الأب أن يُنفق على الأم المُرضعة، هذا بأن لا يكون للطفل الرضيع مالٌ وَرِثَهُ عن أبيه، فإن كان له مالٌ أُخذت أجرة رضاعه من ماله.

﴿فَإِنْ أَرَادَا فِصَالاً عَنْ تَرَاضٍ مِّنْهُما وَتَشَاوُرٍ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِمَا﴾ والفِصالُ: الفِطام عن الرَّضاع، أي التفريق بين الصبيّ والثدي، أو لأنه يفصل الولد عن أمه، وقد قيّد ٱللَّه هذا الفطام للطفل بأن يكون عن تراضٍ وتشاورٍ بين الأب والأم، وبذا لا يكون عليهما إثم في ذلك، لأن إقدام أحدهما على فطام الصبيّ بدون هذا التشاور قد يؤثّر في صحة الطفل، ولأنَّ رأي الأم والأب مُجْتَمِعَيْنِ هو أصلح لمصلحة الطفل.

﴿وإِنْ أَرَدْتُّم أَن تَسْتَرْضِعُوا أَوْلاَدَكُمْ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ أي وإن أردتم أن تجعلوا لأولادكم مرضعة غير والدتهم لمصلحة الطفل فلكم ذلك ولا إثم عليكم **﴿إِذا سَلَّمْتُم مَّا آتَيْتُم بِالمَعْرُوفِ﴾** أي إذا سلّمتم المرضعة أجْرها بما يتعارفه الناس وبما تستحسنه العقول السليمة من دون مماطلةٍ في إعطائها حقّها، فإنّ عدم توفير الأجر بما تستحق يبعثها على التّساهل بأمر الصبيّ والتفريط في شأنه **﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾** أي خافوا ٱللَّه فيما فرض عليكم من الحقوق وفيما أوجب عليكم للمراضع ولأولادكم **﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾** أي واعلموا أن ٱللَّه لا يخفى عليه خافية من جميع أعمالكم سِرّها وعلانيتها، فاحذروا الخروج عن طاعته.



﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ۖ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ ۗ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٣٤﴾ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِي أَنفُسِكُمْ ۚ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَن تَقُولُوا قَوْلًا مَّعْرُوفًا ۚ وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ ۚ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ ۚ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٣٥﴾﴾.

شرح المفردات

ويذَرون أزواجاً: يتركون زوجات لهم في عصمتهم وقت الوفاة. وأزواجاً: جمع زوج ويطلق على الرجل والمرأة.

يتربَّصنَ: ينتظرنَ في بيت الزوجية.

بلغن أجَلهن: انقضت عِدَّتهن.

عَرَّضْتُم: لَوَّحتم وأشرتم به، وضده التصريح والإفصاح.

خِطبة النساء: طلبهن للزواج.

أكننتم: أخفيتم.

ولا تعزموا عُقْدَة النكاح: ولا تقصدوا قصداً جازماً تنفيذ عقد الزواج.

حتى يبلغ الكتاب أجَله: والكتاب: هو الأمر المكتوب المفروض وهو هنا العِدّة، والأجل: هو انتهاء المدة المقررة للعدة.

عِدَّةُ المتوفى عنها زوجها

ثم ينتقل القرآن إلى بيان الحكم في حال وفاة الزوج، وما يترتب على الزوجة من أُمور يجب القيام بها، وهي أن تمكث فترة من الزمن في حداد على

زوجها لا يحق لها في أثنائها الزواج، وهذه الفترة تسمى عِدَّة الوفاة، قال ٱللَّه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُم وَيَذَرُونَ أَزْوَاجاً﴾ أي الأزواج منكم ـ معشر المسلمين ـ الذين يموتون ويتركون زوجاتهم، الحكم في حقهن أن: ﴿يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْراً﴾ التربُّصُ: الانتظار، أي يجب على الزوجات أن ينتظرن بعد وفاة أزواجهن مدة أربعة أشهر وعشرة أيام بدون زواج، وهذا الحكم على كل زوجةٍ صغيرةٍ كانت أم كبيرة، مَدْخولاً بها أو لا.

والحكمة من تلك العِدَّة التي مدتها أربعة أشهر وعشرة أيام تظهر في أمرَيْن: الأول، هو أن يتبيَّن فيها للمرأة الحمل من زوجها المُتوفى إذا كانت حاملاً منه، فهذه المدة هي التي يتحرك في مثلها الجنين تحركاً ظاهراً وتشعر به الأم ويظهر الحمل عليها، فإذا تبين أنها حامل فعدّتها تنتهي بوضع حملها أي بولادتها، وبعدها يحقّ لها الزواج، وبذلك لا تختلط الأنساب، ولا يقع الإشكال في الأب الحقيقي للمولود، وهذا يدلّ على عظمة التشريع الإسلامي القائم على العدل والحكمة.

والأمر الثاني: وهو أن الغاية من العِدَّة هي أن تكون في حداد على زوجها ورفيق عمرها وربّ أُسرتها بالطريقة المثلى، وبذلك يصحح الإسلام ما كانت عليه حال المرأة عند العرب في الجاهلية، فقد كانت المرأة إذا تُوُفّي عنها زوجها تغلق على نفسها في بيتها وتقضي فيه عاماً كاملاً حداداً على زوجها، فأبطل الإسلام ذلك، وفي هذا يقول الرسول محمد ﷺ: «لا يحلّ لامرأة تؤمن بٱللَّه واليوم الآخر أن تَحِدَّ على ميتٍ فوق ثلاث، إلاّ على زَوْجٍ أربعة أشهرٍ وعشراً»[1].

---

(١) متفق عليه.

وفي عِدَّةِ الوفاة يَحْرُمُ على المرأة الخروج من بيتها إلاّ لضرورةٍ، كأن تزاول مهنة أو وظيفة، أو لا تجد من يقوم بحوائجها، كما يحرم عليها الزينة وتوابعها في أثناء العدة، لأن المرأة المؤمنة الوفية لزوجها يأبى عليها دينها ومروءتها أن تعرض نفسها على غيره بعد فترة قصيرة من وفاته، كما يحرم على الرجل أن يخطب المرأة أثناء العدة.

﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ أي فإذا انتهت مدة عِدَّة الوفاة فلا إثم ولا حرج عليكم ـ أيها الأولياء ـ فيما فعلن هؤلاء الزوجات الأرامل من طرح الحداد والاستعداد للزواج، وذلك بالتزيّن والتجمّل، ولكن بالطريقة التي يُقِرُّها الشرع وبِما يَحْسُنُ عقلاً وشرعاً، وأن يكون زواجها من الكفء الذي لا يجلب العار لأسرتها.

وهنا إشارة إلى أنهنَّ لو فعلنَ ما يُنكره الشرع فعلى الأولياء أن يمنعوهن عن ذلك ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ واللّه سبحانه عليم بما تمتثلون من أمره وهو مجازيكم على أعمالكم فاحذروا معصيته.

﴿وَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ﴾ عرَّضتم: التعريض هو ضد التصريح، وهو ما تضمّن الكلام الأمر المراد دون ذكره صراحة، والخِطبة بكسر الخاء طلب الرجل المرأة للزواج بالوسائل المعروفة بين الناس، والمقصود من النساء في الآية المعتدّات عن وفاةٍ، ومعنى الآية: لا إثم عليكم ـ أيها المسلمون ـ من التعريض بخطبة النساء وهنَّ في العِدَّةِ بعد وفاة أزواجهن بكلام يفهم منه رغبتكم في الزواج بهن بعد انقضاء عدّتهن، وعلى هذا فلا يجوز الكلام مع المرأة التي هي في العدة بما هو نص في طلب الزواج بها بشكل صريح، كما لا يجوز التعريض لخطبة المطلقة طلاقاً رجعياً وهي في العِدَّة لأنها لا تزال في عصمة زوجها.

ومن أمثلة التعريض بخطبة النساء وهُنَّ في عِدَّة وفاة أزواجهن أن يقول لها:

ـ إنكِ عَلَيَّ لكريمة، وإن الله سائق إليكِ خيراً ورِزْقاً، وإني لمعجب بكِ.

ـ إني أُريد التزوج وإنّ من شأني النّساء، ولَوَدَدْتُ أن ٱللَّه يسَّر لي امرأة صالحة.

ـ أو يقول: إني حسن الخلق كثير الإنفاق جميل العشرة مُحْسِنٌ إلى النّساء، فيصف نفسه بالصفات الحميدة ليرغّبها فيه، فلا يصرّح بالزواج بأن يقول: إني أُريد أن أتزوجك أو أخطبك، فالتصريح بالخِطبة لا يجوز حتى لا يؤذي أهل الميت، وحتى لا يدفعها إلى الامتناع عن الحداد على زوجها المتوفىٰ.

﴿أَوْ أَكْنَنتُمْ فِي أَنفُسِكُمْ﴾ أي لا إثم عليكم فيما سترتم وأضمرتم في قلوبكم من الزواج بهنّ ﴿عَلِمَ اللهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ﴾ أي علم ٱللَّه أنكم لا تصبرون عن النطق لهنّ برغبتكم في الزواج بهنّ، فرخّص لكم في التعريض دون التصريح، وفي هذا نوع من التوبيخ لهم على قِلَّةِ صبرهم ﴿وَلَكِن لا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا﴾ السِّرُّ في هذا الموضع: الزّنا، أي لا يَكُونَنَّ منكم مواعدة على الزنا في العدة ثم التزوج بعدها، وقيل: أن لا يأخذ الميثاق عليها بأن لا تتزوج غيره، أو بمعنى: لا تلتقوا بهن سِرًّا وتقولوا معهنّ ما تستحون من قوله جهراً ﴿إِلاَّ أَن تَقُولُوا قَولاً مَّعْرُوفاً﴾ ولكن أباح لكم أن تقولوا قولاً معروفاً، والمعروف هو الذي يُعْرَفُ بالعقل والشرع حُسْنُهُ، ولا تُنكره الأخلاق الكريمة.

﴿وَلاَ تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ﴾ أي لا تقصدوا وتعقدوا العزم في أثناء العِدَّةِ على تنفيذ عقد الزواج ﴿حَتَّى يَبْلُغَ الكِتَابُ أَجَلَهُ﴾ حتى تبلغ العدة المفروضة آخرها، فٱللَّه سبحانه نهى عن العزم على عقد الزواج في العدة للمبالغة في عدم إبْرام العقد.

والنهي عن مقدمات الشيء يستلزم النهي عن ذلك الشيء بطريق أوْلى.

ومن المعلوم أن عقد النكاح في زمن العِدَّة باطل، والمباشرة به وتنفيذه يعتبر من الزنى، والتفريق بين الرجل والمرأة في تلك الحالة واجب. فالتزوج بالمرأة في العِدَّةِ مُحَرَّمٌ قطعاً، ولأجله حُرِّمت خِطبتها في العدَّة.

﴿وَٱعْلَمُوا أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ ما فِي أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ﴾ أي واعلموا أن ٱللَّه يعلم ما يجول في أنفسكم من خواطر وما تعزموا عليه من الأفعال، فاحذروا أن تعملوا بما نهاكم عنه وخافوا مخالفة أمره ﴿وَٱعْلَمُوا أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ وهو سبحانه غفور لِمَنْ أذنب ثم تاب، وهو سبحانه حليم لا يعجل بالعقوبة لمن أذنب، بل يمهله ليصلح حاله ويعود عن ذنبه تائباً.

﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ مَتَٰعًا بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٣٦﴾ وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّآ أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَا ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ ۚ وَأَن تَعْفُوٓا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۚ وَلَا تَنسَوُا ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٧﴾﴾.

شرح المفردات

تَمَسُّوهُنَّ: المَسُّ هنا: الجماعُ.

فريضة: أي مهراً.

ومتّعوهن: المتعة، مقدار من المال تُعطاه المطلّقة قبل الدخول بها من زوجها تعويضاً لما فاتها من أذى الطلاق.

الموسِع: الغنيّ.

المُقْتِرِ: الفقير الضيّق الحال.

قَدَرُهُ: طاقته وسعته.

يعفون: يصفحن ويتركن نصف المهر المستحق لهن، وهذا بالنسبة للمطلقة قبل الدخول بها.

حقوق الزوجة المُطَلَّقَةِ قبل الدخول بها

ثم يُبين القرآن حق المرأة في حال طلاقها قبل الدخول بها وقبل تعيين مهر لها، قال ٱللَّه تعالى:

﴿لاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً﴾ تمسّوهن: تدخلوا بهن. وكلمة تمسّوهن كناية حسنة من كنايات القرآن تعلّم الناس الأدب في التعبير، وعدم التلفظ بالألفاظ النابية التي يمجها الذوق، والمراد بالفريضة هنا: المهر الذي يفرضه الرجل على نفسه عند زواجه. ومعنى الآية: لا تَبِعَة عليكم ولا إثم أيها الرجال في طلاقكم للنساء قبل أن تدخلوا بهن وقبل أن تُقدّموا لهنَّ مهراً معيّناً، ولكنّ الواجب عليكم المتعة لهن **﴿وَمَتِّعُوهُنَّ﴾** والمتعة ما ينتفع به الإنسان من مال وكسوة وغير ذلك، أي على الرجل الذي طلّق زوجته التي لم يدخل بها ولم يعيّن لها مهراً أن يُمَتِّعَها بمال وكسوة لتنتفع به جبراً لخاطرها، لما نالها من حزن بسبب فراق زوجها، وهذه المتعة هي واجبة عند كثير من الصحابة والفقهاء، ومندوبة[1] عند البعض. وقد جعل ٱللَّه هذه المتعة تابعة لحالة الرجل المادية **﴿عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ﴾** على

(١) المندوب: هو المستحبّ.

الموسع وهو الغنيّ الذي هو في سعة من غناه أن يُمتّع مطلقته بما يُناسب غناه ﴿وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ﴾ وعلى الفقير أن يمتع مطلقته قدر إمكانه وطاقته ﴿مَتَاعاً بِالْمَعْرُوفِ﴾ وهذه المتعة للزوجة المطلقة تكون بالوجه الذي يُعرف بالعقل والشرع حُسْنُهُ وبما تقتضيه المروءة ﴿حَقًّا على الْمُحْسِنِينَ﴾ فالمتعة هي حق على من يريد الإحسان في معاملة زوجته المُطَلَّقة، والإحسان هو فوق العدل لأن المحسن يعطي أكثر مما عليه.

أما مقدار المتعة فيرى الإمام أبو حنيفة أنه متى تنازع الزوجان في مقدار المتعة وجب على الزوج نصف مهر أمثالها من الزوجات.

ثم يبين القرآن الحُكم في حال أنْ سمى الزوج لامرأته مهراً معيّناً ثم طلّقها قبل الدخول بها:

﴿وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ﴾ والمعنى: وإن طلقتم ـ يا معشر الرجال ـ النّساء قبل أن تدخلوا بهن وقد فرضتم لهنَّ مهراً وقت عقد الزواج فالواجب عليكم في تلك الحالة أن تدفعوا لهنَّ نِصف ما فرضتم أي نِصف المهر ﴿إِلاَّ أَن يَعْفُونَ﴾ والعفو هنا: الإبراء والتنازل، والمعنى: إلاّ أن تتنازل المرأة عن حقها في نِصْفِ المهر، فتتركه لمطلقها بسماحة نفس بأن تكون هي الراغبة في الطلاق ﴿أَوْ يَعْفُوا الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ﴾ والذي بيده أمر عقدة النكاح هو الزوج، ومعنى عفوه أن يترك لمطلقته المهر كاملاً لها إذا كان قد سدّده سابقاً، أو أن يؤديه إذا لم يكن قد دفعه.

﴿وأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوى﴾ الخطاب هنا للرجال والنساء، أي إن تعفو المرأة المطلقة عن حقها في نصف المهر، وإن يعفو الزوج، وذلك بالزيادة على

نصف المهر الواجب عليه، فهذا أقرب لكم إلى تقوى ٱللَّه وابتغاء مرضاته ﴿وَلاَ تَنسَوُا الفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾ هذا الشطر من الآية يوحي بأرفع الصفات الخلقية وسماحة النفس عند الطلاق وما يعقبه من بغضاء وعداوات بين الأُسَر.

فالقرآن يدعو إلى التعالي على الجراحات التي يسببها الطلاق وأن لا ينسوا الفضل بينهم وما كانوا عليه من مَوَدَّةٍ وعِشْرَةٍ طيبة، والفضل في أصل معناه الزيادة في كل شيء، وأكثر ما تكون الزيادة في الأشياء المحمودة، يُقال: أفْضَلَ الرجلُ على فلانٍ: إذا أناله من فضله وأحسن إليه، ورجل مِفْضالٌ: أي كثير الفضل والخير والمعروف، ومن الفضل بين الزوجين إعطاء الزوج المهر كله لزوجته المطلقة أو تتنازل الزوجة عن حقها في نصف المهر.

ويختم ٱللَّه الآية بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ أي إنه سبحانه بصير بأعمالكم وسيجازيكم عليها، وفي هذا ترغيب للمحسن بزيادة إحسانه وترهيب للمسيء بالكَفّ عن إساءته.



﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ ﴿٢٣٨﴾ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَا أَمِنتُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٩﴾ وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَاجِهِم مَّتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٤٠﴾ وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴿٢٤١﴾ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٤٢﴾﴾.

شرح المفردات

الصلاة الوسطى: صلاة العصر في الأرجح.

قانتين: مطيعين خاضعين.

رجالاً: جمع راجل، أي مشاة.

رُكباناً: جمع راكب.

أزواجاً: جمع زوج وتطلق على الذكر والأنثى.

متاعاً: المتاع هنا نفقة المتوفى عنها زوجها.

الحَوْلُ: السَّنَةُ.

الدعوة إلى المحافظة على الصلاة

ثم تأتي الآيات التالية التي تدعو إلى المحافظة على أداء الصلوات المفروضة، وهي تتوسط آيات الأحكام في شأن الطلاق وما يعقب ذلك من عداء وهموم وأحزان، والذي يربّي النفس ويصقلها بالخير والتسامح

ويخفف ما بها من أحزان هي الصلاة، لأن فيها يُناجي الإنسانَ ربَّه ويطلب منه المعونة والهداية، لذا دعا الله المؤمنين إلى أداء الصلوات لما فيها من فوائد جمة، قال الله تعالى:

﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ والصَّلاَةِ الوُسْطَى﴾ حافظوا: من الحِفْظِ بمعنى ضبط الشيء وصيانته عن كل تضييع. والمحافظة على الصلاة تقتضي أمرَيْنِ:

الأول: أداؤها باستمرار في أوقاتها دون تخلف ولا تفريط.

الثاني: الإتيان بها كاملة الأركان مستوفية الشروط، يشترك فيها القلب مع حركات الأعضاء من ركوع وسجود فلا ينطق المصلي بأي كلمة من كلمات الصلاة إلاّ ويستحضر معناها في قلبه.

أما الصلاة الوسطى التي أمر الله بالمحافظة عليها، فقد اختلف العلماء في تحديدها فرجّح بعضهم أنها صلاة العصر لما رُوي عن النبي ﷺ أنه قال يوم معركة الأحزاب: «شَغَلُونا عن الصَّلاةِ الوُسْطىٰ: صلاة العصر، ملأ الله قبورهم وأجوافهم ناراً»[1] أو لأنها تقع في وسط الصلوات الخمس فقبلها اثنتان وبعدها اثنتان، وقد خُصَّت صلاة العصر بمزيد من التأكيد بالمحافظة عليها مما يشهد بأنها هي الصلاة الوسطى، فقد روي عن النبي ﷺ قوله: «الذي تفوته صلاة العصر فكأنما وُتِرَ[2] أهله وماله»[3].

وقال جمهور من الفقهاء: إن الصلاة الوُسْطى هي صلاة الصبح، فقد خصها الله بالذكر بقوله: ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ [الإسراء: ٧٨].

---

(١) أخرجه مسلم.

(٢) وُتِرَ: أي انتُزِعَ منه، وقيل: نقص، فبقي بلا أهل ولا مال.

(٣) أخرجه مسلم.

وجاء في الحديث الشريف: «إن ملائكة الليل وملائكة النهار يجتمعون عند صلاة الصبح»[١]. وتوسطها بين الصلوات ظاهر لأن وقتها بين الليل والنهار، فصلاة الظهر والعصر في النهار وصلاة المغرب والعشاء في الليل.

ومن العلماء من ذهب إلى أن المراد بالصلاة الوسطى الصلوات كلها، والوسطى تعني الفضلى، والأوسط في أكثر استعمال القرآن يعني الأمْثَل والأفْضل، والمعنى على هذا التفسير: حافِظوا على الصلوات كلها بالمداومة عليها، وحافظوا على أن يكون أداؤكم لها من النوع الأمْثَلِ والأفْضَلِ بإقامة أركانها خاشعين متجهين إلى ربِّ العالمين دون سواه ﴿وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ أي قوموا لله في صلاتكم خاضعين طائعين.

﴿فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجالاً أَوْ رُكْباناً﴾ أي فإن كان بكم خوف من عدوٍّ في حال الحرب أو من غيره لسبب من الأسباب فَصَلُّوا راجلين: أي مُشاةً على الأقدام أو راكبين على أي أداة من أدوات الركوب مستقبلي القِبْلَة وغير مستقبليها، فالصلاة لا تسقط عن المكلَّف بها بحالٍ من الأحوال، سَواء في الأمن أو الخوف، أو الصحة والمرض، فقد ورد عن عمران بن حصين أنه قال: كانت بي بواسير فسألتُ رسول الله ﷺ فقال: «صلِّ قائماً، فإنْ لَمْ تَسْتَطِعْ فقاعِداً، فإن لم تستطع فعلى جنبك»[٢].

﴿فَإِذَا أَمِنتُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ﴾ المراد بذكر الله هنا: الصلاة، أي إذا زال الخوف عنكم فأدّوا الصلاة تامة كاملة مستوفية الأركان بإتمام الركوع والسجود واستقبال القِبلة ﴿كَمَا عَلَّمَكُمْ مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ أي مِثْلَ ما علّمكم إياها

---

(١) أخرجه البخاري.

(٢) أخرجه البخاري.

ربّكم على لسان رسوله محمد ﷺ، وقد مَنَّ اللَّهُ عليكم بهذا التعليم الذي كنتم تجهلونه من قبل.

ويُتابع القرآن بذكر بعض الأحكام التي تتعلق بالنساء المُتَوَفَّى عنهن أزواجهن:

﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجاً﴾ يتوفّون: المراد بها هنا: يتوقعون الوفاة ويحتضرون. والمعنى: والذين يتوقعون قُرْبَ الوَفاة منكم ـ أيها المسلمون ـ ويتركون زوجاتهم بعد وفاتهم ﴿وَصِيَّةً لأَزْوَاجِهِم مَّتَاعاً إِلَى الحَوْلِ﴾ أي فليوصوا وصية لزوجاتهم بأن يُمَتَّعْنَ بعد وفاتهم بالنفقة والكسوة والسكن من مالِهِم، وهذه المدة تمتد سنة كاملة ﴿غَيْرَ إِخْرَاجٍ﴾ أي غير مخرجات من مسكن الزوجية، فلا يصحّ لورثة الميت أن يخرجوهن من مسكنهنّ بغير رضاهنَّ، لأن بقاءهنَّ في مسكن الزوجية حقٌّ شرعه الله لَهُنَّ، وحينئذٍ يجب على الزوجة ملازمة السكن وترك التزيّن كما يجب عليها الإحداد هذه السنة ﴿فَإِنْ خَرَجْنَ﴾ فإنْ هُنَّ تركنَ حقهنَّ من تلك الوصية وخرجن من منزل الزوجية بعد إتمام العِدَّة، وهي أربعة أشهر وعشرة أيام ﴿فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ﴾ أي فلا إثم عليكم يا أولياء الميت فيما فعلنَ من أمور تتعلق بهنَّ لا ينكرها الشرع كالتزيُّن والتطيُّب وترك الحداد، والتزوج بعد انتهاء عدتهنَّ ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ والله سبحانه هو القويّ الغالب ينتقم ممن عصاه وخالف أمره، حكيم فيما شرعه من الأحكام التي تراعي مصالح عباده.

يرى بعض المفسرين أن حكم الوصية في هذه الآية كان قبل أن تنزل آية الميراث في سورة النساء، ثم نسخ فجعل لها فريضة معلومة: الثُّمْنُ إن كان للزوج ولد، والرُّبْعُ إن لم يكن له ولد.

وذهب بعض المفسرين إلى القول إن الآية مُحْكَمة لا نَسْخَ فيها حيث إن العِدَّة مُدَّتها لوفاة الزوج هي أربعة أشهر وعشرة أيام، ثم جعل الله لهن وصية من أزواجهم بعد وفاتهم تمام هذه الأربعة أشهر وعشرة أيام إلى سنة، فإن شاءت المرأة سكنت في بيت الزوجية سنة كاملة بناء على وصية زوجها، وإن شاءت خرجت منه بعد إتمام عدتها، وهذه الوصية هي على سبيل الإحسان والرفق بالزوجة والإكرام لها.

﴿وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ﴾ والمتاعُ: هو كل ما ينتفع به من مالٍ، وكسوة، وطعامٍ، ونفقةٍ، وخادمة تخدمها حسب قُدرة الزوج المادية، وهذا المتاع للمطلقة هو زيادة على الحقوق المقرّرة لها شرعاً. وهذا المتاع ينقسم إلى قسمين: واجب ويكون للمطلقة قبل الدخول بها ولم يكن سمى لها مَهْراً، ومندوب أي مستحسن في غير تلك الحالة، وقد جعل الله هذا المتاع للمطلقات بالمعروف وهو أن يكون بما تستحسنه العقول السليمة وحسب العُرف بين الناس ﴿حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ أي هذا المتاع جعله الله حقًّا على المتقين الذين أطاعوا الله في أمره ونهيه وصانوا أنفسهم عن كل ما يبغضه الله. وإنه من الطاعات التي يتحلى بها المتقون، والغاية من ذلك جَبْرٌ للمطلقة من وحشة الفِراق من زوجها، وتخفيف لما قد يحيط بالطلاق من تنافر وخصام.

﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أي مثل هذا البيان الحكيم لأحكام الطلاق يُبَيِّنُ اللهُ لكم آياته في سائر الأحكام التي أنزلها على رسوله محمد لتعقلوا الحكمة منها، وتعرفوا ما فيه صلاح دينكم ودنياكم فتعملوا بما أمركم الله به لتنالوا جزيل ثوابه في الآخرة.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٤٣﴾ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٤﴾ مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٤٥﴾﴾.

شرح المفردات

حذر الموت: خوفاً من الموت.

يُقرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً: ينفق في سبيل الله ابتغاء ثوابه.

يَقْبِضُ: يُضَيِّقُ في الرزق.

وَيَبْسُطُ: يُوَسِّعُ في الرزق.

الدعوة إلى الجهاد في سبيل الله

وبعد أن بيَّن الله أحكام الطلاق انتقل إلى الكلام عن الجهاد في سبيل الله ممهداً لذلك بإعطاء صورة عن الذين يتقاعسون عنه خوفاً من الموت، قال الله تعالى:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ المَوْتِ﴾ أَلَمْ تَرَ: والرؤية هنا بمعنى العِلْم، والخطاب لكل قارئ وسامع، أي: أَلَمْ يَنْتَهِ عِلْمُك ـ أيها القارئ ـ إلى حال أولئك الذين خرجوا من ديارهم وهم أُلوف ـ وكانوا فوق العشرة[1] آلاف، وما كان خروجهم إلا فراراً وخوفاً من الموت، ولكنّ

---

(١) العَشَرَةُ فما دونها جمع قلة، فيقال فيها: آلاف ولا يقال ألوف إلا لجمع الكثرة الذي يزيد على العشرة.

الموت المقدّر لهم قد استقبلهم ﴿فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ﴾ أي إنهم ماتوا بأمر الله ومشيئته ثم أعادهم إلى الحياة مرة أخرى ﴿إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ﴾ فهو سبحانه المتفضّل على الناس بإيجادهم من العدم، والمتفضّل عليهم بالشرائع الهادية إلى الحق، والمتفضّل عليهم بالطيّبات من الرزق ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ أي إن أكثر الناس لا يشكرون نِعَمَ الله التي أنعمها عليهم، فلا يصرفون نعم الله على طاعته ولا يعملون بها لخير الناس، بل يتخذون من هذه النِّعَم سبيلاً إلى البَغْيِ والظلم والفساد في الأرض.

والعبرة من الآية أن الإماتة بيد الله لا بيد غيره، فلا ينبغي أن يخاف الإنسان من شيء مُقَدَّر عليه، فلا معنى لخوف خائف ولا لاغترار مُغترّ، وقد جعل الله هذه الآية مقدمة لدعوة أُمَّة محمد إلى الجهاد في سبيله لدحر المعتدين عليهم.

ولكن مَنْ هُمُ الذين خرجوا من ديارهم وهم أُلوف حَذَرَ الموت؟ هناك عِدَّة روايات في شأنهم من تلك الروايات: إنهم قومٌ من بني إسرائيل خرجوا هاربين من الوباء فنزلوا وادياً، فأماتهم الله ثم أحياهم، إجابةً لدعوة نبيّ من أنبيائهم.

وفي رواية أُخرى: إنهم قوم من بني إسرائيل دُعُوا إلى الجهاد في سبيل الله، فخرجوا من ديارهم فِراراً منه حتى لا يموتوا في ساحة القتال، فأماتهم الله عِقاباً لهم على فرارهم، ثم أحياهم ليبيّن قدرة الله عليهم ويذكّرهم بأنَّ الإماتةَ والإحْياء بيدِ ٱللَّهِ.

ويرى الشيخ محمد عبده[1] أن هذا مَثَلٌ لا قِصَّة واقعية، وأن الموت الذي وقع بالقوم هو مَجازيّ، والمراد بيان سُنَّتِهِ تعالى في الأُمم التي تجبن ولا تدافع

(١) نقلاً باختصار عن تفسير المنار.

عن نفسها من المعتدين عليها، أن عَدُوَّها سوف ينكّل بها، ويلغي استقلالها، ويفرّق شملها، فتصير كالأموات.

ومعنى حياتهم هو عَوْدة الاستقلال لهم حيث جمعوا صفوفهم ووثقوا رابطتهم وقهروا أعداءهم، فخرجوا من ذُلّ العُبودية التي كانوا فيها إلى عِزّ السّيادة والحرية، هذا وإن القرآن أطلق اسم الحياة على الحالة المعنوية كما في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤].

وبعد أن بيَّن القرآنُ أن الفِرارَ من الموت لا يُنْجي مما قدَّره الله، دعا المؤمنين إلى القتال في سبيل الله بقوله ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ وسبيل الله هو سبيل الحق، فكل قتال لإعلاء كلمة الله والدفاع عن دينه هو قتال في سبيل الله، وكل قتال في سبيل رفع الظلم ونُصْرة المظلومين هو قتال في سبيل الله. وقد سُئل الرسول ﷺ عن الرجل يقاتل شجاعة ويقاتل حميّة ويقاتل رياءً، أيُّ ذلك في سبيل الله؟ فقال: «من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله»[1] ثم يختم الله الآية بقوله ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ فهو سبحانه سميعٌ لأقوال المؤمنين التي تدلّ على رغبتهم في الجهاد، عليمٌ بالدوافع التي تدفعهم إلى ذلك.

ولمّا كان القتال يحتاج إلى بَذْلِ المالِ في تجهيز الجيش المقاتل وتوفير السلاح له، بَيَّن ٱللَّهُ ثواب من يساهمون في ذلك بقوله:

﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافاً كَثِيرَةً﴾ أصْلُ القَرْضِ: ما يُعْطيه الرجل لغيره ليجازى عليه وأن يكون دَيْناً يردّه إليه، وإقْراضُ

---

(١) متفق عليه.

ٱللَّهِ قرضاً حَسَناً هو التصدُّقُ قاصداً رضا الله وثوابه بعيداً عن الرياء وطلب السمعة، والمراد بالقَرْضِ الحَسَنِ هنا: الإنفاقُ على القِتال في سبيل الله بدليل مجيء الآية هنا بعد الدعوة إلى القتال في سبيل الله، كما يشمل الإنفاق على المحتاجين، والإنفاق على المصالح العامة لإقامة مشروعات اجتماعية أو عمرانية يعمّ نَفْعها جميع الناس.

وقد حَثَّ القُرآن على بَذْلِ المالِ في سبيل الله وسماه قَرْضاً له، لأن فيه إشارة إلى أنه سيردّ لصاحبه، وأيّ سموّ تعلو به نفس المُنْفِق وأي حافزٍ يدعوه إلى العطاء عندما يعلم أن المقترض هو ربّ العالمين الذي يملك كل شيء في هذا الوجود، وأنه سُبحانه خالق كل شيء، وأنه الغني الذي لا يحتاج إلى شيء، وهذا مما يرغّب المنفق على الإنفاق في سبيل الله، لأن هذا القَرْض يُسَدِّدُهُ ٱللَّهُ بالثواب العظيم، وزيادة على ذلك ﴿فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ والضِّعْفُ مِثْلُ الشيء وضِعْفاهُ أي مِثْلاه، وأضعافاً كثيرة: أمْثالاً كثيرة، ولم يذكر الله سبحانه العدد ليدل على الكثرة الوافرة التي لا حَدَّ لها، وهذا الجزاء من الله يشمل خير الدنيا والآخرة. فالإنفاق في سبيل الله يلقي في النفس سعادة وطمأنينة ويدفع الضر عن الجماعة، ويبارك الله في رزق المعطي ويجزيه الجزاء الأوفى يوم القيامة ﴿وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ﴾ فالله سبحانه هو القابض الذي يقتّر الرزق على من يشاء ويَبْسُط الرزق لمن يشاء، وإذا كان الرزق بيد الله فعلى الغنيّ أنْ يستشعر أنَّ ما بيده فَيْضٌ من الله سبحانه، وأنَّ عليه أنْ يَشْكُرَ الله بإنفاقه في الحلال دون الحرام، وأن يُنفق من ماله في سبيل النفع العامّ الذي يقيم مجتمعاً بعيداً عن الآفات الاجتماعية ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ وإلى الله وحده ترجعون بعد وفاتكم فيحاسبكم يوم القيامة على كل ما فعلتموه من خيرٍ أو شرٍّ.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُوا۟ ۖ قَالُوا۟ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا ۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْا۟ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٤٦﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ۚ قَالُوٓا۟ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ ۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ ۖ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾﴾.

شرح المفردات

المَلأُ: أشرافُ القوم ووجهاؤهم.

ابْعَثْ لنا مَلِكاً: وَلِّ علينا مَلِكاً نرجع إليه ونعمل برأيه.

هل عَسَيْتُم: هل الأمر كما أتوقعه منكم.

تَوَلَّوا: أعْرَضُوا وتخلَّفُوا.

أنّى: كيف.

اصطفاه: اختاره.

بَسْطَةً: سعة.

توحّد بني إسرائيل بعد الهزائم التي حَلَّت بهم

ثم يُبيِّن القُرآن لنا ما جرى لقومٍ من بني إسرائيل حين أخرجهم أعداؤهم من ديارهم بسبب تفرّقهم وجبنهم وعصيانهم لله، ثم ما آل إليه أمرهم حين توحدت صفوفهم وأطاعوا الله، وتفصيل ذلك:

لمّا دخل بنو إسرائيل أرض فلسطين بعد وفاة موسى، ظلوا ستًّا وخمسين وثلاثمائة سنة وليس عليهم مَلِكٌ، وإنما كان يحكم بينهم قضاة يُعيّنهم الأنبياء، وفي بعض الأحيان كان الأنبياء يقيمون أنفسهم قضاة عليهم.

وكان بنو إسرائيل في هذه الأزمان عُرْضَةً للغَزْوِ والقتال من الأمم المجاورة لهم كالفلسطينيين والمديانيين والعمالقة من العرب، وكانت الحَرْبُ سِجالاً بينهم.

وكان من آخر قُضاة بني إسرائيل النبي «صموئيل» وكان محبوباً من قومه، فلما شاخ وكبر، وقعت حروبٌ بين بني إسرائيل والفلسطينيين، فانهزم بنو إسرائيل وسقط منهم كما تقول التوراة ٣٠,٠٠٠ قتيل، وانسحب الفلسطينيون آخذين معهم تابوت عهد الربّ إلى «أشدود» وهي إحدى مُدُنِ الفلسطينيين الخمس الرئيسية.

وكانت الأمور المُتَّبَعة في بني إسرائيل أنهم إذا توجهوا إلى حَرْبٍ قدَّموا أمام جنودهم تابوت عهد الرب لِيُقَوِّي من عزائمهم ويستنصروا به على أعدائهم، وكان في هذا التابوت عصا موسى وثيابه، وعصا هارون، ولَوْحان من الحجارة عليهما كتابة من وصايا الرب ومن التوراة التي كتبها موسى بيده قبل وفاته، ولكن بني إسرائيل هُزِمُوا ولم يفطنوا إلى أن هزيمتهم كانت بسبب عصيانهم لله، وأن مجرد إحضار التابوت لا يعني أن الله سينصرهم.

وكان بنو إسرائيل قد أُرهقوا من كثرة اعتداء الدول المجاورة عليهم، وأُصيبوا بهزائم متعددة، واعتقدوا أن ذلك يعود إلى تفرّقهم فكان كل سِبط من أسباطهم استأثر بقطعة من الأرض، فصاروا دُوَلاً صغيرةً متفرقةً، ورأوا أنهم إذا اتَّحَدُوا جميعاً في دولة واحدة يحكمها حاكم واحد تضاعفت قوّتهم وهابتهم

الدول المجاورة، واستقرّ رأيهم أن يطلبوا من نبيهم «صمويل» أن يجعل لهم ملكاً عليهم فاستجاب لرغبتهم.

والقرآن يقص علينا بعض ما جرى بين نبيّهم وبين شيوخ بني إسرائيل مما فيه من العبرة عندما تتوحّد الأمة وتنبذ التفرقة وتجاهد في سبيل الله، يقول الله تعالى:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ﴾ الملأ: هم الكُبَراء وأشراف القوم ويطلق اسم الملأ على الجماعة، والمعنى: أَلَمْ ينتهِ عِلْمُكَ إلى جماعةٍ من بَنِي إسرائيل بعد عهد موسى عليه السلام **﴿إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكاً نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾** إذ طلبوا من نبيهم في ذلك الوقت أن يجعل عليهم مَلِكاً يجمع شملهم ويقودهم تحت لوائه للقتال في سبيل الله إعلاءً لكلمته، واسترداداً لعزّتهم المسلوبة، وأرضهم المغتصبة.

أجابهم نبيهم على طلبهم هذا **﴿قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلاَّ تُقَاتِلُوا﴾** الاستفهام في قوله للتقرير والتحذير، أي هل الأمر كما أتوقعه منكم أنكم لا تقاتلون إذا فُرض عليكم القتال جُبْناً منكم، وقد بنى نبيهم توقّعه هذا على تاريخهم الطويل في إعراضهم عن الجهاد وتقهقرهم أمام عدوّهم، فأنكروا أن يقع ذلك منهم **﴿قَالُوا وَمَا لَنَا أَلاَّ نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾** والمعنى: أيّ شيء يمنعنا مِنْ أن نُقاتل في سبيل الله واسترداد حقوقنا؟ وتابعوا قولهم: **﴿وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا﴾** وقد طَرَدنا العدو من أوطاننا، وحيل بيننا وبين أبنائنا حيث أصبحوا عبيداً للغُزاةِ يُسَخِّرونهم لخدمتهم **﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلاَّ قَلِيلاً مِنْهُمْ﴾** أي فلمّا فُرِضَ عليهم قتال أعدائهم أعرضوا وتخلّفوا عنه جُبْناً إلاّ نفراً قليلاً منهم آثروا الآخرة على الحياة الدنيا طمعاً فيما عند الله من الثواب. وهذا إخبار عما سيقع منهم بعد أن يجعل الله عليهم مَلِكاً يأمرهم

بالقتال في سبيل الله فيُعرض أكثرهم عنه ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ وصف الله بني إسرائيل بالظلم لأنهم ظلموا أنفسهم بالرِّضى بالذُّلّ، وخالفوا أمر ربهم بالجهاد بعد أن عاهدوا الله عليه.

اختيار طالوت مَلِكاً على بني إسرائيل

استجاب الله لرغبة بني إسرائيل في تولية مَلِكٍ عليهم، فقال لهم نبيهم بما أوحاه الله إليه ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكاً﴾ أي إن الله اختار من بينكم شخصاً استوفى كل صفات ومؤهلات الرِّياسة وجعله مَلِكاً عليكم، وهذا الملك هو (طالوت) وأُطلق عليه اسم (شاول) في العهد القديم وطالوت لَقَبُهُ، وهو اسم مصدر من الطول وُصِفَ به للمبالغة في طول قامته.

ولكن بدل أن يرضى بنو إسرائيل فيما اختاره الله لهم، أثاروا الاعْتِراض على ذلك: ﴿قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ﴾ أَنَّى: بمعنى كيفَ، وهو استفهام مستعمل في التعجب. لقد قالوا لنبيّهم: من أي جهة استمدّ طالوت المُلْك وليس في سُلالته مُلك متوارث؟ وإنما قالوا ذلك لأنّ النبوّة كانت في سبط لاوى بن يعقوب، والملك في سبط يهوذا ولم يكن طالوت من أحَدِ السّبطين، وتابعوا قولهم: ونحن أشراف بني إسرائيل أحقّ بالملك منه نَسَباً وَحَسَباً ﴿وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ﴾ وبالإضافة إلى ذلك فهو فقيرٌ، لا يملك من المال ما يملكه بعضنا، فكيف يكون ملكاً علينا؟ أجابهم نبيهم على ادعاءاتهم هذه: ﴿قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ﴾ أي إن الله اختاره وفَضَّله عليكم، واختياره من الله يجب أن يُقابَل بالإذعان والتسليم لإرادة الله، وآتاه الله عِلْماً واسعاً يصرّف به أموركم بحكمةٍ ودرايةٍ لمصالحكم، وآتاه جسماً قويّ البنية طويل القامة ما يجعله قادراً على التمرّس

في القتال، وقُدمت البسطة في العلم على البَسْطة في الجسم للدلالة على أن الفضائل العلمية أعلى وأشرف من الفضائل الجسميّة وأصلح للقيادة ﴿وَٱللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَآءُ﴾ واللَّه يُعطي الملك والرّياسة مَنْ يشاء مِنْ خَلْقِهِ بمقتضى حِكْمَتِهِ ﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ والله واسِعُ الفضل والعطاء، يختص برحمته من يشاء، وهو عليمٌ بمن يستحق الملك ممن لا يستحقه.

﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّى وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّىٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ ۚ فَشَرِبُوا۟ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۚ فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ قَالُوا۟ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٢٤٩﴾﴾.

شرح المفردات

آية مُلْكِهِ: علامة ملكه.

التّابوت: صندوق فيه بعض ألواح التوراة ومقدّسات بني إسرائيل.

فيه سكينة من ربكم: فيه طمأنينة لقلوبكم من ربكم.

فلما فَصَلَ طالوت بالجنود: أي فلمّا جاوز طالوت بجنوده مكان إقامتهم.

يَطْعَمْهُ: يذُقْهُ.

غُرْفَةً بِيَدِهِ: المقدار من الماء الذي يملأ الكفّ.

جاوزه: قَطَعَهُ وتَعدّاهُ.

طالوت يقود بني إسرائيل إلى النصر

ثم بيّن النبيّ صمويل لبني إسرائيل البُرهان والدليل على أن طالوت قد اختاره الله مَلِكاً عليهم:

﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ﴾ أي قال لهم نبيهم إن علامة صحة مُلْك طالوت ورياسته عليكم أن يأتيكم التابوت الذي سُلِبَ منكم ويرجع إليكم على يديه **﴿فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾** فيه سكينة وطمأنينة لقلوبكم لأنَّ في عودته بُشرى بالسلطان والعِزَّة التي فقدتموها **﴿وَبَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسى وآلُ هَارُونَ﴾** والتابوت الذي ارتبطت به قلوبهم فيه بقيّة مما ترك آل موسى وهارون، وهي عصا موسى وثيابه، وثياب هارون، وبعض الألواح من التوراة التي تكسَّرَت **﴿تَحْمِلُهُ المَلاَئِكَةُ﴾** أي جاءت الملائكة بالتابوت تحمله بين السماء والأرض وهم ينظرون إليه حتى وضعتْه عند طالوت، فلما رأى بنو إسرائيل ذلك أذعنوا له بالرِّياسة ومَلَّكُوهُ عليهم. وختم نبيهم قوله: **﴿إِنَّ في ذلِكَ لآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُم مُؤْمِنِينَ﴾** أي إنّ في إعادة التابوت إليكم الذي فيه شارة عِزّكم لدليلاً يدفعكم إلى طاعة طالوت والرِّضا به، إن كنتم تذعنون للحق وتؤمنون به.

﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالجُنُودِ﴾ أي فلمّا جاوز طالوت بجنوده مكان إقامتهم، وكان قد سار بجيشه سيراً حثيثاً فأصاب جنده عطش شديد، فأراد طالوت أن يختبر عزيمتهم وصبرهم على العطش فقال لهم: **﴿قَالَ إِنَّ اللّهَ**

مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ﴾ أي إن الله مختبركم وممتحنكم بنهر ﴿فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي﴾ أي من شرب من هذا النهر فليس من أتْباعي الذين هم تحت إمرتي، فعليه أن يتركني ولا يُصاحبني ﴿وَمَنْ لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي﴾ ومن لم يشرب من النهر ولم يذقه فهو من أتْباعي ﴿إِلاَّ مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ﴾ ولكن يُباح لأحدكم أن ينال غرفة من ماء النهر بيده ﴿فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ﴾ فلمّا جاءوا إلى النهر خالف أكثر الجنود أمر طالوت وأقْبَلُوا عليه يعبُّون منه عَبًّا، غير آبهين لنهيه.

فطالوت إذ طلب من جيشه الامتناع عن الشرب من النهر باستثناء غرفة منه بيدهم هو ليعلم مَن المُطِيع لأوامره مِن الرافض لها، فطاعة الجيش للقائد هي من العوامل الفعّالة للنصر على الأعداء، وربما لخطة حربية كما يقول العلّامة محمد أبو زهرة رحمه الله: «خشي أنهم إن مكثوا حول النهر وملأوا مزاداتهم وبطونهم واستراحوا واستجمّوا أحسّ بهم أعداؤهم فاجتازوا النهر إليهم وأبعدوهم عنه، فأراد طالوت أن يأخذ عدوّه بالجولة الأولى المفاجئة فيجتاز النهر قبل أن يحسوا به، وإن اجتازوه صار النهر في قبضتهم يشربون منه ما شاءوا من غير حاجة إلى التزود، وكانوا هم على الماء، وعَدُوّهم أسفل منه»[1].

﴿فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ﴾ أي فلمّا قطع طالوت النهر وتعدّاه مع الذين صبروا على العطش ولم ينالوا من النهر إلاّ غُرْفَةً منه، وقد وصفهم القرآن بالإيمان حيث قال: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ﴾ للإشارة إلى أن إيمانهم بالله دعاهم إلى تحمّل المشاقّ والصبر على العطش الشديد ﴿قَالُوا لا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ

(١) نقلاً عن كتاب زهرة التفاسير ـ دار الفكر العربي ـ القاهرة.

بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ﴾ أي إنّ الذين اجتاوزا النهر مع طالوت وأطاعوه في الامتناع عن الشرب من النهر كانوا فريقين: فريقاً شعر بالخوف من كثرة العدوّ وقالوا: لا قدرة لنا اليوم على محاربة جالوت وجنوده. وفريقاً ثانياً لم ترهبه كثرة العدوّ، وهم الذين قال الله فيهم: **﴿قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُلاَقُوا اللَّهِ﴾** الظن هنا بمعنى اليقين، أي قال المُوقنون بالبَعْثِ والرجوع إلى الله يوم القيامة فيحاسبهم على أعمالهم ويثيبهم على جهادهم بالجنة **﴿كَمْ مِن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ﴾** كم: تفيد الكثرة، والفئة: الجماعة، أي قالوا: لا تخافوا من كثرة جنود جالوت فكثيراً ما انتصرت قلة مؤمنة على جماعة كثيرة بإذن الله وتيسيره **﴿وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾** أي مع المؤمنين بنصره وتأييده لهم.

﴿وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُواْ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۚ وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٥٢﴾﴾.

شرح المفردات

بَرَزُوا: ظَهَرُوا لقتالهم.

ثَبِّت أقدامنا: قَوِّنا على الجهاد.

هزيمة جالوت

ويُتابع القرآن فيبين ما دار في رحى المعركة بين طالوت وجالوت مع بيان نفسيّة المؤمنين آنذاك.

﴿وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ﴾ ولمّا خرج طالوت ومَنْ معه من المؤمنين لمقاتلة جالوت وجنوده وظهروا لهم في ساحة المعركة **﴿قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْراً﴾** يقال: أفْرَغَ الإناء إذا صبّ ما فيه من ماء[1]، أي قال المؤمنون: يا ربّ، أفِضْ وصبَّ علينا صَبْراً يُقَوّي من عزائمنا، لقد بدأوا معركتهم مع العدوّ طالبين من ربهم بأن يمنحهم الصبر، والصبر هو عُدَّة القتال الأولى في الحرب، وهو العامل الفعّال في النصر على الأعداء **﴿وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا﴾** كما طلبوا من ربهم الثبات في مقارعة الأعداء وأن لا يجعل الفرار منهم سبيلاً إلى قلوبهم، وعبَّر عن الثبات بالأقدام لأن بها يكون البقاء في المعركة **﴿وَانْصُرْنا على القَوْمِ الكَافِرِينَ﴾** كما طلبوا من ربِّهم أن يُؤَيِّدهم وينصرهم بفضله على الجاحدين لألوهيته، الظالمين في الأرض.

﴿فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللّهِ وقَتَلَ داوُدُ جَالُوتَ﴾ استجاب الله دعاء المؤمنين فهزموا أعداءهم بإذن الله وتوفيقه، وفي هذه المعركة قتل داود جالوت **﴿وَآتَاهُ اللَّهُ المُلْكَ والحِكْمَةَ﴾** ولمّا مات طالوت تولّى داودُ القيادة بعده وأعطاه الله الملك بسبب شجاعته ورجاحة عقله، ووهبه الحكمة وهي وضع الأمور في مواضعها والتدبير المحكم **﴿وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ﴾** وعَلَّمه الله ما يشاء أن يعلّمه إياه من العلم الذي خَصَّه به من سياسة الرَّعِيَّةِ، والعَدْلِ بينهم، كما أنعم عليه بالنُّبُوَّةِ وعلم التوراة.

---

(١) جعل الصبر بمنزلة الماء المنصبّ عليهم يثلج به صدورهم.

﴿وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الأَرْضُ﴾ أي ولولا أن يسلّط الله الصالحين من عباده على المُفْسِدين لمحو فسادهم، ويُسَلِّط الأشرار بعضهم على بعض لإضعافهم وكفّ شرورهم عن العباد، لولا هذا الدفع والتصادم بينهم لَعَمَّ الفسادُ في الأرْضِ[١] ولَما عمرت الأرض بالصالحين من عباد الله الذين هم حرب على أهل الباطل في كل زمان، والله ناصِرُهم ما نصروا الحق وأرادوا الإصلاح في الأرض ﴿وَلَـٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى العَالَمِينَ﴾ أي إن الله ذو فضل عظيم على جميع الخلق لا يُدرك الناس قدره ولا يعرفون مداه.

﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ﴾ أي هذه الآيات القرآنية التي ذكرها الله لك يا محمد من أخبار بني إسرائيل فيها العِبر والعظات لقومك، وهي الحق من ربك، وهي دليل على صدق نبوّتك، لأنّك لم تتلقَّ هذه الأخبار من علمائهم وأحبارهم كما أنك أُمّيّ لم تَطَّلِعْ على كُتبهم ﴿وَإِنَّكَ لَمِنَ المُرْسَلِينَ﴾ وإنك يا محمد من رسل الله الذين أرسلهم لهداية خلقه.

كيف قتل داود جالوت؟

ورد في كتب اليهود الدينية قصة قتل داود لجالوت نذكر ملخصها فيما يلي:

بعد أن اجتاز طالوت النهر مع جنوده وتقدم نحو القوات الفلسطينية، خَرَجَ مُبارِزٌ منهم قويّ البأس اسمه (جليات) والقُرآن أطلق عليه اسم (جالوت) وكان لابساً دِرْعاً، وعلى رأسه خوذة من نحاس وفي يده رمح وترس وكان يزهو بكبرياء ويقول: أنا الفِلَسْطِينيُّ هل من مُبارِزٍ؟

(١) هذا ما يعرف حديثاً بنظرية: تنازع البقاء والبقاء للأصلح.

وكانت القاعدة آنذاك أنهم ينتخبون ممثلين من الجيوش المتحاربة يتبارزون قبل بدء القتال، والجانب الذي ينتصر أبْطالهُ في هذه المُبارزات ترتفع معنويات جنوده كثيراً، مما يكون له أثر كبير على سير المعركة، وكان بُروز جالوت هكذا لابساً دروعه المخيفة هذه مدعاة لبثّ الرعب في نفوس الإسرائيليين.

وكان لرجل من بَنِي إسرائيل يُدعى «يسَّىٰ» عدة أولاد، ثلاثة منهم تبعوا طالوت «شاول» إلى الحرب، فأراد «يسَّىٰ» أن يرسل طعاماً إلى أبنائه الثلاثة فأرسل إليهم أخاهم داود إلى مكان ساحة القتال بالطعام، فرأى داود جالوت يروح ويغدو متبختراً في درعه الحديدي يدعو من يبارزه ويتهكم على الإسرائيليين. ساء داود ذلك وراح يهدّد جالوت بالقتل. سمع طالوت بذلك فاستدعى داود وحَذَّره من تصرّفه هذا، فأجابه داود أنه مستعدّ لمحاربة جالوت وأن عنده من المؤهلات ما يستطيع التغلّب عليه، فقال:

بينما كنت أرعى الغنم فكان يجيء أسد تارة ودبّ تارة أخرى ويخطفَ شاة من القطيع فكنت أخرج وراءه وأضربه وأخلّص الشاة من فيه وأقْتله، فقد قتلت أسداً ودبًا وسيكون مصير هذا الفلسطيني مثل واحد منهما، فقال له طالوت: اذهب وليكن الرب معك، وألْبسوا داود درعاً وخوذة من حديد ولم يكن قد لبسهما من قبل، فلم يستطع السير بهما ونفضهما عن نفسه، وتقدم ليقاتل جالوت وليس معه إلا عصاه والحجارة التي انتقاها من الوادي ووضعها في جرابه ومقلاعه في يده، وتقدّم جالوت للقاء داود ولكنّ داود أسرع وأخذ حجراً من جرابه ورماه بالمقلاع فأصابه في جبهته، وسقط جالوت على الأرض من شدة الضربة، فأسرع داود إليه وأخذ سيفه منه وقتله به وقطع رأسه، ولمّا رأى الفلسطينيون ذلك خافوا وبدأوا في الفِرار، ولحقهم جنود بني إسرائيل وقتلوا منهم الكثير.

﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿٢٥٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٥٤﴾﴾.

شرح المفردات

منهم من كَلَّم اللّهُ: وهو موسى عليه السلام الذي كلّمه الله بلا واسطة.

البَيّنات: الحجج والأدلّة.

بِرُوحِ القُدُسِ: أي بالروح المقدّس المطهر وهو الملك جبريل.

خُلّة: الصّداقة والمودّة.

التفاضل بين رسل الله الكرام

ولمّا ذكر الله سبحانه ما خَصَّ به داود من الملك والنبوة والحكمة، بَيَّنَ في الآية التالية أن رسل الله ليسوا على درجةٍ واحدةٍ من الفَضْلِ، بل إن بعضهم أفضل من بعض ـ وكلهم فاضلون ـ قال الله تعالى:

﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ تلك الرسل: المراد بهم جماعة الرُّسُل الذين تقدّم ذِكْرُهُم في هذه السورة، وهؤلاء الرسل فضّل بعضهم على بعض في المكانة، وما خصّ كل واحد منهم من معجزات، وإن كانوا جميعاً قد تساووا في شرف النبوّة والرّسالة الإلهية.

ثم بَيَّن اللهُ بعض مظاهر التفضيل بينهم فقال سبحانه:

﴿مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ﴾ أي من الرُّسُل من فَضَّلَهُ اللَّهُ بتكليمه مباشرةً دون وسيط كما حصل لموسى عليه السلام، وقد جاء في القرآن: ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى﴾ [الأعراف: ١٤٤].

﴿وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ﴾ والدرجات: جمع درجة، وهي المنزلة الرفيعة السامية، أي ومن الرسل من رفعه الله على غيره من الرسل مراتب سامية، كإبراهيم عليه السلام الذي اتخذه الله خليلاً، وموسى الذي كلّمه الله، وإدريس الذي رفعه الله مكاناً عليًا، ومن فَضَّله الله هو عيسى عليه السلام حيث جعله الله يُحيي الموتى ويُبرئ الأكمه والأبرص بإذنه.

والإجماع منعقدٌ على أنَّ أفضلَ الرُّسُلِ جميعاً محمد ﷺ لأن رسالته عامة للبشرية جمعاء، فقد خاطب الله رسوله محمداً بقوله: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨] وخاطبه الله أيضاً بقوله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

ومحمد ﷺ أُوتِيَ من الآيات التي تشهد بصدق نُبُوَّتِهِ ما لم يُؤتَ أحَدٌ من الأنبياء قبله، ولو لم يؤتَ إلاّ القُرآن وحده لكفى به فضلاً على سائر ما أوتي الأنبياء، لأنه المعجزة الباقية على مدى الدهر دون سائر معجزات الأنبياء وهي في متناول شعوب الأرض في كل زمانٍ ومكانٍ.

وقد قال النبي ﷺ: «أنا سيِّدُ وَلَدِ آدم يَوم القيامةِ، وأوَّلُ من يَنْشَقُّ عنه القَبْرُ، وأوّل شَافِعٍ وَأوّل مُشفَّعٍ»[1]. أما ما روي عن النبي ﷺ قوله: «لا تفضّلوني على

(١) أخرجه مسلم وأبو داود.

الأنبياء»[1] فإن ذلك من باب تواضعه، أو حرصاً منه للترفع عن الجِدال بأن يذكر بعضهم الأنبياء بما لا ينبغي أن يُذكر من صفاتهم ويقلل من احترامهم.

ثم قال سبحانه: ﴿وَآتَيْنَا عِيسَى ابنَ مَرْيَمَ البَيِّنَاتِ﴾ أي وأعطى الله عيسى ابن مريم المُعْجِزات الظاهرة الواضحة الدلالة على صدق نبوّته ﴿وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ القُدُسِ﴾ أي وقوَّيناه بجبريل عليه السلام، لأن عيسى كان مضطهداً من أعدائه الرومان ومن قومه بني إسرائيل، ولم يكن له قدرة للدفاع عن نفسه، فَتَوَلَّى اللهُ حِمايته بملائكته الأطهار، ومن بينهم الملك جبريل.

﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ ما اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِن بَعْدِهِم﴾ أي: ولو شاء الله ما اقتتل الناس بعد كل نبيّ بأن جعلهم متفقين على اتِّباع الرُّسل الذين جاءوا بالحق من عند ربهم ﴿مِّن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ البَيِّنَاتُ﴾ أي من بعد ما جاءهم الرسل بالمعجزات الواضحة والآيات الظاهرة الدَّالَّة على الحقّ الذي يجب اتِّباعه ﴿وَلَكِنِ اخْتَلَفُوا﴾ وسبب هذا الاختلاف هو أنهم يختلفون في العقول والمدارك والفَهْم وتقبّل الحق ﴿فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ وَمِنْهُم مَّنْ كَفَرَ﴾ فمنهم من آمن لأن قلبه يتّجه إلى الحق، ومنهم من كفر لسوء جِبِلَّتِهِ وفساد سريرته، وهذا الاختلاف بينهم حول الدِّين أدَّى بهم إلى التنازع والتخاصم والتقاتل ﴿وَلَوْ شَاءَ ٱللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا﴾ كرّر الله ذلك تأكيداً لما سبق، أي لو شاء الله لجعل البشر على طبيعة الملائكة لا يتنازعون ولا يتقاتلون ولكنّ الله تركهم لاختيارهم حتى يتبيّن الخبيث من الطيّب ثم يُجازي كُلاً حَسَبَ عمله ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ والله سبحانه يفعل ما تقتضيه حكمته، فلم يشأ منع الاقتتال بين أتباع الرسل بل أراد أن تكون هكذا طبيعة الإنسان على وجه الأرض.

---

(١) أخرجه البخاري.

﴿يا أيها الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُم﴾ تخصيص المؤمنين بالخطاب لأنهم هم المكلّفون بتنفيذ أوامر الله ومنها الإنفاق في وجوه الخير، ويشمل فريضة الزكاة، وصدقة التطوّع الزائدة على فريضة الزكاة، ويقول أحد المفسرين: ظاهر هذه الآية أنها مُرادٌ بها الإنفاق في جميع وجوه البِرّ، ولكن ما تقدم من الآيات في ذكر القتال يترجّح منه أن يكون الإنفاق موضعه في سبيل الله وهو الإنفاق على الجيش والمجاهدين الذين يُدافعون عن الوطن وما يحتاجون إليه من سِلاح وعَتادٍ. ومما يلفت النظر في الآية قوله تعالى ﴿مِمَّا رَزَقْنَاكُم﴾ ففيه إشعار للمؤمنين بأن المال الذي بين أيديهم هو رِزْقٌ رزَقَهُمُ اللهُ إياه، فمن الواجب أن يطيعوا الله فيما أمرهم به من الإنفاق وأن لا يبخلوا في بَذْلِ بعضه في سبيل الله ﴿مِّن قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لاَّ بَيْعٌ فِيهِ﴾ أي من قَبْلِ أن يأتي يوم القيامة الذي لا يجدون فيه ما يتقربون به إلى الله مما يُكسب ببيع أو تجارة أو يفتدون بذلك أنفسهم من عذاب الله ﴿وَلاَ خُلَّةٌ وَلاَ شَفَاعَةٌ﴾ الخُلَّةُ: المَوَدَّةُ والمحبة بين صديقين، أي يوم القيامة لا تنفعهم صداقة ومودة مهما قويت ولن تجديهم شفاعة شفيع إلاّ لمن يأذن الله له ﴿وَالكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ والكافرون هم الذين جحدوا وجود الله وأنكروا وحدانيته وأفسدوا في الأرض، هؤلاء هم الظالمون لأنفسهم لأنهم تعدّوا على حدود الله، وأوردوا أنفسهم موارد الهلاك.



﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ٢٥٥﴾.

شرح المفردات

القَيُّوم: القائم على أُمور الخلق بالتدبير والرعاية.

سِنَةٌ: ما يتقدَّم النوم من الفُتُور، وهو النعاس.

كُرْسِيُّه: عِلْمُه سبحانه، أو كناية عن ملكه وعظمته.

لا يَؤُودُهُ: لا يثقله ولا يشقُّ عليه.

آية الكرسيّ تُظهر عظمةَ الله

تُعْرَفُ هذه الآية باسم: آية الكرسيّ لِوُرُودِ اسم الكرسيّ فيها، وقد ورد عن النبي ﷺ أن هذه الآية أعظم آيةٍ في القرآن، وإنما كانت كذلك لأنها جمعت من أحكام الألوهية وصفات الله سبحانه ما لم تجمعه آية أخرى: فهي تؤكد معنى وحدانية الله، وتغرس في قلب المؤمن المهابة والخشية منه سبحانه لما يتصف به من العظمة الإلهية.

وهذه الآية تشتمل على عشر جُمَلٍ، كل جملة منها تشتمل على صفة أو صفتين من صفات كمال الله تعالى وسلطانه الشامل على الكون وتدبيره له، وإليكم عرضاً لبعض معانيها:

الجملة الأولى: وهي ما جاء في مطلع الآية **﴿اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ﴾** الله: هذا الاسم أكبر أسمائه تعالى وأجمعها وهو اسم الله الأعظم ولم يَتَسَمَّ به غيره، ولم

يُثَنّ ولم يجمع، فالله اسم الموجود الحق الجامع لصفات الألوهية التي لا يشاركه فيها سواه ﴿لاَ إِلَهَ إلاَّ هُوَ﴾ أي لا معبود بحق إلاّ هُوَ، وذلك أن بعض الناس عبدوا غير الله، فَعَبَدَ بعضُهم الشمس والكواكب، وعَبَدَ بعضهم النار، وعَبَدَ بعضهم الأوثان، واعتبروا كل هذه آلهة فكانت عبادتهم باطلة، إنما المعبود بحق المستحق للعبادة هو الله سبحانه.

الجملة الثانية: وهي ما جاء في الآية: ﴿الحَيُّ القَيُّومُ﴾ أي إن الله له الحياة الكاملة الأزلية، فلا أول لها، والباقية فلا آخر لها، فهو الحيُّ الذي لا يموت، وسائر الأحياء على وجه الأرض يعتريهم الموت والفناء.

فهو سبحانه حَيٌّ بذاته وكلُّ ما عداه من الأحياء فهو حيٌّ بِهِ، أي: إنه يستمدّ حياته منه، بينما حياة المخلوقات تفارقها الحياة حين تموت، إن حياة الله تعالى هي التي تفيض الحياة على كل حيّ على وَجْهِ الأرض فهو سبحانه الذي يحيي ويميت.

﴿القَيُّومُ﴾ أي إنه سبحانه القائم بنفسه الذي لا يقوم بغيره، والقائم على كل شيء بالتدبير والحفظ والرعاية، فهو القائم على خَلْقه بآجالهم وأعمالهم وأرْزاقهم. وقد رُوِيَ عن ابن عباس أن كلمة ﴿الحَيُّ القَيُّومُ﴾ هي اسم الله الأعظم، وجاء في الحديث الشريف أن النبي ﷺ قال: «اسم الله الأعْظم في هاتين الآيتين الأولى: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٦٣] والثانية في فاتحة سورة آل عمران: ﴿الٓمٓ ۝ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ [آية: ١ ـ ٢]»[1].

فالآية الأولى تُثْبِتُ لِلّه الوحدانيَّة مع الرَّحْمَة، والآية الثانية تُثْبِتُ لِلّه مع الوحدانية: الحياة والقيّوميَّة.

---

(١) أخرجه ابن ماجه.

وعن عليّ رضي الله عنه أنه قال: «لما كان يوم معركة بَدْر قاتلتُ، ثم جئت إلى رسول الله أنظر ماذا يصنع، قال: فجئت وهو ساجِدٌ يقول: يا حَيُّ يا قَيُّوم لا يزيد على ذلك، ثم رَجَعْتُ إلى القِتال ثم جئتُ وهو يقول ذلك، فلا أزال أذهب وأرجع وأنظر إليه، وكان لا يزيد على ذلك إلى أن فتح الله له»[1].

الجملة الثالثة: وهي ما جاء في الآية ﴿لاَ تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلاَ نَوْمٌ﴾ السِّنةُ: ما يتقدم النوم من الفتور وهو النعاس، أي إن الله سبحانه لا يصيبه نعاس ولا نوم، وهذا يؤكد بأن الله قيّوم على كل شيء لأن النعاس والنوم يؤديان إلى الغفلة عن تدبير أمر الخلائق وهذا ينافي معنى الألوهية الحقة، وكلمة ﴿لاَ تَأْخُذُهُ﴾ فيها دلالة على أن للنوم سُلْطَةً قاهِرَةً تأخذ كلَّ حَيٍّ أخذاً، فلا يستطيعون التغلّب عليه، وذلك مستحيل على الله الذي هو القاهر فوق عباده.

الجملة الرابعة: وهي ما جاء في الآية ﴿لَهُ مَا فِي السَّمٰوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾ فهذه الجملة تفيد المُلْكِيَّة المُطْلَقة لربّ العالمين لكل ما في الكون من أجرام سماوية وملائكة وما في الأرض من إنسانٍ وحيوانٍ ونَباتٍ وجبالٍ وبحار وأنهار وغير ذلك، فكل أولئك ملكه، خاضِعُون لمشيئته، وهو سبحانه الحافظ لوجودهم.

الجملة الخامسة: وهي قوله تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ﴾ الاستفهام هنا معناه الإنكار والنفي، أي: لا يشفعُ عند الله أحَدٌ إلاّ بإذنه، وإنما يأذن الله لمن يشاء عن علم وعَدْلٍ وحكمة.

وهذه الجملة التي تُبيّن أن الشَّفاعَة لا تكون إلاّ لمن يأذن الله له تظهر عموم سُلطان الله، وأنه انفرد بتدبير أُمور الخلائق فلا إرادة تتعلق بأمور الخلق غير

---

(١) أخرجه النسائي.

إرادته، فهو يُعطي الإذن بالشفاعة لمن يشاء ويمنعها عمّن يشاء.

وهذا الذي ذكره القرآن من اختصاص الله بالشفاعة وأنه سبحانه يأذن بها لمن يريد، إنَّ هذا لَسَبِيلٌ إصلاحيٌّ كبير يقطع الأمل أمام العُصاة الذين يقصّرون في واجباتهم الدينية اتكالاً على ما يدّعون بأن لهم شُفَعاء، غير عابئين بأعمالهم السيئة التي ستؤدي بهم إلى عذاب الله. وجمهور العلماء أثْبتوا شفاعة النبي محمد ﷺ للعُصاة من أُمَّته بعد أن يأذن الله بها ويرضى تكريماً له ورحمةً بالناس، وقد وردت أحاديث عن النبي ﷺ في هذا الصدد.

الجملة السادسة: وهي قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ ما بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ فهذه الجملة تأكيد لكمال علم الله وسُلْطانه في هذا الوجود، وإحاطة علمه بكل أحوال الناس، لا يخفى عليه شيء، فالله سبحانه يعلم ﴿ما بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ وهو ما يعلمونه من شؤون سابقة أو حاضرة من أمور دنياهم ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ فهو يعلم ما يكون مغيّباً عنهم من أمور ستقع في المستقبل، أو ما يكون من أمور الآخرة، فالعلم بما بين أيديهم وما خلفهم كناية عن إحاطة علم الله بماضي العباد وحاضرهم ومستقبلهم، وما يعرفونه من شؤونهم الدنيوية وما لا يعرفونه.

الجملة السابعة: وهي قوله تعالى ﴿وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ[1] مِنْ عِلْمِهِ إلاّ بِما شَاءَ﴾ إحاطة العلم معناها العلم الكامل بالأمر، أي إن البَشَر لا يعلمون شيئاً من معلومات الله إلا ما يشاء الله لهم أن يعرفوه، وبالقدر الذي أراد أن يعلمهم إياه على أَلْسِنَةِ رُسُلِهِ.

الجملة الثامنة: وهي قوله تعالى: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمٰواتِ والأَرْضَ﴾ فَسَّرَ العُلَماء «كُرْسِيُّهُ» بالعَرْش، كما فسَّر بعضُهم «كُرْسِيُّهُ» بأنه كناية عن سعة ملكه

---

(١) يقول الأصبهاني: الإحاطة بالشيء علماً هي أن تعلم وجوده وجنسه وكيفيته وغرضه المقصود به.

وسُلْطانه وقُدْرَته وشمول إرادته. ورُوِيَ عن ابن عباس أنه قال: «كُرْسِيُّه: عِلْمُهُ»، كما ذهب إلى ذلك ابن جرير الطبري.

وقيل: الكرسيّ غير العرش، وهما مخلوقان لله تعالى، وهما من المتشابه الذي استأثر الله بعلمه، فنفوِّض علم حقيقتهما إليه مع كمال تنزيهه عن الجسمية وعن مشابهته المُحْدَثات، اهتداءً بقوله تعالى ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

الجملة التاسعة: وهي قوله سبحانه مُظهراً قدرته ﴿وَلاَ يَئُودُهُ حِفْظُهُما﴾ أي لا يُثقله ولا يُتْعبه حِفْظُ السمواتِ والأرضَ وتدبير شؤونهما، لأنه سبحانه مُنَزَّهٌ عن التَّعَبِ وعن مُشابهة الحوادث، فكل ما في الكون في حِفْظِ الله، فأجْرام السماء من نُجومٍ وكواكب يحفظها ٱللَّه بنظام الجاذبية بحيث لا تتصادم، والأرض وما عليها من كائنات في حفظ الله خاضعة للقوانين التي سَنَّها ٱللَّهُ بحكمته بما يكفل لها الحصول على عيْشها واستمرار نوعها.

الجملة العاشرة: وهي قوله سبحانه ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ فالله سبحانه عَلا بصفاته وذاته عن مُشابهة المخلوقات، وهو عالي المنزلة والقدر بتنزّهه عن مشابهة المخلوقين، وهو القاهر فوق عباده. كما أنه سبحانه هو العظيم قدراً ومهابة وشرفاً، كل شيء دونه، فلا شيء أعظم منه.

هذه آية الكرسيّ التي تملأ القلب مهابَةً وخَشْيَةً، فهي تُعلن أن الله متفرّدٌ بالألوهية، قائم على تدبير الكائنات، لا يغفل لحظة عن أُمور خلقه، وهو المالك لكل شيءٍ في السموات والأرض، فلا معبود بحق في الكون إلاّ هُوَ، الواحد الأَحَد. وفيها تكرار اسم ٱللَّه ظاهراً أو عن طريق الضمائر في ستة عشر موضعاً.

وقد أخرج الإمام مسلم بما معناه عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إنَّ أعْظَمَ آيةٍ في القُرآن هي آية الكرسي».

﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾ ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخۡرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِۗ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥٧﴾﴾.

شرح الكلمات

لا إكراه في الدِّين: أي لا إجبارَ على الدُّخولِ في الإسلام.

الرُّشْدُ: الهُدى أو الحق.

الغيّ: الضّلال أو الباطل.

بالطاغُوت: كل ذي طُغْيانٍ، أو كل معبود سوى الله.

العُرْوَة الوُثْقى: الإيمان بالله، وهو العقيدة المحكمة التي لا يضلّ من تمسّك بها.

لا انْفِصامَ لها: لا انقطاع لها.

وَلِيُّ الذين آمَنُوا: مُعِينُهم ومُتولّي أُمورهم.

يُخرجونهم من النور إلى الظلمات: يخرجونهم من نور الحق والإيمان إلى ظلمات الكفر.

حُرِّيَّةُ التَّدَيُّن

من الأُمور الهامة التي تشهد بعظمة الإسلام تقريره حرية المعتقد في زَمَنٍ شهد العالم سلسلة من الصراعات الدموية في سبيل إرغام الغير على اعتناق دينهم.

والإسلام في تقريره حريةَ المعتقَد سبق المَدَنِيَّة الحديثة بقرونٍ كثيرة، فقد صدر الإعلان العالمي لحقوق الإنسان الذي أقرّته الجمعية العامة للأمم

المتحدة في العاشر من كانون الأول سنة ١٩٤٨ حيث نَصَّ هذا الإعلان في المادة الثامنة عشرة منه على ما يلي: «إنّ لكلّ شخص حقًّا في حرية التفكير والضمير والدين.. وحرية الإعْراب عن ديانته أو عقيدته بالتعليم والممارسة وإقامة الشعائر...».

والإسلام منذ أكثر من أربعة عشر قرناً قرّر حرّية المعتقد بقوله تعالى:

﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ الإكراهُ: هو إلْزام الغير على قولٍ أو فعلٍ لا يريده عن طريق التخويف والتعذيب، والمراد بالدِّينِ في الآية: دين الإسلام، والمعنى كما جاء في تفسير ابن كثير: «لا تُكْرِهُوا أحَداً على الدخول في دِينِ الإسلام فإنه بَيِّنٌ واضِحٌ، جَلِيٌّ دلائله وبراهينه لا يُحتاج إلى أن يُكرَه أحَدٌ على الدخول فيه، بل مَن هداه الله للإسلام وشرح صدره ونَوَّرَ بصيرته دخل فيه على بَيِّنة...» ﴿قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الغَيِّ﴾ أي قد تبيّن الرُّشْدُ والحق في دين الإسلام كما تبين الضلال والباطل فيما سواه.

نزلت هذه الآية في قومٍ من الأنْصار، أو في رجل منهم، كان لهم أولاد قد هَوَّدُوهم أو نَصَّرُوهم، فلما جاء الله بالإسلام أرادوا إكراههم عليه، فنهاهم الله عن ذلك، حتى يكونوا هم يختارون الدخول في الإسلام[١].

ورُوِيَ أنه كانت المرأة من الأنصار تكون مقلاتاً (أي التي لا يعيش لها ولد) فتُنذر إنْ عاش ولدها أن تجعله مع أهل الكتاب على دينهم، فجاء الإسلام وطوائف من أبناء الأنصار على دينهم، فقالوا: إنما جعلناهم على دينهم ونحن نرى أن دينهم أفضل من ديننا، وإذ جاء الله بالإسلام فلنكرهنهم[٢]، فنزلت الآية

---

(١) عن تفسير الطبري.

(٢) فلنكرهنهم: أي يكرهونهم على الدخول في الإسلام.

﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾[1] فالآية تقرر أن الإكراه في الدين لا ينبغي فعله، لأن التدين لا يكون إلاّ عن اقتناع وإذْعان قلبي، واتجاه بالنفس إلى الله، وتلك معانٍ لا يُتَصور منها الإكراه، والتدين والإكراه لا يجتمعان، ومن أُكْره على أمْرٍ ازداد له نفوراً وكرهاً.

ويقول الفخر الرازي في تفسيره لهذه الآية: «لمّا بَيَّنَ اللَّهُ دلائل التوحيد بياناً شافياً قاطعاً للعُذْرِ، قال بعد ذلك: إنه لم يبقَ بعد إيضاح هذه الدلائل للكافر عُذْرٌ في الإقامة على الكُفْر إلاّ أن يُقْسَرَ على الإيمان ويُجْبَر عليه، وذلك مما لا يجوز في دار الدنيا التي هي دار الابتلاء، إذ في القهر والإكراه على الدين بُطلان معنى الابتلاء والامتحان» ونظير هذا ما جاء في القرآن: ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩] كما جاء في القرآن: ﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٩٩] أي ليس في استطاعتك يا محمد ولا مِنْ وظائف الرسالة الإلهية التي بُعثتَ بها أن تُكْرِهَ الناس على الإيمان، كما جاء في القرآن: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [البقرة: ٢٧٢].

﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ﴾ الطاغوت: هو الشيطان أو الصنم، وكل ما عُبد من دون الله، وهو مأخوذ من الطُّغْيان: وهو مُجاوزة الحَدِّ في الشيء، أي فمن يجحد ربوبية كل معبود من دون الله فيكفر به ويصدق بالله بأنه إلهه وربّه ومعبوده ﴿فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الوُثْقَى﴾ والعُرْوَةُ: ما يستمسك به ويعتصم، والوثقى: المُحْكَمَة، شَبَّهَ اللَّهُ من تمسَّكَ بالإيمان أو بالإسلام بحال من تمسّك بأوْثَقِ عُرى النجاة التي لا يُخْشَى منها الخللُ، وهي الاستقامة على

(١) عن تفسير الطبري.

طريق الحق القويم الذي لا يضلّ سالكهُ ﴿لا انْفِصَامَ لَهَا﴾ لا انقطاع لها ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أي سميعٌ لأقوال الناس، عَلِيمٌ بما يُسِرُّونه في نفوسهم وما يُعْلِنُونَه.

﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخرِجُهُم مِّنَ الظُّلُماتِ إلى النُّورِ﴾ الوَلِيُّ: الناصر والمعين، والمعنى: الله سبحانه مُعِينُ المؤمنين وناصرهم ومتوليهم بهدايته إلى طريق الحق يخرجهم من ظلمات الكُفْر والمعاصي إلى نور الهداية والإيمان ﴿والَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِياؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُماتِ﴾ أي والذين كفروا بالله وأنكروا رسالة النبي محمد ﷺ هؤلاء يتولى أمرهم الطاغوت وهم الشياطين وسائر المُضِلِّين عن طريق الحق ويوقعونهم في ظلمات الكفر والضلال ﴿أُولَئِكَ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فِيها خَالِدُونَ﴾ أي أولئك الذين ركنوا إلى الطاغوت هم الذين يُعَذّبون في النار يوم القيامة عذاباً لا نهاية له.

هذه الآية: ﴿لا إِكْراهَ فِي الدِّينِ..﴾ قيل إنها منسوخة بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ [التحريم: ٩] لأن النبي محمداً ﷺ قد دعا العرب الوثنيين وحثهم على الدخول في دين الإسلام وقاتلهم عندما قاتلوه ولم يرض منهم إلاّ الإسلام بعدما اضطهدوه، ولأن الجزيرة العربية كانت المنطلق لدعوة الإسلام إلى شعوب العالم.

وقيل: إن هذه الآية غير منسوخة، وإنما نزلت في أهل الكتاب وغيرهم من أتباع الديانات الأخرى في العالم إذا أدوا الجِزْيَة، وهي ضريبة قليلة من المال مقابل حمايتهم. والذي تسكن إليه النفس أنّ هذه الآية غير منسوخة، لأن التدين كما ذكرنا سابقاً لا يكون مع الإكراه.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٢٥٨﴾﴾.

شرح المفردات

أَلَمْ تَرَ: ألم تعلم، وهذا الاستفهام للتعجب.
حَاجَّ إبراهيمَ في رَبِّه: خاصمه وجادله في شأن ربه.
فَبُهِتَ الذي كفر: تَحَيَّرَ ودُهِشَ وانقطعت حجته.

طُغْيانُ الحُكّام

ثم ينتقل القرآن إلى عَرْضِ لَوْنٍ من أَلْوان الطغيان الذي يظهر على بعض الحُكّام الطغاة الذين يظنون أنهم وصلوا إلى مرتبة الأُلُوهِيَّة، فَيُنْكرون وجود الخالق الذي خلقهم، ويُمعِنُونَ في إيقاع الظلم بالعباد، قال تعالى:

﴿أَلَمْ تَرَ إلى الَّذِي حَاجَّ إبراهيمَ في رَبِّهِ﴾ والاستفهام للتعجب، أي ألَمْ تعلم إلى حال هذا الملك الذي خاصم إبراهيم وجادله في شأن خالقه، والمحاجّة: هي المخاصمة والمغالبة في القول **﴿أَنْ آتاهُ اللَّهُ المُلْكَ﴾** وكان هذا المَلِكُ قد طغى وتَجَبَّر وادعى الأُلوهية، وطغيان هذا الملك هو بسبب ما أنعم الله عليه من الملك والسلطان الدنيوي على قومه فجعله مسرفاً في الضلال.

﴿إِذْ قَالَ إِبراهيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ وكان الملك قد سأل إبراهيم عن ربه الذي يدعوه لعبادته، فوصف إبراهيمُ ربَّه بأوضح ما يُعرف به وبالصفة

التي لا يمكن أن يشاركه فيها أحَدٌ، ولا يمكن أن يدّعيها أحَدٌ، فَرَبُّهُ هو الذي ينشئ الحياة في جميع الكائنات الحية، ويُزيل الحياة عنها بالموت، والتعبير بالفعل المضارع ﴿يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ يفيد معنى الاستمرار الذي يُرى في كل يوم.

﴿قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ﴾ فأجاب الملكُ إبراهيمَ: أنا أفعل ذلك فأحيي بالعفو عن محكوم عليه بالموت فلا أقتله، فيكون ذلك مني إحياء له، وأقتل من أردتُ قتله فيكون ذلك مني إماتةً له. وهكذا يفعل الطغاة في كل العصور فتكون أرواح العباد مستباحة لهم لكل من ينتقد سياستهم أو يخالفهم في رأيهم.

ولنرجع إلى جواب الملك لإبراهيم الذي يدلّ على جهله وقِصَر نظره، ولذلك اقتضت حكمة إبراهيم أن يغلق باب الجهل الذي صدر عن الملك ويجابهه بموضوع آخر لا يستطيع أن يجادله فيه:

﴿قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ﴾ أي قال إبراهيمُ للملكِ: إنَّ رَبِّي هو الذي يُطلع الشمس من جهة المشرق بهذا النظام والسنن الحكيمة التي نُشاهدها كل يوم، فإذا كنت أيها الملك تَدَّعي الألوهية فَأَظْهِرْ أمارات قدرتك وسُلطانك على الكون بأن تأتي بالشمس من جهة غروبها ﴿فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ﴾ أي تحيّر هذا الذي كفر وادَّعى الألوهية، واضطرب ولم يجد جواباً ولم يستطع أن يتفوَّهَ بكلمةٍ ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ فالذين يعاندون الحق هم ظالمون، وإذا استحكم الظلم في النفس أصبحت كل البراهين لا تجديهم نَفْعاً، ولذلك لم يكتب الله الهداية لهؤلاء، بل شاء أن يظلوا في ضلالهم يعمهون.

﴿أَوْ كَالَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِاْئَةَ عَامٍ فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥٩﴾﴾.

شرح المفردات

أنّى يُحْيِي: كيف يحيي.

خاوِيَة على عروشها: ساقطة حيطانها على سقوفها.

بعثه: أحياه الله بعد مماته.

لم يَتَسَنَّهْ: لم يُغَيِّرهُ مرّ السنين.

وانظر إلى العِظَام كيف نُنْشِزُها: أي كيف نرفعها من أماكنها من الأرض فنردّها إلى أماكنها في الجسم.

دليل على البعث يوم القيامة

ويتابع القرآن فيقدّم لنا دليلاً على إثبات البعث يوم القيامة مستقى من القصة التالية، قال تعالى:

﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلى قَرْيَةٍ﴾ هذه الآية معطوفة على الآية قبلها، والمعنى: هل رأيت يا محمد مثل الذي مرّ على قرية، والقرآن لم يسمّ الشخص ولا القرية لأنه يقصد من هذه القصة العبرة، وقد روي أنّ الذي مَرَّ على القرية هو عُزَيْر، وقيل: إرميا، والقرية: هي بيت المقدس التي خربها وهدمها بختنصر **﴿وَهِيَ**

﴿خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا﴾ خاوية: ساقطة، وعروشها: جمع عرش وهو السقف، أي سقط السقف ثم سقطت الحيطان عليه، وهذا المنظر ينبئ عن خراب القرية وذهاب عمرانها. ثم إن عُزَيْراً مَرَّ على هذه القرية وهو راكب على حمار، فتعجب مما رأى وقال كما ذكر القرآن ﴿قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ أي كيف يحيي الله هذه القرية التي فنيت وخربت بعد موتها؟ ويُلاحظ أن التساؤل من عُزَيْر كان منه عن كيفية الإحياء ولم يكن شكًّا منه في قُدرة الله على إحيائها، فهو مؤمن صادق الإيمان. أراد عُزَيْرٌ أن يستريح قليلاً، فربط حماره وتناول من شجر هذه القرية التين والعنب وشرب من عصير فاكهتها، ووضع ما زاد عنه في وعاء له، فأراد الله أن يريه آيةً تدل على عظيم قدرته التي تعلو وتفوق عمارة هذه القرية ﴿فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ﴾ أي جعله الله ميتاً مائة سنة، وظاهر هذه الإماتة إخراج الروح من الجسد، كما أمات حماره معه، ثم أعمى الله عن جسده أبصار الإنس والسباع والطير. فلمّا مضى على موته سبعون سنة وَجَّهَ اللهُ ملكاً من ملوك فارس إلى بيت المقدس ليعمروه، فعمروه في ثلاثين سنة، فلما تمت المائة سنة من موت عُزَيْر أحياه الله بما ذكره القرآن ﴿ثُمَّ بَعَثَهُ﴾ أي ثم أحْياه، ويوم القيامة يسمّى يوم البعث لأن الموتى يُبعثون فيه من قبورهم. فالله سبحانه أعاد إليه الحياة كما كان سابقاً، فسأله الله تعالى بواسطة ملك من الملائكة ﴿قَالَ كَمْ لَبِثْتَ﴾ أي: كم لبثت في رقادك؟ قيل له ذلك مراعاةً على ما يظن أنه كان نائماً في تلك المدة التي أفاق منها من نومه، فأجاب الرجل: ﴿قَالَ لَبِثْتُ يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ أي مكثتُ في نومي هذا يوماً، قال هذا قبل النظر إلى الشمس، ثم التفتَ فرأى بقية من نور الشمس، فقال: أو بعض يوم. فقد أماته الله غدوة ثم بعثه حيًّا بعد تلك المدة الطويلة قبل الغروب.

ولكن الملك أجابه بهذا القول الذي أدهشه وأزاح عن عينيه ما كان غائباً عنه ﴿قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ﴾ أي لم تلبث نائماً تلك المدة القصيرة التي ظننتها

بل مكثت ميتاً مائة عام ثم بعثك الله حيًّا، ونظر عُزَيْرٌ حوله فرأى من عمارة القرية وأشجارها ومبانيها التي بُنيت ما دَلَّ على ذلك.

ثم أراه الله معجزةً أخرى تدلّ على قدرته متمثلة بطعامه وشرابه **﴿فَانظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ﴾** يَتَسَنَّه: أي لم تُغَيِّرْهُ السُّنُونُ، أي فَانظر إلى طعامك وشرابك اللذين كانا معك لزادك وقد مّر عليهما مائة عام وما زالا صالحين للأكل والشراب لم يلحقهما فساد أو تبديل، ولم يغيرهما مضيّ هذه الأعوام الطويلة **﴿وَانظُرْ إِلَى حِمَارِكَ﴾** أي وانظر أيضاً إلى حمارك كيف نخرت عظامه وتحللت وتفتَّتت، وهذا يدلّ على مَرْ السنين على حين بقي الطعام والشراب على حالهما لم يلحقهما تغيير ولا فساد **﴿وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ﴾** ولنجعل من قصتك هذه دلالةً على البعث بعد الموت يوم القيامة، ومعجزة ناطقة على قدرة الله سبحانه، ووجه كونها آية للناس إنّ الناس تناقلوها فيما بينهم، وإن أحفاد عُزير كانوا يذكرون أنه مات وانتهى أمره، ولمّا وجدوه حيًّا وأعلمهم بما كان له وما أصابه من موت ثم كيف أحياه ٱللَّهُ، أدرك الناس علامةً من علامات قُدرة الله على البعث.

وتابع الملك خطابه لِعُزَيْر مُلْفِتاً نظره إلى آيةٍ أخرى من آيات الله في إحياء الموتى: **﴿وَانظُرْ إِلَى العِظَامِ كَيفَ نُنشِزُها ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحماً﴾** وأمّا العِظام التي أمر بالنظر إليها فهي عظام الحمارِ، ومعنى نُنْشِزُها: نرفعها، أي انظر إلى العظام كيف نرفع بعضها على بعض من أماكنها من الأرض فَنَرُدُّها إلى مواضعها في الجسم، وهناك قراءة هي **﴿نُنشِرُها﴾** بالراء بمعنى نبعثها إلى الحياة من جديد **﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيءٍ قَدِيرٌ﴾** فلمّا تبيّن له بالأدلة الحسيّة الماديّة هذه المعجزات، ورأى ما رأى من عظمة الإبداع الإلهي، أيقن وأقرّ بقدرة الله سبحانه، وأنه القادر على فعل أي شيء.

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾﴾.

شرح المفردات

فصُرهُنّ: أمِلْهُنّ إليكَ وقطّعهن.

يأتينكَ سَعْياً: سريعاً.

عزيز: القويّ الغالب.

إحياءُ اللَّه للموتى

ثم تأتي القصة التالية وفيها يُبيّن القرآن قدرة ٱللَّه على إحياء الموتى، يسوقها القرآن لكل من يرتاب في صحة البعث يوم القيامة، قال تعالى:

﴿وَإِذْ قَالَ إِبراهيِمُ رَبِّ أَرِنِي كَيفَ تُحْيِي المَوْتَى﴾ أي واذكر يا محمد وقتَ أن خاطب إبراهيمُ ربَّه طالباً منه أن يريه كيفية إحيائه للموتى، والسؤال يدلّ على إيمان إبراهيم بإحياء ٱللَّه للموتى، فهو لا يشكّ في قدرة الله على البعث وإنما يسأل عن الكيفية في ذلك، كما أنه يريد أن ينتقل من مرتبة البُرهان العقلي إلى مرتبة المشاهدة، فإنّ الحسَّ يحمل الإنسان على الإذعان أكثر مما يحمله الدليل العقلي. ومعاذَ ٱللَّه أن يرتابَ إبراهيمُ في قُدرة ٱللَّه سبحانه، فهو رسول من عند ٱللَّه ومن أُولي العَزْمِ من الرسل. تأمّل كيف استهلّ إبراهيمُ دعاء ربه بكلمة ﴿رَبِّ﴾ فهو يعترف له بالربوبية الحقة، ويُقِرُّ بأنه خالقه ومربّيه والقائم على أمره.

أجاب اللَّهُ إبراهيمَ على سؤاله بقوله: ﴿قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن﴾ أي أتقولُ ذلك وتطلبه، فهل أنت لم تؤمن؟ فإذا كنت مُؤمناً، فلماذا تسأل هذا السؤال؟ ﴿قَالَ بَلَى وَلَكِن لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ أي قال إبراهيمُ: بل كنتُ في حيرة في كيفيّة الإعادة لا في أصل القضية، فطلبت ذلك منك يا رب ليطمئنّ قلبي، فالاستدلال بالعيان بعد الاستدلال بالبرهان أثبت في النفس وأرسخ في الإقناع.

أجاب اللَّهُ إبراهيمَ على طلبه بكيفية إحيائه للموتى وطلب منه: ﴿قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ﴾ فَصُرْهُنَّ: أي اضْمُمْهُنّ إليكَ، أو بمعنى: قطّعهن، أو أمِلْهُنّ إليك. أمر اللَّهُ إبراهيمَ بأن يأخذ أربعة من الطير، كل طيرٍ يُخالف الآخر في نوعه، وأن يضمّهن إليه ليتأمل كل واحد منها فيعرف ميزات كل طائر عن غيره، ثم يذبحهن ويقطعهن، ثم أمره أيضاً ﴿ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءاً﴾ أي ثم ضَعْ يا إبراهيم على كل مرتفَعٍ من الأرض جزءاً من تلك الأشلاء المتقطعة من تلك الطُّيور الأربعة ﴿ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْياً﴾ ثم قُلْ لهنَّ: تعالينَ بإذنِ اللَّهِ، فتعود إليك مسرعات تطير إليكَ وهُنَّ الطيور الأربعة عينها التي عرفْتَها قبل ذبحها وتفريق أجزائها على الجبال المحيطة بك ﴿وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ واعلم أن اللَّه لا يعجز عن شيء، وهو ذُو حكمة بالغة في كل أمر.

وفي هذه القصة الموجزة درس للناس ليؤمنوا بالبعث بعد الموت، فكما أن أجسام تلك الطيور بعد ذبحها وتقطيعها وتفرُّق أجزائها على الجبال أعاد اللَّه الحياة لها، فكذلك جسد الإنسان بعد موته وتحلّله وتفرّق أجزائه في التراب أو اليمّ، يجمع اللَّه أجزاءه يوم القيامة، ويعيد إليه الحياة للحساب ولمجازاته على أعماله من ثوابٍ أو عقاب.

﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى ۙ لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾ ۞ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى ۗ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَلِيمٌ ﴿٢٦٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا ۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦٤﴾﴾.

شرح المفردات

سبيل الله: هو الطريق الموصل إلى مرضاته كالجهاد للدفاع عن دينه وأعمال البِرّ المتنوعة.

سنابل: جمع سنبلة وهي ما فوق الساق وفيها الحب كالقمح وما شابه ذلك.

يُضاعِف لمن يشاء: يضاعف الثواب لمن يشاء من أهل الإحسان.

مَنًّا: المَنُّ أن يذكر المنفق فضله على من أحسن إليه ويفتخر عليه.

أذىً: الأذى هنا، أن يتطاول المنفق على آخذ الصدقة بكلام يؤذيه أو بعمل ما.

رئاء الناس: مراءاةً لهم.

صَفْوان: الحجر الأَمْلَس.

وابِلٌ: مطر شديد.

صَلْداً: الحجر الصلب الأَمْلَس.

ثواب الإنفاق في سبيل الله

وبعد أن ذكر الله القصص السابقة وما فيها من البراهين الدالة على صحة البعث يوم القيامة رغَّب ٱللَّه في الآيات التالية بالإنفاق في سبيل ٱللَّه وبيّن ثواب ذلك بقوله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ﴾ والإنفاق في سبيل ٱللَّه هو الإنفاق بما يرضيه كأعمال البر المتنوعة والجهاد في سبيله. فٱللَّه سبحانه أراد أن يُصَوِّر لعباده ثواب الذين ينفقون أموالهم في سبيله بأن مَثَلَهُم كَمَثَلِ زارعٍ زَرَعَ في الأرض حبة قمح أو شعير أو غير ذلك، فأنبتت هذه الحبة نبتة تحمل سبع سنابل، في كل سنبلة مائة حبة، فشبَّه ٱللَّه المتصدّق بالزَّارع، وشَبَّه الصدقة بالبذْر الذي يُعطي الخير الكثير، أي إن ٱللَّه يُعطي بكل صدقة سبعمائة حسنة.

وعلى هذا فإذا عَلِمَ الإنسان أنه إذا بذر حبّة في الأرض أخرجت له سبعمائة حبة كان ذلك داعياً إلى الحرص على زرع الحبوب لما فيه من الربح الوفير له، فكذلك إذا عَلِمَ المنفق مَالَهُ في سبيل ٱللَّه أنه كزارع حبة القمح سيأخذ أجره سبعمائة ضعف، كان ذلك حافزاً له على فعل الخير، ودافعاً له إلى إنفاق ماله في سبيل ٱللَّه.

وقد رُوِيَ أن هذه الآية نزلت في عثمان بن عفان، وعبد الرحمن بن عوف رضي ٱللَّه عنهما، وذلك أن رسول ٱللَّه لمَّا حَثَّ الناسَ على الصدقة حين أراد الخروج إلى غزوة تبوك جاءه عبد الرحمن بن عوف بأربعة آلاف درهم وقال: أقرضتها لربي، فقال رسول الله: «بارَكَ ٱللَّهُ لكَ فيما أَمْسَكْتَ[1] وفيما أَعْطَيْتَ» وقال عثمان: يا رسول ٱللَّه عليّ جهاز من لا جهاز له (أي من لا سلاح ولا ركوب له) فنزلت الآية فيهما.

---

(١) أمْسَكْتَ: أبْقَيْتَ عندكَ.

وفي الحديث الشريف أن رسول ٱللَّه ﷺ قال: «مَنْ أَنْفَقَ نفقةً في سبيل ٱللَّه كُتِبَ له سبعمائة ضِعْف»[1].

كما رُوِيَ عنه ﷺ قوله: «كل عمل ابن آدم يضاعف: الحَسَنَةُ بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف»[2].

﴿وَاللَّهُ يُضاعِفُ لِمَن يَشاءُ﴾ وٱللَّه سبحانه يضاعف ثواب الحسنات لمن يشاء من عباده، والضِّعْفُ هو الزيادة على أصل الشيء فيجعله مِثْلَيْن أو أكثر ﴿وَاللَّهُ واسِعٌ عَلِيمٌ﴾ أي كثير الجود وجزيل الثواب، عليمٌ بمن يُنفقون أموالهم في مرضاته وطاعته.

﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَموالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لا يُتْبِعُونَ مَا أَنفَقُوا مَنًّا وَلاَ أَذًى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ أي الذين ينفقون أموالهم في سبيل ٱللَّه من جهاد وفي وجوه الخير ابتغاء مرضاته، ثم لا يُتبعون ما أنفقوا منًّا على من أنفقوا عليهم ولا يُتبعونه أذى لهم بالقول أو بالفعل، هؤلاء لهم ثواب عملهم على الأموال التي أنفقوها في سبيل ٱللَّه ﴿وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ أي لا خوف عليهم في الدنيا والآخرة من أن يلحقهم مكروه، أما في الدنيا فإنَّ الإنفاق في سبيل ٱللَّه يدفع خطر الأعداء ويقضي على أسباب الفتن الداخلية التي يولّدها الفقر، وأما في الآخرة فلا خوفٌ عليهم من أهوال يوم القيامة ﴿وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ ولا هم يحزنون عند فراقهم الدنيا على ما خلَّفوا وراءهم لأن ٱللَّه أعطاهم في الآخرة من أنواع النعيم ما تقرّ به أعينهم.

ولنرجع إلى بيان معنى المنِّ والأذَى، فالمنُّ: هو أن يذكر المُنفق فضله على المحتاج إلى عطائه كأن يقول له: لقد أحسنتُ إليكَ، وأنقذتك من الضيق

---

(١) أخرجه أحمد والترمذي والنسائي.

(٢) أخرجه مسلم.

الذي أنت فيه وتفضّلت عليكَ بمالي، أو التحدّث أمام الناس كقوله: لقد أعطيت فلاناً مالاً لَمّا عرفتُ أنه بحاجة إليه، فيبلغ الفقير خبر ذلك فيؤذيه.

والأذى: هو أن يتطاول على الفقير كأنْ يقول له: كم تسألني العطاء وقد بُلِيتُ بك وأراحني ٱللَّه منك، وفي الترفع عن إيذاء الفقير يقول أحد الصالحين: «إذا أعطيتَ فقيراً مالاً، ورأيت أن سلامك يثقل عليه فلا تُسَلِّم عليه».

﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى﴾ القول المعروف: هو الرَّدُّ الجميل لطالب العطاء بأن يقول له كلاماً جميلاً يُطَيِّبُ خاطره ويحفظ له كرامته، كأن يعتذر إليه بعدم استطاعته، أو يدعو له بالتيسير والفرج. والمغفرة: هي العفو عن السائل إذا وجد منه ما يثقل على المسؤول، أو عفو من جهة السائل لأنه إذا ردّه ردًّا جميلاً عذره. فالقول الجميل والمغفرة للسائل خير عند ٱللَّه من صدقةٍ يتصدّق عليه بها ويُؤذيه بسببها.

وقد روي عن النبي ﷺ قوله: «الكلمةُ الطَّيِّبَةُ صدقةٌ، وإنَّ من المعروف أنْ تلقى أخاكَ بِوَجْهٍ طَلِقٍ»[1] فعليك أيها المسلم أن تَلْقَى صاحب الحاجة بوجهٍ بشوشٍ لتكون مشكوراً إنْ أعطيتَ ومعذوراً إنْ منعتَ ﴿وَٱللَّهُ غَنِيٌّ﴾ أي عما يتصدّق به الناس ﴿حَلِيمٌ﴾ لا يُعجّل بالعقوبة لمن يمنّون على الفقراء ويؤذونهم بالقول، بل يمهلهم لعلّهم يتوبون.

﴿يا أيُّها الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ والأَذَى﴾ خاطب ٱللَّه المؤمنين بأن لا يضيّعوا ثواب صدقاتهم على المحتاجين بالمنّ عليهم بإظهار فضلهم عليهم أو إيذائهم بالقول أو الفعل فيكون مثلهم ﴿كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ﴾ أي كالمُرائي الذي ينفق أمواله لِيُرائي بها الناس فتبطل بذلك صدقته، والمُرائي يُظهِرُ للناس أنه يريد بصدقته وجه الله، والواقع هو أنه يُريدُ ثَناءَ الناسِ

---

(١) أخرجه مسلم.

عليه ليُقال إنه كريم ورجل صالح ﴿وَلاَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ وهذا المرائي لا يصدّق بوحدانية ٱللَّه وربوبيته لهذا الكون، ولا يصدّق بأنه مبعوث بعد الموت ليجازى على عمله ﴿فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوانٍ عَلَيهِ تُرَابٌ﴾ الصَّفْوانُ: هو الحجر الكبير الأملس. أي مَثَلُ ذلك المُرائي بإنفاقه كمثل الحجر الأملس الذي عليه شيء من التراب يظنه الرائي له أرضاً طيبة خصبة صالحة للزرع ﴿فَأَصَابَهُ وَابِلٌ﴾ فأصاب هذا الحجر مطرٌ شديدٌ فأزال ما عليه من تراب ﴿فَتَرَكَهُ صَلْداً﴾ أي تركه أجْرد نقيًا من التراب الذي كان عليه.

لقد شبّه ٱللَّه أعمال هؤلاء المرائين الذين لا يبتغون وجه ٱللَّه في إنفاقهم ولا يبتغون رضاه كحال حجر أملس عليه قليل من التراب يوهم الناظر أنه خصب منتج للزرع ثم ينزل عليه المطر الشديد فيزيل ما عليه من التراب ويكشف ما حوله، فإذا هو لا ينبت ولا يصلح للزرع، فثوب الرياء يشفُّ دائماً عما تحته، لأنَّ المنافق يظن أن له أعمالاً صالحة، فإذا كان يوم القيامة اضمحلت أعماله وذهبت لأنها لم تكن للَّه، كما أذهب المطر الشديد ما على هذا الصفوان من التراب.

وفي الحديث الشريف الذي أخرجه مسلم ذِكْرٌ للأصناف الثلاثة ـ وهم الغازي والعالِم والجواد ـ التي يُقْضىٰ فيها أول الناس يوم القيامة، يقول النبي ﷺ: «وَرَجُلٌ وسَّعَ ٱللَّه عليه وأعطاه من أصنافِ المالِ كُلِّه، فَأُتِيَ به. فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَها. قال: فما عَمِلْتَ فيها؟ قال: ما تَرَكْتُ مِنْ سبيلٍ تُحِبُّ أنْ يُنْفَقَ فيها إلاّ أنْفَقْتُ فيها لك. قال: كَذَبْتَ، ولكنَّكَ فَعَلْتَ لِيُقالَ هُوَ جَوَّادٌ، فقد قِيلَ، ثم أُمِرَ به فَسُحِبَ على وَجْهِهِ، ثم أُلْقِيَ في النارِ».

﴿لاَ يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمّا كَسَبُوا﴾ أي هؤلاء الذين يراءون الناس بما تصدّقوا به، عليهم أن يتذكروا أن هذا المال الذي يتصدّقون به لم يكسبوه بمقدرتهم لأن القدرة في عمل شيء أو كسبه هي لله وحده، فما كان لهم أن يُراءوا

ويمنّوا ويؤذوا الفقراء، فالمال مال ٱللَّه وهو الذي مكّنهم منه بقدرته وفضله.

وقد يكون المعنى: إن هؤلاء المرائين لا يقدرون يوم القيامة على نيل ثواب شيء مما فعلوه في الدنيا، لأنهم لم يطلبوا بعملهم الأجر والثواب من ٱللَّه. ﴿وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي القَوْمَ الكَافِرِينَ﴾ وٱللَّه سبحانه لا يوفق الكافرين إلى الخير والرشاد في أفعالهم، وفي ذلك إشارة إلى أن المنّ والأذى في الإنفاق والرياء من خصال الكفار، فيجب أن يُقْلِعَ عنها أهل الإيمان فهي صفات لا تليق بهم.

﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٦٥﴾ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٦٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ ۖ وَلَا تَيَمَّمُوا۟ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُوا۟ فِيهِ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٢٦٧﴾﴾.

شرح المفردات

ابتغاء مرضاة الله: طَلَباً لرضاء الله.

تثبيتاً من أنفسهم: تصديقاً ويقيناً بثواب الإنفاق في سبيل الله.

جنة بِرَبْوَةٍ: بستان كثير الشجر بمرتفع من الأرض.

وابِلٌ: مطر شديد.

فَطَلٌّ: المطر الخفيف، وهو الرَّذاذ.

إعْصار: ريح عاصفة.

ولا تَيَمَّمُوا الخبيث منه تُنفقونَ: ولا تقصدوا بما تنفقون الرديء والحرام.

تُغْمِضُوا فِيهِ: تتساهلوا وتتسامحوا في أَخْذِهِ، وتغضُّوا بصركم عنه.

حميد: من أسماء ٱللَّه تعالى، أي المحمود على نِعَمِهِ.

الترغيب في الإنفاق في وجوه الخير

ويتابع القرآن الكلام عن الذين ينفقون أموالهم في سبيل ٱللَّه ومدى ثوابهم بإعطاء صورة بلاغية رائعة تحثُّ الناس على الاقتداء بهم مقابل صورة من ينفقون أموالهم رئاء الناس فيقول ٱللَّه سبحانه:

﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ﴾ يشبّه ٱللَّه تعالى حال الذين ينفقون أموالهم من أجل الحصول على رضا ٱللَّه **﴿وَتَثْبِيتاً مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾** أي يقيناً من أنفسهم وتصديقاً بوعد ٱللَّه بما أَعَدَّ لهم من الأجر، أو بمعنى: يتثبتون من الموضع الذي يضعون فيه صدقاتهم في طاعة الله، هؤلاء مَثَلُهُم **﴿كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ﴾** الجَنَّةُ: هي البستان. والربوة: المكان المرتفع من الأرض. أي مَثَلُ هؤلاء المنفقين أموالهم في رضا ٱللَّه كمثل بُسْتانٍ يقع على مرتفع من الأرض وقد أصابه مطر شديد، فزاد ذلك في خصوبته وضاعف من ثمره **﴿فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ﴾** أي فأعطى هذا البستان ثمراً بِمِثْلَيْ ثمر غيره **﴿فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ﴾** الطَّلُّ: هو المطر الخفيف، أي إن هذا البُستان ينتج من الثمر على كل حال سواء أكان المطر غزيراً أم قليلاً، فالقليل والكثير من المطر له نفع عظيم لهذا البستان.

لقد شَبَّهَ اللَّهُ هؤلاء المنفقين أموالهم عن إيمانٍ صادقٍ قاصدين بإنفاقهم وَجْهَ الله، شبههم بإنفاقهم الكثير والقليل من أموالهم في مرضاة ٱللَّه ببستان بربوة من الأرض خصبة تنتج ضعفي غيرها من الأراضي من الثمار في حال غزارة المطر وفي حال قلّته. فصدقة هؤلاء المنفقين في نماء لا ينقطع، يعود نفعها على المجتمع ويعود نفعها عليهم لِمَا يشعرون به من طمأنينة ولما سينالونه من الثواب الجزيل ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ أي إن ٱللَّه لا يخفى عليه شيء من أعمال العباد، وفي هذا ترغيب لهم بالإخلاص لله في أعمالهم مع الوعيد ضمناً والتحذير من الرياء ونحوه.

ثم يُعطي ٱللَّه مثلاً آخر للذين يبطلون أعمالهم وصدقاتهم بالمنّ والأذى والرياء فيقول: ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنابٍ﴾ الوُدُّ: المحبة الكاملة، والهمزة في «أَيَوَدُّ» لإنكار الوقوع بمعنى النفي، أي لا يحب أحدكم أن يكون حاله كحال صاحب البستان الذي يحوي أشجار النخيل والأعناب ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِها الأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمراتِ﴾ والمياه تجري من خلال أشجار البستان الذي فيه جميع أنواع الثمار ﴿وَأَصَابَهُ الكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ﴾ وقد تقدمت السنّ بصاحب هذا البستان حتى أصبح شيخاً هرماً عاجزاً عن الكسب، وبالإضافة إلى ذلك فإن له ذُرّيةً ضعافاً يحتاجون إلى مَنْ يُعيلهم ﴿فَأَصَابَها إِعْصَارٌ[1] فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ﴾ وفجأة أصاب هذا البستان ريح عاصفة شديدة معها نار، فأحرقت الثّمار والأشجار ﴿كَذلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآياتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ أي كما بيّن ٱللَّه لكم في آياته السابقة آداب الإنفاق

(١) الإعصارُ: هو اضطراب جوّي يتميز برياح شديدة يصحبه رَعْدٌ وبرق وأمطار، وقد يكون فيه نار إذا كان مقترناً بتفريغ شحنات كهربائية من السُّحُبِ.

وأحكامه، يبيّن ٱللَّه لكم الآيات في سوى ذلك، فيعرّفكم أحكامها وحلالها وحرامها، لتفكروا وتتعظوا وتعملوا بما يرضي ربكم.

إن حالَ من يفعل الخير ثم يُبطله بالمَنّ والأذَى كحال الذي يملك هذا البستان الذي فيه من كل الثمر، وقد جعله موضع أمَلِهِ في حياته وغذاءً لأولاده بعد وفاته، وهو في سنّ الكبر والشيخوخة الفانية، وفجأة يُصيب بستانه هذا ريح عاصفة فيها نار فتحرقه وتقضي على آماله فيه مع شدة حاجته إليه، فكذلك من يبطل صدقاته بالمنّ والأذى والرّياء تكون حاله كحالة الريح العاصفة التي تقضي على حسناته في وقت هو في أشدّ الحاجة إليها يوم القيامة عند ملاقاة ربه ومجازاته على عمله.

وبعد أن رَغَّب القرآن في الإنفاق في سبيل ٱللَّه وما فيه من ثواب عظيم، دعا المؤمنين أن يتصدَّقوا من الطَّيّب لا مِنَ الخبيث، قال تعالى:

﴿ياأيُّها الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ﴾ خاطب ٱللَّه المؤمنين ودعاهم بأن يتصدّقوا من طيّبات أموالهم التي اكتسبوها بعملهم، سواء أكان صناعة أم تجارة، وسواء أكان عَمَلاً آلِيًّا أم فِكْرِيًّا، وأن يكون ما اكتسبوه من المال من طرق الحلال **﴿وَمِمَّا أَخْرَجْنا لَكُم مِّنَ الأَرْضِ﴾** وأن ينفقوا مما أخرج ٱللَّه لهم من الأرض، مِنَ الحبوب والثمار والزروع وغيرها **﴿وَلاَ تَيَمَّمُوا الخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ﴾** والتَّيَمُّمُ: القَصْدُ، والمعنى أن لا يقصدوا الرديء من أموالهم وطعامهم فيتصدّقوا به، ولكن لتكن صدقاتهم من الطيّب الجيّد ومن المال الحلال.

وفي أسباب نزول الآية عن البراء بن عازب قال: كانوا يجيئون في الصدقة بِأَرْدَإِ تمرهم وَأَرْدَإِ طعامهم، فنزلت الآية **﴿ياأيُّها الَّذِين آمَنُوا أَنفِقُوا مِن طَيِّبَاتِ**

مَا كَسَبْتُمْ. .﴾ الآية. وعن عليّ قوله: نزلت هذه الآية في الزكاة المفروضة، كان الرجل يعمد إلى التمر فَيَصْرِمُهُ(١)، فيعزل الجيّد ناحية، فإذا جاء صاحب الصدقة أعطاه من الرديء، فقال ٱللَّه تعالى ﴿وَلاَ تَيَمَّمُوا الخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ﴾ والصدقة هنا تعمّ صدقة التطوع وصدقة الفرض، كما ذهب إلى ذلك الكثير من العلماء.

ثم يُبيّن القرآن بأن من يتصدّق من الرديء الذي لا يقبله لنفسه، فكيف يتصدّق به على غيره؟

﴿وَلَسْتُم بِآخِذِيهِ إلاّ أن تُغْمِضُوا فِيهِ﴾ والحالُ أنكم لا تأخذون الرديء لأنفسكم إلاّ بأن تتساهلوا وتتسامحوا في أَخْذِهِ، كما يتساهل من أغمض عينيه عنه فلم ير العيب فيه، فكيف ترضون لغيركم ما لا ترضون لأنفسكم؟ ﴿وَاعْلَمُوا أنَّ اللَّهَ غَنِيٌ حَمِيدٌ﴾ واعلموا أيها الناس أن ٱللَّه غنيٌّ عن صدقاتكم، وإنما أمَركم بها رحمة منه لفقرائكم وضعفائكم، وليجزل لكم الثواب عليها في الآخرة، وهو سبحانه محمود عند خلقه بما أوْلاهم من نِعَمِهِ عليهم.



(١) فيصرمه: يقطع ثمر النخل ويُجذه.

﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦٨﴾ يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٦٩﴾ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ ۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٢٧٠﴾ إِن تُبْدُوا۟ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٧١﴾﴾.

شرح المفردات

الشيطانُ يَعِدُكُمُ الفقْرَ: أي يُخوِّفكم من الفقر إذا أنفقتم من أموالكم في وجوه الخير.

ويأمركم بالفحشاء: ويحضُّكم على البُخْلِ لتمتنعوا عن الصدقات.

وَفَضْلاً: زيادة في الرِّزق في الدنيا وثواباً في الآخرة.

وما يَذَّكَّرُ إلاّ أُولو الألْباب: وما يتَّعظ إلاّ أصحاب العقول السليمة.

إن تُبدوا الصدقات: إن تُظهروها بحيث يراها الناس ليقتدوا بكم.

فنِعمّا هي: أي فحبّذا هذه الصدقات التي تظهرونها.

وإنْ تُخفوها: وإن تعطوا الصدقات خِفْيَةً.

فضيلة الإنْفاق وذَمُّ البُخْلِ

بعد أن حَثَّ القرآن على الإنْفاق في وجوه الخير حذَّر من وساوس الشيطان التي تُغري المؤمن بالبُخْلِ، قال تعالى:

﴿الشَّيطَانُ يَعِدُكُمُ الفَقْرَ﴾ أي إن الشيطان يخوّفكم من الفقر إذا أنفقتم أموالكم في سبيل الله، ويحذّركم من الصدقة على الفقراء بما يوسوس بذلك في

أنفسكم ﴿وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ﴾ ويُغريكم باقتراف الفحشاء وهي المعاصي كالزنى والسرقة وشرب الخمر، كما تُطْلَقُ الفحشاء في لغة العرب على البخيل الشديد البخل، وبهذا التفسير اللغوي قد يكون معنى ﴿يَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ﴾ يأمركم بالبُخْلِ.

فالشيطان يوسوس في نفس الغنيّ بأن الإنفاق في وجوه الخير يُنقص من مالِهِ ويُؤَدّي به إلى الفقر، فإذا سيطر هذا الشعور على نفسه وجّهه إلى طريق البُخْلِ الشديد، فكان بهذا البخل أشْقى الناس حيث يقتّر على نفسه وعائلته ويحرم نفسه من طيبات الحياة، هذا من جهة، ومن جهة أُخرى يشتهر بخله بين الناس فيكون بذلك مكروهاً منبوذاً من المجتمع لأنه مَنَعَ ماله عن المحرومين منه.

ولقد حذَّرَ رسول ٱللَّه من وساوس الشيطان بقوله: «إن للشيطان لَمَّةً[1] بابن آدم، وَلِلْمَلَكِ لَمَّةً، فَأمَّا لَمَّةُ الشيطانِ فإيعاد بالشَّرِّ وتكذيبٌ بالحَقِّ، وأما لَمَّةُ المَلَكَ فإيعادٌ بالخَيْرِ وتصديقٌ بالحَقِّ، فَمَنْ وَجَدَ ذلك فَلْيَعْلَم أنه مِنَ الله، ومنْ وجد الأُخرى فَلْيَتَعَوَّذ بٱللَّه من الشيطان الرجيم»[2] ثم قرأ قوله تعالى: ﴿الشَّيطَانُ يَعِدُكُمُ الفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ﴾.

﴿واللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلاً﴾ وإذا كان الشيطان يُهَدِّدُ المُنْفِقين بالفقر عند العطاء فٱللَّه يَعِدُ المُنفقين بأمرين: أوّلهما، المغفرة لذنوبهم. وثانيهما: الفضل وهو الزيادة في الخير في الدنيا والآخرة،وهو أنْ يخلف عليهم أفضل مِمّا أنفقوا، فإن الصدقات تزيد البركة في الرزق، كما أن ٱللَّه ينعم عليهم في

(١) لَمّةٌ: خاطِرَةٌ.
(٢) أخرجه الترمذي.

الآخرة بما هو أفضل وأكثر. وقد جاء في القرآن ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ [سبأ: ٣٩].

فههنا وَعْدَان: وَعْدٌ من الشيطان، وَوَعْدٌ من الرحمن، فأي الوعدين تُصدّقُ أيها الإنسان؟ هل تُصدّق وعد الشيطان بالفقر فَتُمْسِكُ عن الإنفاق، أم هل تُصَدّق وعد الرحمن بأنه يعطيك أفضل مما أنفقت ويخلف عليك أضعافاً مضاعفة؟ لا أظن إلاّ أنك ستصدّق وعد ربّك، فتنفق في وجوه الخير وتنال سبعمائة ضعف وأكثر، وتُضيف الآية ﴿وَاللَّهُ واسِعٌ عَلِيمٌ﴾ فهو سبحانه واسع العطاء، وواسع المغفرة، عليم بما تتصدّقون به لِيُجَازيكم عليه في الآخرة.

ثم يَذْكُرُ ٱللَّه فضل الحكمة وآثارها الحميدة على الإنسان بقوله:

﴿يُؤْتِي الحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ﴾ أي يُعطي ٱللَّه الحكمة لمن يشاء من عباده ﴿وَمَن يُؤْتَ الحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً﴾ أي ومن يعطه ٱللَّه الحكمة فقد أُعطي خيراً كثيراً ونفعاً عظيماً.

وقد يسأل سائل: ما موضع هذه الآية التي فيها الثناء على من أُعْطِيَ الحكمة ضمن الآيات الداعية إلى الإنفاق؟ والجواب: إنَّ مِنَ الناس من يحسب البخل والحرص على المال من الحكمة، فأشار ٱللَّه إلى أن الإنفاق في وجوه الخير هو الحكمة الحقيقية لأن فيه رقيّ الأُمّة ونهضتها ودفع صُنُوف الأذَى عنها.

ونعود إلى الكلام عن الحكمة ومعانيها وفوائدها، ومما قيل فيها:

ـ الحكمةُ: إصابة الحق بالعلم والعقل.

ـ الحكمةُ: هي القرآن والفِقْهُ به، فكتاب ٱللَّه حكمة وسُنَّةُ نبيّه محمد ﷺ حكمة.

ـ الحكمةُ: المعرفة في الدين والفِقْه فيه والاتّباع له.

ـ الحِكمةُ: إصابة الصَّواب في القول والفعل.

ـ الحكمةُ: هي الإقْدامُ على الأفعال الحسنة الصائبة وفعل الخيرات.

هذا بعض ما ذكره المفسرون في تعريف الحكمة التي تُنير قلب الإنسان وترشده إلى ما فيه خيره.

ويختم ٱللَّه الكلام عن الحكمة بقوله: ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُولُوا الأَلْبَابِ﴾ يَذَّكَّرُ: أصلها «يتذكّر»، والألباب: جمع لُبّ وهو العقل، والمعنى: وما يتذكر ويعتبر بأوامر ٱللَّه إلاّ أصحاب العقول السليمة الراجحة التي تخلصت من شوائب الهوى.

﴿وَمَا أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ﴾ النَّذْرُ: هو ما يُوجبه الإنسانُ على نفسه في طاعةٍ من طاعات ٱللَّه من غير أن يلزمه ٱللَّه به إذا حصل له ما يرغب فيه، كأن يقول: «نَذَرْتُ للَّه كذا من المال للمساكين إذا شفى ٱللَّه ولدي من المرض الذي هو فيه»، أو يقول مثلاً: «ولِلَّهِ عَلَيَّ حج بيت ٱللَّه الحرام في العام المقبل» وهكذا في كل طاعة من الطاعات. وفي قوله سبحانه: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ﴾ وعد ووعيد، وعد بثواب ٱللَّه لمن حقق ما نذر به، ووعيد لمن لا يفي بنذره ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ والظالمون هم الذين يُبطلون صدقاتهم بالمنّ والأذى والرياء أو الذين لم يوفوا بنذورهم، كما يندرج فيهم كل من عصى ٱللَّه وارتكب ما حَرَّمَهُ، وهؤلاء ليس لهم من ينصرهم من دون ٱللَّه يوم القيامة فيدفع عنهم عقابه.

﴿إِن تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا[1] هِيَ﴾ أي إنْ تُظهروا صدقاتكم وتعلنوها بين

(١) فَنِعِمَّا: هي نِعْمَ المدغمة في ما، والمعنى: نعم شيئاً يستحق المدح والثناء.

الناس فَنِعْمَ شيئاً يستحق المدحَ والثناء تلك الصدقات ﴿وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ أي وإنْ تخفوا الصدقات وتعطوها الفقراء سِرًّا فهو خير لكم لأن في إخفاء الصدقة سدًّا لكل ذرائع الرياء. كما أن صدقة السرّ خير للفقراء لأنها تحفظ كرامتهم ولا تفضح فقرهم، فلا يجتمع عليهم أمران: ذُلّ فقرهم، وإشهار بؤسهم بين الناس، وفي قوله سبحانه: ﴿وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ﴾ يُفيد أن صدقة التطوع تُسْتَحَب على كل فقير وإن كان من غير المسلمين، وقد جاء في تفسير الطبري أنّ الآية ﴿إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ﴾ نزلت في الصدقة على اليهود والنصارى.

وعموم نصوص القرآن والأحاديث الشريفة التي رُويت عن النبي محمد ﷺ تُذكّر بأن ٱللَّه كتب الرحمة والإحسان على كل شيء، ومما روي عن النبي ﷺ قوله: «لا يرحم ٱللَّه من لا يرحم الناس»[1]، «ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء»[2].

ومن ثواب الصدقات: ﴿وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّئَاتِكُمْ﴾ أي ويمحو ٱللَّه عنكم بصدقاتكم بعض الذنوب ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ أي لا تخفى على ٱللَّه نيّاتكم عند إبدائكم الصدقات أو عند إخفائها، فهو سبحانه الخبير العالم بدقائق الأمور.

أما مسألة إعلان الصدقات أو إخفائها فإن فيها أقوالاً متعددة، فقال كثير من العلماء: إن صدقة الفريضة كصدقة الزكاة الأفضل إعلانها، لأنها لو أُخفيت لَتوهّم الناس أنّ من وجبت عليه لا يُؤدّيها، أما صدقة التطوع فالأفضل

(١) أخرجه مسلم.

(٢) أخرجه الترمذي.

أن تكون في السرّ من حيث هي ستر لحالة الفقير، ومجانبة للرياء. وفي الحديث الشريف أن النبي ﷺ قال: «سَبْعَةٌ يُظِلُّهم اللَّهُ في ظِلِّهِ يَوْمَ لا ظِلَّ إلاَّ ظِلُّه..» وذكر من ضمنهم: «رَجُلٌ تَصَدَّقَ بصدقةٍ فأخفاها، حتى لا تعلم شماله ما تُنفق يمينُهُ»[1].

وقد يكون في إعلان صدقة التطوع خيرٌ في بعض الحالات لما يتحقق بها من أُسْوَةٍ حَسَنةٍ كالإنفاق على الجمعيات والمستشفيات والمستوصفات الخيرية وغير ذلك، فعندئذٍ يكون الإعلان عن الصدقات أفضل لأنها تشجع المحسنين على بذل صدقاتهم في هذا السبيل.

وعلى هذا فإنَّ صَدَقَة السرّ وصدقة العلن لكل منهما حسنات وعلى المتصدق أن يتفحص الموقع المناسب منهما فيعمله.



(١) متفق عليه.

﴿ ۞ لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۗ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٢﴾ لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا ۗ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢٧٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٤﴾ ﴾.

شرح المفردات

وما تُنفقوا من خَيرٍ فلأنفسكم: وما تُنفِقُوا من مالٍ في وجوه الخير فثوابه عائد لكم.

يُوَفَّ إليكم: يَصِلُ إليكم جزاؤه غير منقوص.

أُحْصِروا في سبيل الله: مُنعوا من كسب عيشهم لاشتغالهم بالجهاد في سبيل الله.

لا يستطيعون ضَرْباً في الأرض: أي لا يستطيعون سَيْراً في البلاد وتقلُّباً فيها ابتغاء المكاسب لاشتغالهم بالجهاد والتعلم.

من التعفُّف: من أجل تعففهم وامتناعهم عن سؤال الناس.

بسيماهم: بعلامتهم التي تدل على فقرهم وتواضعهم وخشوعهم.

لا يَسْألُونَ الناسَ إلْحافاً: الإلْحافُ: الإلْحاح في السؤال، أي لا يسألون الناس أصلاً، تعففاً.

الصدقات للفقراء من جميع الملل

ويتابع القرآن فيبين أن الصدقات تكون لكل الفقراء سواء أكانوا مسلمين أم

غير مسلمين، لأنَّ الإسلام يحترم النفس الإنسانية ويدعو إلى الإخاء الإنسانيّ العام بين البَشَر، قال تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ﴾.

وفي بيان أسباب نزول هذا الشطر من الآية عدَّة روايات منها:

ما رُوي عن سعيد بن جبير: إن المسلمين كانوا يتصدّقون على فقراء أهل الذِّمَّة، فلما كثُر فقراء المسلمين قال رسول ٱللَّه ﷺ: «لا تتصدّقوا إلاّ على أهل دينكم» فنزلت هذه الآية مبيحة الصدقة على مَنْ ليس مِنْ أهل دِين الإسلام[1].

ورُوي عن ابن عباس أنه قال: كان ناس من الأنصار لهم قرابات من بني قُرَيْظَة والنَّضِير، وكانوا لا يتصدقون عليهم رغبة منهم في أن يُسلموا إذا احتاجوا، فنزلت الآية بسبب ذلك.

وهذه الصدقات التي تُعْطى لغير المسلمين هي من صدقات التطوّع، أما الزكاة المفروضة على المسلمين فلا تعطى إلاّ للمسلمين.

هذا ما ورد في أسباب نزول قوله تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ﴾ والخطاب للرسول محمد ﷺ والمراد هو وأُمَّته، أي ليس عليك يا محمد هداية من خالفك في دينك، وليس عليك أن تمنع عنهم الصدقات لحملهم على الإسلام، ولكن ٱللَّه يهدي من يشاء من خَلْقِهِ إلى الإسلام، فيوفِّقهم له فلا تمنعهم من الصدقة.

﴿وَمَا[2] تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ﴾ والخير هنا هو المال، أي وما تنفقونه ـ أيها المسلمون ـ على الفقراء من مال فإنه سيعود عليكم بالثواب الجزيل في

---

(١) نقلاً عن تفسيري القرطبي والمحرر الوجيز لابن عطية.

(٢) ما: في الآية هنا اسم شرط جازم يجزم فعلَيْن، لِذا كان الفعل (تنفقوا) مجزوماً بحذف النون.

الآخرة كما أنه سيعود نفعه عليكم في الدنيا، لأن الصدقات تجلب المودة وتؤاخي بين الأغنياء والفقراء وترفع البؤس عن الفقراء مما يؤدي إلى خير المجتمع، وإذا حُرِمَ الفقراء حقهم من العيش الكريم أضمروا الحِقْدَ للأغنياء وتكتلوا ضِدّهم، وأكثر الثورات والانقلابات في العالم صدرت من الطبقات المحرومة ضد الطبقة الرأسمالية.

﴿وَمَا تُنفِقُونَ إِلاَّ ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ﴾ ما: حرف نفي، أي لا تجعلوا إنفاقكم المال على الفقراء إلاّ قاصدين وجه ٱللَّه الكريم طَلَباً لثوابه ورضاه، لا رياء ولا لغرض دنيوي ﴿وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ﴾ أي وما تُنفقوا من مالٍ في سُبُلِ الخير تُعطوا جزاءه في الآخرة جزاءً وافياً ﴿وَأَنتُم لا تُظْلَمُونَ﴾ أي وأنتم لا تُنقَصُونَ شيئاً من الثّواب الذي وعدكم ٱللَّه به.

﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ الإحصارُ: الحَبْسُ والمَنْعُ، وسبيل ٱللَّه هو الجهاد في عُرْفِ القرآن، والمعنى: أنفقوا على فقراء المهاجرين الذين كانوا بسبب الجهاد في سبيل ٱللَّه غير قادرين على التكسب للمعيشة.

ولكن من هؤلاء الذين أُحْصِروا في سبيل ٱللَّه؟ قيل: إنهم أربعمائة رجل من المهاجرين الفقراء، هاجروا من مكة إلى المدينة المنورة ولم يكن لهم أهْلٌ، فأقامهم رسول ٱللَّه ﷺ في الصُّفَّة[1]، فكانوا يستغرقون أوقاتهم في التفقه في الدين والجهاد في سبيل الله، إذ كانوا يخرجون مع كل سريّة يُرسلها رسول ٱللَّه لمقاتلة أعدائه، وهؤلاء سُمّوا (أَهْلَ الصُّفَّةِ).

---

(١) الصُّفَّةُ: اسم موضع بناه النبي ﷺ في المسجد النبوي بالمدينة المنورة ليأوي إليه فقراء المهاجرين الذين تركوا أمتعتهم وأموالهم بمكة وهاجروا إلى المدينة المنورة لإعلاء كلمة الله.

ثم ذكر القرآن من صفاتهم التي تستدعي الإنفاق عليهم:

﴿لا يَسْتَطِيعونَ ضَرْباً في الأَرْضِ﴾ والضَّرْبُ في الأرض: بمعنى الذهاب بها والسفر فيها طَلَباً للرزق، أي إنهم عاجزون عن السير في الأرض لتحصيل رزقهم بسبب اشتغالهم بالجهاد في سبيل الله. وسُمِّيَ السير في الأرض ضَرْباً لما فيه من ضرب الأرض بالأرجل ﴿يَحْسَبُهُمُ الجَاهِلُ أَغْنِياءَ مِنَ التَّعَفُّفِ﴾ أي يظنهم من يجهل حالهم بأنهم أغنياء لا يستحقون الصدقة من أجل تعففهم وامتناعهم عن سؤال الناس، والتعفف: ترك الشيء والإعراض عنه تنزهاً عن الطمع بما في أيدي الناس.

﴿تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ﴾ أي تعرفهم بعلامتهم وآثارهم، وهي التَّخَشُّع والتواضع، أو ما يظهر عليهم من الفقر من رثاثة الثياب والضر وصفرة الوجوه ﴿لا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحافاً﴾ الإلْحافُ: هو الإلْحاحُ في السؤال حتى يحظى السائل بما يطلب، أي لا يسألون الناس مُلِحّين في السؤال كعادة الفقراء، والمراد أنهم لا يسألون الصدقة مطلقاً لا إلْحاحاً ولا بغير إلْحاح، فلو كانوا يسألون الصدقة ما حسب الجاهل حالهم بأنهم أغنياء من التعفف، وقد قال رسول ٱللَّه ﷺ في شأنهم: «ليس المسكين الذي تَرُدُّهُ التمرة والتمرتان، ولا اللقمة واللقمتان، إنما المسكين الذي يتعفّف، اقرأوا إن شئتم قوله تعالى: ﴿لا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحافاً﴾»[1].

﴿وَمَا[2] تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللّٰهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ وما تنفقوا من مالٍ في الصدقات سواء كان سِرًّا أم علانية، فإن ٱللَّه يعلمه وسيجازيكم عليه بأجزل الثواب يوم القيامة.

---

(١) أخرجه البخاري.

(٢) ما: هنا شرطية تجزم فعلَيْن.

﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَموالَهُم بِاللَّيلِ والنَّهارِ سِرًّا وَعَلانِيَةً﴾ أي الذين من شأنهم الإنفاق في وجوه الخير في جميع الأوقات سواء بالليل أو بالنهار، وفي جميع الأحوال سرًّا أو علانية ﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ لهم ثواب عملهم عند ربهم ﴿وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ أي لا ينالهم خوف يوم الحساب لأنهم في مأمن من عذاب ٱللَّه بسبب ما قدّموا من عمل صالح، ولا هم يحزنون على ما خلّفوا وراءهم من الدنيا فقد عوّضهم ٱللَّه بأحسن من ذلك حيث أسكنهم ٱللَّه في نعيم جناته.

﴿ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ ۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ ۚ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧٥﴾ يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٧﴾ ﴾.

شرح المفردات

الذين يأكلون الرّبا: المراد بأكله أخذه والانتفاع به، والرّبا لُغَةً: الزيادة، وشرعاً: كل قَرْضٍ جَرَّ منفعةً أو فائدة مقابل أجَلٍ ما.

يتخبّطه الشيطانُ: يصرعه، والخبط: الضرب بغير استواء خبط العشواء.

المَسّ: الخَبَلُ والجنون.

فانتهى: كَفَّ عن الرّبا.

فله ما سَلَفَ: فله ما كان قد أكل من الرّبا قبل التحريم.

يمحقُ اللّهُ الرِّبا: يُذهبه ويُهلكه ويهلك المال الذي دخل فيه.

يُربي الصدقات: يُنمي المال الذي أخرجت منه الصدقات ويزيده.

كَفّار: صيغة مبالغة من كافر، أي مُبالغ في الكُفر لاستحلاله ما حرّم الله.

أثيم: منهمك في ارتكابه الذنب وذلك باستمراره في أكل الرّبا.

تحريم الرِّبا تحريماً قاطعاً

وبعد أن بَيَّنَ ٱللَّهُ في الآيات السابقة ثواب الإنفاق في وجوه الخير، بيّن ٱللّه في الآيات التالية قُبح الرِّبا وإثمه العظيم بقوله:

﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبا لاَ يَقُومُونَ إلاّ كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيطَانُ مِنَ المَسِّ﴾ والرِّبا هو أن يزيد المدين في الدَّيْنِ نظير الزيادة في الأَجَلِ.

والرِّبا في اللغة: الزّيادة مطلقاً، يُقالُ: رَبَا الشيء إذا زاد، وعبّر عن أخذ الربا بالأكل لأنه أقوى مقاصد الإنسان في المال، ولأنه دالٌّ على الجشع وهو أشدّ الحِرْصِ.

وقد كان الربا شائعاً عند العرب وهو إقراض المال إلى أَجَلٍ بزيادةٍ على ما استقرض، فكانت الزيادة على الدَّيْن بَدَلاً من الأَجَلِ. ومعنى يتخبطه: يمسّه بالأذى، وقيل: هو الضرب على غير استواء، ويقال للذي يتصرف في أمرٍ ولا يهتدي فيه: يخبط خبط عشواء ـ والمَسُّ: الخَبَل[1] والجنون. فالشيطان يمسّ المرابي بالوسوسة التي يحدث عنها الصرع.

(١) الخَبَلُ: فسادٌ في العقل.

فٱللّٰه سبحانه يصف المرابين في الدنيا بأنهم يكونون في تصرفاتهم وسائر أحوالهم في اضطراب وخلل، كالذي أفسد الشيطان عقله وأصابه بالجنون، فالرِّبا يُصيبُ آكله باضطرابات نفسية وعصبية نتيجة إرهاقه وتركيز ذهنه في المال الذي أقرضه بأنه قد لا يعود إليه، فالمُرابون أكثر الناس تعرّضاً للأزمات القلبية، ولقد قَرَّرَ الأطباء أن نسبة ضغط الدم وتصلب الشرايين والشلل والذبحة الصدريّة عند المُرابين هي أضعافها عند غيرهم.

ولقد ذهب الكثير من المفسّرين إلى أن ذلك الوصف للمرابي يحصل يوم القيامة بمعنى: أن آكل الرّبا يُبعث يوم القيامة مجنوناً يتخبط على غير هدى، وهذه علامة له يُعرف بها يوم الجمع حيث يجمع ٱللّٰه الناس للحساب، وهذه فضيحة له وعقوبة ما بعدها عقوبة، ولا مانع أن يكون هذا الوصف للمرابين حاصلاً في الدنيا والآخرة.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّما البَيْعُ مِثْلُ الرِّبا﴾ أي هؤلاء المرابون أحَلُّوا الرِّبا لأنهم قالوا: إنما البيع يُماثل الربا، فكما أنّ ربح البيع حلال فكذلك ربح الرّبا حلال أيضاً. وإنما قالوا: **﴿إِنَّما البَيْعُ مِثْلُ الرِّبا﴾** لإرادة المبالغة في جعل الرِّبا حلالاً وجعله أصلاً للتعامل، وكان مقتضى القياس الظاهري أن يقاس الربا على البيع فيقال: إنما الربا مثل البيع ولكنهم عكسوا ذلك، وهذا مما يظهر شدّة تعلقهم بالربا **﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ البَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبا﴾** ولكن واقع الأمر أنّ ٱللّٰه أحلّ الأرباح في التجارة وفي الشراء والبيع وحرّم التعاطي بالرِّبا.

والفرق كبير بين الربا والبيع، فالبيع يستلزم العمل والمساهمة في تيسير السلع للمستهلكين وتبادل المنافع بين البائع والمشتري، بينما الرِّبا يؤدي إلى وجود طبقة مترفة لا تعمل شيئاً تستغل حاجات الناس الملحّة لزيادة ثروتها، ولا تستجيب لداعي الشفقة، ولا تنظر بعين الرحمة، مما يؤدي إلى انقطاع المعروف بين الناس.

﴿فَمَن جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَٱنتَهَىٰ﴾ الموعظة: هي النصح والتذكير بالعواقب بما يلين القلب من ثواب أو عقاب، أي فمن جاءه موعظة من ربه بتحريم الرِّبا فاهتدى بذلك وامتنع عن التعامل بالربا ﴿فَلَهُ مَا سَلَفَ﴾ فله ما تقدَّم من المال الربوي الذي أخذه لا يستردّ منه ولا مؤاخذة على ما أخذه، فالإسلام يَجُبُّ ما قبله ﴿وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ﴾ وأمْرُ المُرابي قبل تحريم الرِّبا إلى عفو ٱللَّه ورحمته. أو بمعنى: إن شاء ثبّته ٱللَّه على الانتهاء من الرِّبا لصدق نيته، وإنْ شاء خذله عن ذلك. والعبارة تُشْعِرُ بأن ردّ المرابي ما أخذه من مال الربا إلى أصحابه قبل التحريم، من أفضل القُرُبات إلى الله، ومن أشد ما يُرضي الضمائر الحية التي ترغب في تطهير مالها من الحرام.

﴿وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ أي ومن عاد إلى الرِّبا مستحلاًّ له، فأولئك أصحاب النار المُلازمون لها في الآخرة ليعذَّبوا بها، وهم فيها خالدون لا يخرجون منها أبداً.

﴿يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا﴾ المحْق: النُّقصان وذهاب البركة، ومحْق ٱللَّه للربا بإذهاب بركته وإهلاكه، أو إهلاك المال الذي يدخل فيه ﴿وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ﴾ أي يُضاعف ثوابها ويُبارك فيها ويَزيد المال الذي أُخرجت منه الصدقة، وقد رُوِيَ عن رسول ٱللَّه محمد ﷺ قوله: «مَنْ تَصَدَّقَ بِعِدْلِ[١] تمرة من كَسْبٍ طَيِّبٍ ـ ولا يقبل ٱللَّه إلاّ الطيّب ـ فإنَّ ٱللَّه يتقبّلها بيمينه ثـم يربّيها لصاحبها كما يربّي أحدكم فُلُوَّه[٢] حتى يكون مثل الجبل»[٣].

(١) بعدل: مثل.
(٢) فُلُوُّهُ: مُهرُهُ.
(٣) أخرجه البخاري.

﴿وَاللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾ هاتان الصفتان من صيغ المبالغة أي لا يحب ٱللَّه من كان عظيم الكفر شديد الإثم. فالذين يستحلّون الربا ينطبق عليهم هذا الوعيد لأنهم اتخذوا ما أسبغ ٱللَّه عليهم من نِعَمِ المال في سبيل التضييق على الناس والاستيلاء على أموالهم بدلاً من تفريج كربهم، وٱللَّه لا يرضى عن هؤلاء، ومن حُرِمَ رضا ٱللَّه فقد حُرِمَ خير الدنيا وسعادة الآخرة.

وبعد أن بيّن القرآن أن المرابي الذي يستحلّ الرّبا ويتعاطى به هو كفّار أثيم، بيَّن في الآية التالية ما يقابل ذلك بقوله:

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أي إن الذين صدّقوا بوجود ٱللَّه ووحدانيته وبرسوله محمد ﷺ وبما جاء به من عند ربهم من تحريم الرِّبا وأكله وعملوا الأعمال الصالحة التي أمرهم اللَّهُ بها **﴿وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وآتَوُا الزَّكَاةَ﴾** وأقاموا الصلاة المفروضة بحدودها، وفيها تقديس ٱللَّه والثناء عليه وعبادته وحده وفيها طلب العون والهدى منه، وأعطوا زكاة أموالهم للمحتاجين مما يُواسي كربتهم ويخفف بؤسهم، هؤلاء **﴿لَهُمْ أَجْرُهُم عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾** لهم الجزاء الحسن عند ربهم على ما قاموا به من الأعمال الصالحة **﴿وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِم وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾** أي ولا خوف عليهم من مكروه يصيبهم يوم القيامة ـ يوم الفَزَع الأكبر ـ ولا هم يحزنون على ما خَلَّفُوا وراءهم من الدنيا فقد عوضهم ٱللَّه بالنعيم المقيم في جنة الخلد.



﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾ وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ ۚ وَأَن تَصَدَّقُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٨٠﴾ وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾﴾.

شرح المفردات

وَذَرُوا ما بَقِيَ من الرِّبا: واتركوا ما بقي لكم من الرِّبا عند الناس.

فَأْذَنُوا بحربٍ من اللّٰه ورسوله: فاعلموا أنكم سَتُحارَبُونَ من اللّٰه ورسوله.

فلكم رُؤُوسُ أموالِكُم: أي لكم أن تستردُوا ما أقرضتم من المال بدون فائدة.

وإن كان ذو عُسْرَةٍ: وإن كان المدين ضيّق الحال لا يقدر على أداء الدَّيْن.

فَنَظِرَةٌ إلى مَيْسَرَةٍ: فإمهالٌ للمدين حتى يُصبح في يُسْرٍ وسعة من المال.

وأن تَصَدَّقُوا خير لكم: وإن تتصدقوا على المدينين فهو خير لكم بما ستجدون ثواب ذلك عند الله.

إنْذارُ المُرابين بحربٍ من اللّٰه ورسوله

ويُتابع القرآن الكلام عن الرِّبا مُحَذِّراً أشدّ التحذير من التعاطي به، يقول اللّٰه تعالى:

﴿ياأيُّها الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللّٰهَ﴾ استهلّ اللّٰه الآية بدعوة المؤمنين إلى أن يخشوه ويتّقوا عذابه وذلك بطاعته فيما أمر وبترك ما نهى عنه **﴿وَذَرُوا ما بَقِيَ مِنَ الرِّبا﴾** واتركوا ما بَقِيَ لكم عند النّاس من مال الربا، وحاذروا أن تنالوا منه

شيئاً ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ أي إنْ كنتم مؤمنين حقًّا لأن من مقتضيات الإيمان ترك الرّبا. فالآية خاصة بالذين كانوا يتعاملون بالرِّبا ولهم عقود ربوية قد قبضوا بعضها وبقي البعض الآخر لم يقبضوه، فإن لهم ما سلف من مال الربا قبل تحريمه وأمرهم إلى الله، أما ما بقي لهم من مال الربا بعد تحريمه فلا يحلّ لهم أخذه.

﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ فإن لم تتركوا ما بقي لكم من الربا بعد تحريمه، فاعلموا واستيقنوا بأنكم في حرب كبيرة مع ٱللَّه ورسوله، لا تدرون كنهها، ومن كان في حرب معهما فهو حتماً خاسر، وهذه الحرب هل هي مَجَازِيَّة بمعنى المبالغة من الوعيد بما سيصيب المُرابين في الدنيا من بلاء وخسران، وتسليط الأعداء عليهم وما سيصيبهم في الآخرة من عذاب أم أنها محاربة حقيقية بمنع المرابي من الربا قَسْراً كما ذهب إلى ذلك بعض المفسرين؟ فإذا أصرّ المرابي على الربا أصدر الحاكم بحقه الإجراءات الصارمة، من حَبْسٍ وتَعْزِيرٍ وغير ذلك من العقوبات إلى أن تظهر توبته. وإن كان المُرابي ذا قوّة ونفوذ في قومه حاربه الحاكم كما يحارب الفئة الباغية مثل ما حارب الخليفة أبو بكر الصديق رضي ٱللَّه عنه مانعي الزكاة.

وكما شدَّد القرآن على تحريم الرِّبا، شددت السُّنَّة النبوية على ذلك أيضاً.

وفي الحديث الشريف عن النبي ﷺ: «اجْتَنِبُوا السَّبْعَ المُوبِقات ـ أي المُهلكات ـ وذكر فيها آكل الربا»[1].

وروى أبو داود عن ابن مسعود قوله: «لَعَنَ رَسولُ اللَّهِ آكِلَ الرِّبا وَمُوكِلَهُ[2] وشَاهِدَهُ وكَاتِبَهُ».

---

(١) أخرجه مسلم.

(٢) المُوكِلُ: من يمنح الآخرين تَوْكيلاً ليعملوا باسمه.

﴿وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُؤُوسُ أَمْوالِكُمْ لاَ تَظْلِمونَ وَلاَ تُظْلَمُونَ﴾ أي من كان يتعاطى الربا وأراد أن يتوبَ إلى ٱللَّه ويرجع إلى طاعته، فليعلم أنه ليس له أن يأخذ من المدين بعد تحريم الرِّبا إلاّ المال الذي أقرضه خالياً من الفائدة. وإن الاقتصار على استرجاع رأس المال فقط لا يكون فيه ظلم للدائن ولا ظلم للمستدين حيث إن الدَّيْن الخالي من الربا قد فرّج كُربته.

ولكن كيف يتوب المرء من المال الحرام؟ إن سبيل التوبة مما بيده من مال الربا يكون بردِّها إلى مَنْ أَرْبَى عليه، ويطلبه إن لم يكن حاضراً، فإن أيس من وجوده فليتصدق بذلك المال، كما ذكر القرطبي في تفسيره.

﴿وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ﴾ أي إن كان المدين في شدّة وضيق لا يقدر على سداد الدَّيْن ﴿فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ﴾ النَّظِرَةُ: التأخيرُ والإمهالُ، أي فأمهلوا المدين المعْسر عند انقضاء أجَل دَيْنِهِ إلى حال يُسْرِهِ ﴿وأَن تَصَدَّقُوا خَيرٌ لَكُمْ﴾ أصل تصدقوا: «تَتَصَدَّقوا»، أي وأن تتصدقوا على المدين المعسر بإبرائه من الدَّيْنِ كُلِّهِ أو بعضه، فهو خير لكم من إمْهاله إلى وقت يُسره وأكثر ثواباً عند ٱللَّه ﴿إِنْ كُنْتُم تَعْلَمُونَ﴾ أي ما في تصدّقكم على المعسرين من ثواب عند الله، وما يحصل في ذلك من مودة بينكم وبينهم.

وقد بيَّن رسول ٱللَّه فضيلة إبْراء المعسر من دَيْنِهِ وما ينشأ عنه من ثواب عظيم فقال ﷺ: «كان رَجُلٌ يُداين الناس فكان يقول لِفَتَاهُ: إذا أتيت مُعسراً فتجاوز عنه، لعلَّ ٱللَّهَ أن يتجاوز عنا، فلقي ٱللَّه[1] فتجاوز عنه»[2]، أي غفر ٱللَّه له.

---

(١) فلقي الله: أي توفاه اللَّهُ.

(٢) أخرجه البخاري ومسلم والنسائي.

ثم يختم ٱللَّه آيات الرِّبا بهذه الآية التي فيها الوعظ لجميع الناس:

﴿وَاتَّقُوا يَوْماً تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ﴾ دعا ٱللَّه الناس بأن يتقوا يوم القيامة، وتنكير كلمة اليوم للتفخيم والتهويل والتحذير عما فيه من الشدائد والأهوال، حيث تُرجعون فيه إلى ٱللَّه بعد بعثكم من قبوركم، فلا تملكون من أموركم شيئاً ثم تُعطى كل نفس جزاء ما كسبته في دنياها وافياً كاملاً **﴿وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ﴾** أي بنقص من الثواب على عملهم الصالح، أو زيادة عقاب على ما اقترفوا من آثام.

هذه الآية تثير الرهبة في النفوس وتحذِّر المسترسلين في المعاصي والمنكرات الغافلين عن هذا اليوم العظيم.

وقد قال بعض أهل الورع: من لم يتعظ بمواعظ القرآن فليس له فيما سواه متّعظ، وأيّ موعظة أعظم مما أخبر ٱللَّه به عباده من الرجوع إليه، فمن لم يحزن لذلك الموقف ولم يبكِ لذلك المشهد فبأي موعظة يتّعظ؟

رُوِيَ أنَّ هـذه الآية هي آخر آيةٍ نزلت في القرآن، وأنها نزلت قبل موت النبي ﷺ بتسع ليالٍ ثم لم ينزل بعدها شيء، وهناك رواية أنها نزلت قبل موت النبي ﷺ بواحدٍ وثلاثين يوماً.



﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى فَٱكۡتُبُوهُۚ وَلۡيَكۡتُب بَّيۡنَكُمۡ كَاتِبُۢ بِٱلۡعَدۡلِۚ وَلَا يَأۡبَ كَاتِبٌ أَن يَكۡتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُۚ فَلۡيَكۡتُبۡ وَلۡيُمۡلِلِ ٱلَّذِي عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ وَلۡيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبۡخَسۡ مِنۡهُ شَيۡـٔٗاۚ فَإِن كَانَ ٱلَّذِي عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ سَفِيهًا أَوۡ ضَعِيفًا أَوۡ لَا يَسۡتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلۡيُمۡلِلۡ وَلِيُّهُۥ بِٱلۡعَدۡلِۚ وَٱسۡتَشۡهِدُواْ شَهِيدَيۡنِ مِن رِّجَالِكُمۡۖ فَإِن لَّمۡ يَكُونَا رَجُلَيۡنِ فَرَجُلٞ وَٱمۡرَأَتَانِ مِمَّن تَرۡضَوۡنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحۡدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحۡدَىٰهُمَا ٱلۡأُخۡرَىٰۚ وَلَا يَأۡبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُواْۚ وَلَا تَسۡـَٔمُوٓاْ أَن تَكۡتُبُوهُ صَغِيرًا أَوۡ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦۚ ذَٰلِكُمۡ أَقۡسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقۡوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ وَأَدۡنَىٰٓ أَلَّا تَرۡتَابُوٓاْ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً حَاضِرَةٗ تُدِيرُونَهَا بَيۡنَكُمۡ فَلَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَلَّا تَكۡتُبُوهَاۗ وَأَشۡهِدُوٓاْ إِذَا تَبَايَعۡتُمۡۚ وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٞ وَلَا شَهِيدٞۚ وَإِن تَفۡعَلُواْ فَإِنَّهُۥ فُسُوقُۢ بِكُمۡۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ٢٨٢﴾.

شرح المفردات

تَدَايَنتُم: دَايَنَ بعضكم بعضاً.

أجَلٍ مسمى: وقتٍ معين.

كاتِبٌ بالعَدلِ: كاتب أمين فقيه.

وَلْيُمْلِلِ الذي عليه الحق: والمملي على الكاتب ما يكتبه هو المدين الذي عليه حق أداء دينه.

ولا يَبْخَس منه شيئاً: ولا ينقص من عليه الحقّ شيئاً مما عليه من الدَّيْن.

سفيهاً: السفيه هو الذي لا يحسن التصرّف بماله، المبذّر له.

ضعيفاً: كأن يكون صبياً ينقصه الإدراك أو شيخاً أصابه الخرف.

لا يستطيع أن يُمِلَّ هو: لا يستطيع أن يلقن إمّا لِخَرسٍ أو غيره من العوارض.

واستشهدوا شهيدين: واطلبوا شهيدين يشهدان على هذه المُداينة.

ممن ترضون من الشهداء: أي من الشهداء العدول.

أن تضلَّ إحداهما: إن تنسى إحداهما الشهادة.

ولا يأبَ الشُهداء إذا ما دعوا: ولا يمتنع الشهود عن أداء الشهادة إذا دُعوا إليها.

ولا تسأموا أن تكتبوه صغيراً أو كبيراً: لا تضجروا ولا تملّوا من كتابة الدَّيْن صغيراً كان أو كبيراً.

إلى أجله: إلى الوقت المتفق عليه.

أقسط عند الله: أعدل عند ٱللّٰه سبحانه.

أقوم للشهادة: أحفظ للشهادة وأثبت لها وأعون على أدائها.

أدنى ألا ترتابوا: أقرب ألا تشكّوا في مقدار الدين وأجله.

ولا يُضارّ كاتب ولا شهيد: لا يضر الكاتب والشاهد أحد المتعاقدين: بأن يأبى الكاتب أن يكتب أو يأبى الشاهد أن يشهد أو يزيد أحدهما في الحق أو ينقص.

تديرونها بينكم: تتصرفون فيها يداً بيد بلا تأجيل.

وإن تفعلوا: أي وإن تفعلوا ما نهيتم عنه.

فإنه فسوق بكم: فإنه خروج عن طاعة ٱللّٰه ومعصية لاحقة بكم.

أحكام المُدايَنَةِ في الإسلام

مما يشهد بعظمة القرآن وأنه وحي إلهي هو ما دعا إليه من كتابة الدَّيْن والإشهاد عليه، وفائدة ذلك ليعلم الدائن والمَدِين أو وَرَثَتهم حقوقهم وواجباتهم نحو بعضهم البعض، لأن مرور السنين مدعاة للنسيان، كما يؤدي عدم كتابة الدَّيْن إلى التنازع، وإنكار المَدِينِ الحَقَّ المتوجّب عليه نحو الدائن، كما هو مشاهد عند بعض الناس.

والدَّعوة إلى كتابة الدَّيْن جاءت في آية هي أكبر آيات القرآن لشمولها كثيراً من التوجيهات التي تحفظ حقوق الدائن والمَدِين، وإليكم ما جاء في صددها

مما يشهد بسموّ التشريع الذي يتميز به القرآن وعدالته في أحكامه. قال ٱللَّه تعالى:

﴿يا أيُّها الَّذِينَ آمَنُوا إذَا تَدَايَنْتُم بِدَيْنٍ إلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَاكْتُبُوهُ﴾ تداينتم بدَيْنٍ: تعاملتم بالدَّيْن، وأَجَلُ الدَّيْن: هو الوقت المعين بالأيام أو الأشهر لأدائه في المستقبل، والمعنى: ياأيها الذين صَدَّقُوا بٱللَّه ورسوله إذا دايَنَ بعضكم بعضاً بِدَيْنٍ إلى وقتٍ معين، فاكتبوا هذا الدَّيْن.

فٱللَّه سبحانه أمر بكتابة الدَّيْن لئلا يقع فيه نِسْيانٌ أو جحودٌ، وقد ذهب الظاهرية إلى وجوبه، أما جمهور الفقهاء فذهبوا إلى أنه مندوب، وكتابةُ الدَّيْنِ المؤجل سداده إلى تاريخ معين أخذ بها القانون الفرنسي في أواخر القرن الثامن عشر حين اشترط أن يكون الدَّيْن مكتوباً إذا زاد على قدر معين، وعن القوانين الفرنسية أُخذت القوانين الأوروبية.

﴿وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُم كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ﴾ كما أمر ٱللَّه سبحانه أن يكتب وثيقة الدَّيْن كاتِبٌ عالمٌ بشروط العقود وتوثيقها، عالمٌ بأحكام الشريعة، وخبير بمعاملات الناس، وأن يتحرى العَدْلَ بين الطرفين بأن لا يزيد ولا ينقص في الدَّيْن الذي يكتبه، وفي هذا دعوة إلى أنه ينبغي أن يكون في الأُمَّة كُتَّابٌ متخصّصون للقيام بهذه المهمة، وهذا ما يُعرف الآن (بِكُتَّابِ العَدْلِ) وتجدر الإشارة إلى أن هذه التسمية مقتبسة من النص القرآني ﴿وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كاتِبٌ بِالْعَدْلِ﴾.

﴿وَلاَ يَأْبَ كاتِبٌ أن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللّهُ فَلْيَكْتُبْ﴾ يَأْبَ: يمتنع. أي ولا يمتنع كاتب من أن يكتب للمتداينين ديونهم بالطريقة التي علّمه ٱللَّه إياها بأن يتحرّى العَدْلَ في كتابته، وأن يلتزم فيها ما تقتضيه أحكام الشريعة الإسلامية، فلا تكون فيها شروط ليست في كتاب ٱللَّه أو لا يسوّغها الشرع أو لا يمكن تنفيذها.

﴿وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الحَقُّ﴾ الإمْلالُ والإمْلاءُ بمعنى واحد: وهو التلقين، أي إن الذي يُلقّن الكاتب مقدار الدَّيْن وموعد سداده بوجود الدائن هو المَدِين، ليكون إملاؤه إقراراً بالدَّيْن وبالحقوق التي يجب عليه الوفاء بها، وليكون ما في الوثيقة حُجَّة يُبرزها الدّائن عند استحقاق سداد الدَّيْنِ أو عند بروز الخلاف بينهما ﴿وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلاَ يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئاً﴾ الخطاب هنا يصلح أن يكون لِلْمَدِينِ أو أن يكون للكاتب. فإذا كان الخطاب لِلْمَدِينِ فيكون المعنى: وليتق ٱللَّه المدين الذي عليه حق أداء دَيْنه، ولا ينقص من الدَّيْن حين الإملاء شيئاً ولو كان زهيداً، بل يعترف به كما اتفق عليه مع الدائن. وعلى المعنى الثاني: وليتق ٱللَّه الكاتب ولا ينقص من حق كلٍّ من الدائن والمَدِين شيئاً، بل يُثبت لكل منهما حقه كاملاً دون زيادة أو نقصان.

﴿فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الحَقُّ سَفِيهاً أو ضَعِيفاً﴾ أي إذا كان الذي عليه الحق وهو المَدِينُ سفيهاً، وهو الجاهل بالعقود والتصرفات أو المبذر المتلاف الذي لا يحسن تدبير أموره وإدارة أمواله، أو كان ضعيفاً وهو الصبي والشيخ الهرم الذي أصابه الخرف أو العجز ﴿أَوْ لاَ يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ﴾ أي لا يقدر على التلقين بأن كان أخرس أو غير ذلك ﴿فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالعَدْلِ﴾ أي فعلى وَلِيّ أمرِه أو وكيله أو من يهمّه شأنه أن يتولّى تلقين الكاتب عنه متحرّياً الحقّ والعدل فيما كُلِّفَ به، وذلك حِرْصاً على حق هذا الضعيف أو السفيه من أن توقعه حاله في الإساءة إلى نفسه.

الإشْهادُ على الدَّيْنِ

ولا يكتفي القرآن بالدعوة إلى كتابة الدَّيْنِ، بل يدعو أيضاً إلى الإشْهاد عليه زيادة في توثيق عَقْدِ الدَّيْنِ، وحرصاً على حفظ الحقوق من النكران:

﴿وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ﴾ واسْتَشْهِدُوا: السين والتاء تُفيدان

الطلب، أي واطلبوا وابحثوا وتحرّوا ﴿شَهِيدَيْنِ﴾ أي شاهدين عَدْلَيْن، لأن «شهيد» صيغة مبالغة من شاهد، والمبالغة في معنى الشهادة تفيد معنى تحرّي العدالة فيها ﴿فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ﴾ فإذا تعذّر وجود رجلين للشهادة فليقم مقامهما رجل وامرأتان ﴿مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ﴾ أي من الذين يُرتضى وضعهم الاجتماعي وسيرتهم الحسنة ويقولون الحق ﴿أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الأُخْرَى﴾ والحكمة في أن المرأتين تقومان مقام رجل واحد في الشهادة هي خشية أن تُخْطِئ أو تنسى إحداهما، فتذكرها الأخرى به. والسبب في خطئها أو نسيانها هو قِلَّةُ مُزاولتها للشؤون المالية، لأن أكثر وقتها هو في تدبير منزلها وتربية أطفالها، فإذا تركت إحداهما شيئاً من الشهادة تكون قد نسيته أو غفلت عنه تذكّرها الأُخرى به. أما اشتغال النساء في هذا العصر بالمسائل المالية، فلا يغيّر الحكم لأن الأحكام إنما هي للأغلب، كما أن بعض النساء تغلب عليهن العاطفة مما يبعدهن عن جادّة الحق فتذكّرها الأُخرى بالصواب.

﴿وَلاَ يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا﴾ أي ولا يمتنع الشهود عن الشهادة أمام القاضي إذا ما طُلبوا لأداء الشهادة، لأنَّ ترك الشهادة أو كتمانها يفضي إلى تضييع الحقوق، ولقد حذّر ٱللَّه من كتمان الشهادة بقوله: ﴿وَلَا تَكْتُمُوا ٱلشَّهَـٰدَةَ ۚ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ﴾ [البقرة: ٢٨٣].

﴿وَلاَ تَسْأَمُوا أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيراً أَوْ كَبِيراً إِلَى أَجَلِهِ﴾ أي ولا تَمَلُّوا من كتابة الدَّيْن سواء أكان الدَّيْن كبيراً أم كان صغيراً إلى وقت حلوله الذي أقرّ به المَدِينُ، ولأن إهمال كتابة الدَّيْن الصغير يؤدي إلى جحوده وعندئذ تذهب الثقة، وإذا ذهبت الثقة ساد التنازع ﴿ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَى أَلاَّ تَرْتَابُوا﴾ أي تلك الوصايا التي أمركم ٱللَّه بها هي أعدل عند الله، وأقوم طريق

للإثبات، وأقرب إلى انتفاء رَيْبِكم وشكوككم في جنس الدَّيْن وقَدْرِهِ، وأجَلِ استحقاقه.

﴿إلاَّ أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلاَّ تَكْتُبُوهَا﴾ استثنى القرآن التجارة الحاضرة وهي التي يجري فيها التقابض في المجالس أو التي يتأخر فيها الأداء زمناً يسيراً، وسميت حاضرة لأن المبيع والثمن كلاهما حاضر، ووصفت بأنها تدور لأن هذا يعطي وذاك يأخذ، وقد يطلب هذا بضاعة ويدفع ثمناً مرّة وقد يعطي مقابل البضاعة بضاعة أحياناً، وأمثال هذه التجارات التي يحصل فيها التقابض ويكثر تكرارها لا يُتوقع فيها التنازع أو النسيان، ولا جناح عليكم في عدم كتابتها، وفي نفي الجُناح إشارة إلى أن كتابة ذلك أوْلى ﴿وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ﴾ أمر ٱللَّه بالإشهاد على البيع، وقد قرر المذهب الظاهري أن الإشهاد على البيع واجب، بحيث لو لم يُشْهِدْ المُتبايعان على بيعهما شهوداً يأثمان، أما جمهور العلماء فقالوا: إنَّ الإشْهاد على البيع غير واجب وإنما هو مجرّد إرشاد وتعليم، هذا مع العلم أن الإشْهاد على البيع يمنع من أي ظلم قد يطرأ عليه.

﴿وَلاَ يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلاَ شَهِيدٌ﴾ والمضارّة: إدخال الضرر، أي لا يصح أن ينزل ضرر بالكاتب أو الشاهد لحملهما على كتابة غير الحق أو قول غير الحق ﴿وَإِنْ تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ﴾ وإن تفعلوا ما نُهيتم عنه من الإضْرار بالكاتب أو الشاهد وتلحقوا الأذَى بهما، فإن ذلك معصية وخروج عن طاعة ٱللَّه ﴿وَاتَّقُوا ٱللَّهَ﴾ وخافوا ٱللَّه وراقبوه في فِعْلِ ما أمركم به وترك ما نهاكم عنه ﴿وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ﴾ ويُعَلِّمُكم ٱللَّه أحكام دينكم وما تحتاجون إليه لمصالحكم، وفي هذا النص الوعد لمن اتقى ٱللَّه أن يعلّمه ٱللَّه العِلْمَ النافع، لأن العِلْمَ نور لا يُهدى لغير من اتقى الله.

ولقد قال الإمام الشافعي حين شكا لأستاذه وكيع سوء حفظه للعلم، فدعاه إلى تقوى الله، وفي هذه المناسبة أنشد الشافعي هذه الأبيات:

شَكَوْتُ إلى وكيعٍ سُوء حفظي فأرشدني إلى ترك المعاصي
وأعلمني بأن العِلْمَ نُورٌ ونُورُ اللَّهِ لا يُهدى لِعاصي

ويختم ٱللَّه الآية بقوله ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ أي إنه سبحانه يعلم أعمالكم ويحصيها عليكم ليجازيكم عليها.

وهكذا نرى أن توثيق الحقوق الذي يُعدّ من النظم الحديثة، قد شرعه الإسلام من قبل ما يزيد على أربعة عشر قرناً، وهذا مما يشهد على عظمة القرآن الذي جاء بتشريعات فيها الخير والصلاح للبشرية جمعاء.

﴿۞ وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَٰنٌ مَّقْبُوضَةٌ ۖ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ ۗ وَلَا تَكْتُمُوا ٱلشَّهَٰدَةَ ۚ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨٣﴾ لِّلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَإِن تُبْدُوا مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ ۖ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٨٤﴾﴾.

شرح المفردات

فرِهانٌ: الرهان جمع رهن، وهو ما يأخذه الدائن من المستدين من الأعيان ذات القيمة ضماناً لوفاء دَيْنِهِ.

أمانته: دَيْنه وسمّي الدَّيْن أمانة لائتمانه عليه بدون رهن أو كتابة.

وليتّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُ: وليخشَ اللَّهَ ربَّه فلا يخون الأمانة.
ولا تكتموا الشهادة: ولا تخفوا أيها الشهود ما عَلِمْتُمُوهُ وشاهدتموه.
إن تُبدوا ما في أنفسكم: إن تُظهروا ما في قلوبكم.

الرَّهْنُ عند تَعَذُّرِ كتابة الدَّيْن

وبعد أن دعا ٱللَّه في الآية السابقة إلى كتابة الدَّيْن والإشْهاد عليه، بيّن في الآية التالية ما ينبغي فِعْلُه عند عدم وجود الكاتب كما في حال السفر، قال ٱللَّه تعالى: ﴿**وَإِنْ كُنتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِباً فَرِهَانٌ مَقْبُوضَةٌ**﴾ أي إن كنتم مسافرين وتداينتم إلى أجَلٍ مسمى ولم تجدوا كاتباً يكتب لكم الدَّيْن، فليكن بَدَل الكتابة رِهَانٌ مقبوضة يقبضها صاحب الحق وثيقة لِدَيْنِهِ من المَدِينِ. ولا يدلّ هذا التقييد على أن مشروعية الرهن خاصة بالسفر، لأنه ثبت أن النبي محمداً ﷺ توفّي وَدِرْعَهُ مرهونة عند يهودي[١] مقابل ما استدان منه، وهذا ما جرى التعامل فيه بين المسلمين على الرهن في السفر والحضر، سواء وُجِدَ الكاتب أم لم يُوجد، وإنما أرشدت الآية إلى ما يقوم مقام الكتابة في الحالة التي يغلب عَليها عدم وجود الكاتب وهي حالة السفر.

﴿**فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضاً فَلْيُؤَدِّ الَّذِي ٱؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ**﴾ أي فإن أمِنَ الدائنُ المَدِينَ فاستغنى عن الرهن ثقة بأمانة صاحبه فعندها يُؤَدّي المَدِينُ الدَّيْنَ في موعده لأنه أمانة في عنقه ﴿**وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُ**﴾ أي وليخشَ المَدِينُ رَبَّهُ فلا يخون الأمانة وهي الدَّيْن المترتب عليه، ولا يماطل في أداء الحق الواجب عليه ﴿**وَلاَ تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ**﴾ ولا تُخفوا الشهادة أيها الشهود بما علمتم، بل ٱشْهَدُوا وأقرّوا بالحق إذا دُعيتم لأداء الشهادة، ومن يكتم الشهادة

---

(١) أخرجه البخاري.

ويُعْرِضُ عن أدائها فإنه آثم قلبه، والقلب أشرف مكان في الإنسان، وله الهيمنة على كل الأعضاء، فإذا صَلُحَ صَلَحَ الجسد كله وإذا فسد دبّ الفساد في الجسد كله، وهذا تصوير بليغ لشدة الإثم المترتب على كاتم الشهادة ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ واللّه سبحانه يعلم ما يصدر من الناس من خيرٍ أو شر، فيجازي المحسنين إحْساناً والمسيئين سوءاً.

﴿لِلّهِ مَا فِي السّمواتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾ هذا النص متصل بالآيات السابقة التي دعت إلى الإنفاق في سبيل الله، فكل ما في السماوات وما في الأرض هو مُلْكٌ لله، وأنت أيها الإنسان بما تملكه من مال جعله ٱللَّه وديعة في يدكَ، فلا يحسن أن تبخل به على المستحقين لأن المال مال ٱللَّه، وهذا ما ذكره ٱللَّه بقوله: ﴿وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ﴾ [النور: ٣٣].

﴿وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحاسِبْكُم بِهِ اللّهُ﴾ أي إن تُظهروا أيها الناس ما في قلوبكم أو جوارحكم من أقوال وأفعال حسنة أو سيئة أو تكتموها عن الناس يجازيكم ٱللَّه بها يوم القيامة. هذا النص يفيد علم ٱللَّه بما ظهر وما خَفِيَ وأنه سيحاسب الإنسان على النيات إضافة إلى الأعمال الظاهرة. وقد رُوي أنه لما نزلت هذه الآية اشتد ذلك على أصحاب رسول الله، فأتوا رسول ٱللَّه فقالوا: كُلِّفْنا من الأعمال ما نطيق.. وقد أنزل ٱللَّه هذه الآية ولا نطيقها! فقال رسول ٱللَّه ﷺ: أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتاب من قبلكم: سمعنا وعصينا، بل قولوا: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ ثم أنزل ٱللَّه بعد ذلك ﴿لاَ يُكَلِّفُ اللّهُ نَفْساً إِلاّ وُسْعَها..﴾ تهويناً للخطب عليهم.

فالعزم على المعصية والتصميم عليها مؤاخذ عليهما الإنسان، وأما حديث النفس بها والخواطر الفاسدة التي تَرِدُ على القلب دون أن يصحبها عزم وتصميم فمعفوٌّ عنها، إذ ليس في وسع الإنسان أن يمنعها عنه. وروي عن النبي ﷺ قوله:

«إن ٱللَّه تـجاوز لأمتي ما حَدَّثت به أنفسها ما لم يتكلموا أو يعملوا به»[١].

﴿فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ﴾ فَيَغْفِرُ ٱللَّه لمن يشاء من أهل الإيمان ويعفو عنهم، ويُعَذِّب بعدله من يشاء من أهل الشرك والمعاصي حسب مشيئته المبنية على الحكمة ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ قدير: صيغة مبالغة لاسم الفاعل في القُدرة، فهو سبحانه قادر على حساب أهل العصيان ومُعاقبتهم، وعلى منح الغفران والتجاوز عن السيئات لمن يشاء من عباده المؤمنين، فلا أحَد يعارضه في حكمه المبنيّ على العدل.

﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَعَلَيۡهَا مَا ٱكۡتَسَبَتۡۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذۡنَآ إِن نَّسِينَآ أَوۡ أَخۡطَأۡنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تَحۡمِلۡ عَلَيۡنَآ إِصۡرٗا كَمَا حَمَلۡتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلۡنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ وَٱعۡفُ عَنَّا وَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَآۚ أَنتَ مَوۡلَىٰنَا فَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٢٨٦﴾﴾.

شرح المفردات

لا نُفَرِّق بين أحَدٍ من رسله: أي نؤمن برسل ٱللَّه جميعاً ولا نَكْفُرُ بِأحَدٍ منهم.

وقالوا سمعنا: أي سمعنا قولك واعتقدنا وجوب العمل به.

غُفرانك ربنا: أي نطلب ونسأل غفرانك يا رب.

(١) متفق عليه.

وإليك المصير: وإليك المرجع بعد الموت يوم البعث.
إلاّ وُسْعَهَا: إلاّ ما تتسع له طاقتها وقدرتها من الأعمال.
لها ما كَسَبَتْ: لها ثواب ما عملت من الحسنات.
وعليها ما اكتسبت: وعليها وِزْر ما عملت من السيئات.
ولا تَحْمِلْ علينا إصراً: لا تكلفنا أمراً يثقل علينا.
أنت مولانا: أنت مالكنا ومتولي أمرنا.

ابتهالاتٌ إلى الله وقبولها منه سبحانه

وأخيراً يختم ٱللَّه هذه السورة ببيان أن رسالة محمد هي امتداد للرسالات الإلٰهية السابقة، وأن جوهر الدِّين واحد في كل الرسالات الإلهية التي أنزلها ٱللَّه على رسله، قال تعالى:

﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِهِ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ أي صدَّق الرسول محمد وأقرّ بما أَوْحَىٰ إليه رَبُّهُ من القرآن وما فيه من الحلال والحرام، والأمر والنهي، والوعد بثواب ٱللَّه لمن أطاعه والوعيد لمن عصاه. واقتران إيمان المؤمنين بإيمان الرسول محمد هو تشريفٌ لهم حيث آمنوا برسول ٱللَّه وبما جاء به من الهدى من عند ربه.

﴿كُلٌّ آمَنَ بِٱللَّهِ وَمَلاَئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ﴾ أي كل فريق من هذين الفريقين وهما الرسول محمد ﷺ والمؤمنون آمنوا بٱللَّه وهو التصديق بوجوده ووحدانيته وصفاته وَرَفْضُ كل معبودٍ سواه. ثم ثنّى ٱللَّه بأنهم يؤمنون أيضاً بالملائكة وهم غُيّبٌ عن الأنظار لا يُرون ولا نَعْرف عنهم شيئاً إلاّ بما أخبرنا ٱللَّه عنهم، وهم لا يعصون ٱللَّه ويفعلون ما يُؤمرون، فمنهم من خصّه ٱللَّه بإنزال الوحي على رسله، ومنهم من خصّه ٱللَّه بقبض أرواح الناس عند استيفاء أجَلِهم، ومنهم من خصّه بإنزال العذاب على العصاة، ومنهم من خَصَّهم ٱللَّه بمهماتٍ غير ذلك.

كما أن الرسول محمداً ﷺ والمؤمنين يؤمنون بكتب ٱللَّه التي أنزلها على رسله قبل أن يدخل عليها التحريف والتبديل، وهذه الكتب فيها الهدى للناس، وفيها ما يُسعدهم في دنياهم وآخرتهم، والكتب التي ذكرها القرآن الكريم هي صُحُف إبراهيم، والتَّوْراة، والإنْجيل، والزَّبُور، وكان آخر هذه الكتب: القُرآن الكريم، وكذلك يُصَدِّقُ المؤمنون بِرُسُل ٱللَّه جميعاً فمنهم من جاء ذكرهم في القرآن ومنهم من لم يذكره، وقد خاطب ٱللَّه رسوله محمداً بقوله: ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾ [النساء: ١٦٤].

﴿لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ﴾ أي إن حال الرسول محمد ﷺ والمؤمنين هو أنهم يُؤمنون بجميع رسل ٱللَّه من غير تفريق بينهم، فلا يؤمنون ببعض ويكفرون ببعض ولكنهم يصدّقون بهم جميعاً، ويقرّون بأن ما جاءوا به من الهُدى هو من عند الله، وهم بذلك يُخالفون اليهود الذين أقرّوا بنبوّة موسى وكَذَّبوا بنبوّة عيسى ومحمد عليهما السلام، كما أنهم يُخالفون النصارى الذين أقروا بنبوة موسى وعيسى وكَذَّبوا بنبوّة محمد ﷺ.

﴿وَقَالُوا سَمِعْنا وَأَطَعْنا﴾ أي وقال الرسول محمد والمؤمنون: سمعنا قول ربنا بما أنزل علينا من القرآن الذي هو كلامه، وعَلِمْنَا صحّته وقبلناه، وأطعنا ربنا فيما ألزمنا به من فرائضه، وما دعانا إليه من طاعته ﴿غُفْرانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ المَصِيرُ﴾ أي نسألك يا ربنا غفرانك لذنوبنا، والغُفْرانُ: السِّتْرُ من ٱللَّه على ذنوب من غفر له من عباده وصفْحه عنهم ورفْع العقوبة عنهم، وإليك يا ربنا المصير والمآل، وهنا إقرار منهم بالبعث يوم القيامة والحساب والمجازاة على أعمالهم، هذه الكلمات الأخيرة التي يقولها المؤمنون تُجَسِّدُ معنى العبودية الحقّة لله سبحانه والتسليم لإرادته مما يُضفي عليهم طمأنينة في قلوبهم، وراحة في نفوسهم مصدرها هذا الإيمان الذي خالط قلوبهم واستشعروا لذته في أرواحهم ووجدانهم.

﴿لاَ يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إلاَّ وُسْعَها﴾ أي لا يكلّف ٱللَّه نفساً من التكاليف الشرعية والأوامر والنواهي إلاّ بما تستطيع وتقدر على فعله، فلا يضيّق عليها ولا يجهدها، وقد جاء في القرآن ما يطابق هذا المعنى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥] ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ﴾ أي للنفس البشرية ما عملت من الحسنات فتنال أجرها وثوابها ﴿وَعَلَيْها مَا اكْتَسَبَتْ﴾ وعليها ما ارتكبت من سيئات، فَعَلَيْها وِزْرُها وتنال العقاب عليها، وجاءت العبارة في الحسنات بلفظ ﴿لَهَا﴾ من حيث هي مما يفرح الإنسان ويسرّ بكسبه لها فتضاف إلى ملكه، وجاءت السيئات بلفظ ﴿عَلَيْها﴾ من حيث هي أوْزار وأثْقال ينوء بحملها.

﴿رَبَّنَا[1] لاَ تُؤَاخِذْنَا إنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ والمؤاخذة معناها المجازاة والمعاقبة، أي لا تُعاقبنا يا ربّ على الإثم الذي يقع منا على وجه النسيان أو الخطأ.

وقد يسأل سائل: لماذا ذكر ٱللَّه هذا الدعاء مع أن الخطأ والنسيان مرفوع وزره عن أُمة محمد كما جاء في الحديث الشريف «إن ٱللَّه وضع عن أُمَّتي الخَطَأ والنِّسيان وما اسْتُكْرِهُوا عليه»[2]؟ الجواب على ذلك: هو أن أُمة محمد لمّا كانت حريصة أشدّ الحرص على أن تتقي ٱللَّه حقّ تقاته، فإن ما يصدر منها من زلّة أو معصية لا يكون إلاّ على وجه الخطأ أو النسيان.

وذهب الطبري إلى أن النسيان هنا بمعنى الترك، أي لا تؤاخذنا إن تركنا شيئاً من طاعتك.

---

(١) ربنا: منادى حُذِفَ منه حرف النداء، وأصله: يا ربنا.

(٢) رواه ابن ماجه.

﴿رَبَّنَا وَلاَ تَحْمِلْ عَلَيْنا إِصْراً كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا﴾ الإصْرُ في اللغة: الثِّقْلُ والشِّدَّةُ، مأخوذٌ من أَصَرَ بمعنى حَبَسَ، فكأنه لِثِقْلِهِ يحبس صاحبه في مكانه، فيمنعه من الحركة، والمُرادُ به التكاليف الشاقة، فالمؤمنون يطلبون من ربِّهم أنْ لا يُكلِّفهم بالتكاليف الشاقة التي يعجزون عن أدائها كما كلّف بذلك اليهود حيث أُمروا بأداء ربع أموالهم في الزكاة، ومن أصاب ثوبه نجاسة أُمِرَ بقطعه، وكانوا إذا أتوا بخطيئة حَرَّمَ ٱللَّه عليهم من الطعام بعض ما كان حلالاً لهم.

﴿رَبَّنَا وَلاَ تُحَمِّلْنَا مَا لاَ طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾ والطاقة اسم لمقدار ما يمكن للإنسان أن يفعله بمشقَّةٍ، أي لا تحمّلنا يا رب ما لا قدرة لنا عليه من التكاليف أو ما لا طاقة لنا على تحمّله من المِحَن والبلايا والمصائب والأمراض المستعصية وقد كررت لفظ ﴿رَبَّنا﴾ لكمال الضراعة ولبيان أن حالهم يتجدّد فيهم لطلب العون من ربهم ﴿وَاعْفُ عَنَّا واغْفِرْ لَنَا وارْحَمْنا﴾ أي امْحُ عنا ذنوبنا يا رب، واسْتُرْ سيئاتنا، فلا تفضحنا بها يوم القيامة، وارحمنا برحمتك التي وَسِعَت كل شيء، فلا تعذّبنا بما صَدَرَ منّا من تقصيرٍ أو من زللٍ ﴿أَنْتَ مَوْلانَا فَانْصُرْنا عَلَى الْقَوْمِ الكَافِرِينَ﴾ أنت يا رب سيدنا المتولي أمورنا ونحن عبيدك، فانصرنا على القوم الذين جحدوا دينك وأنْكروا وحدانيتك ورسالة نبيك وعَبَدُوا غيرَكَ.

وقد جاء في صحيح مسلم عن النبي ﷺ: أن ٱللَّه قال عقب كل دعوة من هذه الدعوات: «قد فَعَلْتُ» فكان ذلك دليلاً على أنه سبحانه لم يُؤاخذهم بشيءٍ من الخطأ والنِّسْيان، ولا حمل عليهم شيئاً من الإصْرِ الذي حمله على من قَبْلهم، ولا حمّلهم ما لا طاقة لهم به، وعفا عنهم وغفر لهم ورحمهم، ونصرهم على القوم الكافرين، والحمد للَّه رب العالمين.

وقد روى البخاري والجماعة أن النبي ﷺ قال: «من قرأ بالآيتين من آخر

سورة البقرة في لَيْلَةٍ كفَتَاهُ» أي كفتاه من كل ما يحذر من كل هامة وشيطان، فلا يقربه شيء من ذلك تلك الليلة.

وأخرج الإمام أحمد والنَّسائي أن النبي ﷺ قال: «أُعطِيتُ هذه الآيات من آخر سورة البقرة من كنزٍ تحت العرش، لم يُعْطَها نَبِيٌّ قبلي».

وأخرج الترمذي أن رسول ٱللَّه قال: «إن ٱللَّه كَتَبَ كتاباً قبل أن يخلق السموات والأرض بألْفي عام، فأنزل منه آيَتَيْن ختم بهما سورة البقرة ولا يُقرأ بهن في دارٍ ثَلاثَ ليالٍ فيقربها شيطان».

وأخرج مسلم والنّسائي واللفظ له عن ابن عباس قال: «بينا رسول ٱللَّه وعنده جبريل إذ سمع نقيضاً[1]، فرفع جبريلُ بَصَرَهُ إلى السماء فقال: هذا بابٌ قد فُتِحَ من السماء ما فُتح قط، قال: فنزل منه مَلَكٌ فأتى النبي ﷺ فقال: أَبْشِرْ بنورَيْنِ قد أُوتيتُهما لم يؤتهما نبيٌّ قبلك: فاتحة الكتاب وخواتيم سورة البقرة، لَنْ تَقْرَأَ حرفاً منهما إلاّ أُوتيتَه».

---

(١) نقيضاً: أي صوتاً.

المراجع

جامع البيان في تأويل القرآن للإمام أبي جعفر بن جرير الطبري

الجامع لأحكام القرآن للإمام القرطبي

التفسير الكبير للإمام الفخر الرازي

تفسير الكشاف للإمام الزمخشري

تفسير القرآن العظيم للإمام ابن كثير

تفسير أبي السعود للعلامة بن محمد العمادي

تفسير الفتح القدير للعلامة محمد بن علي الشوكاني

المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز للإمام ابن عطيه

تفسير اللباب في علوم الكتاب للإمام عمر بن علي الحنبلي

تفسير فتح البيان في مقاصد القرآن للإمام أبي الطيب القنوجي البخاري

التفسير الوسيط ـ تأليف لجنة من العلماء ـ مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر

تفسير صفوة البيان للإمام حسنين محمد مخلوف

التفسير الوسيط للدكتور محمد سيد طنطاوي

تفسير سورة البقرة للعلامة محمد الخضر حسين في (مجلة لواء الإسلام)

زهرة التفاسير للإمام محمد أبو زهرة

التحرير والتنوير للإمام محمد الطاهر ابن عاشور

تفسير المنار للإمام محمد رشيد رضا

التفسير المنير للدكتور وهبه الزحيلي

تفسير القرآن الكريم ـ لجنة من الأساتذة ـ دار المعارف بمصر

الموسوعة الفقهية ـ وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية ـ الكويت

كتاب الحيض للدكتور كامل موسى

الفهرس

كلمة الشكر

أقدم شكري لأصحاب دار العلم للملايين الأفاضل، لما لقيت منهم من دعم طيلة أربعين عاماً، وما لمست منهم من صدق وإخلاص ووفاء في زمن قلّ فيه الوفاء، سائلاً الله أن يحفظ دار العلم، وأن يجعل رايتها خفّاقة في ربوع العالم لتؤدي رسالة العلم والنور.

وأقدم شكري وامتناني إلى الصديقين:

فضيلة العلاّمة القاضي **الشيخ حسين غزال**

وفضيلة الكاتب والمفكر الإسلامي **الشيخ شريف سكر**

اللذين تفضلا فراجعا هذا التفسير

كما أقدم شكري إلى

الأديبة ذات الكفاءة العالية: **الأستاذة هدى رفيق سنو**

والدكتور **محمد مرعشلي**

اللذين أشرفا على تصحيح هذا الكتاب قبل الطبع وما قدّما لي من ملاحظات قيّمة.

وإلى الصديق الحميم الأستاذ **شفيق لبان** لما قدم لي من معونة وملاحظات قيّمة.

كما أقدّم شكري لفضيلة الدكتور الشيخ **أحمد اللدن** على ما تفضّل بكتابة الخطوط العربية لهذه السورة، وهو من أميز خطّاطي لبنان، بالإضافة إلى تخصُّصه بالعلوم الشرعية وتدريسه لها.

وفي الختام أقدم شكري لموظفي مكتبة كلية الآداب في الجامعة العربية لما بذلوه من جهد في إمدادي بالمراجع العلمية، وما خصّوني به من عناية وتوفير الجو الملائم لي لمتابعة البحث والدراسة بتفكير هادىء مشرق.

كما أقدّم شكري للصديق الأستاذ توفيق حوري عميد كلية الإمام الأوزاعي للدراسات الإسلامية لسعيه الدؤوب وتضحياته الجمّة في إنشاء مكتبة كلية الإمام الأوزاعي والتي أصبحت تضمّ أكثر من مائة ألف كتاب من الكتب النفيسة، المبوّبة على أحدث الأساليب العلمية والتي قدّمت لي الكثير من المراجع القيمة.

سائلاً الله أن يلهم أثرياء المسلمين التبرع لبناء كبير يستوعب هذه الكتب التي تزداد يوماً بعد يوم، وفيه قاعة كبيرة للمطالعة تسع العشرات من القراء والباحثين في جوّ مريح.

إلى هؤلاء جميعاً أسأل الله أن يجزيهم خير الجزاء وأن ييسرنا جميعاً لخدمة دينه

عفيف عبد الفتاح طبارة

كتب للمؤلف

- روح الدين الإسلامي — الطبعة الرابعة والثلاثون
- مع الأنبياء في القرآن — الطبعة الرابعة والعشرون
- روح الصلاة في الإسلام — الطبعة الثالثة والعشرون
- الخطايا في نظر الإسلام — الطبعة الثانية عشرة
- اليهود في القرآن — الطبعة الرابعة عشرة
- الحكمة النبوية — الطبعة الرابعة
- تعلم كيف تحج — الطبعة الثانية
- THE SPIRIT OF ISLAM

الترجمة الإنكليزية لكتاب (روح الدين الإسلامي)

صدر عن تفسير (روح القرآن) الأجزاء والسور الآتية:

- تفسير جزء عمّ
- تفسير جزء تبارك
- تفسير جزء قد سمع
- تفسير جزء والذاريات
- تفسير جزء الأحقاف
- تفسير جزء الشورى
- تفسير جزء الزمر
- تفسير جزء يّس
- تفسير جزء الأحزاب
- تفسير جزء العنكبوت
- تفسير جزءي الفرقان والنمل
- تفسير سورة النور
- تفسير جزء الأنبياء
- تفسير سُوَر: الكهف ـ مريم ـ طّه
- تفسير سُوَر: الحِجْر ـ النحل ـ الإسراء
- تفسير سُوَر: يوسف ـ الرعد ـ إبراهيم
- تفسير سورتي يونس وهود
- تفسير سورتي الأنفال والتوبة
- تفسير سورة الأعراف
- تفسير سورة الأنعام
- تفسير سورة المائدة
- تفسير سورة البقرة



هذا التفسير

- يعرض آراء المفسّرين من السّلف الصّالح وآراء المفسّرين في العصر الحاضر.
- يعالج التفسير بطريقة مبسّطة بعيدة عن التطويل المملّ والإيجاز المخلّ.
- ينتقي أرجح الآراء بما يوافق روح القرآن الكريم والسنّة النبويّة وفقه اللغة.
- يبيّن التفسير العلمي لآيات القرآن الكريم ويظهر إعجازه.
- يعرض التفسير بأسلوب سهل وطريقة مستحدثة بحيث يسهل فهمه على الجميع.
- يفسّر المجمل من الآيات بما هو مفصّل في آيات أخرى.

الموزعون الوحيدون:

دار العلم للملايين